مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ البَقَرَة

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة البقرة

أ. د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة البقرة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ ﴾

ابتدأت ثاني سور القرآن الكريم بثلاثة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف من أن يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العظيم. ويدفعه هذا تشوقاً لمتابعة ما بعده من بيان. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فهو عند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، ونؤمن بها، ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر.

ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقر بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع من العلماء كبير: بل يجب أن نتكلم فيها ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم.[٢] فكان غاية جاذبة لهم.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٩)

(٢) المرجع السابق (١/١٠٩)

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[١] وهذا يبين ويُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه لما يُراد تعليمه وإخباره للمُخَاطب، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، ويعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

ثم من فوائد مطلع سورة البقرة أنها بدأت بنفي الريبة والشك عن القرآن الكريم ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لِيَعْقُبَهُ ويتلو هذا النفي اثبات ما تضمنه القرآن من العموم، وهو ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وفي اثبات الهدى بعد نفي الشك والريبة ما يدفع النفس للاستماع إليه. وإذا استمعت له فحتماً سَتُقْبِل عليه، لما فيه من الحقائق ومكارم الأخلاق والخير، وكذلك جمال تراكيب ألفاظه ومعجزات بيانه. إلا من كان في قلبه كِبْرٌ، فلم تُكْتَب له الهداية والتوفيق. ويفيد هذا السياق القرآني الكريم: أهمية إزالة الريبة والشك عن الْمُخَاطب والمتعلم والمدعو ثم يتلوه غرس الحقائق.

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: ونفي الريب عنه، يستلزم ضده، وهو اليقين. فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب. وهذه قاعدة مفيدة، أن النفي المقصود به المدح.[٢] والمدح دليل على الكمال، وتزكية للقرآن من الرحمن الرحيم.

ومن فوائد ذلك أهمية البَدْء بإزالة الشك والريبة والجهل المركب عمن يُراد تعليمهم وتوجيههم وإرشادهم، لتصفوا عُقُوُلُهم وقُلُوُبُهم للخير والحقيقة. وكذلك بيان ما يؤكد لهم أن الداعية والمعلم والناصح والموجه والمرشد أعلم فيما يقوم به من تعليم وارشاد وتوجيه. فالسورة بدأت بما يعجزون عن معرفته

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣١/١)

﴿ الٓمٓ ﴾ ليدركوا أن هذا الكتاب ليس من عند البشر، ولا من عند من أُرْسِل به، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو من عند الله تعالى، عالم الغيب والشهادة.

وتضمنت هذه الآية الكريمة معطيات عظيمة، غاية في الدقة والإعجاز، إذ يقفُ العقل عندها عاجزاً. ففي تعدد أوجه الوقف ما يعطي دلالات متنوعة، وكل وصل فيها يعطي دلالة معينة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ﴾ ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وكل وقف يعطي دلالة وتفسيراً معيناً، يمكن الوقوف عليها في كتب التفسير. وهذا من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، حيث أعطى النص دلالات مترابطة بمجرد تغيير الوقف والابتداء. لتتكامل بها المعاني والمراد. فسبحان من مَلَكَ البيان وأنزله، وتحدى به الثقلين، من إنس وجن.

ومن الفوائد أنه لم يخصص الْهُدى بمجال أو ناحية محددة، أو بخصيصة أو أكثر، بل كانت عامة لجميع المصالح الدنيوية والأخروية.

وقوله تعالى ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ خص به المتقين، لأن الذي يقبله سيهتدي به، فيكون من المتقين، وبالتالي تحصل التقوى لمن استقبله وقَبِلَهٌ، وقَبِلَ ما جاء فيه، ثم استهدى بهديه. فيكون هذا الكتاب هدى للمتقين، الذين يقبلونه ويستهدون بهديه.[١] من عموم العباد بلا استثناء.

ومن الفوائد أيضاً: التفصيل بعد الإجمال. فبعد أن تم ذِكْر المتقين الذين ينتفعون بما أنزل الله تعالى، فَصَّلَ ركائز التقوى، وهي الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى، والإيمان بما أُنْزِلَ على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أُنزل من قبل على الأنبياء السابقين عليهم

---

(١) وقد تكلم عن هذا الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٠٨/١ ــ ١١٣) ابن الجوزي في زاد المسير من علم التفسير (١٨/١- ١٩) وابن سعدي في تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣١/١ - ٣٢)

الصلاة والسلام، ويوقنون بما بعد الموت، وهي: الآخرة. قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾

وللتفصيل بعد الإجمال فوائد جليلة، حيث في الإجمال تشويق لمعرفة مضمون ما أُجْمِل، وليستوعب المُخاطب الأمر جملة، وهو أقصر وأسرع في الفهم والإدراك. ثم يعقبُه التفصيل، وهذا يعطي فائدة جليلة في أساليب التعليم والتدريس بأن يكون البدء بالإجمال ثم التفصيل، لما لذلك من أثر عظيم في التشويق أثناء تقديم العلم والمعرفة للمتعلم، وكذا في مجال الخطابة والدعوة.

وقد تقدم الإيمان بالغيب على غيره، لما في الإيمان بالغيب من آثار على بقية أجزاء الإيمان، وعلى العمل ببقية الأركان. ففي الإيمان بالغيب استسلام معرفي لما غاب عن النظر والسمع. وهو النعمة التي مَنْ مُنحها من الْخَلْق، فقد مُنح ذروة النعم، فما بعدها تبعاً لها، ولا يستعصي على النفس قبولاً لفروع الحق وأجزائه، وإن استعصى عليها كمال العمل بها.

ومن الفوائد أن الله تعالى نسب الرزق له، فقال تعالى ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ ليدرك المرء أن الرزق فضل من الله تعالى، وأن السعي فيه، هو من باب الأخذ بالأسباب، إذ أنه كم من متسبب للرزق لم يجن إلا قليلا، وكم من متسبب جنى خيراً عظيما، بل فاق به سعيه وتَسَبُّبِه، ويؤكد ذلك قوله تعالى في سورة الذاريات ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾

وقال السعدي رحمه الله تعالى: وخص الله تعالى الإيمان بالآخرة بالذكر بعد العموم، لأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل[١] فمن يُوقن باليوم الآخر، يتأهب بما هو مطلوب له.

ثم يخبر الله تعالى بأن ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ فالذين اتصفوا بتلك الصفات، الذين سَمَّاهم الله تعالى بالمتقين، فإنهم ﴿ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ ﴾ على توفيق وإعانة من ربهم لما في كتابه القرآن العظيم الذي يسيرون عليه من الحق، والتحقيق للهداية، بل أضاف

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٤/١)

سبحانه وتعالى هدايتهم إليه عَزَّ وجل ﴿ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ وأضافهم إلى ربوبيتهم ﴿ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ لتدل على العناية والتكريم والمعية الخاصة، والتسديد والتوفيق لمن اتصف بصفة المتقين، من الإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله تعالى. ففي هذا عناية خاصة منه جَلَّ في علاه بهم. وبالتالي فإن أولئك الموصوفون بتلك الأوصاف ﴿ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي: الفائزون بمرادهم من الأجر والثواب في الدنيا والآخرة. وبالإضافة على ما سبق من التكريم.

وقد حصر وقصر سبحانه وتعالى الفلاح فيهم ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي: وليس الفلاح فيمن خالف نهج المتقين. مما يفيد تربوياً: أهمية التشجيع والترغيب والتحضيض لتعليم الخير، وغرسه في الناس، صغاراً وكباراً. وَقد رَغَّبَت الآياتُ فيما هو مطلوب من العبد بالمثوبة الجزيلة، وهي الفلاح ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فأولئك المشار إليهم سابقاً هم المفلحون وليس غيرهم. وهو الفوز بما يُحب ويرغب المُخَاطب، وكذا النجاة مما يخاف ويرهب. كما أن في الإشارة إليهم باسم الإشارة ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ ما يفيد التفخيم لهم. بل ورد اسم الإشارة مرتين: الأولى: قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي: فأولئك المتقون هم الذين على هدى من ربهم. والثانية: قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي: فأولئك المتقون هم الفائزون، وليس من كان على ضد مسلكهم ومنهجهم. وبما يفيد: أن من أراد أن يكون على هدى من ربه، وأراد أن يكون من المفلحين، فعليه أن يكون من المتقين، الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، ومما رزقهم ربهم ينفقون.

فَرَغَّبَت الآياتُ فيما هو مطلوب من العبد بالمثوبة الجزيلة، وهي الفلاح ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ وهو الفوز بما يُحب ويرغب المُخَاطب، وكذا النجاة مما يخاف ويرهب.

ثم بعد أن ذكر الله سُبُل الفلاح والنجاح بما تضمنه الكتاب الكريم، انتقل السياق إلى بيان صفات الكفار.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠﴾

بعد أن أوضح وبين سبحانه وتعالى أوصاف أهل الإيمان والتقوى والعبادة، وفوزهم بالفلاح، ذكر بعدهم حال الكفار الجاحدين المكابرين المعاندين. الذين بلغ بهم العناد والمكابرة أن تَمَنّعُوا عن الإيمان جُحُوداً به واستكباراً، وأصبح الإنذار معهم لا ينفع ولا يُجدي. فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إن الذين جحدوا الحق عناداً واستكباراً لن يؤمنوا، سواء أنذرتهم بالترهيب والتخويف من عذاب الله تعالى، أو تركتهم من غير إنذار. لأن واقع حال كفرهم ثابت بالعناد والاستكبار، وليس عن جهلهم بالحق. بما يعني أن المانع لهم عن الإسلام ليس هو الجهل، بل قد تحقق فيهم العلم واليقين بأن الذي جئتهم به هو الحق من ربهم. ولكن المانع لهم هو الحسد والاستكبار. وبالتالي فإن النتيجة ظاهرة بائنة بظهور سبب امتناعهم.

مما يفيد أن تحليل وتشخيص سبب كفرهم قد أعطى هذه النتيجة. ومن فوائد ذلك أن بعض الناس لا يقبل الحق وهو ظاهر له كالشمس في كبد السماء. فلا ينشغل الداعية به عن غيره، فلا يُشْغِل نفسه بالمتكابر المتعالي عن قبول الحق، بعد أن استبان له الحق وظهر، لأن الله ختم على قلبه وسمعه وبصره، بسبب كبره وإعراضه عن الحق المبين، وهم الكفار المعاندين. وهذا دليل على خطورة الكبر والأنفة عن قبول الحق. فهو الذي يحجب عطاء الله تعالى وكرمه عن العبد.

بل إن الله تعالى قد حجب عنهم الانتفاع بمصادر التعلم، وهي: القلوب التي بها يعقل الإنسان، والسمع الذي يسمع به المسموعات، والبصر الذي يُبصر به الْمُبْصَرَات، فقال عَزَّ وجل ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ فعقاباً لهم على إنكارهم الحق

الذي وقر في قلوبهم، وسمعوه بأسماعهم، وأبصروه ببصائرهم، وعدم قبوله له استكباراً من عند أنفسهم، فإن الله تعالى قد أوقع عقابهم على مصادر العلم والمعرفة والفقه والاهتداء، وهي: أولاً: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ والختم هو الطبع. لتصبح قلوبهم لا تنتفع بما يصلها من الحق. فلا يهتدون إلى حق، ولا يتعظون بما يسمعون من الحق. مما يبين أن القلب هو الجوهر والمركز الذي يحصل به الانتفاع مما يصل إليه من العلم، كما ورد في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صَلُحَت صَلَحَ الجسدُ كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[١] مما يدل على أن القلب هو محطة العلم والفهم والتَّفقه، وهؤلاء لم ينتفعون بقلوبهم، فعاقبهم سبحانه وتعالى بطمس قلوبهم

والعقوبة الثانية التي وقعت على مصادر التلقي، الختم أيضاً على أسماعهم، فقد عطف الله تعالى أسماعهم على قلوبهم بالختم ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ فطبع على أسماعهم كما طبع على قلوبهم، فلا تنتفع بما تسمع من الحق. ثم عطف على ذلك وسيلة التعلم والانتفاع الثالثة: وهي: حاسة البصر. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ فجعل الله تعالى على أبصارهم ما يمنعهم من الانتفاع بالآيات التي يبصرونها، الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان العظيم أن جعل الله تعالى مانع البصر من الانتفاع هو الغشاوة ﴿ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ﴾ لأن الغشاوة بمثابة الغطاء الساتر، فكان هو الأنسب من حيث دقة البيان وبلاغته، بينما جعل الختم على القلب والسمع، وهو الألصق بهما.

وهذا يبين أن ركائز التَّعَلُّم هي: القلب والسمع والبصر. وأن العناية بها عند النظر، وعند السمع، وعند التأمل والتفكر تجعل صاحبها بإذن الله تعالى على خير ما يكون من الاهتداء، والفهم، والاستيعاب، والاستنتاج. وأن من تجاهل ما يسمع، وما يرى، وخالف ما يعقله القلب فقد حاد عن الطريق إلى الغواية التي مآلها إلى الشر في الدنيا والآخرة.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٢) مسلم، صحيح مسلم، برقم (١٥٩٩)

كما بينت الآية الكريمة خطورة الكبر، الذي قد يكون أثره على الأمور العظيمة كعدم قبول الإسلام والإيمان والحق الذي لا ريب فيه، وقد يكون فيما هو دون ذلك، فمن يأنف أن يقبل الحق من مصادر الحق، فإن الله تعالى قد يحجب عنه ما تكبر عنه. فيحجب عنه الإيمان، وطاعة الرحمن. وقد يكون التكبر في أمور الدنيا، كمن يتكبر على الضعيف، لضعف حاله، فقد يُحْوجُه الله تعالى إلى ذلك الضعيف، وقد يوليه عليه يوماً من الأيام، في شأن من شؤن الحياة. مما يوجب أهمية العلم بقيمة ومنزلة التواضع، فإنه الباعث للهدى، والأخذ به، ولعمل بالصالحات، والْمُحَقق للسكينة، والجالب للخير، وقبول الحق والعمل به.

ثم يخبر الله تعالى عن جزاء هؤلاء الذين ختم الله تعالى على قلوبهم، وعلى أسماعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة فقال، عَزَّ وجل ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فإن لهؤلاء الكفرة عذاب متعاظم من كل وجه. وقد يجمع الله تعالى لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. ومن ذلك القتل والأسر في غزوة بدر، وغيرها من الغزوات والسرايا. لأن من دقائق البيان وفوائده أنه لم يُحدده بوقت، ولا بمكان معين ومحدد، ولا بنوع من العذاب، ليشمل بذلك قوة التهديد والتنوع والوعيد الشديد.

بعد بيان الله تعالى للكافرين المستكبرين، وما سينالهم من العقوبة، ينتقل البيان العظيم من الله العزيز الحكيم إلى صنفٍ آخر من الناس، وهم المنافقون، الذين يُظهرون خلاف ما يبطنون من الكفر. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فمن الناس من يُعلن إيمانه بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، باليوم الآخر، ويُظهر شعائر الإسلام، بينما قلوبهم تُنكر ذلك، فإن مقصدهم بهذا العمل النفاقي هو المخادعة والمراوغة ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ والخداع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه.[1] ولا يمكن للمخلوق أن يخدع الله تبارك وتعالى، لأنه لا تخفى عليه خافية، فكل شيء له علانية. وكونهم يُخادعون الله تعالى، فهو مخادعة منهم لدين الله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/٢٥)

وللمؤمنين، بإظهار الإيمان وإخفاء خلافه، وكذلك خداعهم لرسوله صلى الله عليه وسلم. هو خداع في الدين، بإظهار الدين وإبطان الكفر. فشمل الخداع أمرين: الأول: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ والله تبارك وتعالى أعظم من تحصل عليه المخادعة من أي أحد من خلقه، لأنه لا تخفى عليه خافية، فكل شيء له علانية. وكونهم يُخادعون الله تعالى، فهو مخادعة منهم لدين الله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

والمخادعة الأخرى متعلقة بالمؤمنين ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فَيُظهرون للمؤمنين أنهم معهم، وعلى دينهم، ليعرفوا منهم على كل خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وعما يريد ويخطط المسلمون له، حتى يعرفوا أسرارهم. فيطعنوهم في الوقت المناسب لهم. فالمنافق مخادع، يظن بغبائه أنه قد خدع غيره، بينما هو خدع نفسه، لأن الله تعالى يقول عنهم ﴿ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ ﴾ ذكر الإمام القرطبي: أي ما تحل عاقبة الخداع إلا بهم. والخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن. وأما من عرف البواطن، فإن من دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه. ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله تعالى، إذ لو عرفوه، لعرفوا أنه لا يُخْدَع.[1] لأن الله تعالى مطلع عليهم وعلى سرائرهم، وعلى ما يخفيه العبد في قلبه، وما سيُخفيه في مستقبل حياته من مكر وعمل. ومع هذا فإنهم لا يشعرون أنهم بهذا يخدعون أنفسهم، حيث قال تبارك وتعالى ﴿ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فيعتقدون أنهم بهذا المسلك يضحكون على غيرهم بالخداع، بينما هم في الحقيقة يخدعون أنفسهم من غير إحساس ومعرفة منهم بذلك ﴿ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ فلا يشعرون بأن خداعهم عائد إليهم بقدرة القادر سبحانه وتعالى، وبالتالي يتمادون ويتطاولون في خداعهم النفاقي، حتى يُسقطهم الله تعالى في هاوية خداعهم، ومكرهم، وتخطيطهم. وهي من أقبح المسالك، ومن أشد العقوبات أن يسير المرء بين الناس وهو لا يعلم أن الناس يعلمون ما هو عليه من خسيس الفعال

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٣٧)

والاعتقاد والسلوك، فضلاً عن المآل الذي سيكونون عليه، ويوقعهم الله تعالى فيه من الشر الذي لم يكن في حسبانهم، فيكون أشد حُرقة في قلوبهم عليهم، نكالاً من الله عَزَّ وجل بهم.

فيظن أنه مكتسي ومتوقي بالنفاق، ليتجنب معرفة المؤمنين لحقيقته، وهو عُريان السلوك والمنهج، لما يكشفه الله تعالى لرسوله عنهم صلى الله عليه وسلم، ولو بعد حين، أو أن يُسَرِّعُ اللهُ تعالى كشف حقيقتهم. كما قال سبحانه في سورة فاطر ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ فإن المخادعة والمكر يعيدها الله تعالى بقدرته على الماكر المخادع. وذلك من تأديب الله تعالى له، وجزاء وفاقاً، وعقوبة سلوكه ونهجه المبني على الخداع والنفاق، فإن المكر السيء يحيق بصاحبه عقوبة من الله تعالى، العليم الخبير. مما يُعَلِّمِ المؤمن أن يبتعد عن كل أنواعه ومجالاته، ودرجاته.

ثم يقول الله تعالى عنهم ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ فإن في قلوب هؤلاء المنافقين مرض، وهو مرض الشهوات، والشبهات، والفساد؛ من الوهم الكاذب والخادع، والشك والريبة، بُغية أن يحققوا مآربهم، بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر، والجحود والتكذيب. وقد سَمَّاه الله تعالى مرض، وأن موقعه ومركزه القلوب. فقال الله تعالى ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ليتبين أن القلوب هي المركز والمحور، وأنها قد تمرض، وصاحبها متوهم أنه في عافية، وقوة من النشاط، بينما هو في مرض عضال. لأن القلوب هي مركز العلم والمعرفة، والتفكير، والإرادة. وفي هذا تنبيه لكل أحد أن يتفقد قلبه، ويعالجه من كل مرض. وأن العلاج في الأخذ بالقرآن العظيم، ومنهج الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

وإزاء هذا النفاق عاقبهم الله تعالى بالمزيد مما هم فيه من مرض النفاق. فقال الله تعالى ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ فعاقبهم اللهُ عَزَّ وجل بجنس ما هم فيه، ليزدادوا مرضاً على ما هم فيه من مرض النفاق، فلا يجدون طريقاً للحق الذي ينقذهم من عذابه عَزَّ في علاه، وذلك جزاء وفاقاً. وإضافة إلى ما هم فيه من عذاب النفاق فلهم عذاب آخر. حيث قال الله تعالى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ فلأنهم يخادعون فيكذبون في إظهار الإيمان وإبطان الكفر، فإن لهم

عذاب عظيم على هذا الافتراء من الكذب النفاقي. وسَمَّاه الله تعالى كذباً، لأن الكذب هو مخالفة الحقيقة، وبما يفيد أنهم عرفوا الحق، وقد تبين لهم ذلك، ولكن كذبوه، واستخدموا معه أسلوب النفاق. فلهم من الله تعالى عذاب مُتَّصف بشدة الألم الذي يلامس ويخالط قلوبهم وأجسادهم. وفي هذا تحذير وإرشاد لكل منافق بأن يترك نفاقه ويتجه إلى الإيمان الصحيح، ظاهراً وباطناً.

ومن فوائد الآيات الكريمة أنها بينت مرض القلب فإن تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم، وما أُنْزِل عليه، وَرَدِّهم الحق، والتشكيك فيه، قد أمْرَضَ قلوبَهم المريضة، فازدات مرضاً على مرضها. فكان عقاب الله تعالى لهم أن زاد قلوبهم مرضاً. مما يفيد الحذر من الطُرُق والسُبُل التي تفضي إلى تكذيب الحق، وتجر للشبهات، وذلك بأن يعتصم الإنسان بالله تعالى، وبما أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وهما: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. فكما يبتعد بجسمه عن أسباب المرض، ويحفظه من ذلك، فأيضاً عليه الابتعاد بدينه عن كل ما يُمْرِض قلبَه من مرض الشبهات والشهوات، أجارنا الله تعالى منها. وقد حذر الله تعالى من ذلك كثيراً في كتابه الكريم. كما في سورةالصف ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾ وأظهر عَزَّ وجل معيته لمن سلك سبيل الهداية، كما قال تعالى في سورة مريم ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى ﴾ فكلما اهتدى الإنسان زاده الله هدى، فيزيدهم توفيقاً في الدنيا، لتحصيل خير الآخرة.

وكذلك من الفوائد البعد عن الحِيَل في الدين، لاستباحة ما نهى الله تعالى عنه، أو لتفويت ما أمر الله تعالى به. فإن ذلك من مسالك المنافقين. والله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهذا يبين أن الناس أصنافاً في تعاملهم، فمنهم المعاند المكابر، كما قال الله تعالى فيما سبق ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ ومنهم المخادع ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهذان النوعان قد يكونا على مستوى الإيمان والإسلام، أو على ما هو أقل من ذلك. من خلال ساحة التعامل بين الناس. فهناك المعاند وهناك المُلاين الذي يُشعر غيره بالقبول والموافقة، وهو يُبطن خلاف ما أظهر. وكلاهما من مساوئ الأخلاق وأرذلها. وعقاب الله لهؤلاء المكابرين

الرافضين للحق دنيوي وأخروي، كما قال تعالى ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وفي هذا وعظ كريم من الله تعالى بالبيان والكشف عن حقائق أهل الزيغ والضلال، وتحذير للعباد من ذلك.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾

ثم يبين الله عَزَّ وجل حال المنافقين في أفهامهم وتفهمهم للفساد والحق، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ فإذا نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عما هم عليه من الكفر والنفاق ادَّعَوا وزعموا أنهم أهل الصلاح فيما يقومون به من أعمال النفاق، وما يترتب عليه من الفساد. فيرون فسادهم النفاقي صلاحاً، وذلك زعماً وافتراءً من عند أنفسهم. مما يبين أن الفاسد يبرر لنفسه ما يدفع به لوم النفس، ليجبرها على أنه في مسار الحق يسير.

فيرد الله تعالى على فهمهم الباطل من فوق سبع سماوات ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ فإنهم هم المفسدون الفاسدون بفسادهم، ولكنهم لا يشعرون بذلك، لاستيلاء الكفر والكبر والحقد عليهم، فيرون أن ما يقومون به هو الصواب والصلاح.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن المكابر لا يتأمل ما يُنَاقَش ويُحَاوَر فيه، بل يفكر في كيفية الرد على من يناقشه، فبمجرد أن قيل لهم ﴿ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بسبب ما يحصلُ منهم من العمل النفاقي، كالكفر، والمعاصي، وكشف أسرار المؤمنين للعدو. قالوا زوراً وبهتاناً ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ وذلك بإضفاء الصلاح على باطلهم الذي يقومون به. بل حصروا أعمالهم ومنهجهم

في الصلاح الذي لا يخالطه فساد. فقد أوضح تبارك وتعالى مقولتهم بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ التي حصروا وقصروا بها منهجهم أنه كائن في الصلاح فقط.

ومن فوائد ذلك أن المنافق والمكابر لا يعترف بسوء عمله، بل يبرره بما يتوهم أن غيره يقتنع به. وهو لا يشعر أن غيره مُدرك لفساده وإفساده. فهو يتبختر بباطله، ويعتقد أن غيره غير مُكتشف لنفاقه، في حين أن فساده مكشوف ومتعري للصالحين. ويفيد تحليل هذا الموقف أن الخلل الفكري والاعتقادي يؤدي إلى اختلال التصور والرؤية والمبادئ والقواعد الصحيحة، ثم يتبع ذلك الأحكام الجائرة وغير السوية.

ومن فوائد ذلك أن من صفات المُصلح المحب للصلاح: الاستماع والإنصات، والتأمل والتدبر، حتى يقف على الراجح والأصلح والحق، ليعمل به. فالمؤمن لا يكابر على الصلاح، بل ينقاد له. لعلمه أن الفساد منافي للصلاح. وسواء كان هذا الفساد في الإيمان أو العبادات أو الأخلاق، أو في دائرة التعامل الاجتماعي والمهني والأسري. فهو لا ينقاد للفساد، بل يتجنبه من خلال الانقياد للحق، من دون مكابرة في ذلك. مما يبين خطورة الكبر، ومسلك النفاق، فإنه مدمر لصاحبه في جميع الشؤون.

وكذلك المكابر والمنافق يرمي ويصف صلاح غيره بالجهل والسفه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فأطلقوا على المؤمنين الصالحين المصلحين صفة السفه، والسفيه هو خفيف العقل، الذي لا يُحسن التصرف والتدبير. بل مِنْ كبرهم أنهم يقولون ذلك بصيغة السؤال الاستنكاري. ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فهل تريدون منا أن نؤمن كما آمن السفهاء؟ سؤال استنكار، يقررون به فهمهم العقيم، وتصورهم للمؤمنين. فانقلبت الموازين والمقاييس لديهم، حتى ثبت في قلوبهم وعقولهم أنهم الصالحون، وأن المؤمنين هم السفهاء المفسدون. وهذا يُفيد أن من انطمس قلبه وعقله فإنه يرى فساده صلاحاً وتقدماً، بمسوغات خادعة كاذبة. وكذلك يفيد هذا في أهمية التبصر والحلم في المناقشات، لاستيعاب ما يقوله الغير، والبُعد عن مسلك المنافقين والمكابرين في أخلاقهم.

وقد يصف المكابر والمعاند صواب غيره بالسفه والجهل والفساد، وهو لا يشعر بفساد نفسه وفكره، نتيجة استحواذ كبره وكفره عليه. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا هو الجهل المركب من حقيقتين: الأولى: أن شأنه على خطأ من الكفر أو ما دون ذلك. والحقية الثانية هو: اعتقاده أنه على صواب من أمره. فلحق وعضد جهل الممارسة الجهل بأنه على حق وصواب من الأمر، وبالتالي لا يستقبل رأي غيره، ولا يتأمله ويفكر فيه.

وقد رد الله تعالى عليهم بأنهم هم السفهاء حقيقة ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ فوصفهم بالسفهاء حقيقة، وأيضاً بأنهم لا يعلمون عن أنفسهم من أنهم سفهاء ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ وقد ألصق سبحانه وتعالى السفه بهم حقيقة، بأنهم هم السفهاء حقيقة لا من نعتوهم زوراً وبهتاناً ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ واستهل بيان وصفهم بحرف التنبيه ﴿أَلَآ ﴾ الذي ينبه إلى أنهم هم السفهاء حقيقة، وليس أهل الايمان كما يَدَّعون جَوراً وزوراً.

وأما ما يخص خداعهم وإفسادهم فلم يقل تبارك وتعالى عنهم لا يعلمون، بل وصفهم بعدم الشعور بما هم عليه من السفه الذي خدعوا به أنفسهم، فنفى الشعور عنهم بما هم عليه من الخداع دليل على عمق التحول من درجة الجهل إلى درجة عدم الشعور بأنهم في جهل، وأن شر هذا النفاق عائد عليهم ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ وبقوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ وهذه من دقائق الصياغة البيانية للقرآن الكريم، الدالة دلالة حقيقية على عمق الوصف والموصوف به، وذلك للفارق الدقيق بين عدم الشعور، وعدم العلم، لأن السفه خفة العقل، وعدم القدرة على التدبير والتصرف، وبالتالي فإن أدق وصف لتصرفات صاحبه هو عدم العلم، لفقدانه موجبه وهو التعقل. فتصرفاتهم شبيهة بتصرفات الفاقد لعقل الرشد الذي يمنعه من الإيمان وذلك لسفهه.

وهذا لا يعني أنهم فاقدين لعقل الإدراك المُوجِب للتكليف والمسؤولية، كما في قوله تعالى في سورة الملك ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ففقدانهم متعلقٌ بفقدان

عقل الرشد، وليس لعقل الإدراك الْمُوجِب للتكليف. وأما الشعور فهو العلم المرتبط بدرجات الإدراك، وهو الإحساس، فلا يحسون ويفطنون لوبال خداعهم وفسادهم، فهم فاقدون الإحساس بأنهم يخدعون من يعرف خداعهم النفاقي، وهم فاقدون الإحساس بأنهم مفسدون. فيتمادون في الخداع والإفساد، وهم مكشوفون في خداعهم وفسادهم، ولكن لا يشعرون بذلك. وهذا من أفسد حالات المرء والعياذ بالله تعالى من أن يموت لديه الاستشعار والإحساس بفساده وخداعه، فَيُفْسِد ويخادع، وهو معتقد أنه الذكي الفطن، وهو مكشوف لغيره بما هو عليه من خداع وفساد، غير أنه لا يشعر بحالة خداعه وفساده. مما يُعَلِّم الإنسان كيف يكون عاقلاً متدبراً، وحذراً من خداع الشيطان، والغرور المغيت.

ومن عمق عدم شعورهم بما هم عليه من السفه فإنهم يقولون بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ هل نصدق ونعتقد بما يعتقده السفهاء من أهل الإيمان على حد زعمهم؟ سؤال استنكار واستهجان. مما يبين أن الأمر قد وصل وتجاوز بهم التكذيب إلى درجة أنهم يصفون أهل الإيمان بأنهم هم السفهاء، وأن ما هم عليه من الإيمان والحق هو مِن ضُرُوب السفه الظاهر البائن. بل ورد السياق بأسلوب الترفع والتعالى، وبأسلوب السؤال الاستنكاري ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ هل يعقل أن نؤمن ونعتقد بما يعتقده أهل الإيمان؟ وقد وصفوهم بالسفهاء، وأن ما هم عليه من الحق هو السفه. بما يفيد المبالغة منهم في الوصف إلى أعلى درجات الذم والتحقير، وترفعهم بأنفسهم إلى أعلى درجات الغرور. ليكشف الله تعالى بها عُمق انحدارهم حتى بالغوا في الحكم على الحق بالباطل، والحكم للباطل بالحق. مما يبين أن السفيه يصف الحق بالباطل، ويصف الباطل بالحق الواضح المبين.

وإذا كان المنافقون والمعاندون يصفون المؤمنين بالسفهاء ﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ فلا غرابة أن يُوصَفَ الحق والخير والصلاح وأهله بمثل ذلك، عبر العصور والأزمان، وذلك من قِبَلِ المكذبين والحاقدين وغيرهم. وبالتالي فليوطِّن المؤمنُ نفسه على سماع ما يكره من أعداء الدين، ويُحكِمُ التعامل معهم بالحكمة، وكذلك توطين النفس عند سماع أصوات الباطل، وهي تهاجم الفضيلة، وليتعامل معها بالحكمة. لأن هذه طبائع الاختلاف البشري، في الخير والشر. فالله قادر على أن

يقابل نفاقهم وكفرهم بالهلاك، ولكن حكمته وحلمه تبارك وتعالى اقتضت أن تسير سننه في خلقه على نهج حلمه وحكمته سبحانه وتعالى.

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

ثم يبين السياق القرآني العظيم شكل وصورة حال نفاق المنافقين، من أنهم إذا التقوا بالمؤمنين زعموا لهم بأنهم مؤمنون مثلهم ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ وإذا كانوا مع رؤسائهم والكفرة من أعداء الدين قالوا غير ذلك ﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ فهم إذا عادوا إلى شياطينهم وخلوا بهم، تبرؤا من المؤمنين، وأثبتوا ولاءهم لشياطينهم، وهم رؤساؤهم. وقيل شياطين الجن، وقيل الكهان، ولكن لفظ الشيطنة الذي معناه البعد عن الإيمان والخير، يعم جميع من ذُكر. والله أعلم[١] وهذا من دقائق البلاغة القرآنية، أن تستوعب اللفظة الواحدة مجموعة من الدلالات المرادة، فاستوعبت دلالة ﴿ شَيَـٰطِينِهِمْ ﴾ جميع

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٤٥)

الْشُخُوص الذين يمثلون فعل الشياطين، فسبحان من أبهر وأعجز بكتابه خلقه. ومن الدقة البلاغية في القرآن الكريم أنه وَصَفَ اجتماعهم بالمؤمنين لقاء، وبشياطينهم خلوة ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: التقوا بهم، فهو يفيد الوضوح والعلانية. بينما مع شياطينهم أسماه اختلاء ﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ ﴾ والخلوة تعطي معنى ودلالة التستر والتكتم. مما يدل على وضوح أمر المؤمنين، فليس لديهم خلوات مكايده، فلقاؤهم بهم علانية. وأما ملاقاتهم لشياطينهم، فإنه يكون في خلوة من أن يكون معهم أو يراهم أحدٌ من المؤمنين، وهذه صورة واضحة لعملية النفاق، ودقة البلاغة البيانية للقرآن في التوضيح الذي يدل على إعجازه البياني، وأنه كلام الله تعالى، الواضح والدقيق، والمبين.

ومن معطيات هذه الآيات الكريمات، أن منهج المنافقين في التعامل مبني على قاعدة كلية لديهم، وهي موافقة المؤمنين في الظاهر، ومخالفتهم ومعاداتهم في الباطن، والوقوف مع أعداء المؤمنين في الخفاء. وهذا يقتضي الحيطة والحذر ممن سلوكهم نفاقي، لأنه مهما بدر من صور الموافقة منهم، فهو لا يخرج عن دائرة الخداع. فمن يخادع الله تعالى فإنه لمخادعة من دونه أقوى وأظهر تحققاً. وفي هذا تعليم للمؤمنين بطرائق المخادعين، ومنهجية التعامل معهم.

وهذا المسلك هو مسلك شيطاني، فقد قال الله تعالى عنهم ﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ ﴾ فقد وصفهم الله تعالى بما تخلقوا به من الأخلاق الشيطانية التي تحمل النوايا والإعمال التي تُوقِع الغير في الشر. مما يُفيد أن الإنسان يوصف بما يتخلق به، وصار طبعاً ومنهجاً له، فقد وصف اللهُ عَزَّ وجل من يلجؤون إليهم بالشياطين، لأن مسلكهم مسلك شيطاني. وهذا البيان من الله تعالى كشفٌ لحقيقتهم، حتى يعرف المؤمنون الحقيقة جلية واضحة، فيحذروا ممن مسلكهم مسلكٌ نفاقي، وكذلك ليبتعد المؤمن عن هذا السلوك الشيطاني، كما جاء التحذير في الحديث، عن ذي الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، ويأتي هؤلاء بوجه، حيث قال صلى الله عليه وسلم (وتجدون

من شر الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه)[١] وهو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها، معتقداً أنه يفوز ويربح بالفائز والمنتصر منهم.

ومن الفوائد أن التبرير والتعليل يظل مع كل انحراف، ليبرر صاحبُ الضلال لنفسه ولغيره ما هو عليه من فساد وضلال ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ فحين يختلون بأعوانهم وشركائهم في الشر، يقولون نحن معكم، وقد كنا مع المؤمنين من باب الاستهزاء والسخرية. فَوَصَفَ وبَرَّرَ المنافقون لشياطينهم، أن تعاملهم مع المؤمنين هو من باب السخرية والاستهزاء، وإنما هم مع شياطينهم في الموالاة والنصرة والتحزب. ولكن الله تعالى يعلم حالهم، ولا يستعجل عليهم بالعذاب والجزاء، لأن الله تبارك وتعالى حليم، فيمدهم في طغيانهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما قال قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي: أن الله عَزَّ في علاه ينتقم منهم، ويعاقبهم ويسخر بهم، ويجازيهم على استهزائهم، فسمى العقوبة باسم الذنب. وهذا قول الجمهور من العلماء.[٢] مما يبين عظيم حِلم الله تعالى، وأنه يَمُدَّ للظالم حتى إذا أخذه يأخذه أخذاً قاهراً له.

وهذا يُعَلِّم المسلم الحذر وعدم الاغترار بإمداد الله تعالى للطاغية في طغيانه. كما قال تعالى في سورة آل عمران ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ وكذا الحذر في باب المعاصي من عذاب الله تعالى، ولا يغتر بإمهال الله تعالى في المعصية للعاصي، أو أن يتابع ويجاري العاصي في معصيته، لما يرى من عدم استعجال الله تعالى له في العقوبة، فإن الله تعالى حليم، ولكن أخذُهُ أَخْذَ عزيز مقتدر. فالمؤمن لا يتأثر بتأخر العقوبة عن الظالم والعاصي. وإمهال الله تعالى للعاصي.

---

(١) البخاري (٥٠٣/٢) برقم (٣٤٩٤)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٥/١)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان وصفهم وحالهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ فهؤلاء استأثروا بالضلالة على الهدى، ودفعوا الْهُدَى ثمناً للضلالة. ومن جمال دقة الوصف لمسلك المنافقين، أن وصف الله تعالى صنيعهم بشراء الضلالة، وجعلوا ثمن الشراء هو الْهُدَى. فأي غُبْنٍ بعد هذا الغبن؟ وأي سفه بعد هذا السفه؟ والشراء يقتضي دفع الثمن، ودفع الثمن لا يكون إلا فيما يُحب الإنسان. ويكون المدفوع أو المُستَبدل أرخص وأقل قيمة عند المشتري. وفي هذا بيان لمقدار الخسارة الْمُهْلِكَة في دار الدنيا والآخرة.

ثم بين الله تعالى نتيجة هذه التجارة، فقال عَزَّ وجل ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾ فإنها تجارة خاسرة، لأنهم لم يكونوا في صنيعهم هذا على هداية تُمَكِّنُهم من شراء الإيمان. وبالمقابلة يكون أهل الإيمان هم الرابحون في تجارتهم مع الله تعالى. وجاء التنويه عنها باسم التجارة. لأن التجارة هي أعظم أعمال الإنسان، وهي التي يكدح من أجلها. فما ربح هؤلاء في بيعهم الإيمان، ودفعه ثمناً لتحصيل الكفر. فإنها تجارة خاسرة بكل تأكيد. وهذا يفيد أهمية الوصف ودقته في البيان الموضح للمقصود، وللحقائق في التعليم والتوجيه والإرشاد، وكذلك أهمية التصوير الدقيق، مع اختيار المعاني المعبرة تعبيراً تصويرياً دقيقاً. كما أن هؤلاء قد فاتتهم الهداية ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ فلم يكونوا بمسلكهم وتصرفهم هذا من أهل الهداية. فإنه لا يتصرف هذا التصرف شخص مُهتدي بالحق. فإن مسلكهم نقيض الهداية وهي الضلالة. فنعوذ بالله تعالى من الضلال ونسأله الهداية والتوفيق والثبات.

ثم ضرب الله تعالى بحال المنافقين مثلاً ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ فَضَرَبَ اللهُ تعالى بحال المنافقين مثلاً، ليعتبر كل من يريد الحق والْهُدَى. وذلك أن ضرب المثل من وسائل توصيل العلم والفهم بالتصوير التقريري، الذي يقرر الشيء والحال بما يوضحه توضيحاً بيناً. قال البيضاوي رحمه الله

تعالى: فإنه أوقع للقلب، وأقمع للخصم[١] فالمثل يُقَرِّب هيئة الحال بالشبيه تماماً، حتى يُوصل دلالته لِلْمُخَاطب بأيسر ما يكون، وأوقع في القلب، وأقمع في الرد.

فمثل المنافقين الذين كانوا في ظلمة الكفر، كمثل الذي كان في ظلمة شديدة، فاستوقد ناراً يطلبها، ليبدد بنورها ظلمة الليل التي هو فيها. ثم يجد ما يتمناه، وهو دين الله تعالى الذي يتبدد به ظلمة الكفر في المعتقد والعبادة والأخلاق وسائر أمور الحياة. فانتفعوا بدين الله تعالى كما انتفعوا بنور النار، وعرفوا حقيقة هذا الدين بنوره كما عرفوا حقيقة النار بنورها، فاستحوذت عليهم شهواتهم وشُبهاتهم، واستبدلوا الإيمان بالنفاق. فذهب اللهُ بنوره عنهم، كما ينطفئ نور النار التي كانوا يُورُونَهَا.

فَحَلَّ عليهم ظلمة الكفر. فأصبح وصف حالهم هو ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ فأصبحوا مع ظلمة المكان والذي يُمَثِّل ظلمت الكفر، لا يبصرون شيئاً، ومع هذا بُكْمٌ لا ينطقون ليسمعهم أحدٌ، وبالتالي لا يستطيعون الرجوع إلى ما كانوا عليه قبل ذلك من مكان ومن إيمان، فهؤلاء المنافقون في استبدالهم الإيمان بالكفر والنفاق، ومحبتهم للكفر ولشياطين الكفر، فإن حالهم كحال هؤلاء المضروب بهم المثل.

وكلمة استوقد في قوله تعالى ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا ﴾ بمعنى أوقد بالإشعال ناراً مضيئة من أجل تبديد ظلمة الليل التي هو فيها. والذي استوقد جاء مفرداً، بينما ورد ذهاب النور بصيغة الجمع ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ ﴾ والعلة كما ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن المستوقد كان واحداً من جماعة، تولى الإيقاد لهم، فلما ذهب الضوء رجع عليهم جميعاً.[٢] مما يبين ويُظهر أثر عمل الفرد على المجموعة والجماعة. وهذا أفصح وأبلغ في البيان، حتى في النظام والتنظيم، فجاء اللفظ القرآني في أدق ما يكون من الإفصاح والبيان المتوافق مع دقة الحال.

ومن دقائق دلالات المعاني ما ذكره الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ ﴾ أي أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور. وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق

---

(١) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/٣٠)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٤٨)

والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق. ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ لا يهتدون إلى سبيل خيرٍ، ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون خيراً ﴿بُكْمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمْىٌ﴾ في ضلالة وعماية البصيرة.[١] وكذلك ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يرجعون إلى إلى الهدى، فلا يتوبون من نفاقهم، بل باقون على إصرارهم النفاقي.

ويستفاد من ذلك أن المؤمن الذي عرف نور الإيمان يلزمه الإفادة من ضرب هذا المثل، بأن يحفظ نور الإسلام في قلبه وعمله وجوارحه، بالعبادة والطاعة، والبعد عن أسباب ضعف الإيمان وزواله، حتى لا يفقده كما فقده المنافق المكابر، فإن انطفاء نور الإيمان كانطفاء نور النار. فَتَخَطّفُهُ الشياطين، المتعددة الأوصاف، والمتغيرون في أساليب ضلالهم وطرائقهم، وكذلك الحذرُ من العجب بالنفس الذي يقود للكبر، ومن ذلك عدم انتقاص الناس من المؤمنين في إيمانهم وعبادتهم، والتهكم بجهل الجاهل منهم، بل يلزم الحمد على ما هو عليه، والنصح لهم وإرشادهم وتعليمهم دون تنقص وازدراء. وكذلك عدم التعالي على الغير بما أُعْطِيَ من الإيمان والعبادة، أو غيرها مما زوده الله تعالى به. اعتقاداً أنه هو الذي منح نفسه وثبتها على ما هو عليه من الخير. وكذلك الحذر من استبدال النعمة بالمعاصي التي توجب غضب الله تعالى.

ثم يضرب الله تعالى مثلاً عن المنافق الذي يكره سماع صوت الحق وآيات الله تعالى ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فمثلهم في الإعراض عن آيات الله تعالى وسماع صوت الحق، كمثل الذي أصابه مطر في ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر، وصوت الرعد، وبريق البرق. فَيَهُولُه ذلك. وكذلك إذا سمع آيات الله تعالى يهوله ذلك. كالذي يضع أصابعه في أذنيه، خائفاً من الموت.[٢] ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا يفوته أحد منهم، فهو جامعهم يوم القيامة،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٦/١)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤١/١)

والإحاطة قد تكون بمعنى الإهلاك ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [(١)] وكذلك بمعنى القدرة في الاستحواذ عليهم من كل جهة، فلا يفلتون منه أبداً. وكذلك الإحاطة تكون بالعلم والعقوبة، وبما يشاء سبحانه وتعالى. ويتبين من هذا دقة وصف حالهم من سماع الحق ونوره، وما فيه من الوعد والوعيد، فيشعرون به كالرعد المخيف، لما عندهم من الكفر الذي يتوعد الله تعالى به الكافرين.

ومن دقائق البيان في التهديد والوعيد أن خصهم الله تعالى بالإحاطة ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بالرغم من أن إحاطة الله تعالى كائنة بجميع خلقه من غير استثناء، ولكن تخصيصهم هو تخصيص وعيد وترهيب وتهويل لهم. مما يبين أن التخصيص في أساليب القرآن الكريم هو لتحقيق غايات ومقاصد معينة، بحسب السياق والموضوع.

وهذا يفيد أيضاً العلم والاستشعار لنعمة الإيمان ونعمة البصر والسمع، وغيرها من النعم التي تحتاج من يحافظ عليها، حتى لا تُسْلَب، فيفقدها من كان في نعمة منها. وذلك باستخدامها فيما خُلِقت من أجله. وليس المقصود فقدانها حسياً، بل فقدانها بتجاهلها للحق والإعراض عنه، كما قال تعالى في سورة محمد ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ وقال تعالىفي سورة النحل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ وقال تعالى في سورة الأنعام ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ولذلك يجاهد المؤمن نفسه على الاستقامة، ويسأل الله تعالى الثبات، فعن أم سلمة رضي الله عنها تقول: كان أكثر دعائه صلى الله عليه وسلم (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[(٢)] فبالرغم من أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه كثير الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى في الثبات والتثبيت على الحق. مما يبين حاجة كل أحد إلى ذلك. فإنه لا حول ولا قوة لأحد إلا بالله عَزَّ في علاه.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٥/١)

(٢) الترمذي، الجامع الصحيح (٥٠٣/٥) برقم (٣٥٢٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا
لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ
عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣
فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ
كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ
وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني العظيم إلى نداء من الله تعالى للناس جميعاً، بأن يعبدوه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ فبدأت الآية العظيمة بخطاب الله تعالى للناس جميعاً، وهذا الخطاب بصيغة النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ والتي تحمل في دلالتها لفت الانتباه لأمر عظيم، وهو عبادته سبحانه وتعالى ﴿ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته وجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة جنس الإنسان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. فأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ يسترعي ويستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ثم بعد النداء للناس جميعاً أعقبه الأمر بفعل الأمر ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: اتجهوا بالعبادة إلى ربكم عَزَّ وجل. وفعل الأمر يفيد أنه للوجوب، وأنه لا يسع أحد من الناس إلا توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة كما شرع ربنا على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. لأن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، مما شرعه وأمر به عَزَّ في علاه. والمتلقي لذلك، والمبلغ بها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن الأساليب التعليل بعد الأمر. إذ أمر الله تعالى كافة الناس بعبادته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وبين علة أحقيته في أن يُعْبَد دون سواه،و ذلك بأنه الذي رباكم بنعمه، وكذلك الذي خلقكم من العدم. بل اقترن الأمر بالتعليل في الربوبية، حيث قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ بحيث لو وقف القارئ عند لفظ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ لما اكتمل مفهوم الأمر إلا بلفظ ربكم.

ثم أظهر الله تعالى علة وسبب التوجه له بالعبادة وحده دون غيره. فقال عَزَّ وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ اعبدوا ربكم الذي أنشأكم من العدم ابتداء، فخلق آدم من تراب، ثم تناسل الناس من ماء مهين. فاستوجب ذلك بأن لا تُصرف العبادة إلا له وحده عَزَّ في علاه. ثم أكد وأظهر ذلك الإنشاء منذ ابتداء خَلَق مَن سبق من الآدميين، فقال الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: ربكم هو الذي خلقكم، وخلق من كان قبلكم من الأمم والأجيال السابقة. فلفت الانتباه لأنفسهم، وكذلك لمن كان قبلهم. ليظهر للعباد عظيم خلق الله تعالى، وعظيم قدرته في تناسلهم، منذ أن خلق آدم عليه السلام، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، بقيام الساعة.

وكذلك تضمنت الآية الكريمة بيان الهدف: بأن الغاية والمقصد مرتبط بمصلحتكم أيها الناس ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ رجاء أن تحصل منكم التقوى التي تدخلون بها الجنة. لأن من حصلت له

التقوى فاز بالدارين. كما قال تعالى في سورة النبأ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ وهم الذين يخافون الله تعالى، ويرجون رحمته، فيبتعدون عن المعصية، ويسارعون للطاعة والامتثال، وإذا اقترفوا ذنباً سارعوا للتوبة والمغفرة. وهم الذين امتلأت قلوبهم بالتقوى، فلا يراقب أحدهم إلا الله تبارك وتعالى، حتى وإن لم يشاهده أحد من الخلق، فإن رقيبه هو الله جَلَّ جلاله وليس العباد. بما يدل على كمال الذل والطاعة والخوف من الله تعالى. فالمتقين هم أصحاب القلوب الممتلئة بالخوف من الرحمن أينما حلوا وكانوا، وفي أي شيء كانوا، فهم يهابون ويخافون ربهم عَزَّ وجل أينما كانوا وحيثما حلوا وارتحلوا، وإن لم يراهم أحد من الخلق.

وفي هذا فائدة تربوية وتعليمية ودعوية بأهمية بيان ما يعود على الإنسان من الخير والمصلحة فيما يتعلمه أو يُطْلَبُ منه أن يقوم به، حتى يكون ذلك محفزاً له. لأن النفس تواقة للمنافع التي تحصل عليها. وقد تضمنت التعليلات سبع حيثيات، وهي:

الأولى: أنه ﴿رَبَّكُمُ﴾ أي الذي رباكم بِنعمه. **والثانية:** أنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أي أوجدكم من العدم. **والثالثة:** أنه خلق أيضاً الذين من قبلكم، فأوجدهم من العدم ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ **والرابعة:** جعل وصَيَّر الأرض لكم وطاءً تفترشونها وتجلسون عليها، وتنامون وتمشون فوقها ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ **والخامسة:** وجعل السماء مبنية كقبة فوقكم ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ وسُمِّيت السماء سماء لعلوها. قال الزجاج رحمه الله تعالى: كل ما علا على الأرض فاسمه بناء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البناء هاهنا بمعنى السقف[١] **والسادسة:** أنزل الغيث الذي به حياة الأرض، وإنبات الزرع الذي يطعمه الإنسان والحيوان والدواب ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ **والسابعة:** جعل الثمار رزقاً لكم ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ وبالرغم من مشاركة الحيوان والدواب للإنسان في أكل ما تُنبتُه الأرض، إلا أنه خص الإنسان، باعتباره هو المعني بذلك، وغيره تبعاً له من المخلوقات التي تأكل من نبات الأرض، لأن الله عناه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٨/١)

بالتسخير، كما قال تعالى في سورة لقمان ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فهذه سبع مُوجِبَات تُوجِب عليكم عبادة الله وحده لا شريك له. وجميعها نِعَمٌ عظيمة جليلة، ومبهرة في عظمتها، ومذهلة لمن فكر فيها. فمن تأمل في خِلْقَتِه ومكوناته الجسمية أذهلته نفسه، في بصره وسمعه وعقله وإدراكه وحركة أعضائه، وغيرها من عظيم صنعته تبارك وتعالى، وإن تأمل في تتابع السابقين جيلاً بعد جيل، أذهله هذا التتابع العجيب الذي لا ينقطع إلا حينما يشاء الله تعالى. وإن تأمل في بسط الأرض وافتراشها وفِجَاجها وسُبُلِها بين الجبال، وما أودع فيها من ممرات وشِعاب لينحدر الماء بينها إلى وجهته تجاه البحار أذهله ذلك. وإن تأمل السماء وما يجري من سحاب، وما ينزل منه من أمطار، أدرك عظيم هذا الخالق الذي لا يستحق العبودية إلا إياه. وإن تأمل العلاقة بين الماء الذي ينزل وبين خروج النبات أعجزه هذا التأمل الذي يؤكد أن الله تعالى هو الخالق، وهو الذي لا يستحق العبادة إلا هو. وإن تأمل تنوع النبات في أطواله وتنوع أحجامه وأشكاله وجماله، واختلاف ثماره في أشكالها وأحجامها ومذاقها، أذهله ذلك، بل لو تأمل أشكال ثمرة واحدة لثار فكره وقلبه للإيمان، ولسانه شكراً وثناء، وجوارحه طاعة لله تعالى.

ثم بعد هذا التعليل الواضح المبهر، الذي يلفت الانتباه إلى عظيم خَلْقِهِ تبارك وتعالى، يأمر اللهُ تعالى الإنسان بأن لا يجعل له نِدّاً مماثلاً، فيصرف له شيئاً من العبادة، التي يجب ألا تصرف إلا له تبارك وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فلا تجعلوا لربكم نظراء في العبادة، ولا أشباه في التدبير، ولا في الأسماء، ولا في الصفات، وأنتم قد علمتم تَفَرُّده بالخلق والتدبير، وقد قامت عليكم الحجة.

وبعد هذا التعليل الإقناعي الذي قرر به عبوديته سبحانه وتعالى، وأزال به كل جهل وعائق له، يتدرج الخطاب الرباني إلى ما أُنْزِل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن الكريم. وذلك لإزالة ما يعيق الاستماع إليه وقبوله وفهمه. فقال تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

ففي الآية الكريمة مخاطبة لمن في قلبه ريب وشك في القرآن الكريم، بأن يأتوا بسورة من مثله، وهم الفصحاء والبلغاء في العربية شعراً ونثراً، ولهم أن يستعينوا بمن يشاؤون من أعوانهم وأنصارهم. وليشهدوا لهم إن كانوا صادقين فيما يقولون ويدَّعون. قال تعالى ﴿ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ ومن الفوائد للفظية أن ﴿ شُهَدَآءَكُم ﴾ بمعنى أعوانكم. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وأيضاً بمعنى: أي شركاءكم. أي استعينوا بآلهتكم[١] وجميع تلك المعاني تتوافق ولا تتعارض، وهذا من الغزارة البلاغية للقرآن الكريم. وفيه تحدي لهم، بما يُثبت أن هذا القرآن الكريم وحي من الله تعالى. إذ لا تستطيع المخاليق أن تاتي بمثله أو تدعي بأن أحداً يستطيع ذلك.

فإن كانوا صادقين أن الذي يمنعهم هو الشك فليأتوا بسورة من مثله، ليزول الشك والريبة فيؤمنوا. وأما إن كان المانع هو الكبر فذاك أنهم عرفوا الحقيقة وانكشفت لهم، غير أن عناد المكابر هو المانع له من قَبُول الحق بسبب الاستكبار. وهذا يفيد أن موانع القبول الاعتقادي والتعبدي والتعليمي والدعوي إما أن يكون عنادَ استكبار، أو لجهل، وما يتعلق به من الريبة في صحة المعلومة، أو الجهل البسيط، أو الجهل المركب. وبالتالي احتاج المربي والداعية أن ينظر في موانعه. هل هو جهلٌ وعجزٌ أو عناد كبر، حتى يتعامل معه بما يناسبه.

ومن فوائد هذا البيان الرباني: أهمية إزالة الشك وهو الريب من ذهن المتلقي، وتوقع احتمال وجوده عند المدعو، ليقوم الداعية بإزالة ما يمكن أن يكون من شك أو ريب. وهذا يؤكد أهمية العلم لمن يتصدر للتعليم والدعوة. وأهمية معرفة حال المدعو، حتى يعالج شأنه بما يناسب حاله.

ومن الفوائد: أن التحدي تضمن زمنين ليس لهما ثالث، وهو الحاضر ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ ﴾ والمستقبل ﴿ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾ فهذا التحدي دليلٌ قاطعُ من أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾ ففيه بيان أنهم لن يستطيعوا حاضراً ولا مستقبلاً. قال ابن

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٢/١)

كثير: ولن لنفي التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه أيضاً معجزة أخرى. وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدماً: بأن هذا القرآن لا يُعَارَض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين.(١) وقد تحداهم في مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له، وبغضهم لدينه. ومع هذا عجزوا عن ذلك، ولهذا قال تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾(٢)وفي هذا التعجيز غاية الحجة بأن هذا القرآن ليس إلا من عند الله سبحانه وتعالى.

ثم بعد هذا التحدي جاء الإنذار بالعاقبة. ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ فإن لم يحصل منكم فيما طُلِب منكم بأن تأتوا بمثله. ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ ولن تستطيعوا ذلك فيما هو حاضر ولا مستقبلاً، مهما تعاقبت الأجيال، فالنتيجة التي تلزمكم هي: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ فاجعلوا بينكم وبين النار وقاية بالإيمان والاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم. ثم من رحمته سبحانه وتعالى أظهر لهم عظمة هذه النار، حتى يعدلوا عما هم عليه من الكفر، فقال عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ فإن وقود هذه النار هم أهلها، وما يعبدون من الحجارة. كما قال عَزَّ وجل في سورة الأنبياء ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ فليس وقودها الحطب الذي يتآكل، فيصبح رماداً، فينتهي، بل وقودها الناس الذين استحقوها، وكذلك الحجارة التي لا تتحول إلى رماد فتنطفئ، وفي هذا غاية الوصف لعظمتها وشدتها. وكلما انشوت وتهالكت جلودهم اسْتُبدِلَت بجلود أخرى، غير التي تهالكت بالشوي، كما قال الله تعالى في سورة النساء ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم

(١) المرجع السابق (٦٣/١)

(٢) المرجع السابق (٦٣/١)

بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ وأن هذه النار ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ هُيأت وأعدت للكافرين، فهم المستحقون لها.

ووهذا يفيد تربوياً ودعوياً أن يكون الإنذار بعد البيان الشافي الوافي، حتى يرتدع من كان دواعي انصرافه عن الحق جهلاً وكسلاً. ومن الفوائد كذلك ورود التوازن بين الترهيب والترغيب، فبعد أن ذكر الله تعالى عاقبة الكافرين وما أعده لهم، انتقل البيان الكريم من الله سبحانه وتعالى إلى ما أعده للمؤمنين. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

وبشر أيها الرسول صلى الله عليه وسلم عبادنا الذين جمعوا بين الإيمان، والعمل بطاعة الرحمن التي أنزلها عليهم بأن لهم في الآخرة جنات تجري بين قصورها ونواحيها وخلالها أنهار تدفق، وكذلك لهم فيها من جميع أنواع الثمار. وقد ابتدأت الآية الكريمة بالبشارة ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ مما يؤكد أهمية استخدام لفظة البشارة أو ما يماثلها للترغيب والتهيئة النفسية والفكرية للمتلقي، لأنها تحمل في طياتها الإعلام بخبر سار، فيكون لها أثر مفرح في النفس عظيم.

ومن عظيم الفوائد هو الاختصار وعدم الإطناب في ذكر تفاصيل الجنة وثمارها وأنهارها، ومراتب الإيمان وأنواع العمل الصالح. غير أن القارئ للآية يستشعر كل التفاصيل، وهذا من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم. وكذلك فيه بيان منزلة الايمان والعمل الصالح اللذان يُدْخِلان المؤمن الجنة برحمة الله تعالى وكرمه وجوده.

ثم اشتمال الآية الكريمة على جانب التشويق، ابتداء من لفظة ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ إلى وصف الجنة وما فيها من الجنان التي تجري من تحتها الأنهار، وما فيها من رزق الثمار الذي كلما رُزِقُوا من ثمارها، قالوا هذا شبيه بما كان عندنا في الدنيا، أي ليس هو،

ولكن يشبهه في اللون ويختلف مذاقا وطعماً. كما أنهم يأكلون من الثمار، فَيُؤتَونَ بأخرى، فيقولون هذا مثل الذي قبله. فتقول لهم الملائكة: كلوا، فاللون واحد والطعم مختلف.[١] ثم لهم في الجنة أزواج مطهرات من كل العيوب. ثم بيان الحقيقة المهمة للإنسان ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ خلوداً لا موت بعده.

وهناك شرطان لتحصيل ذلك الفوز بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار، الشرط الأول: الإيمان ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. وأما الشرط الثاني: فهو ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي هي الطاعة لله تعالى. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة، فإن قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قد جمعت كل الصلاح. وهي غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها. فإن أهلها هم الذين لهم البشارة بالجنة.

ومن الفوائد أهمية اقتران الإيمان والعمل للحصول والوصول إلى جنات الله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: أنها جنات، وليست جنة واحدة، بل جنات متعددة. والجنات هي البساتين التي تجري من خلالها الأنهار، في جريان مستمر، لا ينقطع، ولا يضعف. فتجري من أسافلها، لتمر في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وبين أشجارها وقصورها، من غير انقطاع. أي: تتدفق من خلالها الأنهار الكثيرة. حيث وردت ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بصيغة الجمع، لإفادة الكثرة والتعدد والتنوع. فقد اتصفت تلك

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٦٦/١)

الجنات بكثرة الأنهار ودوام تدفقها من تحت قصورها، وبين أشجارها. فيزداد بها المؤمن سعادة وبهجة وسروراً.

وقد تضمنت الآية الكريمة توضيح الفرق بين ثمار الدنيا والآخر. حيث قال عَزَّ وجل ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ ﴾ كلما رُزِقُوا من ثمارها، قالوا هذا شبيه بما كان عندنا في الدنيا، أي ليس هو، ولكن يشبهه في اللون ويختلف مذاقا وطعماً ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا ﴾ وكلما أكلوا من الثمار، فإنهم يُؤتَونَ بأخرى، فيقولون هذا مثل الذي قبله. فتقول لهم الملائكة: كلوا، فاللون واحد والطعم مختلف.

ومن مزيد نعيم الجنة هو قوله تعالى ﴿ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ ﴾ مطهرات من كل العيوب. ومن ذلك أنهن لا يحضن، ولا يتنخمن، وليس شيء مما يكن عليه في الدنيا. ثم بيان الحقيقة المهمة للإنسان ﴿ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ خلوداً لا موت بعده.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧ ﴾

يخبر الله تعالى عن عظيم بيانه، وإيصاله للمعنى والمراد بأي مثل يتحقق به المقصد فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا ﴾ قال قتادة رحمه الله تعالى: أي أن الله لا يستحي من الحق أن يذكر شيئاً مما قَلّ أو كَثُر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت. قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ

لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[1] فإن الله ربكم سبحانه وتعالى لا يمنعه الاستحياء من إظهار الحق وبيانه، فكل صغير وكبير هو خلقه، مما يصحح به تفكير من يرى المثل والتشبيه لا يكون إلا فيما عظم حسب تقديره. فإن جميع خلق الله تعالى عظيم.

وهذا يفيد أهمية ضرب الأمثال، لإيصال المعرفة للمتلقي، وألا يستحي الإنسان من ضرب المثل وإن كان صغيراً أو حقيراً في عين المتعلم، لأن المقصود هو إيصال المعرفة. وكذلك ألا يستحي الإنسان من إيصال الحق للغير، بالأساليب الصحيحة المختلفة، التي تحقق الهدف والغاية.

ومن الفوائد أن المكابر ينتقص من الحق وأساليبه ومضامينه بالاحتقار، والتوصيف الناقص، حتى يُطَمِّئِنَّ نفسه بما هو عليه من الباطل، وكذلك لينتصر لمشاربه وأفكاره الباطلة، وليُحْدِثَ التغيير عند غيره من الناس، وذلك بزرع الشك والريبة من خلال التهكم والسخرية بالحق.

وفي هذا ما يبين عناية الله تعالى بعباده في إيصال الحق لهم، بجميع الأساليب التي توصل رسالته إليهم، كإرسال الأنبياء، والمعجزات، والبيان، وتنويع الأساليب التي تحقق الهدف والغاية. وكذلك أهمية التمعن في منهج القرآن التعليمي والدعوي، والأخذ بأساليبه في التوضيح والإقناع.

ثم يخبر الله تعالى بانقسام الناس تجاه الحق إلى فريقين: فريق يقبل الحق، وفريق يكابر ويعاند ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ فأما أهل الإيمان فيعلمون من هذا المثل أنه الحق بعينه، وينتفعون بالذي يحمله ويعنيه، فيستفيدون منه، ويعملون بمقتضاه. فيوقنون بأنه من ربهم عَزَّ وجل، ولا يكابرون. وأما أهل الكفر ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ فيقول أهل الكفر ماذا أراد الله تعالى بهذا المثل؟ سؤال استنكار واعتراض. لأنهم يريدون كل شيء بحسب ما يوافق هواهم، ويتحينون الفرص للاعتراض، فيزدادزن كفراً، وتوغلاً في العناد والمكابرة.

وهذا يفيد أهمية أن يُوَطِّن الْمُصْلِح والداعية والعالم والمعلم نفسه تجاه هذا التنوع والاختلاف في القبول. وإذا كان هذا الاختلاف في القبول لأمرٍ عظيم من الله تعالى على يد نبي عظيم السيرة

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٤٢٤)

صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن هم دونه من الناس، وما هو دون ذلك من أمور مصالح الناس، وغيرها من قضايا الدنيا المختلفة والمتنوعة.

وهذ يفيد أيضاً أن المؤمن لا يكابر إذا رأى الحق والصواب، بل يتنازل عما كان عليه من فكر أو فهم خاطئ، فيقبل الحق ويأخذ به. لأن رد الحق مسلك الكافرين المعاندين.

فإن أهل الهداية يقبلون الحق، ويسترشدون به. بينما ينكره الفاسقون الذين اتصفوا بنقض عهد الله تعالى، وقطع ما أمر الله تعالى به أن يوصل، من أهل الإفساد في الأرض، قال تعالى ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ فبهذه الأمثال وغيرها من الحق يظهر ويتبين أصحاب الضلالة، فَيُثبت الله تعالى عليهم ضلالهم، فيصرف بهذا المثل أناساً كثيرين من أهل الضلال ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ فبهذا المثل يُضل الله تعالى به الكثير من أهل النفاق والكفر. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ومعنى الكلام: أن الله تعالى يُضل بالمثل الذي يضربه كثيراً من أهل النفاق والكفر. فيزيد هؤلاء ضلالاً إلى ضلالهم، لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله لِمَا ضربه له، وأنه لِمَا ضربه له موافق. فذلك إضلال الله إياهم(١) كما قال الله تعالى في سورة المدثر ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ فأما الذين كفروا وأنكروا فهم في غمرة تساؤل من الشك والريبة، ليتحقق منهم الكفر بهذا العدد، وهم صنفان: أحدهما: أهل النفاق. والصنف الثاني: هم أهل الكفر، وهم عموم المكذبين المنكرين بجميع أصنافهم، من اليهود والنصارى، والمشركين وغيرهم، فيقولون: أي شيء أراد الله تعالى بهذا المثل. فما لحكمة في ذكر هذا المثل المستغرب.

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٤٣٢-٤٣٣)

وفي نفس الوقت فإنه بهذا المثل ﴿ وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ وهم أهل الإيمان والتصديق، فيوفقهم ويسددهم ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ وما يضل بهذا المثل إلا الخارجين عن طاعة الله تعالى. فالفسق هو الخروج عن الشيء. فقد خرجوا عن دين الله تعالى، وإن الله تعالى لا يوفق من خرج عن دينه، فمن ترك هداية الدلالة بعد أن تبينت واتضحت له، وحاد وخرج عنها، فإن الله تعالى لا يتولاه بتوفيقه للإيمان، لأنه آثر الكفر على الإيمان والطاعة، فخرج عن طاعة ربه سبحانه وتعالى. وبالتالي فإن كل من عرف دين الله تعالى، وحاد عنه، وعن اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى لا يوفقه لإصابة الخير والنجاة. مما يفيد أهمية الحذر من الاستكبار والحسد، ومصادمة دين الله تعالى. وهذا تحذير من الله تعالى لكل من يشاقق الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن عليه أن يتأمل ما حصل لقوم موسى عليه الصلاة والسلام من الهلاك بالغرق في البحر.

ثم يصف الله تعالى هؤلاء الفاسقين بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ فقد اتصف هؤلاء الفاسقين بثلاث صفات ذميمة: الصفة الأولى: نقض مواثيقهم مع الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ فهم لا يوفون بعهد الله تعالى التي هي وصيته لعباده إلى خلقه بطاعته، ونقضهم ذلك وتركهم له. ونقضهم للأدلة والحجج والبراهين الظاهرة لهم، ومنها القرآن الكريم، وما أتاهم به الرسول صلى الله عليه وسلم. ويشمل العهد الله تعالى عنه في سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ فشهدوا على أنفسهم بربوبيته، فأشهدهم الله تعالى على ربوبيته، وأنه لا إله إلا هو، فأجابوا على ما أشهدهم الله تعالى عليه بتقريرهم واعترافهم على ما أشهدهم عليه من وحدانيته وربوبيته وألوهيته، فاستجابوا وشهدوا وقرروا شهادتهم لله تعالى بما أشهدهم عليه، أي شهدنا بذلك

يا ربنا، فأنت ربنا ومالكنا وإلهنا ومعبودنا، مما يفيد يدل على أن الله تعالى جبل وفطر بني آدم كلهم على ذلك. وهذه نعمة عظيمة ومِنَّة كريمة من الله تعالى على بني آدم كلهم، بأن فطرهم على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته، كما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه)[١] فهذا الميثاق من الله تعالى هو ما يجده كل إنسان في نفسه بأن الله ربه، وأن لهذا الكون رب واحد قد خلقه، وإن حصل انحرف فإن هذا الانحراف بسبب المخالطة والتأثير والتربية؛ كما جاء في الحديث السابق من قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه) فدلالة الآية الكريمة تشمل جميع تلك المعاني التي ذكرها العلماء[٢] ويشمل ما عهد به إلى أهل الكتاب في كتبهم التوراة والإنجيل من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم، والوصية باتباعه عليه الصلاة والسلام. وهذا من غزارة البيان في استيفائه لجميع المقصد والمراد بسياق واحد.

والصفة الثانية: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فإن من مسالك الفاسقين: هو قطع ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام والقرابات. وقيل هي عامة في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل. والرحم جزء من هذا. [٣] وأيضاً من مسلكهم الإفساد في الأرض وهي الصفة الثالثة: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فمن مسلكهم الإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي واستدعاؤهم الناس للكفر.[٤] وهؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم خسروا الآخرة التي هي الحياة الباقية بنعيمها للمؤمن، أو بعذابها للكافر. وهذا يفيد أن الحق ينقسم به الناس إلى قسمين: مهتدين بآيات الله تعالى وبما جاء به أنبياؤه من الحق، وقسم فاسق مكابر.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢٤/١) برقم (١٣٨٥)

(٢) ومن ذلك ما ذكره ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٣٥/١-٤٣٧)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧١/١)

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٤/١)

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

ابتدأت هذه الآية الكريمة بسؤال تقريري مسبوق بسؤال استنكاري للكفار عن كفرهم بالله تعالى، وقد تقرر عند كل أحد منهم أنه لم يكن موجوداً، بل كان عدماً، ثم أوجده الله تعالى، فَوُلِد صغيراً، ثم يعيش ما شاء الله تعالى له أن يعيش، ثم يموت كما مات غيره من الأموات. وهو سؤال استنكاري تقريري لحقيقة لا ينكرها أحد من الناس. ثم بينت الآية بعد تلك الحقيقة التي يعرفها الكافر، ويتنبه لها الجاهل، حقيقة أخرى، هي البعث بعد الموت، والتي يستدعي ويستوجب الإيمان بها معرفة تلك الحقائق الأولى، التي هي العدم ثم الإيجاد ثم الموت، لأن الذي أوجد الإنسان من العدم، فأحياه وأعاشه حيناً من الدهر، ثم يميته، قادر على بعثه مرة أخرى. فليس البعث عسيراً على من خَلَقَ وأوجد مخلوقاته ابتداء من العدم.

وهذا يؤكد عظيم هذا الأسلوب التعليمي التقريري، من خلال رد الْمُخَاطب إلى التي يعرفها ولا ينكرها. وأيضاً هو استنطاقٌ حواريٌ للعاقل، حتى يتنبه لما قد يكون غافلاً أو متغافلاً عنه، فكأن لسانُ حال الْمُخَاطب يقول: نعم كنت غير موجود في الحياة، ثم أوجدني الله تعالى الذي خلقني، ثم يُميتُني كما يُميت غيري، وبالتالي فإن الذي خلقني قادر على بعثي مرة أخرى، مما يُوجب الإيمان به وعبادته وحده لا شريك له. قال تعالى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

ونوع هذا السؤال الاستنكاري الْمُشْتَمل على أمرٍ تقريري يستثير تفكير الذهن للتأمل، كما يستثير القلب للبحث والتفكر عن كيف يغيب هذا الأمر الواضح بدلالاته عن عقل العاقل. مما يؤكد أهمية هذا الأسلوب في المعالجات الفكرية. بإيقاف الْمُخَاطَب على الحقائق التي يعرفها، ويُقرُ بها، ثم اشتقاق كل ما هو متعلق ومرتبط بها، في تدرج حتى يصل به إلى المقاصد التي يُراد أن يُوقفْهُ عليها.

وقد أسندت الحقائق إلى التأمل الذي يشد الانتباه بدلالة ﴿ كَيْفَ ﴾ التي تستثير الذهن للتأمل والتفكر في حالهم ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ودلالة ﴿ كَيْفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور ويتأمل ويفكر في جميع ما يتعلق بمواطن استثارة الذهن ليفكر فيه ويتأمله. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال، ومن الأحداث، والعدم ثم الوجود، ثم الموت بعد الوجود، والتي تبين قوة الله تعالى وقدرته، وكمال عزته وسلطانه. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، ليتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

وقد أكدت الآية التي بعدها حقيقةً داعمةً للإيجاد والحياة، والقدرة العظيمة التي لا يَسْتَصْعِب دونها شيء على الله تعالى، بما يؤكد وجوب الإيمان وترك الكفر. قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فإن كل ما في الأرض خَلَقَهُ وأوجده الذي أوجدكم. وهنا يأتي جانب الاعتبار بالإحياء بعد العدم، ثم الإماتة، وكذلك لفت الانتباه إلى النِّعَم الموجودة على الأرض وفي الأرض، من أنها لكم يا أيها الناس. ليَقْرِنَ ويقارن الإنسانُ بين وجوده ووجود ما يحتاج إليه في الأرض، حتى يُدرك هذا التجانس، وهذه المعادلة التوافقية، بين احتياجه وما وُجِدَ على الأرض من أجله. فمن الذي أوجد هذه المعادلة؟ ومن أوجد هذا التجانس بين الموجود على الأرض وحاجة الإنسان لها؟ بل حتى حاجات الإنسان الترفيهية أو الكمالية، كتنوع مذاق الطعم الواحد، حيث أوجده تبارك وتعالى بدرجات متفاوتة ودقيقة، كثمرة التمور مثلاً، عشرات الأنواع، وبدرجات متدرجة ومختلفة في مذاقها ومقدار حلاوتها، وكذلك ألوانها وأحجامها وأشكالها، بل من دقة هذا التفاوت أنه كائن حتى في ثمار العرجون الواحد من النخلة الواحدة، فكيف في تعددها.

كما إن من دقائق البيان العظيم: أن النص القرآني الكريم فيه إجمال دون تفصيل لما حوته الأرض من أنواع النِّعَم، ليستوفي جميع ما حوته الأرض من مفردات مكوناتها، ولأن واقع الحال يتطلب الإجمال لحقائق عظيمة متنوعة. ويُغني إجمالها عن تفاصيلها التي ذكرها الله تعالى في آيات أخرى. وهذا من براعة سياق القرآن وإعجازه البلاغي العظيم.

ويَظْهَر في العرض القرآني الكريم للآية العظيمة أسلوب جذب الاستماع والانتباه بالاختصار دون التشتيت، من خلال الاقتصار على الكليات دون التفاصيل. مما يُظهر الأسلوب التأثيري بمخاطبة العقل، عن حقائق غاية في العظمة. مع عدم اشغال ذهنه بتفاصيل مكونات الأرض وما عليها، وما يحصل فيها من إنبات معدوم، ثم جفاف وموت، ثم تُحْيَا الأرضُ بعد موتها بالمطر مرة أخرى، بعد أن ماتت بالجفاف. ليتبين عظيم قدرة الله تعالى، والتي منها البعث والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار. وبما يؤكد أهمية اعتماد الإجمال عند الحوار والمناقشة في الكليات، دون الحاجة لتفاصيلها، لكيلا يسترسل الذهن في التفاصيل عن الحقائق الكلية الكبرى.

فبعد أن أدرك الْمُخَاطب الحقيقة بالمشاهدة والفكر، والتفكر فيها. تم نقله إلى حقيقة عظيمة كبرى، حيث قال الله تعالى ﴿ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ فبين الحق تبارك وتعالى أنه قَصَدَ وعَمِدَ إلى خلق السماء فسواهن سبع سماوات. قال السعدي رحمه الله تعالى معنى ﴿ **ٱسْتَوَىٰٓ** ﴾ أنها ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تُعدَّى بالحرف، إي لا يسبقها حرف، فيكون معناها: الكمال والتمام كقوله تعالى عن موسى ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ** ﴾ وتارة تكون بمعنى: علا وارتفع، وذلك إذا عُدِّيت بحرف **(على)** كما في قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ** ﴾ وتارة تكون بمعنى قصد، وذلك إذا عُدِّيت بحرف **(إلى)** كما في هذه الآية[١] فدلالتها مقترنة بالسياق، وبنوع ما قبلها من حرف.

فذكر تبارك وتعالى الترتيب في الخلق ﴿ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ فشد البيان الكريم ولفت الانتباه إلى خلق السماوات، بأنهن سبع ﴿ **فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ** ﴾ ليقررهم بما يرون من الأدلة الظاهرة بأن ربكم قد خلق هذه السبع السماوات، بعضها فوق بعض. قال القرطبي رحمه الله تعالى: بعضها فوق بعض، كل سماء

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٩/١)

مُطبقة على الأخرى كالقباب، قاله: ابن عباس، والسدي. وقال الحسن: خلق الله سبع سماوات طباقاً على سبع أرضين، بين كل أرض وأرض، وسماء وسماء خلق وأمر[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من طرق عند أهل السنن وغيرهم عن جماعة من الصحابة أحاديث في وصف السماوات، وأن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام. وأنها سبع سماوات، وأن الأرض سبع أرضين[٢] فهن سبع سماوات متكاملات في الكمال، حتى أن من يراها لا يجد فيها اضطراباً واختلافاً. فانتفى منها كل عيب، فإن من ينظر إليها ينبهر بجمالها ورصانتها وقوتها، وارتفاعها. بما يدل على عظمة الخالق عَزَّ وجل. وأسند التسوية التي هي الخلق له عَزَّ وجل ﴿ **فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ** ﴾ فأثبت الله تبارك وتعالى للعباد بما يرون أنه خلق سبع سماوات. لتخصيص الانفراد بالخلق، بأن الخلق له وحده لا شريك له عَزَّ في علاه بما يفيد أن هذا قد استوجب منكم توحيد ربكم، وطاعته والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم.

وجاء هنا التدرج في المخاطبة والتنبيه ليصل إلى الإيمان. فبعد أن بين عَزَّ وجل أن الإنسان كان عدماً فأوجده، ثم يميته كما يُميت غيره، وأنه سوف يُحيي الأموات، ثم إليه يُرجعون، وكذلك تقرر لديه خَلْقُ الأرض وما فيها، وانتفاعه بما عليها، وأن مخلوقاته متجانسة مع حاجات ومتطلبات هذا الإنسان، بما يجعله يُقر بأن الذي خلقه وخلق الأرض وما عليها وما فيها هو الذي خلق السماء، وسوف يؤمن بأن السماوات سبع، كما أخبر الله العليم الخبير بذلك، فيؤمن تبعاً لذلك بالبعث بعد الموت.

ثم اختُتِمَت الآية بقوله تبارك وتعالى ﴿ **وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ** ﴾ فإن ربكم بكل ما خلق عليم. فاستوفى علمه عَزَّ وجل الإحاطة التامة بكل شيء، فاستقصى كل حدث، وكل أمر، وكل قول، وكل فعل، وكل حركة، وكل علة، وكل سبب، وجميع ما في الضمائر، وما أخفته في الصدور، وما توسوس به النفوس. وأن كل ما يخفى على المخلوقين فإنه لا يخفى على الله عَزَّ وجل. فهي دلالة

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٩٧/١٨)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٦٢/١)

قد استقصت وأحاطت كل شيء بالعلم، واستوفته بالمعرفة التامة، والقدرة الكاملة. فسبحان الله العظيم العليم.

فبذلك قد أخبر سبحانه وتعالى بعد تحقيق أمر الخلق واستحقاقه العبودية الْمُطْلَقَة، أنه واسع العلم، فهو بكل شيء عليم، فلا يغيب عن علمه شيء. وقد أفادت هذه الآية الكريمة أن التأمل في وجود الإنسان بعد أن كان عدماً، ثم موته بعد الإيجاد، وكذا ما على الأرض من مخلوقات موجب للإيمان بالخالق تبارك وتعالى، وبالبعث بعد الموت.

وتفيد كذلك أهمية الإيمان بالله تعالى ووجوب عبادته وحده لا شريك له، وألا تُصرف العبادة إلا له جلَّ جلاله. وكذلك أهمية التفكر، وأهمية الأسلوب في الإقناع، والتدرج، ومعرفة حال المدعو، والتنبيه ولفت النظر لما هو متقرر عنده، من أجل نقله للحقيقة ولما هو أعظم.

ودلت الآية الكريمة على رحمة الله تعالى بخلقه، حيث خاطبهم بأحسن الأساليب وأعظمها أثراً، وأنه خلق من أجلهم الأرض وما عليها وفيها، وسخرها لهم، وأوجد التجانس بين حاجاتهم وما على الأرض من موجودات، فلا يحتاجون شيئاً إلا كان في الأرض موجوداً من نِعَمه العديدة العظيمة، وآياته الدالة على أنه الخالق تبارك وتعالى. فلله الحمد والشكر. اللهم نسألك التوفيق والثبات على الحق.

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾

تبين هذه الآيات بداية ومقدمات خَلْق أبي البشر، آدم عليه السلام. ليتضمن القرآن الكريم أخبار تلك الحقائق الغيبية التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، وليبين للإنسان كيف بدأ خلقه عَزَّ وجل لهذا الإنسان، وما حدث في شأنه من إخبار الله تعالى لملائكته عن خلقه لآدم عليه السلام وذريته. وهذا امتنان من الله تعالى على بني آدم، إذ نوه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً، وجيلاً بعد جيل.

وهنا قالت الملائكة بتوفيق من الله تعالى لهم فيما قالوا ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وهذا وجه مقارنة بحسب ما لديهم من علم. ولكن الله تعالى بَيَّنَ أنه يعلم ويحيط بما لم يحيطوا به علماً ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وأما في قول الملائكة ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أن هذا القول منهم

بتوفيق من الله تعالى لهم. قاله ابن مسعود وابن عباس، والحسن، ومجاهد وقتادة[١] وقولهم قياساً على ما كان من الجن، الذين هم أول من سكن الأرض. ورد عند ابن جرير الطبريري رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنهما: فأول من سكن الأرض الجن. فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضا. فبعث الله عَزَّ وجل إليهم إبليس في جند من الملائكة[٢] فبينت الملائكة ما هم عليه من الطاعة والامتثال بعكس عالم الجن، وما قد يحدث من الإنس ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فنحن نذكرك بالتقديس والتنزيه والحمد والشكر لك يا رب، ف تخلق من يعصيك. وهذا على حد علمها. فبين الله تبارك وتعالى عظيم علمه بما سيكون ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإني أعلم بما سيكون مما يخفى عليكم علمه ومعرفته.

ومن دلالات هذه الآيات الكريمات، تسبيح وتقديس الملائكة لله تعالى، وأنهم لا يعصون ربهم عَزَّ وجل، ولا يحصل بينهم ما يحصل في الجن والبشر من الإفساد، قال الله تعالى عنهم ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا وجه مقارنة بحسب ما لديهم من علم. ولكن الله تعالى بَيَّنَ أنه يعلم ويحيط بما لم يحيطوا به علماً ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأجابهم الله تعالى بأن علمه سبحانه وتعالى لا يحيطون به.

وتفيد هذه الآيات الكريمات أن الملائكة قد علموا من الله تعالى قبل أن يخلق آدم عليه السلام، أنه يأتي من بني البشر الإفساد، حيث يحصل من بعضهم القتل والنهب والظلم والكفر. ولكن الله يعلم أنه سيكون من البشر الأنبياء والصالحين والصديقين والعابدين والمجاهدين والمحسنين.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤٧/١)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٢/١-٤٨٣)

ثم يخبر الله تعالى بما كان منه عَزَّ وجل من تعليم آدم بخصوصية معرفة الأسماء كلها. وليتبين للملائكة ولغيرها من الخلق تخصيص الله تعالى بعلمه لمن يشاء. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ فمن عظيم تدبير الله تبارك وتعالى أن علم الإنسان هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وأرض، وسهل وبحر، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ إن كنتم تعلمون لِمَ أجعل في الأرض خليفة. فلما علمت الملائكة مؤاخذة الله تعالى عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب الذي لا يعلمه غيره ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ تنزيهاً لله تعالى من أن يكون أحدٌ يعلم الغيبب غيره، الذي ليس لهم به علم[١] فأطاعت وامتثلت الملائكة لربها عَزَّ في علاه، ليتعلم منها الإنسان سرعة الامتثال، والطاعة لله تبارك وتعالى ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

ويتبين من هذه الآيات العظيمات أن الملائكة لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى، حيث قال تبارك وتعالى للملائكة ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وكذلك قول الملائكة عن محدودية علمهم ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وقد افتتحت الملائكة كلامها لرب العالمين بالتنزيه والتقديس، فقالت ﴿سُبْحَـٰنَكَ ﴾ فابتدأت جوابها بتنزيه رب البرية

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٤٨٤-٤٨٥)

عما لا يليق به تبارك وتعالى ﴿ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ أي: نتزهك تنزيهاً كريماً في علمك وقدرتك، وغناك عن خلقك، ومن أن يكون معك شريك يا ربنا. فليس للخلائق جميعاً أن يعبدوا غيرك.

ثم نفت أن يكون لها شيء من علم الغيب ﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ ﴾ ثم استثنت من ما خصهم الله تعالى به من العلم ﴿ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ ﴾ مما يبين أدم الملائكة أولاً مع ربها سبحانه وتعالى، وأن الملائكة مع قربها من ربها إلا أنها محدودة العلم، فليس عندها من العلم إلا ما يخبرها الله تعالى به. فكيف إذاً بالإنسان. مما يُعلم الإنسان الأدب مع الله تعالى، وأنه يجب عليه ألا يَدَّعِي العلم، فيتطاول في ذلك. فقدمت الملائكة النموذج في الاعتراف بمحدودية العلم. ثم أسندت كمال العلم لله تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فإنك أنت وحدك يا ربنا الذي له كمال العلم وكمال الحكمة.

فأنت يا ربنا وحدك لا شريك لك المتصف بكمال العلم، وكمال الحكمة، فإن الله عَزَّ في علاه هو ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ أي: العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء، وكذلك هي من صيغ المبالغة، التي تفيد دقة علمه وسعته، فهو الذي لا يغيب عنه شيء أبداً. فإن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون، وما سيكون قبل أن يكون. وما قيل، وما يُقال، وما سيقال قبل أن يُقال. ويعلم ما توسوس به النفس، وما يدور في خلجاتها. وفي هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه مُطَّلِع عليه، وعلى ما يكون منه، وما يكون من غيره معه، فعليه أن يستعين بربه الذي يسمع ويعلم حاله، ومناجاته، وما يكون منه، وما يكون من غيره معه، أو عليه. مما يجعل المؤمن في ثقة بأن الله تعالى يصرف الشر ويجلب الخير. وأنه على كل شيء قدير، وأنه يسخر ما يمتنع عن المؤمن من الخير، ويكتب له ثواب جهده وجهاده لنفسه. وكذلك تشمل دلالة ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ الترهيب لغير المؤمنين، بأن ربكم يعلم ما أنتم عليه من كل وجه وحال، ومن النوايا، والأعمال، والأقوال، فلا يخفى عليه منكم خافية.

والصفة الثانية: أن ربكم هو ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، مما يدل على أن القرآن الكريم كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، آدابه وقصصه ومواعظه وبيان، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى. كما يفيد ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أنه سبحانه

وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

كما يفيد العلم بهاتين الصفتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه وأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم.

وقد أكدت املائكة ذلك بأسلوب المبالغة، بأنه سبحانه وتعالى هو العليم الحكيم لا غيره ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو عزَّ وجل العليم وليس ذلك لغيره ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فقد حصر السياق كمال العلم وكمال الحكمة له وحده لا شريك له. وقد أفادت بُنية كلمتي ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في علمه وحكمته سبحانه وتعالى. فله العلم المطلق، وكذلك فهو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فله الحكمة المطلقة. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من علمه وإحاطته، وحكمة تدبيره لشؤون عباده. وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِم بها العبد أو لم يعلمها.

وتفيد هذه الآيات أن الله تعالى يختص من خلقه ما يشاء وبما يشاء، حيث خص آدم بمعرفة الأسماء التي لم يختص بها الملائكة، وذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء.

واختصاص آدم ومن ثَم ذريته بمعرفة الأسماء هو كرمٌ من الله تعالى، وفضلٌ لهذا الأنسان. ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي أسماء الأشياء، وما هو مسمى لها. فَعَلّمه الله تعالى الاسم والمسمى، أي الألفاظ والمعاني، حتى المصغر من الأسماء والمكبر، كالقصعة والقصيعة.[١]

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥١/١)

وهذا يتطلب من الآدمي شكر هذه النعمة: نعمة الوجود ونعمة العلم، وأن الله تعالى هو الذي أنعم عليه بما يعلم، فلا يتعاظم ويتكبر بعلمه، لأن الله تعالى هو الذي منحه هذه الخاصية، من الفهم والحفظ والاشتقاق والاستنباط والاختراع. ولولا هذا الاختصاص الكريم من الله تعالى لما أصبح الإنسان بمثل ما هو عليه من العلم والتطوير والابتكار في المجالات المختلفة.

وتبين هذه الآيات أدب الملائكة في كلامهم مع الله تعالى، حيث قالوا ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ ثم تمجيدهم لله تعالى بعد أن بينوا أنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى به، حيث قالوا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

ويوضح هذا أهمية أن يقول الإنسان فيما لا يعلم: الله تعالى أعلم. ولا يتطاول فيما يجهله، حتى يتخلق بأخلاق الملائكة الكرام. وكذلك أهمية تعظيم الله تعالى عند حصول العلم واستشعار الجهل.

وتؤكد هذه الآيات أن ما غاب علمه ومشاهدته عن خلقه في السماوات والأرض، لا يغيب عن علم الله تعالى، بل يعلم ما يُظْهِرُه المخلوق وما يُبْطِنُه ويكتمه. قال تعالى﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وتتطلب هذه المعرفة بعلم الله تعالى الخشية والخوف من الله تعالى، والمراقبة للذات، واللجوء إليه في كل صغيرة وكبيرة، لدفع شر أو لجلب خير.

وقد أوقف الله تعالى الملائكة بما خص به جنس الإنسان في شخص آدم عليه السلام، فقال الله تعالى مبيناً ذلك ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أخبرهم بأسمائهم ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أخبرهم وأعلمهم بأسمائهم ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ أيها الملائكة ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا يعلمه غيري ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ما تُظهرون ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وأعلم السر كما أعلم العلانية، يعني ما كتم إبليس في نفسه من

الكبر والاغترار[1] مما يبين عظيم علم الله تعالى، وعظيم تدبيره. وأنه لا يعلم الغيب إلا هو عَزَّ وجل، وأن على الإنسان أن يخضع لربه في كل شأن وأمر، وأن يطيع رسوله صلى الله عليه وسلم، ويمتثل لما جاء به من الحق. ففي هذا البيان من الله تعالى ما يعلم ويربي الإنسان على أدب الطاعة والخضوع لرب العالمين.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

وتبين هذه الآيات مكانة هذا الإنسان عند الله تعالى، إذ أمر الملائكة أن تسجد لأبيهم آدم عليه السلام، إكراماً له وعبودية لله تعالى، لأن طاعة الله تعالى عبادة له جَلّ جلاله. كما تفيد امتثال الملائكة لأمر ربهم دون اعتراض، فهم يفعلون ما يؤمرون، بما يؤكد أهمية الطاعة لله تعالى دون احتجاج عقلي، وبما يفيد تقديم النقل عن الله تعالى على العقل. لكمال النقل عن الله تعالى وقصور العقل. وتبين الآيات الكريمات أن إبليس امتنع عن السجود استكباراً، فكان عاقبته أنه من الكافرين. بينما أطاعت الملائكة ربها فكانت من المكرمين ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ واذكر وقت أن قلنا للملائكة ﴿ٱسْجُدُوا۟

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٥/١)

﴿لِأَدَمَ﴾ أمرناهم بفعل الأمر ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ الذي يفيد ويعني التكريم ﴿لِأَدَمَ﴾ حين خلقه الله تعالى. فيفيد السجود أنه لتعظيم الله تعالى الذي خلق آدم عليه السلام بعد أن كان عدماً، لأنه حدث عظيم.كإقامة الصلاة عند الكسوف والخسوف، فهي لله تعالى بعلة هذا السبب، والسجود لادم هو سجود لله عَزَّ وجل بهذا السبب، وامتثالاً لله عَزَّ في علاه. قال القرطبي رحمه الله تعالى: كان ذلك السجود تكريماً لآدم، وإظهاراً لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا، ومعنى لآدم: إلى آدم، كما يُقال صلي للقبلة، إي: إلى القبلة[1] ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ فاستجابت الملائكة الكرام، طاعة لله تعالى ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناء من الامتثال والطاعة، وليس استثناء من الملائكة، لأنه خلق آخر ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع عن السجود. أنه أُمِر بالسجود معهم، فاستثنيَّ من أنه لم يسجد. هذا قول الزجاج[2]

وكان امتناعه بسبب استكباره ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ والكبر أن يرى المتكبر أنه أعظم مما طُلِب وأُمر به، وهو عبارة عن تصور في ذهنه، والحقيقة والواقع خلاف ذلك. والاستكبار حالة في النفس، يظهر أثرها على الفعل والسلوك والتصرف. فقد أظهر الله تعالى إباء وامتناع إبليس، ثم علله بسبب استكباره، فأفرد كلاً منهما بالذكر والتخصيص ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ ونتيجة لذلك وقع في الكفر ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فبسبب امتناعه عن طاعة ربه وقع في الكفر. مما يفيد أن من امتنع عن طاعة ربه، جاحداً لها، فقد كفر. وأن الطاعة والامتثال لله تعالى شرط للإسلام والإيمان. فعلى المؤمن أن يتواضع لربه في كل ما أمر به، وأن يمتثل ويُذعِن لذلك.

فالكبر مانع للخير، حيث يمنعُ الإنسانَ عن مصالحه وفوزه ونجاته، كما امتنع بعض من شاهد الرُسُل وقامت عليهم الحجة والأدلة، وكذلك مثل من استكبر من كفار قريش وغيرهم بعد أن عرفوا

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠١/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٢/١)

الحق، وشاهدوا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وخَبَرُوه وعرفوا حقيقته وما اتصف به قبل بعثته وبعد بعثته من الأمانة وكريم الصفات والأخلاق والتواضع.

وفي الآيات إثبات الكلام لله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ وأن لله الأمر والنهي، وأنه لا يُسأل عما يفعل تبارك وتعالى، وأن العباد يُؤمرون ويُسألُون ويُحَاسَبُون. وأن لله الحكمة البالغة فيما يأمر وينهى. وألا يقدم العبد عقله على تشريع ربه عَزَّ وجل. وكذلك فيه بيان لقصور علم من خلق سبحانه وتعالى من المخلوقات.

ثم يُخبر الله عَزَّ وجل بتكريمه لآدم وزوجه، فقال الله تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ فأفادت الآية الكريمة أن الأصل في سكنى آدم عليه السلام وزوجته الجنة، مما يؤكد الرجوع لها بعد الموت، لمن أطاع الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ وكذلك اثبات الأَكل في الجنة وسعتها، وأن أكلها هنيئاً رغدا، وكذلك حرية التنقل فيها، والتنعم بما فيها ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ وكلا منها ﴿ رَغَدًا ﴾ أي: هنيئاً من غير عناء ولا مشقة يتم بذلها من أجل تحصيل ثمارها، بل إن من نعيمها قوله تعالى ﴿ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ حرية التنقل فيها، مع وجود رغد عيشها وأكلها في كل مكان يقصده آدم وزوجه، فلا يحتاج إلى مكان مخصوص، ليتناول فيه طعام مخصوص. بل في كل مكان رغد العيش فيها. مما يفيد عظيم نعيم الجنة وسعته.

ونهاهما عن الأَكل من الشجرة ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ مبيناً لهما سبحانه وتعالى جزاء من أكل منها ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: أوقعتما أنفسكما مع فئة الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية، فاستحقوا العذاب.

وفي الآيات بيان أن حكمة الله تعالى اقتضت الابتلاء لعباده، حيث ابتلى آدم بأن لا يأكل من تلك الشجرة التي نهاه عنها ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وفيها بيان عاقبة

الابتلاء والجزاء على وجه العموم ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن النهي عنها، لكي لا يحصل لكما الوقوع في دائرة الظالمين وحكم الظالمين. مما يبين أن لله تعالى الحكمة البالغة في أمره ونهيه، فما نهى عنه قد استوجب الابتعاد عنه، دون النظر إلى العلة، فقد تكون ظاهرة، وقد تكون خفية، وليس للمخلوق إلا الاتباع والطاعة. مما يدلل على أن معصية العبد لربه ظلم لنفسه، فيلزمه الطاعة واجتناب المعصية. وألا يسأل عن علة النهي إن لم يعرفها. فلله الحكمة البالغة.

وفي الآيات أن الشيطان عدو للإنسان منذ خَلَق الله تعالى أبينا آدم عليه السلام، حيث قال تعالى ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ فالذي كان من الشيطان هو أنه ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ﴾ من الزلل، الذي يعني الخروج عن الطريق بالغواية. أي: جعلها يفعلان ما نهاهما الله تعالى عنه، فخرجا عما كانا عليه من الطاعة إلى الأكل من الشجرة ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴾ كما قال الله تعالى في سورة الأعراف ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ وبهذا الإزلال عن الطاعة جاءتها العقوبة من الله تعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ فأخرج الله تعالى آدم وزوجته حواء من الجنة. وفي هذا تعليم لذريته من بعده أن يتخذوا الشيطان عدواً لهم، وأن يحذروا وسوسته وغوايته، التي ترمي إلى إخراجهم وإبعادهم عن دخول الجنة.

وقال تعالى عن جزاء تلك المعصية ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ مما يفيد أن الجنة ليست مكاناً للعداوة والبغضاء، بل مستقر نعيم، وأن مكان العداوة هي الأرض. وبهذه الآيات قامت الحجة على الإنسان، من أن عدوه الأول هو الشيطان الرجيم، وأن من قدراته الشيطانية استزلال الإنس، وتزيين المعصية والإتيان لها بالحجة المغرية لفعلها، مما يستوجب الحذر منه حتى لا يُبْعِدَ الإنسان عن الجنة، كما أخرج منها آدم عليه السلام. قال تعالى ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ والهبوط هو النزول من علو. أي: من الجنة إلى الأرض ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ الإعلام بأن الشيطان عدو لكم، لأنه يتخذكم أعداء له. بما

يفيد التحذير من عداوته التي يستخدم فيها إزلال الإنسان وإيقاعه في المعصية، كما أزل آدم وحواء، وأغراهما بأنه لهما من الناصحين. فهو لا يُظهر عداوته، بل يبطنها، لتحقيق مآربه الخبيثة.

وفي قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فإن لكم في الأرض قرار وانتفاع، وحياة إلى آجالكم وانقطاع الدنيا. وهذا دليل على أن مستقر بني آدم والشيطان في الأرض إلى حين، أي إلى أجل محدود. وهي حياة كل فرد إلى موته، وحياة البشرية إلى يوم القيامة، وانتهاء الحياة من الأرض. وبالتالي هي المستقر المؤقت إلى وقت محدود معلوم عند الله تعالى، وجعل الله تعالى في الأرض حياة ومتاع مؤقت ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وهو كل ما يُستمتع به من أكل ولبس وحياة وغير ذلك، ولكنه متاع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى وقت حدده الله تعالى

ومن فوائد: العلم بأن الحياة الدنيا متاع إلى حين. بيان وإظهار لما يلزم الإنسان من الاستمتاع بما فيها لما بعدها، لأن متاع الدنيا هو إلى حين، وأن تكون كل متعة فيها موصلة لنعيم الجنة الدائم القائم، الذي لا يزول ولا ينقص، وأخذها كطريق يصل الإنسان بها ومن خلاله للدار الآخرة. لأن الدنيا دار فناء مؤقته إلى حين.

ودلالة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ تستوقف العقل، من أن الدنيا متاع ولكنه إلى حين. وأن الدنيا عمل، ولكنه إلى حين. وأن يلتزم بتكاليف الشريعة إلى حين، وأن عدوه الشيطان معه، ولكنه إلى حين، فليتخذه عدواً إلى حين، وليصبر إلى حين. وليصبر على طاعة الله تعالى إلى حين. فليكن قوله تعالى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ قوة وأملاً وطريقاً يتجاوز به كلّ عائقٍ لطريق الجنة. ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فإذا واجهته مغريات الدنيا وفتنتها قال بقوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وإن تكاسل عن طاعة أقام نفسه بقوله عَزَّ وجل ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وإن رأى مغروراً بالدنيا وعظه بقوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ

﴿حِينٍ﴾ لتكون قاعدة عظيمة لمسلك الإنسان وفكره وتصرفاته. وقاعدة ضابطة له في كل شأن وأمر. فليتخذها المؤمن قاعدة واعظة له في حياته، ليصل بها إلى آخرته.

وقد أفادت الآيات الكريمات بعظيم الأمر الذي كان به الهبوط من العلو إلى الأسفل، فمن الجنة إلى الأرض، ليتحقق بهذا الهبوط إلى الأرض حياة الثقلين: الإنس والجن. بسبب استزلال الشيطان لآدم عليه السلام. وما وقع من أكل الشجرة التي أُمِرَ أن لا يأكل منها ﴿**قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا**﴾ عقوبة من الله تعالى بالنزول بعد العلو، وبالحياة الدنيا بعد نعيم الجنة وكريم المستقر. فإن لكم في الأرض قرار وانتفاع، وحياة إلى آجالكم وانقطاع الدنيا.

ثم إن رحمة الله تعالى وعنايته تلاحق الإنسان وتُحيط به ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وبالرغم من خطيئة آدم عليه السلام إلا أن الله تعالى رحيم بهذا الإنسان، ولطيف به ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فتلقن آدم من الله تعالى كلمات هي قوله ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ فاعترف بذنبه وسأل الله تعالى المغفرة، فتاب على آدم[١] كما ورد في سورة الأعراف ﴿**فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾**﴾ وهو قول ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد وعطاء[٢] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فقبل الله تعالى توبته ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وهذا من رحمة الله تعالى أن قبل توبته. وهذه الرحمة وهذه العناية وهذا الفضل وهذا التكريم لهذا

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان (٥٣/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٧/١)

الإنسان يستوجب على العبد محبة ربه وخالقه المتفضل عليه بالنعم والعناية الفائقة، والذي أكرمه وأحسن إليه غاية الإحسان.

ثم أوضح وبين سبحانه وتعالى في تمام نهاية الآية الكريمة صفتين عظيمتين له عَزَّ وجل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يخبر الله تعالى أن ربكم هو الذي يتوب على من تاب، واستغفر وأناب. وأنه الرحيم. أي: المتصف بالرحمة لجميع الكائنات، ولجميع العباد بما أنعم به عليهم وأن مَنْ هذه صفاته استوجب من العبد أن يتوب ويرجع إلى ربه عَزَّ جل، والطمع في رحمته والانقياد له: محبة له وطمعاً في كرمه ورحمته، وخوفاً من عقابه وزوال نعمته.

فإنه سبحانه وتعالى هو ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ التي تعني وتفيد المبالغة في قبول التوبة من العباد، مهما بلغت بهم الذنوب إذا تابوا. والتوبة تقتضي ترك ما سبق من الكفر والمعاصي، والندم على ما كان، والعزم على أن لا يعود إلى الذنب الذي تاب منه.

كما أنه سبحانه وتعالى هو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المتصف بالرحمة لجميع الكائنات، ولجميع العباد بما أنعم به عليهم من النِّعَم، وبحلمه عليهم، وبرحمته لمن تاب وأناب إليه تبارك وتعالى، فهو الرحيم بعباده المؤمنين سبحانه وتعالى. وفي الجمع بين التوبة والرحمة ما يَظهر به أنه مع كمال العزة التي هي لربكم أيها العباد فإنه مع ذلك تواب رحيم. بل ووردت ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغة المبالغة، والتي تعني وصول رحمته بالعباد إلى أقصاها. مما يقطع اليأس عند العباد من رحمته تبارك وتعالى.

وقد بدأ مطلع البيان الكريم بنون التوكيد ﴿إِنَّهُۥ﴾ الذي التحقت بضمير الإشارة لمقامه سبحانه وتعالى، ثم حُصر الاسم والصفة الكاملة التامة من التوبة والرحمة له فقط دون غير ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾ سبحانه وتعالى. فليس لغيره عَزَّ وجل شيء من كمال التوبة لغيره، ولا يملك أحدٌ شيئاً من الرحمة لغيره. فإنه سبحانه وتعالى هو الذي يملكها فقط. فليس لأحد غيره إلا بما يمنحه لعباده من الاستغفار لغيرهم، والشفقة في حدود قدرتهم القاصرة. وبما يفيد عليكم بموجبات تحقق توبة ورحمة ربكم عَزَّ وجل، وذلك بطاعته سبحانه وتعالى في الدنيا لتحظوا بما يناله أهل الرحمة من عباده

الطائعين لربهم جَلَّ في علاه. وأن تتوبوا إليه، وتعودوا إلى طاعته عَزَّ وجل. وفي هذا ترغيب شديد للعباد بالطاعة، والتماس رحمته وتوبته. فينذرهم ويرغبهم في العاقبة الحسنة، ويحذرهم من العاقبة السيئة. فالحمد لله رب العالمين.

وتلاحق رحمة الله تعالى عباده، بما وعدهم به، ووعده حق. بأن يُرسل لهم هداية من الرُسِل والكتب، التي تبين المسلك الصحيح والطريق المستقيم، فقال عَزَّ وجل ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فأمرهم الله تعالى بالهبوط إلى الأرض، عقوبة من الله عَزَّ في علاه بالنزول بعد العلو، وبالحياة الدنيا بعد نعيم الجنة وكريم المستقر. فإن لكم في الأرض قرار وانتفاع، وحياة إلى آجالكم وانقطاع الدنيا.

ثم أخبرهم بما ينالون به الجنة، فقال الله تعالى ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فيأتيكم من ربكم الهدى، الذي يشمل الكتب، والرسل عليهم الصلاة والسلام. ثم بين حال من يأخذ بالطاعة، وحال من لا يستجيب للهدى، فقال تعالى ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فالذين يتبعون هدى الله تعالى، فإنه لا خوف عليهم مما هم قادمون عليه، ولا ألم وتحسر على ما يفوتهم من الدنيا. ومن دقائق السياق أن بيان النفي للخوف متعلق بالمستقبل. والحزن متعلق بالماضي، فنفى عن المطيعين لربهم كلا الأمرين، بما يثبت لهم كمال النعيم الخالي من هذين المنغصين على الإنسان. لإفادة كمال السعادة التي تكون لهم في الجنة.

فمن رحمته سبحانه وتعالى أن بين لهم حال ومآل من اتبع هداه، فلا يخاف ولا يحزن. فلا يخاف حالاً ولا مستقبلاً، ولا يحزن على شيء قد مضى وانتهى، حتى لا تتكدر الحياة. لأن الخوف والحزن ألم وهلع وفزع، متعلق بحاضر ومستقبل. فالحزن متعلقٌ بشيء قد مضى، يتحسر ويندم عليه. والخوف متعلق بحاضر ومستقبل يخاف منه.

فَشَرْعُ الله هو الهدى الذي يمنع عن البشرية الشر، ويجلب لهم الخير إن أطاعوا واتبعوا هدى الله تعالى. وأما من كفر وكذب بالهدى وبآيات الله تعالى، فإن مصيره النار خالداً فيها.

فهذا الخالق المالك تبارك وتعالى يبين ويوضح ويرشد عباده إلى هديه وهُدَاه، ويقبل التوبة ويعفو ويصفح لمن تاب وأطاع، ويرحم عباده بفضله ومنِّه، وهو مالكهم وما يملكون، فحري بالعبد المملوك أن يكون رحيما ومرشداً وصفوحاً وعفواً مع من يماثله من عباد الله تعالى، وهو ليس مالكاً لهم، بل عبدٌ مثلهم لله تعالى.

ثم قال عَزَّ وجل عن الذين لا يتبعون هداه بأن مصيرهم إلى النار ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ والذين كفروا، فكذبوا ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ وهي الحجج والبراهين التي يأتي بها المرسلون عليهم الصلاة والسلام ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فهؤلاء الكفرة هم المصاحبون للنار، وأيضاً مصاحبتهم فيها خالدة، لا ينقطع عنهم عذاب النار أبداً. مما يفيد الإنذار بالإعلام والتوضيح. الذي ينفي الظلم عن الله تعالى في الجزاء.

فتنتهي الآيات الكريمات بالوعد لمن كفر بعذاب أليم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وهذا زجرٌ ووعيد ممن لا يخلف وعده، ليحذر الإنسان من الكفر وما يؤل إليه من الخسارة الفادحة التي عاقبتها الخلود المؤبد في النار.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان الله تعالى عن بني إسرائيل ورحمته بهم عَزَّ وجل، وقد جاء الخطاب مباشراً ومذكراً لهم، ومبيناً للمؤمنين وغيرهم جميل إحسانه سبحانه وتعالى بهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام. وقد بين تبارك وتعالى في هذا السياق عموم النعم على بني اسرائيل، ومطالباً لهم بعموم الوفاء، حتى يوفي لهم الجزاء غير منقوص. وورد الخطاب بصيغة النداء ﴿ يَٰبَنِيٓ ﴾ والذي يحمل في دلالاته الدعوة لهم بالانتباه والإنصات لمن يناديهم

فقد افتتح الله تعالى توجيهه الكريم إلى بني إسرائيل بأحسن الألقاب وأطيبها ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ بما يفيد التذكير لهم بما ينتمون إليه، وهو يعقوب عليه الصلاة والسلام. وهي منزلة كريمة. وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي منهم هذا النداء الكريم الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

فقد نسبهم إلى نبيهم يعقوب عليه السلام، الذي هو إسرائيل ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ وهذا من لطفه تبارك وتعالى، إذ يخاطبهم بهذا التكريم. مذكراً لهم بما أنعم عليهم من النعم التي يعرفونها تماماً، على ما سيأتي بيانها في آيات قادمة بإذن الله تعالى ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ وهي تشمل جميع إنعامه سبحانه وتعالى عليهم، ومن ذلك نعمة التوراة المشتملة على صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وإنجائه لآبائهم وأجدادهم من فرعون وقومه، وأهلك عدوهم بالغرق، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعامهم المن والسلوى. ومن دقائق البيان أن أورد تبارك وتعالى هذا الإنعام بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱذۡكُرُواْ ﴾ والتي تفيد وجوب الشكر، لأن من لا يشكر لا يذكر النعمة. كما

أوردها بالتخصيص ﴿ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ وفيها عظيم الامتنان ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ﴾ فقد خصصتكم بما تعرفون من عظيم الإنعام، الذي يستوجب اتباع الرسول الموصوف في التوراة صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد التذكير بما يعرفون من نعيم الله عليهم، يأمرهم سبحانه وتعالى بالوفاء بما عاهدوا الله تعالى عليه ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ ﴾ ليجازيهم بما وعدهم تبارك وتعالى ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾

فأمرهم بالوفاء بالعهد ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ ﴾ وهو طاعته سبحانه وتعالى، واجتناب ما نهاهم عنه. ومن ذلك ما عهده إليهم في التوراة من صفة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: وهو في هذا الموضع: عهد الله تعالى ووصيته التي أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن يبينوا للناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم، أنه رسول، وأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، أنه نبي الله، وأن يؤمنوا به، وبما جاء به من عند الله تعالى[١] مما يبين أن بني إسرائيل يعرفون نبوته صلى الله عليه وسلم. فإن وفيتم بعهدي ﴿ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ وهو دخول الجنة. مما يفيد إن لم يحصل منكم الوفاء بالعهد، فلن أوفيكم بما عهدتكم به، لأنكم نقضتم العهد.

فيظهر هنا لطف الله تعالى في مخاطبتهم وتذكيرهم، في تدرج خطابي، غاية في البلاغة والتأثير، ابتداء بالنداء، ثم أنسبهم إلى النبي يعقوب عليه الصلاة والسلام، ثم التذكير بما أنعم عليهم من نعمائه، ثم يأمرهم بالوفاء الذي جزاؤه أن يوفيهم الله تعالى ما وعدهم. ويُفيد هذا أهمية التدرج والترتيب البياني في الخطاب والتعليم والدعوة، وفي التذكير والتصحيح الفكري الذي يوعظ الغافل من غفلته، وكذلك لم يكن في خطاب الله تعالى تهجمٌ عليهم، مما يفيد أهمية ألا يبتدئ الناصح نصيحته بالتعيير والتهجم، بل يستحث ويستثير عند المنصوح مكامن الاندفاع نحو الاستماع والاستجابة. وكذلك أهمية الملاطفة في النداء بين الناس، بأحب وأفضل ما يكون. فإذا كان الله تعالى يُخاطب عباده بهذه الصيغة اللطيفة، فذلك ادعى بين العباد فيما بينهم.

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٩٦/١)

ومن فوائد هذه الآية الكريمة أنها تحمل توجيهاً إجمالياً، يأتي بعده التفصيل، لأن في إدراك العام انجذاب السامع والْمُخاطَب لمعرفة ما يليه من تفاصيل. وهو أسلوب في غاية الأهمية والجاذبية للتبصر والتأمل والرجوع بالذهن للحقيقة التي يجب أن يعمل بها. كما أن في التذكير بالنعم ما يستثير عند الْمُخَاطب العاقل جانب الحياء من الْمُنعم، فيدفعه ليتابع الاستماع والانقياد للتوجيه والعمل به، إلا من كان في قلبه مرض وعناد.

وفي ذكر تفاصيل بني إسرائيل، ما يَدل على نبوة نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم. لأنه عاش عليه الصلاة والسلام في مكة أُمياً لا يقرأ ولا يكتب، حتى ينفي تبارك وتعالى عنه صلى الله عليه وسلم أي ظن بمعرفة سابقة لهذا البيان التفصيلي عن حقائق تَعْرِفُها بني إسرائيل. وكذلك من الفوائد أن هذا التوجيه الخطابي لأهل الديانة السابقة دليل على أن القرآن الكريم وهذا الدين لكل أحد من الناس، حتى من جاءتهم الرُسُلُ السابقة، كبني إسرائيل.

وتضمنت هذه الآية الكريمة تذكيرُهم بعموم النعم، ومطالبتهم الوفاء بالعهد الذي عهد إليهم به رَبُّنَا تبارك وتعالى: من الإيمان بالله وبرُسُلِه وخاتمتهم محمد صلى الله عليه وسلم، وإقامة شرعه. ليأخذوا الجزاء من الله تعالى كاملاً، ثم أمرهم بالرهبة والخشية منه تبارك وتعالى، لأن الرهبة توجب الطاعة ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ فخافوا ربكم المخافة التي تُلزمكم بالوفاء بالعهد، ومن ذلك وصيته عَزَّ وجل التي أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن يبينوا للناس أمر محمد صلى الله عليه وسلم، أنه رسول، وأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، أنه نبي الله، وأن يؤمنوا به، وبما جاء به من عند الله تعالى

ثم يقول الله تعالى لهم ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ فأمر الله تعالى بني إسرائيل بالإيمان بما نَزّل ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ ﴾ والذي أنزله الله تعالى هو القرآن الكريم، الذي هو ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ أي مؤكداً، غير مناقض لما معكم من الكتب. مما يفيد أن أهل الكتاب بما عندهم من

الكتب السماوية السابقة يعرفون صدق القرآن الكريم. وبالتالي فإن هذه علامة لهم بصدق محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول من الله تعالى.

فبعد بيان حقيقة ما تبين لهم من الحق، وأكده لهم بما عندهم من التوراة والإنجيل، فأصبح متأكِّداً لديهم، انتقل التوجيه الكريم بعد ذلك إلى نهيهم عن إنكاره والكفر به. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ ﴾ ولا تكونوا أول من يكفر بما يعرفون من الحق. فلا تكون أول من يكفر من أمتكم بالقرآن وبرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو دفع لهم نحو الإيمان بما هو مؤكد لديهم، وتحذير لهم، وتنبيه لتبعات كفرهم على غيرهم.

وهذا من التدرج في السياق والإثبات. إذ بدأ معهم البيان الكريم بالنداء، وتذكيرهم بمنزلتهم من رسول الله إسرائيل، الذي هو يعقوب عليه الصلاة والسلام، وبجميع ما أنعم به عليهم، ثم التذكير بالعهد المأخوذ عليهم، ووجوب الوفاء به، ثم الموعظة بأن يرهبوا ربهم، ويخافوا من عقابه، ثم النهي عن الكفر بما نَزَل من الحق على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يتدرج معهم في الخطاب إلى النهي عن أن يُقدموا منافع الدنيا الوهمية على آيات الله التي تحقق لهم خير الدارين ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ لا تستبدلوا ثمناً قليلاً بأمر عظيم. فالثمن هو طمعهم فيما هم عليه من الرئاسة عن بيان الحق واتباعه. ويشمل كل أمر مُوصل إلى الاستئثار بالدنيا عن بيان الحق الذي عندهم في الكتاب، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم. فينهاهم تبارك وتعالى عن الاستعاضة بالثمن القليل عن آياته تبارك وتعالى، وكل ثمن هو قليل مقابل الإيمان بآيات الله تعالى، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنها هي الأغلى والأعلى.

ويتبين من ذلك تنويع أسلوب الخطاب، بالتذكير والأمر بوفاء العهد والتقوى، والإيمان بما نزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ومتوجَ ذلك بالدليل القاطع، مِن أنه لا يناقض ما معكم من الكتب، بل مصدقاً لها. ثم النهي عن بخس آيات الله تعالى بعد أن علمتم الحقيقة، وَمَثَّلَ لهم: أن تقديم ما يتوهمون على آيات الله تعالى وأدلته كمن يشتري بها شيئاً زهيداً. فتقديم هوى النفس وكل شيء يتوهمونه هو ثمنٌ قليلٌ لآيات الله تعالى وأوامره. وهذا يؤكد أن سلعة الله عَزَّ في علاه غالية، وليس هناك أعز منها، وألا يُقدِّم المؤمنُ عليها أمراً مخالفاً لها، معتقداً أنه يجر منفعة له.

فإن آيات الله تعالى أعظم من أن يُشْتَرَى بها ثمناً قليلا. وكل ما عداها دونها، فهو قليل وزهيد مقارنة بعظيم آيات الله تعالى ووعده ووعيده وجناته، جنات الخلود.

ثم يأمرهم الله تعالى بأمرٍ في غاية الأهمية ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ فعليكم أن تتقوا ربكم، بالخوف والحذر منه ومن عقابه لكم. لأن تقوى الله تعالى تُوجِب الطاعة، وتوجب تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، وأما إذا تم اختيار الثمن القليل فدليل على ذهاب التقوى من القلوب، واستحقاقها العذاب الأليم. فقد أوجز البيان الكريم بالتحذير ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ فهو أمر في غاية ما يجب أن يكون عليه العباد.

وفي هذا ما يدل على أن التقوى توجب الطاعة، وأن عدم التقوى تتحقق بها المعصية، وأن المرء يستطيع أن يعرف مدى تقواه بمدى طاعته لله تعالى وخوفه من إثم المعصية، والطمع في رحمته سبحانه وتعالى.

ثم يأتي النهي لبني إسرائيل عن خلط الحق بالباطل، وكذلك النهي عن كتمانه. فقال الله تعالى ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ولا تخلطوا الحق بالباطل من أجل تحقيق مرادكم من شراء الزهيد الفاني على حساب العظيم الباغي. واستخدم البيان دلالة اللبس ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟﴾ وهو الخلط الذي يخفي به الحق في مدارج الباطل، وهو من باب الإعماء والتضليل. والحق هو الإسلام، ونبوته صلى الله عليه وسلم، والباطل هو نكرانه بأساليب ملتوية.

فقد أفادت الآية الكريمة أنهم يعرفون الحق ويعلمونه علماً يقينياً. إذ أن التلبيس بين الحق والباطل لا يكون إلا ممن عرف الإثنين معرفة حقيقية، وفي هذا كشف لهم عن حقيقة ما يعرفون، بما يؤكد عندهم صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. وأنهم يعرفونه كما يعرفون أنفسهم، لما عندهم من الحق الموافق لما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا يفيد أن العالم بالحق يلزمه الحذر والبُعد عن خلطه بالباطل أو كتمانه عن الناس. ليحقق به نفعاً يظنه في حسبانه الفاني.

ثم بعد النهي عن التدليس والتلبيس بين الحق والباطل يتدرج بهم البيان الكريم إلى النهي عن كتمان ما يعرفون من الحق. فقال عزَّ وجل ﴿ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: ولا تكتموا الحق الذي هو نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كما هو عندهم في التوراة، وهذا الدين الحنيف ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وأنتم تعلمون أن نبوته صلى الله عليه وسلم حق، ودينه حق، فتكتمونه عن علم منكم بكتمان الحقيقة، أي: متقصدين هذا المنحى. وفي هذا معالجة من الله تعالى لما عليه نفوسهم من الاستعلاء بما هم عليه، والحسد من أن يكون مبعث الدين في غيرهم. مما يبين أثر الحسد وقوته، مما يستوجب على الإنسان أن يحذر من الحسد، فهو السبب في التقاتل والتنازع، ودفع الحق، ونصرة الباطل.

ثم يأتي التدرج في التوجيه والبيان إلى الأمر بأداء العبادات ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ أي: صلوا مع المسلمين. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم(١) قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أمرهم الله تعالى بإقام الصلاة مع المسلمين الْمُصَدِّقين بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، وإيتاء زكاة أموالهم معهم، وأن يخضعوا لله تبارك وتعال، ولرسوله صلى الله عليه وسلم(٢)

وفي ذكر الصلاة مرة ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ والإشارة لها بالركوع مرة أخرى ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ تكرار تأكيدي لبيان أهميتها على وجه العموم، ومشاركة مؤديها على وجه الخصوص، وبأسلوب لفظي بديع، امتنع به تكرار اللفظ، وحقق معناً زائداً بمشاركة مؤديها، كما يبين هذا الأسلوب أن الإشارة للكل بالجزء يتضمنه ويشمله جميعاً، لأنه لا يتم الواجب إلا بها جميعاً، ولا يُغني الجزء عن الكل، وأن التعبير بالجزء لا يعني ترك الكل الذي لا تتم حقيقته إلا بها جميعاً. وكذلك مثل التعبير عن الصلاة بالسجود، فلا يعني ترك الصلاة والاستعاضة عنها بالسجود، كقوله تعالى في

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٢/١)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦١١/١)

سورة الفرقان ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ وفي ورود الصلاة والزكاة بفعل الأمر ما يفيد الوجوب الذي لا خيار للمؤمن فيه. كما أن في تعيين الصلاة من بين العبادات دليل على عظمتها، وأنها رأس الأمر في العبادات بعد الإيمان. وفي تعيين الزكاة كذلك ما يبين عظيم شأنها، فكما أن الصلاة عبادة لله تعالى، بمشاركة المؤمنين في الأداء المماثل معهم، فكذلك الزكاة عبادة لله تعالى بالمشاركة مع الغير على وجه الإعانة. وفي تسميتها بالزكاة، ما يفيد أنها نماء للمعطي، لأن الزكاة تعني الزيادة والنماء. فهي نقص من وجه ولكن هذا النقص يحقق البركة والزياة والنماء، والذي يراه أهل الزكاة في أموالهم، ولله الحمد. وهذا يدل على عناية الإسلام بالتكافل والتعاون الاجتماعي. وأن للمسكين والفقير حق في مال الغني، وكذلك بقية أصناف أهل الزكاة، وهم: العاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب.

ثم يأتي سياق استنكاري آخر لما يقومون به من الأمر بالمعروف دون أن يأتمروا به، ويدخل في ذلك عدم ائتمارهم بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ إذ أنه من البر أن يَدخلوا فيما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وكان يهود المدينة يقولون لمن بينهم وبينه صلة ممن أسلم من أهل المدينة: أُثْبُت على ما أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل، فإن أمره حق. ويقصدون بهذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم. فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه.(١) وقد ورد البيان الكريم بدلالة البر ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ ﴾ والبريجمع مفردات الخير جميعاً. وبالتالي كيف تُوجهون الناس إلى البر من العبادة والطاعة ﴿ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ ولا تأتمرون أنتم بما أمرتم غيركم به. وكأن حالكم هو حال من نسي نفسه من البر فلم يعمل به. سؤال توبيخ ولوم يستثير التفكير عندهم وعند كل الْمُخَاطَبِين، كيف تحث الناس على البر، الذي يفيد كما إدراكك له، وفي نفس الوقت لا تعمل، وتؤديه. سؤال يقيم الحجة على أشرافهم وعلمائهم، ويبين لهم مكمن الخطأ.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/٢٤٨)

وهذا يفيد أهمية الانتباه من أن يأمر المرء بالخير، ولا يأتمر به، أو إذا جاءه من يأمُرُه بالخير استنكف أن يفعل ذلك. فوصف الله صنيع ذلك بمن لا يعقل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فكأنه لم يعقل ولم ينتفع بعقله. وبما يفيد أنه تصرف ينافي العقل، ويتنافى مع العقلاء. أفلستم عقلاء؟ تدركون الحق والباطل. أليست لكم عقول؟ سؤال يعيدهم إلى التبصر، وتفقد أحوالهم ومسيرتهم الباطلة.

وهذا يفيد أهمية التبصر والتواضع للحق، وكسر هوى النفس، وأن من يعرف الحق والخير ولا يأخذ به، أو يأمر به ولا يعمله كالذي لا يعقل، وهو الذي لم ينتفع بعقله.

ثم أرشد الحق تبارك وتعالى إلى خير مُعِينٍ على الحق وأداء المعروف وهو الصبر وإقامة الصلاة، فقال الله سبحانه وتعالى ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ يأمر الله تبارك وتعالى عباده بأن يستعينوا بالصبر وبالصلاة فإنها خير معين بإذن الله تعالى على الطاعة والنصرة، واجتناب المعصية. والصبر كما قال ابن قيم الجوزية: أن الصبر نقيض الجزع، وهو حبس النفس عن الجزع، والتصبر، وتَكَلُّف الصبر. وقال عمر بن عثمان المكي: هو: الثبات مع الله، وتَلَقّي بلائه بالرحب والدعة[1] وهذا يدل على أن الصبر وسيلة عظيمة للاستقامة وقبول الحق والثبات، والاستمرار عليه، لما تحتاجه النفس من الصبر في مغالبتها على هواها. وكذا مغالبة شياطين الإنس والجن بالصبر على الطاعة، والبعد عن المعصية. وكذلك الصلاة التي لها أثر عظيم في عون الله تعالى لمؤديها وإعانته على الخير ودفع الشر.

ثم أخبر تبارك وتعالى عن أن الصلاة ثقيلة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ﴾ فإنها لصعبة وشاقة على غير الخاشعين. وخفيفة غير شاقة على الخاشعين الخاضعة قلوبُهُم لله تعالى. مما يفيد أن غير الخاشعين يشعرون بثقل أدائها، وأنها شاقة عليهم. والخشوع هو الخوف والسكون والتذلل وخضوع القلب لله تبارك وتعالى. وهذا يفيد أن خير ما يستعين به المسلم بعد الله تعالى، هو الصبر والصلاة، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. قال حذيفة رضي الله تعالى

(١) ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين (١٧)

عنه (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلى) [١] ومن صفات الخاشعين أنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ أي الذين يؤمنون بأنهم ملاقوا ربهم، وأنهم محشورون إليه يوم القيامة، وأن أمورهم راجعة إلى مشيئة الله تعالى. مما يدل على أن هذا الإيمان كان دافعاً لعمل الطاعات، والخضوع لله رب العالمين. مما يؤكد أن الإيمان قوة لضبط النفس على الخير، والانتهاء عن الشر.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

ثم يتكرر الخطاب من الله تعالى لبني إسرائيل بأسلوب النداء، وبما ينتمون إلى رسولهم إسرائيل الذي هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فقد نسبهم إلى نبيهم يعقوب عليه السلام، الذي هو إسرائيل ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وهذا من لطفه تبارك وتعالى، إذ يخاطبهم بهذا التكريم. مذكراً لهم بما أنعم عليهم من النعم التي يعرفونها تماماً، على ما سيأتي بيانها في آيات قادمة بإذن الله تعالى ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ وهي تشمل جميع إنعامه سبحانه وتعالى عليهم، ومن ذلك نعمة التوراة المشتملة على صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وإنجائه لآبائهم وأجدادهم من فرعون وقومه، وأهلك عدوهم بالغرق، وتفجير عيون الماء من الحجر،

---

(١) أحمد (٣٨/٣٣٠) برقم (٢٣٢٩٩)

وإطعامهم المن والسلوى. ومن دقائق البيان أن أورد تبارك وتعالى هذا الإنعام بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱذۡكُرُواْ ﴾ والتي تفيد وجوب الشكر، لأن من لا يشكر لا يذكر النعمة. كما أوردها بالتخصيص ﴿ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ وفيها عظيم الامتنان ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ﴾ فقد خصصتكم بما تعرفون من عظيم الإنعام، الذي يستوجب اتباع الرسول الموصوف في التوراة صلى الله عليه وسلم. ثم يُضيف إلى عموم الإنعام نعمة التخصيص بالتفضيل، فقال الله تعالى ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فقد ميزتكم بالتفضيل على عالم زمانكم.

فقد تكرر في هذا السياق الكريم تذكير بني إسرائيل بصيغة النداء، ولفت الانتباه، إلى النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم. ويُفيد هذا أيضاً تعليم المؤمنين بما حصل فيمن كان قبلهم، ومنها تفضيل بني إسرائيل على العالمين ﴿ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ والتي يتبين منها أيضاً حقيقة أخرى، يمكن استنباطها من حقيقة هذا التفضيل. وهي أن هذا القرآن الكريم، لو كان من عند غير الله تعالى، لما قال لهم: إن الله فضلكم على العالمين. فلن يمدحهم ويثني عليهم بهذا الثناء. مما يؤكد أن هذا الكلام هو كلام الله تعالى، وأن هذا النبي صادق عليه الصلاة والسلام، ولا ينطق عن الهوى، بل هو وحيٌ يُوحَى إليه، ويبلغه كما أُنزِل عليه.

ويفيد هذا السياق القرآني الكريم أهمية تكرار التذكير للوعظ والتخويف والتحذير من مغبة المعصية واستنكاف قبول الحق.

ويذكرهم الله تعالى بمزيد فضله وإنعامه، من أنه فَضَّلَهُم على عالم زمانهم، وقيل على كل العالمين لما جعل فيهم من الأنبياء[١] ثم يأتي الأمر بالتقوى التي يلزم منها التصديق والإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به. وهذا الأمر جاء من خلال التنويه والتذكير بالرجوع إليه عَزَّ وجل ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ فأشار تبارك وتعالى إلى ما تميز به ذلك اليوم، من العواقب المغنية عن ذكرها، وفي هذا الأسلوب تعريض بشدة ذلك اليوم الذي لا يغني ولا ينفع أحدٌ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/٢٥٦)

عن أحدٍ شيئاً إلا بعمله، فلا صديق ولا قريب ولا أقل ولا أكثر يستطيع أن ينتفع بعمل غيره. فكل بعمله إلا ما شاء الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى أمراً آخر في هذا اليوم ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ فلا يُقبل من أحد شفاعة لأحد. وهي النفوس الكافرة التي لم تترك لعظم ذنبها الكفري مجالا لعفو الله تعالى وقبول شفاعتهم ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فداء. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا أحد يُقَدِّم لأحدٍ نصراً وعوناً. وهذا الجزاء يدل على كفر من لم يؤمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، حتى من أهل الأديان السماوية السابقة. وفيما يخص الشفاعة، فهناك تفصيل لها ولأنواعها في كتب العقيدة.

وقد جاء هذا التدرج إلى المحك الختامي لما بعد الدنيا، فعبر عن ذلك اليوم بمحتوياته الخاصة بعمل الفرد من الناس، الذي ينتفي فيه الانتصار والنصير بالغير، وفداء النفس بما يمكن، مما يوجب للعبد أمام هذا الموقف الخوف ومحاسبة النفس، ويتذكر أنه يجب عليه أن يقطع تعلقه واعتماده على أحد غير الله تعالى لينجيه ويدفع عنه هول ذلك اليوم، فلا قبيلة ولا نسب ولا حسب، ولا كونه من سلالة أحد من الصالحين، أو من سلالة نبي، أو غير ذلك، فليس أمام الفرد إلا قطع العلائق بكل أحد غير الله تعالى.

وهذا يفيد تربوياً ودعوياً، أهمية البدء بالنعم للتذكير بها، فإنها توجب للسوي من الناس الحياء من الْمُنْعِم المتفضل، ثم التذكير بما يُرَغِّب في الصلاح وقبول الحق والإخلاص، ثم التخويف ليكون ختام الأساليب.

ثم بعد التخويف يعاودهم الله تعالى بتكرار التذكير بالنعم، مما يدل على رحمة الله تعالى، ومحبته لأن يهتدي الإنسان ويتوب إلى الله تعالى، فيجدد لهم الدعوة والتذكير بالأساليب المتنوعة المتعاقبة في غير إطناب ممل، ولا اختصار مُخل، فأي رحمة أعظم من هذه الرحمة الربانية الدالة على أسمائه الحسنى وصفاته العليا تبارك وتعالى. حيث ينتقل بهم إلى التذكير بنعمة النجاة من فرعون. إذ نجاهم الله من بطشه وإذلاله أمام أعينهم بالغرق في البحر هو وأعوانه. فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل عندما كان

فرعون يُذل أسلافكم من آبائكم السابقين، فنجيناكم منه بقوتنا وقدرتنا. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فقد كان يسومهم بالإذلال والاستخفاف بهم، فيستخدمهم في أصعب الأعمال، ليعذبهم سوء العذاب.[1] وقد أعطت دلالة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يُولونكم، ويذيقونكم، مع المداومة على ذلك ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أسوأ أنواع العذاب. وهذا إجمال لما لحق بهم من فرعون، حتى يدركوا القضية برمتها، ثم ليأتي بعده التفصيل والتفنيد الذي يوجب شكر الْمُعِين المنقذ لهم عَزَّ في علاه، فقال تعالى ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فقد كان فرعون وقومه يقتلون أبناءكم صغاراً، حتى لا تكثرون بالتوالد. فأي بلاء أشد من هذا البلاء الذي أنقذكم الله تعالى منه. بل ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي فَيُبْقُون بناتهم للخدمة والاستذلال.[2] فَذَكَّرَهُم تبارك وتعالى بنعمة إنقاذهم من فرعون، الذي أذلهم وعذبهم وسفك دماء أبنائهم ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ففي ذلك الإنجاء إحسان عظيم من الله تعالى. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم[3] مما يبين أهمية التذكير بالإنعام في الوعظ، فهو وسيلة بتجديد التذكر للنعمة، ولغيرها.

ومن جميل البيان الكريم هو التنقل في الأسلوب والتنويع والتكرار بما يُحَفِّز العقل ويستثير الفكر والتفكير في كل وجه من أوجه المواعظ، وذلك بما يحتويه التوجيه من الترغيب والترهيب؛ والبيان العميق من أجل أن يثوب الإنسان إلى رشده.

وهنا يحتاج الإنسان عند توجيه نفسه، وعند توجيه غيره أن يتذكر النعم، ويُذَكِّر بها غيره، ويتذكر كم نجاه الله تعالى من المصائب والأمراض ولابتلاءات، وكم ستر عليه، وكم أغفل عنه عين عدوه، وكم حفظ عليه أمنه، وعِرْضَهُ وماله ودينه. ويتذكر ويُذكر بذلك اليوم الذي لا ينتفع أحدٌ بعمل

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٥/١)

(٢) المرجع السابق (٦٥/١)

(٣) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٥٢/١)

أحد، ولا مساق ولا مجال ولا مخرج ليفوت مما هو مُقبل عليه، أو لينصره أحد. فكل جوانب التذكير ومجالات النعيم وسيلة لعودة النفس للحق بإذنه تبارك وتعالى.

ثم يَذْكُرُ تبارك وتعالى نِعَمَاً أخرى بآيات مبهرات، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ فالنعمة الأولى: فَرْق البحر ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ بفلقه وجعله طريقاً، فأصبح مفصولاً عن بعضه البعض. ونعمة قرآنية مُبهرة ثانية يُظهرها لهم سبحانه وتعالى: وهي مرورهم بين فرقتي البحر ﴿ فَأَنجَيْنَٰكُمْ ﴾ من الغرق، وكذلك تشمل نعمة ثالثة: أن أنجاهم من فرعون، ونعمة رابعة: إغراق فرعون ﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ ونعمة خامسة: أنهم شاهدوا هذه النعم من انفراق البحر وإغراق عدوهم أمامهم ﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ تُشاهدون المشهد بأعينكم، ونجاتهم وسلامتهم ونصرهم. فإن حقائق ما حصل لأسلافهم ماثلة أمامهم، فانعكست تلك النعمة على وجودهم، بنجاة آبائهم.

وتفيد هذه الآية العظيمة بيان نعم الله تعالى، وقدرته التي لا يقف أمامها مخلوق أبداً. وأن الله قادر على تدمير المتكبر البطاش الظالم، وأنه له بالمرصاد، وأن أخذه له هو أخذ عزيز مقتدر، مما يلزم الحذر من مغبة البطر والتجبر أمام قوة الله تعالى التي لا تقاومها قوة أبداً. وتفيد كذلك أن الله قادر على نصر المظلوم، فما عليه إلا الاعتماد على الله تعالى القوي العزيز، وهذا يبين أن من صفات الله تبارك وتعالى القوة والقدرة والنصرة والرحمة. وأن الله تعالى قادر على أن يجري الأمور على غير قوانينها الكونية، التي قننها القوي العزيز. وكذلك التمكين للمستضعفين بإهلاك عدوهم. وهذا كله يوجب محبته سبحانه وتعالى، والخوف منه ورجاءه، وأن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ثم تأتي نقلة أخرى بيانية لما حصل من بني إسرائيل على الرغم من تلك النعم المتتالية، حيث عبدوا العجل من دون الله تعالى. فقال عنهم عَزَّ وجل ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ واذكروا نعمة ربكم عليكم ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ حين واعدنا موسى أربعين ليلة، لينزل عليهم التوراة، التي فيها شريعة ربكم، التي تتحقق بها مصالحكم في الدنيا والآخرة. وأثناء هذا الزمن ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي: افتعلتم عبادة العجل. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريباً[١] فكان السامري سبباً في إضلالهم. كما جاء تفصيل ذلك في سورة الأعراف، فإنه بعد خروج موسى عليه السلام إلى الطور اتخذ قوم موسى من بعض حليهم التي استعاروها من القبط قبل حدوث الغرق عجلاً، وهو ولد البقر، وعملوه على شكل جسد، له صوت البقر. وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: أن السامري اتخذ من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً له خوار، والخوار صوت البقر، وكان هذا منه بعد ذهاب موسى لميقات الله تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك، وهو على الطور[٢]

ففيها بيان لما يحدث من انزلاق المجتمع أو بعض أفراده بسبب عدم الصبر على الطاعة، أو تقليد غيرهم في دينهم، أو اتباع من أغواه الشيطان. حيث وعد الله تعالى موسى أربعين ليلة لينزل عليهم التوراة، فلم يصبر القوم حتى يستكمل الميعاد، بل عبدوا العجل من دون الله تعالى، أثناء

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٦٩/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/٢) ملخص

انتظار نعمة نزول التوراة. وهذا يوجب على المرء الانتباه من الاستعجال ومخاطره في تحقق المراد والمطالب بالطريقة التي تتنافى وتتعارض مع منهج الله تعالى، كاستعجال الرزق بالحرام، والغش والرشوة وغيرها من أمور الحياة، لأنها من ظُلْمِ الإنسان لنفسه، حيث ختم الله تعالى الآية بما يؤكد أن ذلك ظلم منهم على أنفسهم ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ فعبدتم العجل زوراً وبهتاناً، وأنتم بهذ ظالمون لأنفسكم، وظالمون لرسولكم موسى عليه الصلاة والسلام، وظالمون لإنعام الله تعالى عليكم. وفي هذا تذكير لبغيهم، ولإفادة الحذر من الاستمرار فيه، وعليكم باتباع رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومع ذلك عفا الله تعالى عنهم ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهذا يدل على عظيم امتنان الله تعالى عليهم بعفوه عن معاقبتهم، لأجل أن يشكروا ربهم الذي صفح عنهم بعفوه وكرمه، وأتاح لهم باب الاستغفار الذي يُوجب الشكر له تبارك وتعالى، والذي من لوازمه الإتيان بالطاعة اعتقاداً وفعلاً، باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد علل الله تبارك وتعالى عفوه ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من أجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ليحصل منكم الشكر باتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وأن تلهج ألسنتكم بالثناء والحمد شكراً على عفوه. فإن الله تعالى هو الذي أعطى ويعطي النعم، وهو الذي يستحق الشكر عليها.

ومن زيادة نعم الله تعالى أن أعطى موسى الكتاب والفرقان ليهتدوا بكتابه، ويعرفوا الطريق الموصل إلى الله تعالى ورضاه. فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ واذكروا يا بني إسرائيل حين أنزلنا على موسى عليه الصلاة والسلام الكتاب والفرقان الذي هو التوراة ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ من أجل أن تحصل لكم الهداية بالاستقامة على منهج ربكم عَزَّ وجل. وفي الآية تسمية التوراة بالكتاب ثم عطف عليها الفرقان ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ فالكتاب هو التوراة. والفرقان مضمونها الذي يفرق بها بين الحق والباطل.

فإن الكتب المنزلة من الله تعالى على أنبيائه هي نِعَمٌ عظيمة، جليلة القدر، والتي منها التوراة، ليهتدي به أتباع موسى عليه السلام. مما يستوجب على المسلم الاعتبار بالسابقين من الأمم، فيشكر الله تعالى على نعمة القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وفي هذه الآيات يَذْكُرُ اللهُ تعالى التعامل بين موسى عليه السلام وقومه، وما يأمرهم به، وما يُرَدّونَ عليه به، حيث أخبرهم موسى عليه السلام بأنهم ارتكبوا ظلماً عظيماً لأنفسهم. مفسراً لهم هذا الظلم بما فعلوه من عبادتهم للعجل من دون الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ واذكروا حين عاتب موسى قومه عليه السلام ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ إنكم أوقعتم أنفسكم في الكفر ﴿ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ بعبادتكم لهذا العجل المصنوع. فيذكرهم سبحانه وتعالى بما كان من أسلافهم ﴿ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم ﴾ ثم ذكر العلة والتفسير لهذا الظلم ﴿ بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ حيث في ذِكْرِ الحكم شَدُّ الانتباه لمعرفة العلة، فيتجه القلب لمعرفة علة الحكم. وفي هذا بلاغة بيانية، وبلاغة توجيهية ووعظية وتعليمية، مما يفيد أهمية الأسلوب في استثارة الذهن نحو متابعة التوجيه والنص والعلم والمضمون والمطلوب.

ثم بين تبارك وتعالى لهم العلاج من ذلك الذنب العظيم وهو التوبة إليه عَزَّ وجل، الذي خلقهم وأوجدهم من العدم ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: في قوله تعالى ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ أن فيه تنبيه على عِظَمِ جُرْمِهِم، فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره.[1] فالبارئ هو الخالق عَزَّ في علاه. وهذا يدل على عظيم فعل الشرك، حيث أُمِروا أن يقتلوا أنفسهم ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ وهذا يفيد أن لله تعالى الحكم بما يريد، ولا معقب لحكمه، فهو الملك الذي لا يُسأل عما يفعل، وهو الذي يَسْأَل ولا يُسأل، كما قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ وهذا يفيد ويبين رحمة الله تعالى لهذه الأمة، إذ لم يأمرهم أن يقتلوا أنفسهم تكفيراً للشرك، بل أمرهم بالتوبة والاستغفار والإقلاع عنه.

ثم وصف الله تعالى نفسه بما هو أهل له من التوبة والرحمة ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فإن ربكم قد تاب عليكم من فعلكم هذا الشنيع، وغفر لكم. والسبب هو ما اتصف به جَلَّ جلاله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإن الله تعالى تواب رحيم، وهما نعمتان عظيمتان تستوجب الشكر والثناء على الله تعالى بما هو أهل له عَزَّ وجل، ولهذا تاب عليهم مع عظيم جرمهم.

فإن من صفاته وأسمائه عَزَّ وجل أنه تواب رحيم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا من فيض كرمه عليهم وعلى عباده بتقريره أنه سبحانه وتعالى تواب رحيم، بل أورد اسم ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ بصيغة المبالغة، التي تفيد كثرة التوبة منه عَزَّ وجل، فلا تضطربوا ولا تخافوا، بل اطمئنوا وأمِّلُوا الخير من الله تعالى. كما أورد عَزَّ وجل اسم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغة المبالغة التي تفيد كثرة وعظمة رحمته لعباده، فإن ربكم مُتصف بالرحمة التي هي اسم من اسمائه سبحانه وتعالى، وتفيد المبالغة كذلك في سعة رحمته وكثرتها وعظيم دلالتها. خاصة وأن الآية الكريمة خُتِمَت بقوله عز وجل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٩٦)

أي: لا غيره مُتصف بتلك الأسماء والصفات. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بعباده، إذ يعتني بنفوسهم غاية العناية، فالحمد والشكر لله، اللهم اغفر لنا وارحمنا.

ثم يبين الله تعالى تمادي الإنسان فيما حصل من بني إسرائيل ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً ﴾ فتمادوا في شروطهم وطغيانهم باشتراطهم للإيمان أن يروا الله تعالى جهرة، أي: عياناً. مما يفيد الحذر من الطغيان والتمادي في الباطل، إذ أن هذا التمادي يحصل في بني آدم، مما يستوجب الحذر من ذلك. لأن عذاب الله تعالى إذا نزل بقوم فإنه أليم عظيم، قال تعالى في عقابهم ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ فأخذهم العذاب الذي صعقوا من هوله فماتوا. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: الصاعقة كل أمر هائل رآه المرء أو عاينه، أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب، وإلى ذهاب عقل وغمور فَهم(١) فأخذهم هول ما رأوا من العذاب وهم ينظرون إليه.

ثم من قدرة الله تعالى ورحمته أن بعثهم مرة أخرى ليستوفوا آجالهم ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فبعد موتكم بالصاعقة بعثكم ربكم مرة أخرى. مما يفيد ويبين أن الله تعالى عظيم قدير، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ مهما كان ذلك الشيء والأمر، وهذا يستوجب الحذر والخوف منه تبارك وتعالى، وطاعته والتماس رضاه جل جلاله.

ثم يوجه الله تعالى بشكره ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فعسى أن يحصل منكم الشكر لله تعالى على إحيائكم بعد موتكم، حتى تستكملوا آجالكم. كما أن في هذا تنبيه وتنويه إلى موقع الشكر وأهميته، خاصة حال حصول النعمة مع وجود المعصية والتقصير، إذ أن الله تعالى عامل عبده بحلمه وكرمه لا بما يستحق على معصيته وتقصيره.

ثم يُعلِم للهُ تعالى المؤمنين ويُذَكِّرُ بني إسرائيل بما حصل لأسلافهم، وما حصل منهم، وكيف عاملهم الله تعالى برحمته وحكمته، ليدركوا نعمته، ويعلموا أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق،

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٦٩٠-٦٩١)

وما جاء به حق صلى الله عليه وسلم. فيقول تعالى ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ فيذكرهم بما حصل لأسلافهم من النعم بالرغم من تماديهم وطغيانهم، فيتعامل معهم بمقتضى حكمته ورحمته جل جلاله، بأنه ظللهم بالسحاب وهو الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى. والمن: حلوة كالعسل، وقيل كل رزق يحصل بلا تعب. وأما السلوى فهو طائر صغير يُقال له: السمان.(١) وقيل المن هو الترنجين، وقيل الكمأة من المن الذي أنزله الله تعالى على بني إسرائيل. وفي هذا دليل لهم ولغيرهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يخبرهم القرآن بما يعرفونه ولا يعرفه نبيه محمد عليه الصلاة والسلام إلا بعد نزول القرآن عليه.

ومن فوائد ذلك أن الله تعالى هو الرزاق، الذي إذا أراد رزقاً لعبد أعطاه بأبسط الأسباب وأسهلها، إذ ظللهم بالغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى. فإنه هو المنعم بالغيث، حيث يسوق السحاب بأمره من مكان إلى مكان، وينزله بالقدر الذي تحتاجه خلائقه. ثم بعد أن يَحُطَّ الغيثُ بما كتب الله تعالى له أن يحط دون إغراق وإفساد، يتحرك الغمام إلى حيث يشاء الله تعالى، فسبحان الخلاق الذي قدر وقته ومقداره ومكانه، وحركته وانتقاله.

ثم يبين الله تعالى أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بعصيانهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فنفى تبارك وتعالى إضرارهم في ملكه عَزَّ وجل ﴿وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ فما تحقق لنا من معصيتهم نقص ولا ضرر ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ولكن أوقعوا أنفسهم فيما يضرهم. مما يبين ويفيد أن الله تعالى لا تنفعه طاعة العباد، ولا يتضرر به شيء عند الله عَزَّ وجل، فالمستفيد من الطاعة هو الإنسان، والمتضرر بالمعصية هو الإنسان نفسه. فإن الله تعالى غني، بل وهو الْمُغني عَزَّ في علاه. وبالتالي فإن ما يصيب الإنسان من بلاء هو بسبب ظلمه لنفسه، ويعفو ربنا عن الكثير.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٦٠)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا
غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾
۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا
عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ
لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ
أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا
سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ
يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ
يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

لا زال السياق في ذِكْر وتذكير الله تعالى لأهل الكتاب بما كان من أسلافهم، ليؤكد عليهم ولهم من خلال هذا القرآن الكريم الحقائق التي يعرفونها. مما يفيد أهمية البرهان والدليل، وأهمية التذكير في الإرشاد والدلالة على الخير، وذلك لما في التذكير بالحقائق من استثارة العقل والعاطفة معاً، نحو ما يجب أن يكون المرء عليه تجاه النعمة.

فَيُخْبِرُ الله تعالى المؤمنين وغيرهم، مع تذكير اليهودَ بما وقع من أسلافهم، وما كان من الله تعالى من الفضل عليهم، وذلك أنه لما انتهت مدة التيه بعد أن تركوا الجهاد وامتنعوا عنه، أمرهم الله تعالى بدخول القرية التي هي بيت المقدس، كما رجح ذلك ابن كثير رحمه الله تعالى[١] فقد بين الله

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٢/١)

تعالى رحمته بهم، بعد عقابهم بالتيه، فأمرهم بدخول القرية ليجدوا فيها الأمن والخير الوافي ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ وهذا يفيد تمكينهم من التنعم برغد العيش الواسع الكثير من أي جهة بالقرية. وهذا يدل ويفيد على أنها أرض مباركة برغد العيش، ثم أمرهم بهيئة الدخول ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ وكلمة ﴿ سُجَّدًا ﴾ تفيد الخضوع والانقياد والطاعة والعبادة، لأن السجود تذلل، ودلالة ﴿ حِطَّةٌ ﴾ تفيد الطلب من الله تعالى أن يحط عنهم الخطايا. مما يفيد أهمية التذلل لله تعالى بما شرع وأمر، وأن النعمة والرخاء تأتي بالطاعة والشكر مع الاستغفار. وأن عاقبة البطر والعناد والتمرد وخيمة في الدنيا والآخرة. وإن كان الخطاب بهذه الآيات في شأن بني إسرائيل، فهو موعظة للمؤمنين بما حدث من غيرهم، ليتعظوا ويجتنبوا ما انزلق فيه غيرُهم من الأمم.

ويؤكد الله تعالى أنهم إذا دخلوا القرية وفق ما أمر، سَيُغْفَرُ لهم، ويزيد المحسن خيرا، فقال تبارك وتعالى ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإن فعلتم ذلك محونا عنكم ذنوبكم السابقة، ونزيد المحسنين بطاعتهم لربهم خيراً وثواباً، وذلك جزاء على إحسانهم. وهذا من فضل الله تعالى ورحمته، بأن يمحو ذنوب من تاب واستغفر. وكذلك يزيد المطيعين ثواباً وتوفيقاً ورشاداً. مما يدل على أن الإنسان كلما تقرب إلى الله تعالى زاده من فضله.

ولكن هناك من يعصي ويبدل نعمة الله كفراً، مما يُوجِب الحذر منهم ومن صنيعهم، قال تعالى ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ ومع كل هذا الإحسان من الله تعالى عليهم إلا أن هناك من بدل القول واستعاض عن الطاعة بالمعصية، وهي قد تحدث في كل وقت وحين من الموصوفين بالظلم. فهناك من يبدل نعمة المال إسرافاً وبذاراً، ومن يبدل نعمة الصحة في المعصية، ومن يبدل نعمة الذرية في الالتهاء بهم عن الطاعة، أو تسخيرها في المعصية، وكذلك تبديل العبادة المقررة شرعاً بالتحريف والاجتهاد المخالف لمراد الله تعالى. فيأتي عقاب الله تعالى للذين بدلوا غير الذي قيل لهم، قال تعالى ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ

لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ فقد بدلوا ما أُمروا به وهو ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ فقالوا: حنطة ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ فبدل هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ فلم يقولوا: حطة، التي تعني: حُطَّ عنا الخطايا يا ربنا، وإنما قالوا: حنطة.

فعاقبهم الله تعالى بالعذاب، لسبب فسقهم ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ فأنزل الله تعالى عليهم ﴿ رِجْزًا ﴾ وهو العذاب ﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ من عنده عَزَّ في علاه ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم، وهو خروجهم من الحق إلى الباطل. وهو خروج بطر وأشر. مما يفيد الحذر من المعصية وتبديل مراد الله تعالى وأوامره، فإن لله جنود السماوات والأرض. فعقابه قد يكون في الصحة وفي الأرزاق، وبالهموم والإذلال، وغيرها من أصناف العذاب العقابي.

ثم يبين الله تعالى مزيداً من إنعامه على أسلافهم، حيث طلب لهم موسى من الله تعالى ماءً يشربون منه. فأعطاهم الله تعالى الماء بأبسط ما يكون، من غير جهد ولا عناء ولا مشقة، قال تعالى ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ فبمجرد سؤال موسى عليه السلام ربه، منحه ما أراد بأسهل وأسرع ما يكون. مما يفيد أن عطاء الله عظيم، وسهل ويسير لمن أراد أن يعطيه من غير مشقة وعناء، فبمجرد ضرب الحجر بالعصا انفجرت عيون الماء. لتكون معجزة أمامهم.

كما يفيد قوله تعالى ﴿ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ﴾ الالتجاء إلى الله تعالى قبل التوجه للأسباب. حيث أن لفظة ﴿ ٱسْتَسْقَىٰ ﴾ تفيد الطلب والاستجداء. ولأن الذي يملك الأسباب ويسخرها هو الله الواحد القهار. فلا سهل إلا ما يسره الله تعالى. ومن مزيد فوائد دلالة الآية الكريمة

أن أمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام بضرب الحجر بعصاته، ليفيد وجوب الأخذ بالأسباب، فإن الله تعالى قادر على أن يجعل الماء يتفجر من غير ضرب للحجارة، ولكن لِيُعَلِّم الإنسان وجوب الأخذ بالأسباب، والله تعالى هو خالق الأسباب.

وأن من فضل الله تعالى أن جعل العيون ثنتي عشرة عينا، على عدد قبائل بني إسرائيل، لتشرب كل قبيلة من الماء الذي عرفت أنه لها، بفضل الله تعالى، وبعلمه وحكمته وقدرته ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ ثم بين الله تعالى منهج التعامل مع هذه النعم، وذلك بأن يشربوا من هذا الماء، ويأكلون مما رزقهم الله تعالى من دون فساد وإفساد ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وقد نسب الله تعالى الرزق لنفسه جل جلاله ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ مما يفيد أن ما عند الخلق من مأكولات ومشروبات هو رزق من الله تعالى، يلزم أن تنسبه الخلائق لله الخالق سبحانه وتعالى. فلا تُنسب المطعومات والمشروبات للجهد الذاتي، بل يربطه بالله تعالى وفضله وجوده وكرمه، لأنه هو المنعم والمتفضل به، إيجاداً وتسخيراً.

فبعد أن أمرهم بالاستمتاع من الأكل والشرب من رزقه جَلَّ شأنه نهاهم عن جميع ما يُضاد الشكر. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تسعوا في الأرض بما يتحقق به الفساد. بما يفيد: فلا تقابلوا نعم الله تعالى عليكم بالفساد والإضرار في الأرض بالمعاصي من البطر والأشر. وقد ورد النهي بقوله عَزَّ وجل ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ والوعث هو أشد الفساد. وقد أفادت دلالة ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جميع الأمكنة التي تمرون أو تسكنون وتحلون فيها، فليس النهي قاصر على بلادكم ومساكنكم ومطارحكم، بل أينما حللتم. ثم أكد تبارك وتعالى هذا النهي بدلالة الفساد، فقال عَزَّ وجل ﴿مُفْسِدِينَ﴾ متلبسين بصفة الفساد، فيكون الفساد صفة لكم. بما يفيد قوة الزجر. فمن قوة الزجر أن اشتمل النهي عن الفعل ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ وعن الاتصاف بصفة المتصفين به ﴿مُفْسِدِينَ﴾ وهذا من دقائق البيان في الزجر والنهي.

وفي هذا النهي عن الإفساد ما يدل على أن الهدف والمنهج الذي يلزم كل مؤمن ألا يستخدم النعمة في المعصية وإفساد الأرض ومن عليها من خلق الله تعالى. فعليه العمل بطاعة الله تعالى أينما حل وسار في الأرض. مما يجعل من المؤمن شخصية خير في جميع أوجه الخير، فأينما حل فهو ساع إلى الصلاح، ومبتعد عن الفساد. وهذا مما يُرَغِّب غيره في دين الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى بأنه بعد أن مَلُّوا من المن والسلوى، وتذكروا عيشهم الأول بمصر، طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو الله تعالى أن يُخْرِج لهم من الأرض ما كانوا عليه من المأكولات. فقال الله تعالى عنهم ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ واذكروا حين قال أسلافكم لن نصبر على طعام واحد، وهو المن والسلوى، عندما كانوا في التيه ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ فاطلب لنا يا موسى من ربك ﴿ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ يُخرج لنا ما نأكله مما تنبته الأرض. بما يفيد أنهم ملوا من المن والسلوى، واعتبروه طعاماً واحداً، ولم يصبروا ويحمدوا الله تعالى، وهم في بلاء ونعمة من الله تعالى. ثم حددوا المطلوب ﴿ مِنۢ بَقْلِهَا ﴾ وهو كل نبات ليس له ساق، كالبقول ﴿ وَقِثَّآئِهَا ﴾ وهو المسمى بالخيار. ﴿ وَفُومِهَا ﴾ وهو الثوم. وهو قراءة عبدا الله وأُبي [١] وذكر مثل ذلك الزمخشري رحمه الله تعالى، أنه الثوم، ويدل عليه قراءة ابن مسعود **(وثومها)**[٢] ولعل الأرجح والأصوب أنه الثوم. وكذلك مما طلبوا من الطعام غير ما سبق ﴿ وَعَدَسِهَا ﴾ وهو الطعام المعروف بنفس الإسم ﴿ وَبَصَلِهَا ﴾ وهو كذلك المعروف والمشهور بنفس الاسم.

وهذا يفيد سرعة ملل الإنسان حتى لو أُعْطِيَ أحلى وأشهى ما في الأرض، وكيف وقد أعطي المن والسلوى. ومع هذا طلبوا مما تنبت الأرض. مما يؤكد أهمية الصبر وتوطين النفس على

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٥/١)

(٢) الزمخشري، الكشاف (١٥٧/١-١٥٨)

إدراك واقع الخير والنعمة. وألا يستهوي الإنسان التنوع، ويُشغله عن عظيم النعمة وجلالتها، وأن يزكو بنفسه نحو المعالي. وأن يُدرك الإنسان أن النفس ملولة، ومُشْتَهِيَةٌ لما لا تملك، فإذا ملكته، اشتهت غيره، فلا تَكُف عن ذلك إلا بتوطينها وتربيتها، وتهذيب طباعها.

ولذلك فإنه إذا عرف الإنسان هذه الطبائع البشرية وعدم صبره، مع تشهيه لما غاب عنه أو لا يملكه استلزم منه توطين النفس، وألا ينزل بها إلى الطبيعة السفلية التي تطلب وتستعيض بالأدنى على الأعلى، بل يرتقي بها إلى الطبيعة العلوية الزكية، ولا يجري خلف كل جديد، فإنه سَيَمَلُّهُ بعد حين، عندما يشبع منه. وإذا أدرك الإنسان هذه الطبيعة تَطَلَّب ذلك منه الإحسان في التعامل. فالعاقل هو الذي وطن الله تعالى له نفسه، كموسى عليه السلام، إذ يَرُدُّ على طلبهم هذا بالاستغراب ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ فهذا تعجب من هذا الطلب، فهو أمر يثير التعجب، أن يطلب الإنسان الأدنى بعد أن أعطاه الله تعالى الأحسن والأفضل. كما يفيد هذا أن من تولى أمر قوم فعليه أن يبين لهم، وأن له أن يسأل، ويستنكر. ثم قال لهم موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ فوجههم بعد أن رغبوا في الأدنى أن ينزلوا مصر ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ والهبوط هو النزول إلى المكان والحلول والمقام به. وقيل المقصود بمصر من الأمصار، لأن الذي طلبتم موجود في كل مصر من أمصار الأرض.

وبعد هذه النعم التي سخرها الله تعالى لهم، وأنقذهم مما كانوا فيه من الهوان والذل، وبعد كل ما رأوا من الآيات، وعدم صبرهم وكثرة عنادهم ومخالفاتهم، وهنا ضرب الله تعالى عليهم الذلة، قال تعالى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فبين الله تعالى أنواع ما أصابهم من الجزاء العقابي، بالإذلال في الأبدان والمسكنة في القلوب(١) من الشعور بالذلة. وعليهم غضب من الله تعالى عليهم. وقيل الذلة: الصغار والفقر، فلا يوجد يهودي وإن كان غنياً إلا عليه زي الفقر وخضوعه ومهانته.(٢) وهذا ظاهر في تصميم ملابسهم بما يوحي أنها ممزقة، وهي جديدة الصناعة.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٣/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٩٢/١)

مما يستوجب على المؤمن أن يتنبه من محاكاتهم التي تُظهر فقرهم وهم أغنياء، ومن مسلكهم في مقابلة النعمة والرحمة من الله تعالى بالمعاندة والاستبطار. أو التململ من النعمة، وعدم شكرها، مراعاة منهم للطبيعة السفلية، وعدم الارتقاء بها للعلو بالصبر والشكر، فإن الذي يلزم هو الاستعلاء والارتقاء بالنفس وطبيعتها إلى طبيعة العابد الشاكر، المعترف بنعمة الله تعالى، والمقدر لها. لأن عقاب الله عظيم، ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: فقد رجعوا بسخط من الله تعالى، فرجعوا منصرفين بغضب من ربهم عليهم.

ثم بين الله تعالى علة إنزال العقوبة عليهم، بحصول الذلة والمسكنة والرجوع بغضب الله تعالى عليهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ بسبب أنهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ينكرون ويحجبون حجج الله تعالى، وأدلته وبراهينه ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ويقتلون الأنبياء كزكريا ويحيى[١] عليهم الصلاة والسلام، بغير جرم يُوجب ذلك القتل. أي: أن قتلهم للأنبياء هو من باب التعدي عليهم، لأنهم يقومون بما أمر الله تعالى به. ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ فذلك العذاب بسبب ما كان منهم من المعصية، وهو فعلهم لما نهاهم الله تعالى عنه، وعدم فعل ما أمرهم به سبحانه وتعالى، كعدولهم عن قول حطة إلى حنطة ﴿ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ وهو التجاوز في المحدود لهم. وذلك ببغيهم على غيرهم بالإعتداء عليهم، ومثل اعتدائهم على الأنبياء. وكذلك يشمل مجاوزة حدود الله تعالى. مما يبين دقة البيان في اشتماله على دلالتي المعصية وعلى العدوان. وهذا البيان يُوضح أن بعض الناس فيه بطر على الحق، وأنه لا يرعوي، ولا يحمد الله تعالى، بل يعيش في استكبار واستعلاء، فيغوص في المعاصي بلا حدود، ويسعى في ظلم وقهر غيره من غير جرم، محبة في ذلك البطر الذي يستهويه، لخلو قلبه من الإيمان. مما يبين فضل الإيمان على ضبط مسلك الإنسان وتصرفاته، وأنه نعمة من الله تعالى عظيمة.

(١) جلال الدين، تفسير الجلالين، ص (٩)

فتلك المعاصي أوجبت غضب الله تعالى عليهم. مما يفيد الحذر من المعاصي، فإنها جالبة لغضب الله تعالى، وأن الله كريم رحيم، يحب المطيع الشاكر، المستغفر التواب، الذي يثوب إلى الله تعالى، ويحافظ على النعم، ولا يزدريها ويتهاون بها، بالإسراف والتبذير أو غير ذلك، وأن يكون مجتهداً وحريصاً في اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

بعد أن بين الله تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره، وما أحل بهم من النكال، بين تبارك وتعالى جزاء المحسنين الذين أطاعوه سبحانه وتعالى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن الأمم السالفة من الذين آمنوا بالأنبياء من قبل، وكذلك اليهود أتباع نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام، والنصارى أتباع عيسى عليه الصلاة والسلام، والصابئين، الذين هم طائفة باقون على فطرتهم، وقيل: أنهم فرقة من أهل الكتاب. وقيل فيما ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال الزجاج رحمه الله تعالى الخارجون من دين إلى دين. يقال: صبأ فلان: إذا خرج من دين، وصبأت النجوم إذا طلعت[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: وأظهر الأقوال والله أعلم قول مجاهد ومتابعية، ووهب بن منبه، أنهم قوم ليسوا على دين اليهود، ولا النصارى، ولا المجوس، ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابي، أي أنه خرج عن سائر أديان أهل الأرض[٢] ويستفاد من ذلك أن في ذكر الله تعالى للصابئين ما يقرر به تكذيب المشركين ويرد عليهم بلفظهم، بأنه ليس الأمر كما تزعمون من الاستنقاص والازدراء لمن تنعتونهم وتعيبونهم ممن تركوا دينهم واستجابوا لله تعالى ولرسوله صلى اللله عليه وسلم، بل إنهم مكرمون عند الله تعالى. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٨/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٠٨/١)

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بأن لهؤلاء ممن تحقق فيهم الإيمان بالله ربهم سبحانه وتعالى ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ وآمن بالبعث والجنة والنار، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: وعمل بدين الله عَزَّ وجل ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فلهم الثواب الحسن عند ربهم يوم القيامة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولا خوف عليهم مما هم قادمون إليه يوم الحساب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولن يصيبهم الحزن والأسف على ما فاتهم من الدنيا.

وبالتالي فإن كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه. مما يفيد عدله تبارك وتعالى، وأنه لا يظلم الأمم السابقة ممن كانوا مستهدين بهدى أنبيائهم الذين أُرْسِلُوا لهم. فآمنوا بالله تعالى واليوم الآخر، وعملوا بفرائض الله تعالى. إذ أنه لما ذكر تبارك وتعالى ما كان من عصيان بني إسرائيل، خص واستثنى منهم الطائعين، حتى لا يفهم من أنهم في المعصية والعصيان والتمرد سواء، فخص الموفون منهم بالوفاء، ونفى المعصية عَمَّن أطاع، فاستثناهم وخَصَّهم بما يستحقون من كريم العطاء والجزاء.

ويحتمل المعنى وجه آخر بأن المؤمنين الذين آمنوا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن اليهود والنصارى والصابئين الذين دخلوا في دين الله تعالى الذي أرسل الله تعالى به محمد صلى الله عليه وسلم، فآمنوا بالله تعالى وباليوم الآخر، وعملوا الصالحات، فلهم أجرهم وثوابهم، ولا خوف عليهم مما كان منهم، ولا يحزنون على شيء مضى وفاتهم. ولا تعارض بين الوجهين، مما يفيد عمق النص الكريم في إعطاء أوجه المراد والمقصود بسياق واحد، وهذا من قوة البيان وإعجازه حتى في بلاغة نظمه. فبعد بعثت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلا دين إلا الإسلام، فقد نسخ الله تعالى به كل الأديان، فلا يُقبل من أحدٍ غير الإسلام، كما قال تعالى في سورة آل عمران ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

ومن فوائد التسمية: أن من نعتهم الله تعالى بالإيمان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فهم المصدقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما آتاهم به، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وسُمّيّت أمة محمد صلى

الله عليه وسلم مؤمنين، لكثرة إيمانهم، وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية، والغيوب الاتية[١] وذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: أن اسم اليهود في قوله تعالى ﴿ **هَادُواْ** ﴾ أي تابوا، وقيل، سُمّيَت اليهود يهوداً من أجل قولهم ﴿ **إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ** ﴾ وسُمّيَت النصارى بالنصارى لنصرة بعضهم بعضاً، وأما ﴿ **وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ** ﴾ مفرده صابئ، فقيل: هو الخارج من دين كان عليه إلى دين آخر غيره، وقالو: الذين عنى الله بهذا الاسم: قوم لا دين لهم، أي على الفطرة[٢] وهو الذي رجحه ابن كثير رحمه الله تعالى فيما سبق بيانه.

﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾** ﴾

وتعاود الآيات الكريمات لبيان حال بني إسرائيل، مِنْ أن الله تعالى رفع الطور فوقهم، وأخذ عليهم العهد الثقيل الْمُؤكد، بأخذ التوراة وقراءتها والعمل بها، بجد واجتهاد وصبر على أوامر الله تعالى، لعلهم يتقون عذاب الله تعالى، فيكونون من أهل التقوى.[٣] قال تعالى ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ وهذا تذكير من الله تعالى لبني إسرائيل، وتعليم غيرهم بما حصل لهم، ليعتبروا بمن سبق، ولِيُفيد أهمية منهجية التذكير دعوياً وتربوياً، وأهمية بيان الحقائق التي يتعلم بها المرء ما يدفعه ويحثه على الطاعة، ويحذره من المعصية.

---

(١) المرجع السابق (١٠٧/١)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٢/٢-٣٥) ملخص

(٣) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٥/١)

وفي أخذ الميثاق ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ ﴾ أي: العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم، ليقروا بما عوهدوا عليه، ويأخذونه بقوة وحزم وامتثال[١] ما يدل على أهميته، وخاصة مع الله تعالى الذي له الخلق وله مُلك كل شيء. كما أن في رفع الطور ما يفيد عظيم قدرة الله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ وأنه من رحمته بالخلق يخوفهم بما يَذْهَل له الإنسان، حيث رفع جبل الطور فوقهم ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ الزموا ما آتيناكم من الدين بعزيمة قوية ﴿ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ ﴾ أي: وتعلموا ما فيه، وطبقوه، وتذكروا ما فيه من الثواب والعقاب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ تخافون ربكم فتعملون بالطاعة، فتكونون من أهل التقوى. ولولا رحمته سبحانه وتعالى لأهلكهم بما كان منهم، ولكن رحمة الله تعالى أعظم وأوسع. كما يفيد هذا البيان من الله عزّ وجل أهمية أخذ دين الله تعالى بجد واجتهاد، وكذلك أهمية تعلمه وتعليمه للغير، ونشره بين الخلائق، ليتقي المسلم بذلك غضب الله تبارك وتعالى، ولتحصل له التقوى التي تجعله يحصل بها على خير الدارين.

وبالرغم من الميثاق الذي أُخذ عليهم، ورؤيتهم للجبل فوقهم إلا أنهم تولوا، كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ ولكن مع هذا فإن فضل الله تعالى عظيم ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وهذا يفيد أن فضل الله تعالى ورحمته بعباده عظيمة، ولولا هذا التفضل وهذه الرحمة الربانية لحصل الخسران. وما أتيحت الفرصة لمذنب أن يتوب. ومن فضله ورحمته أن أرسل الرسل وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا الحدث الكوني العظيم يفيد أن في أحداث الكون من زلازل وبراكين وفيضانات وكسوف وخسوف وحوادث وحروب آيات للعالمين.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٠٨)

ثم تتناول الآيات الإشارة إلى القصة المعروفة والمتقررة عند بني إسرائيل عن حالة الذين اعتدوا يوم السبت، فغضب الله تعالى عليهم، فجعلهم قردة. قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ وهم الذين بسط الله قصتهم في سورة الأعراف، وجاءت القصة هنا مُجْمَلَةً. وفي ذكر مجمل القصة تشويق لمعرفة المزيد من تفاصيل أصحاب هذه القصة. مما يفيد أهمية الإجمال ثم التفصيل لحصول الرغبة في متابعة وتتبع الآيات، لأجل معرفة المزيد عن التفاصيل. كما يفيد هذا الحدث خطورة المعصية، وسهولة العقوبة عند الله تعالى، وقد يعاقب بما لا يخطر ببال العاصي، إذ جعلهم قردة بقوله تعالى لهم ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ فتحولوا إلى قردة حقيرة ذليلة. فالمعصية قد تكون سبباً لإذلال العاصي. فليحذر المؤمن من مغبة مخاطر المعصية، ويسأل الله تعالى التوفيق والعون والسداد.

وقصة أصحاب السبت أن الله تعالى أمرهم بتعظيم يوم السبت، فلا يصيدون فيه، فتحيلوا وخالفوا أمر الله تعالى بأن رموا شباكهم قبل يوم السبت، ويأخذونها بعد السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله تعالى إلى قردة.

ثم يبين الله تعالى أنه جعل عقوبة أصحاب يوم السبت عبرة لغيرهم ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فجعلهم الله تعالى بهذا الإحتيال ﴿ نَكَٰلًا ﴾ عبرة ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ من القرى التي حولها، من قبلها ومن بعدها، لتكون هذه القرية وأهلها عبرة لتلك القرى المحيطة بها من أمامها ومن خلفها أيضاً ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ موعظة يتعظ بها المتقون لله عَزَّ وجل، الذين يخافون ربهم، ويرجون فضله وإحسانه.

وهذا يفيد أن ما يصيب الغير من عقوبة أو تطبيق حد من حدود الله تعالى فإنها عقوبة في حق الْمُذنِب، وعبرة لغيره، ليدركوا حقيقة الدين، وجزاء العاصي المعاند لله تعالى، وكذا ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ليتعظوا بها أهل التقوى، فتزيدهم إيماناً وبُعداً عن المعصية، وحذراً منها.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

ثم تتناول الآيات موقفاً وقصة لموسى عليه السلام مع قومه، في أمر قتيلٍ من بني إسرائيل قد قُتل، فاختلفوا وتدافعوا في قاتله، حتى تفاقم الأمر وكاد يحدث بينهم شرٌ كبير، لولا أن الله تعالى بين لهم ما اختلفوا فيه. فقال لهم موسى في حق تبيين القاتل اذبحوا بقرة ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً** ﴾ واذكروا يا بني إسرائيل حين قال موسى لقومه إن ربكم يأمركم أن تذبحوا بقرة. فأوجب عليهم هذا الأمر أن يقوموا مباشرة بذبحها، ولكنهم تلكأوا في ذلك. فيكشف الله عَزَّ وجل تفاصيل ذلك الموقف باعتراضهم على نبيهم. وهو يخاطبهم ويكلمهم بما أمر الله عزَّ وجل به ﴿ **قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا** ﴾ والواجب الامتثال لموسى عليه السلام، لأنه نبي ورسول من الله تعالى إليهم، فلن يكذب ولن يستهزئ، ولا يُظن به عليه الصلاة والسلام ذلك، خاصة وهو يقول لهم ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً** ﴾ ولم يقل: إني آمُرُكم أن تذبحوا بقرة، بل إن الأمر من الله تعالى. وهذا يؤكد أهمية الظن بالأنبياء خيراً، وأهمية الطاعة، وعدم قياس الأمور بالعقل

المجرد، بل إن قبول أوامرُ الله تعالى ليس بالقياس العقلي والهوى، بل بالاستجابة والامتثال والطاعة لله تعالى، وسواء ظهرت الحكمة فيها، أو غاب عن العقل إدراكها. فرد عليهم موسى عليه السلام بقوله ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ استجير بالله أن أكون من أهل الجهل، الذين يقولون على الله تعالى بغير علم. ويفيد جواب موسى عليه السلام، تقرير مبدأ دفع سوء الظن بألْطَف العبارة في الجواب. ويفيد هذا أن العاقل لا يفعل ولا يقول بقول الجاهلين في الرد، بل يقول بما يناسب الحق، ويدفع الباطل. وأن الجاهل هو من يستهزئ في المواقف المهمة والمدلهمة، مما يؤكد أهمية عدم وضع الجهل في موضع الجد في المواقف والأمور التي لا تحتمل ذلك. كما يفيد قول موسى عليه السلام ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أهمية الاستعاذة بالله تعالى في دفع البغي والظلم عن النفس، أو دفع صفاتها عن النفس إن كان مُتهماً بها وهو بعيد عنها. فالاستعاذة بالله تعالى قوة يتقوى بها العبد.

فلما قال لهم موسى ذلك القول، رَدُّوا عليه بقولهم ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ فلم يكتفوا بأنها بقرة، بل تنطعوا في شأنها. ففأجابهم موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ فنسب الجواب إلى الله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ ﴾ إن الله تعالى يقول ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ ﴾ أي: ليست مُسنَّة، أي كبيرة في عمرها ﴿ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي: صغيرة، لم تلد. أي ليست كبيرة ولا صغيرة، بل ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ أي متوسطة بين ذلك. ومؤكداً عليهم موسى عليه السلام أن يأتمروا بما قال لهم ﴿ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ففي هذا الأمر إشارة إلى المبادرة بالفعل وعدم التشدد بالأسئلة التي قد يستصعب معها فعل المطلوب. مما يفيد أن التشدد والمبالغة قد تؤدي إلى التعجيز.

ولكنهم لم يلتزموا بما أمرهم نبي الله موسى عليه السلام ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

ولكنهم تشددوا، فانتقلوا إلى اللون ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ أُطلب يا موسى من ربك يبين لنا ما هو لونها. ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ ﴾ تختارون اللون الأصفر من البقر، وأن يكون ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ أي: ألشديد الصفرة ﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ أي: تُعجب من ينظر إليها.

ولكنهم تمادوا في التعنت والتشديد ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ فلم يستحوا ويخجلوا من تعنتهم ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ أطلب يا موسى من ربك ﴿ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ تشدد في طلب المزيد من التوصيف. فأظهروا المزيد من تشددهم وتعنتهم إلى معرفة الدقائق من وصفها، ومعللين ذلك بالتباس التشابه عليهم بين البقر ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ اختلط علينا شأن تعيينها. ثم زعموا الطاعة والفعل والامتثال ﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ فأخبرهم موسى بجواب الله تعالى لهم ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ فأرشدهم إلى ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي: أنها ليست بالحراثة في الأرض ﴿ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ وليست بسانية لاستخراج الماء ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ وأيضاً سالمة من العيوب ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي: ليس فيها لون يفارق سائر لونها. أي: لون واحد. وهنا ﴿ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ وفي قولهم ﴿ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ كأن الذي قبله ليس بالحق. وهذا يدل على التعنت، والمكابرة. ويستفاد من هذا أهمية التيسير الذي كان منهجه صلى الله عليه وسلم. فما خُيِّرَ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما. ليكون نهجاً سلوكياً في حياة المسلم. ﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ فأتمروا بعد طول تعنت وتشدد.

وفي قول الله تعالى عنهم ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ أي: فأوشكوا وقاربوا وكادوا أن لا يفعلوا ما أمرهم الله تعالى به من ذبح البقرة. ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها. يعني أنهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد. وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهذا ما كادوا يذبحوها.

وبعد أن فعلوا ما أمرهم الله تعالى به من ذبح البقرة، يخبرهم موسى عليه السلام بما كان منهم، من قتل القتيل الذي تدافعتم واختلفتم بالتدارؤ في شأن القتيل، وعدم إيضاحه وتبيينه ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ واذكروا حين قتلتم نفساً ﴿ فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا ﴾ فتدافعتم وترامیتم في شأن قتله، بأن كل أحد يتبرأ من القتل، ليرمي به غيره ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ولكن بقدرة الله تعالى سيخرج منكم ما كتمتموه من عدم إظهار القاتل، ليكون الاقتصاص منه.

وهذه الآية الكريمة انطلاقة في بيان سبب أمرهم بذبح البقرة، لتعطي المزيد من التشويق في متابعة الحدث ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فأمرهم موسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذوا عظماً فيضربوا به القتيل. ففعلوا فرجعت إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان.(١) فأخرج الله تعالى ما كانوا يكتمونه عن القاتل، حيث قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ثم يخبرهم جَلَّ جلاله ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ فبمثل هذا الإحياء لهذا الرجل الميت يُحيي اللهُ تعالى بقدرته الموتى يوم البعث والنشور، ويكون الحساب والجزاء. بل ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٢/١)

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ ويريكم حججه وبراهينه التي تستوجب منكم التعقل، فتعودوا إلى رشدكم، وتطيعوا ربكم. وتتبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا دليل لهم ولغيرهم أن الله محي الموتى، وأنه لا يعجزه شيء تبارك وتعالى، وأن الله يفعل ما يشاء، فجعل في ضرب الميت بعظم البقر عودة الروح له. مما يبين أن من سنن الله تعالى الأخذ بالأسباب، وإلا فإن الله تعالى قادر على أن يعيد له روحه بقوله كن، فيكون حياً. فسبحان الله العلي القدير. وهذا يؤكد ويبين لأهل الكتاب أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حق، وأن هذا القرآن حق، إذ يبين لهم ما كان منهم. وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب صلى الله عليه وسلم.

ومن الفوائد أيضاً: ما يتعلق بالعلاقة بين اسم سورة البقرة وهذا الحدث العظيم الخارق للعادة، والذي يعتبر آية باهرة من الله تعالى، لبيان قدرته سبحانه وتعالى على البعث، وإنطاق الميت بعد الإحياء، وأن يعود لعقله، فيتذكر جميع ما حدث وبدر منه، وما كان من غيره معه. كما تفيد أن الحكم لله تعالى وحده بما شاء وكيف شاء، إذ جعل السبب في إحياء ذلك الميت عظم البقرة. فَيُضْرَب الميتُ بعظم البقرة، فتعود له الروح. فحقاً لهذه السورة العظيمة أن تُسَمَّى بسورة البقرة. فالأمر لله تعالى من قبل ومن بعد. وفيه من الفوائد كذلك: البيان لأهل الأرض في زمنه صلى الله عليه وسلم، وما بعد ذلك إلى أن تقوم الساعة بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أخبر بما كان من أهل الكتاب في ماضيهم، والذي يعرفه بنو إسرائيل عن أسلافهم. فهو حجة قائمة لهذا الدين ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾

تبين هذه الآية الكريمة ما حصل لبني إسرائيل من قسوة القلب بعد أن رأوا الآيات الباهرات التي يخفق لها القلب ويرتجف منها البدن، ويُذعن بها الإنسان لأوامر وتوجيه الله تعالى، وبما يُوجِب طاعته ومحبته مما حصل لهم من كرم الله تعالى بإنزال المن والسلوى وإنقاذهم من فرعون، وإغراق عدوهم أمامهم، ودخولهم الأرض المقدسة، فجميع تلك الآيات الباهرة، والعطايا العظيمة تُوجب

محبته وطاعته عَزَّ وجل. وفي انفلاق البحر وإغراق فرعون أمامهم، ورفع الطور فوقهم، وإحياء الميت أمامهم ما يوجب الخوف والطاعة والامتثال، ولكن قست قلوبهم بعد ما حصل لهم من الدلائل الموجبة للطاعة. فقال الله تعالى عنهم ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ أي: أصبحت قلوبهم غليظة، فذهب منها اللين والخشوع، وخَلَت منها الرحمة ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ بعد جميع ما حصل لكم من الإنعام، وما حصل منكم من التحايل في يوم السبت، والعناد، والكذب، ومن ذلك تدارؤكم في القتيل الذي قتلتموه. فقد أفاد قوله عَزَّ وجل ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ إلى جميع ما تقدم من الآيات الموجبة للين القلوب ورقتها.

مما يفيد أن هناك عقولاً لا تستجيب للحق، مهما رأت من الأدلة والبراهين، وأن هناك قلوباً لا تتأثر بمن يُنْعِم عليها ولا بمن يخيفها. وإن أذعنت فإذعان تَوَقِّي ثم العودة لما كانت عليه من الانحراف. ومن فضل الله تعالى أنه كلف المؤمن بواجب هداية الدلالة على الخير والإرشاد للغير، ولم يكلف أحداً من خلقه بهداية التوفيق. بأن يجعل غيره مطيع له باختياره. بل جعلها خاصة به، كما قال تعالى في سورة القصص ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

وتفيد الآية الكريمة أن القلب عندما يقسو وتشتد قساوته فإنه لا يستجيب، بل تصبح شدة قساوته أعظم من شدة قسوة الحجارة، بل إن الحجارة أكثر استجابة من هذا القلب البشري إذا صار قاسياً ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ فمن الحجارة ما تتفجر منه الأنهار والعيون، ومنها ما يتهشم من خشية الله تعالى كجبل الطور عندما تجلى له سبحانه وتعالى، واهتزاز جبل أحد واضطرابه عندما اعتلاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم. فتفيد هذه الآية أن الجمادات تتفاعل مع آيات الله تعالى بالخشية، كما قال تعالى عن الحجارة ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ وكما قال تعالى في سورة الحشر ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا

ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ وكما اندك جبل الطور لما تجلى الله تعالى له ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ واهتزاز جبل أحد لما صعد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك حنين الجذع. وبالتالي فإن بعض الحجارة تَفْضُلُ على قلوب بعض البشر، ممن لم يؤمنوا بالله تعالى بعد أن عرفوا الحق.

ثم تُختم الآية الكريمة ببيان وتأكيد علم الله تعالى، من خلال نفي الغفلة التي تكون عند المخلوق ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فنفى الله تعالى عن ذاته الغفلة التي هي من طباع البشر، وفي ذلك المدح بأسلوب نفي الضد بلاغة بيانية، إذ يستوعب نفي النقص حصول كمال صفة الكمال. وهذا البيان مدحٌ بأسلوب نفي النقص، فهو الكمال وصاحب الكمال تبارك وتعالى، فلا يغيب عن علمه ما يسِرُّ به البشر وما يكتمونه من أسرار، وما يضمرونه في صدورهم من نوايا، فضلا عما يُظهرونه، فكله عنده علانية سبحانه وتعالى.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

ثم ينتقل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ولأصحابه رضي الله تعالى عنهم، بسؤال استفهام، في معنى الاستنكار، الذي يحمل التعجب من طمعهم في إسلام تلك الفرقة من يهود المدينة بعد أن عَرَّفهم ما كان منهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: فلا تطمعوا في إسلامهم، وتُشغلوا أنفسكم بهم عن غيرهم. وقد ورد البيان من الله تعالى بأسلوب الاستفهام التقريري، الذي يقرر للمسلمين حقيقة اليهود. فقال تعالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟

﴿لَكُمْ﴾ فهل تطمعون وترجون وتأملون منهم الدخول في الإسلام، وقد كانت سيرتهم مملوءة بما عرفتم من العناد، والكذب والتحايل، والقسوة.

وقد ورد البيان الكريم بدلالة ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ التي تفيد قوة الأمل والرجاء في إسلامهم. وهذا الطمع والحرص من المؤمنين في إسلام يهود المدينة دليل على شدة حرصهم على إسلامهم ونجاتهم من عذاب الله تعالى، كما فيه بيان لعظيم حرصه صلى الله عليه وسلم وأصحابه على إسلام هؤلاء اليهود، وبما يفيد أهمية تقديم محبة إنقاذ الكافر من النار على تركه وإهمال دعوته، خاصة المجاورين والمحيطين بالمؤمنين، لأنهم الأولى بالدعوة، وهذا يعني تقديم أولوية محبة الخير للغير بالإسلام عن البقاء في الكفر. كما يفيد هذا التوجيه من الله تعالى على عدم علم المؤمنين بحقيقة ما عليه تلك الفرقة اليهودية، لولا أن الله تعالى بينه لهم، على ما سيأتي بيانه. وفيه كذلك الحرص على هداية الآخرين عموماً. قال القرطبي رحمه الله تعالى: والخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحِلف والجوار الذي كان بينهم.[1] وهذا يدل على وفاء الأنصار لحق الجوار والحِلف، ولكن الله تعالى يعلم الحقائق التي يجهلها البشر إلا بعلم من الله تعالى.

فأوضحت الآية الكريمة قطع الأمل في إسلامهم. قال تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فبينت هذه الآية وجه الاستبعاد من إيمانهم، من أنه كان فريق من أسلافهم قد وصل بهم الحال، أنهم يسمعون كلام الله تعالى ثم يعمدون إلى تحريفه بالتغيير بعد أن ﴿عَقَلُوهُ﴾ أي عرفوه وعَلِموه تمام العلم الذي ينتفي منه الجهل. بل ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهم يعلمون أنهم متقصدين للتحريف، وعقوبة تحريفهم لكلام الله عَزَّ في علاه. بما يفيد ويبين مبالغتهم في الكفر. أي فإن من أسلافهم من عرف الحق وعاند، بل عمدوا إلى تحريف كلام رب العالمين. فكيف تطمعون في إسلام هؤلاء بعد أن عرفوا الحق الذي لا ريب فيه، فقاموا بتحريفه بما يناسب هواهم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٢)

وهذا يفيد أن ليس كل من يرفض الحق يجهله، بل إن البعض يرفض الحق وهو يعلمه علماً يقينياً، بل إن البعض يعمد إلى تحريفه بعد علمه ويقينه. وهذا يفيد أهمية الحذر من الهوى والحقد والكبر الذي يصد الإنسان عن قبول الحق. فإذا كان يصد عن الأمر العظيم المتعلق بمآل الإنسان، فكيف لا يصد عما هو أقل منه في أمور الدنيا، كالتجارة وما يكون بين أرباب المهن، وفي الإدارة العامة والخاصة التي تجتمع فيها مصالح الناس، وفي غيرها من مناحي الحياة ومجالاتها. مما يستوجب الحذر من مخاطر الكبر والحسد والهوى. فإنها سلاح شياطين الإنس والجن.

ثم يبين الله تعالى حال المنافقين من اليهود في المدينة مع المؤمنين، وأيضاً فيما بينهم ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فيكشف الله حال المنافقين من اليهود بأنهم يُظهرون الإيمان للمؤمنين، وإذا خلوا إلى بعضهم، أنكر بعضهم على بعض ما قالوه للمسلمين من صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة دينه، بما عرفوا من الكتب المنزلة، ومعللين هذا الاعتراض بأنه يُقيم الحجة عليهم، فيؤدي إلى احتجاج المسلمين بهذا عند الله تعالى. إذ كيف تكفرون وأنتم تُظهرون الإسلام وتعرفونه. وتقولون بصحة هذا الدين وصدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فإنه خبر من الله تعالى عن الذين أيأس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من إيمانهم، من يهود بني إسرائيل، الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله تعالى ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. وهم الذين إذا لقوا الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم قالوا: آمنا[١] وهم غير صادقين في ذلك.

فدائرة الحديث بينهم هو قوله عَزَّ وجل عنهم ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ كيف تخبرون أصحاب محمد بما تعلمون من نبوته صلى الله عليه وسلم. فيحتجون عليكم. قال مقاتل رحمه الله تعالى:

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢/١٤٤-١٤٥)

كان المسلم يلقى حليفه، أو أخاه من الرضاعة من اليهود، فيسأله: أتجدون محمداً في كتابكم؟ فيقولون: نعم، إنه لحق. فسمع كعب الأشراف وغيره. فقال لليهود في السر: أتحدثون أصحاب محمد بما فتح الله عليكم؟ أي: بما بين لكم في التوراة من أمر محمد، ليخاصموكم به عند ربكم، باعترافكم أنه نبي، أفلا تعقلون أن هذا حجة عليكم؟[١]

وهذا يفيد أنهم ليسوا بجهال، بل على كمال العلم بنبوته صلى الله عليه وسلم، ولكنهم يستجهلون، ويستغبون. فيقول الله تعالى فيهم ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وهذا سؤال استنكاري على ما تقرر عندهم من الإسرار فيما بينهم، وما يعلنونه ويظهرونه بأنهم مؤمنون، مما يفيد التوبيخ والتقريع لهم. وأيضاً يبين هذا عظيم علم الله تعالى واطّلاعه على ما يُعْلِنُهُ أو يُسِرُّهُ المرءُ، فلا يخفى على الله شيء سبحانه وتعالى. كما تفيد هذا أن من صفات المنافقين: إظهار الإسلام وإخفاء الكفر. مما يستلزم من المؤمن الحذر من خداع الكفار، والحذر من التخلق بمثل أخلاقهم في التعامل، فإنها أساليب نفاقية شيطانية. والله تعالى عليم بأسرار العباد، وما يسرون به فيما بينهم، وما يعلنونه مما يخالف ما يسرون به، ويتكتمون عليه. فلا تخفى على الله تعالى من عباده خافية أبداً. وإذا أيقن وآمن الإنسان بذلك انتظم واعتدل مسلكه.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/٨٩ ــ ٩٠)

خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يبين الله تعالى أن من أهل الكتاب من هو أمي، لا يعرف الكتابة، فلا يعلم ما في الكتاب الذي أنزله الله تعالى عليهم، ويتمنى هؤلاء على الله تعالى ما ليس لهم، ولا يعلمون إلا ظناً وتخرساً. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أي: وصنف من أهل الكتاب ﴿ أُمِّيُّونَ ﴾ ومعنى ذلك كما قال تعالى ﴿ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ أي: لا يدرون ما فيه ﴿ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ الكذب، وهو ما يتمنونه، فيكذبون على الله تعالى بناء على ما يتمنون. فمن دلائل الأماني أنها الأكاذيب، ومنه قول عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما تمنيت منذ أسلمت، أي: ما كذبت. وقال قتادة رحمه الله تعالى: يعني أنهم يتمنون على الله تعالى ما ليس لهم(١) فدلالتها تجمع ما كانوا عليه من الكذب، من أجل أن ينالوا ما يتمنون، وبالتالي يبنون أقوالهم على التخمين ﴿ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فمعرفتهم مبنية على الظن من الكذب والوهم والتخمين، وليس على اليقين.

مما يفيد خطورة أن يتكلم الإنسان في كتاب الله تعالى بغير علم، فيقول هذا غير صحيح، وهذا معناه كذا، ولا يمكن أن يكون كذا، وهذا جائز، وهذا حرام، وغير ذلك من الكلام بغير علم، وإنما ظناً منه بأنه يفهم، وأن ما يقوله صواباً. فيتقول على الله تعالى بغير علم.

وهذا الذم للجهل يفيد المدح لأضداده، وهو العلم، وكذلك أهمية الكلام بعلم، كما يدل على فضل العلماء، وأهل العلم الربانيين الذين يقولون بعلم ومعرفة، وليس بما يتوهمون ظناً من عند أنفسهم. ويبين هذا أن من الناس من قد يتجرأ على دين الله تعالى بما يحب ويهواه من الباطل، مما يجب الحذر من هذا المسلك، وأن يتعوذ المسلم بالله من أن يقول بغير علم. أو أن يستفتي من ليس له علم، أو يسمع توجيه من ليس له علم في أمر الدين. ويُستفاد من قوله تعالى ﴿ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٦-٧)

﴿ يَظُنُّونَ ﴾ أن الظن ليس بعلم، بل هو تخرص وتوهم، وأنه لا يُعَول عليه، حتى يتم التثبت بعلم، والذي هو إدراك الشيء على حقيقته إدراكاً جازماً.

ثم يتوعد الله تعالى الذين يحرفون الكتاب، ويكتبون خلاف ما أنزل الله تعالى، ثم ينسبونه زوراً وبهتاناً إلى الله تعالى، ويَدَّعُون أنه من عند الله، وأنه مُرَادُ الله تعالى ﴿ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله تعالى، وأكل أموال الناس بالباطل.(١) وإن كان هذا في بني إسرائيل فإن في قصصهم موعظة وتحذيراً من هذا المسلك، لأن في البشر من قد يسلك مسلك هؤلاء.

فقد بين الله تعالى توعده لهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ والويل هو الهلاك والدمار، وقال بعض أهل العلم هو صديد في أصل جهنم، وقيل هو واد في جهنم لو سُيِّرَت فيه الجبال لماعت. وفي الحديث (الويل: واد في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً، قبل أن يبلغ قعره)(٢)

وفي تلك الآية بيان مخاطر أمرين وقعا منهم، كما فندها تبارك وتعالى، فالأمر الأولى ﴿ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ فالهلاك والعذاب الشديد لما كتبوه، ثم أكده تبارك وتعالى بأنه ﴿ بِأَيۡدِيهِمۡ ﴾ قال الطبري رحمه الله تعالى: الذين حَرَّفُوا كتاب الله تعالى من يهود بني إسرائيل،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢١/١)

(٢) الترمذي، (٥/ ٢٩٩ – ٣٠٠) برقم (٣١٦٤) وهو ضعيف. ضعيف الجامع، برقم (٦١٤٨) والضعيف يؤخذ به في الترغيب والترهيب.

وكتبوا كتباً على ما تأولوه من تأويلاتهم، مخالفاً لما أنزله الله تعالى على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام، ثم باعوه من قوم لا علم لهم بها، ولا بما في التوراة[١]

فالثانية: هي عملية البيع للتكسب ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ وفي هذا خطورة الكذب على الله تعالى لوحدها، وخطورة أن يتكسب بآيات الله تعالى. فشملة دلالة ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ عِوَض ما كتبوا، وإثم ما فعلو[٢] وهذا يبين خطورة من يتاجر بدين الله تعالى، بالكذب والافتراء، ومسايرة الأهواء، ليتعاظم بذلك في الدنيا ويخسر الآخرة، بل الويل والهلاك له. فقد تكررت الويل في الآية مرتين: أولى: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ والثانية: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ لبيان شدة وهول الوعيد لمن هذا مسلكه في دين الله تعالى، وآياته وحججه وبراهينه.

وهذا يفيد ويبين أن العالم يتحمل مسؤولية عظيمة وجسيمة، ولكنه مقابل ذلك رفيع الدرجة عند الله تعالى، فبعظم المسؤولية يعظم الأجر بإذن الله تعالى، وأن الله الغني الكريم لا يضيع أجر ودرجة من تحمل أمانة وشرف العلم بالقرآن الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين الله تعالى سبب وعلة وتبرير أولئك الذين يتهاونون ويستخفون بكتاب الله تعالى، فيسلكون بهذا التبرير مسلك المستخف بآيات الله تعالى، فيتكسب بها ثمناً قليلا، إذ يقول الله تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ لن نكون في عذاب النار إلا أياماً قليلة، ثم نخرج منها. بل إن صيغة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ تفيد أنها استثناء من الأصل بحرف ﴿إِلَّآ﴾ فكأن الأصل لهم الجنة والنجاة والفوز، كما أفادت ﴿مَّعْدُودَةً﴾ المبالغة في القلة. مما يبين قوة التألي على الله تعالى، بالحكم لأنفسهم بما يحبون ويشتهون.

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٦٤/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩١/١)

وهنا يظهر الخطأ والتحكم في التبرير، وكأن أمر تقرير العقوبة عائد إليهم، لإرضاء النفس. وهذا يفيد أن المرء قد يبرر لنفسه التبرير الذي يشجعه على الإقدام نحو ما يريد مما تهواه النفس، ويكون هذا التبرير كذباً وزورا، ثم حتى لو كان العذاب لأيام معدودة، فهل يستطيع المرء ذلك؟

ولكن الله سبحانه وتعالى يُكَذِّبُ هذا التبرير، وينكر عليهم هذا الحكم الجريء، الذي يدل على قوة تعاليهم. فيقول تعالى ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سؤال استنكار، يحمل معنى التكذيب والتوبيخ لهم ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ أعندكم عهد من الله تعالى بهذا الحكم؟ بأن لا يعذبكم إلا هذا المقدار. فإن كان عندكم عهد من الله عَزَّ وجل ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ فإن الله تعالى ضامن لما يعهد به لعباده، لأنه عَزَّ وجل لا حاجة له في إخلاف العهد، فهو الخالق المالك ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أو أنكم تتقولون على الله تعالى بهذه الأقوال التي لا تعلمون عليها دليل من الله عَزَّ في علاه؟ سؤال يعيدهم إلى أن يتبينوا حقيقة الافتراء، لأن ليس عندهم عهد من الله تعالى بذلك، بل هو محظ افتراء. مما يبين أن هناك من يفتري الكذب، ثم يتطاول فيه، كما هو حال الطوائف المنحرفة.

ثم انتقل السياق الكريم إلى بيان حكم الله تعالى العام، لهم ولغيرهم. فقال تبارك وتعالى ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إن اكتسب السيئات من الآثام والمعاصي، حتى أحاطت به من كثرتها، وتفاقمها بالكفر ونحوه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فهؤلاء هم المصاحبون للنار، وخالدون لا يخرجون منها أبداً.

وقد بدأت الآية الكريمة بحرف ﴿بَلَىٰ﴾ الذي أفاد نفي افتراءهم بأن عذابهم لأيام معدودة، ليثبت ما بعده، وهو ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وهي الشرك في قول ابن عباس

وعكرمة[١] وغيرهم ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ﴾ أي: وطوقت به ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ وهي الكبيرة من الذنوب. قال الحسن وقتادة: الخطيئة الكبيرة[٢] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فهؤلاء هم أصحاب النار الذين لا يخرجون منها أبداً. بما يفيد أعيدوا النظر في أحكامكم، وصححوا ما أنتم عليه قبل أن تنقضي آجالكم. مما يبين قوة منهج القرآن في التصحيح ، وإظهار الحق من بين الباطل.

وهذا يفيد ألا يقول الإنسان إلا بعلم، وألا يُوجِد لنفسه مسوغات وتبريرات يستبيح بها الحرام، ويشتري بآيات الله ثمناً قليلا، لأن سلعة الله غالية، وثمنها الجنة، لمن أخذها كما أمر الله تعالى بها. حيث يقول الله تعالى بعد بيان عقوبة الْمُكَذِّبين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فهذا جزاء المؤمن الذي يعمل الصالحات المأمور بها، فيحفظ أوامر الله تعالى ولا يشتري بها ثمناً قليلا، وبالتالي لن يَكْذِبَ على الله تعالى، ولن يستهين بعذابه وعقابه. فاللهم أجرنا من عذابك وعقابك. واحفظنا من القول بغير علم في كتابك ودينك.

وقد أورد تبارك وتعالى بيان الفائزين بالجنة باسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ لتفيد التخصيص لما بعدها، المتصفون بصفتين: الصفة الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. وأما والصفة الثانية: هي ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي هي عبادة لله تعالى بطاعته. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٢/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١/٢)

تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع. فقد جمع الله عَزَّ وجل بينهما بحرف العطف. فالذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسوله وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله عَزَّ وجل به من الفرائض وغيرها من السنن والمستحبات. فإنه بذلك يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات، فيشتركان في الطاعة ولامتثال بهما. وسمَّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس، ومع الله تعالى، ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله. وهذا البيان يستحث المؤمنين على لزوم الطاعة، والمسارعة إلى كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وهو فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لأهل طاعته. كما يستحث الكفار على المسابقة إلى الدخول في الإسلام، والامتثال لدين الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

فهؤلاء فقط هم أهل الجنة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فأشار إليهم تبارك وتعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لإفادت التفخيم والتبجيل بناء على ما بعده من بيان أنهم ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ فهم أهل الجنة، المصاحبين لها ﴿ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ خالدون آبدون فيها، فلا يخرجون عنها أبداً، حياة أبدية. اللهم إنا نسألك الجنة وجميع المسلمين.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

تبين الآية الكريمة أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل العهود المؤكدة بعبادته وحده لا شريك له، والإحسان بالوالدين، وذي القربى، واليتامى، والمساكين، وأن يقولوا للناس أحسن القول من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرفق بهم والمخاطبة الطيبة، وأن يقيموا الصلاة ويُؤَدُّوا الزكاة. كما بينته وتضمنته الآية الكريمة. وأيضاً تفيد هذه الآية العظيمة أن شرائع الله تعالى متضمنة لأصول الدين، القائمة على عبادته وتوحيده التوحيد الخالص، ونفي الشرك ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ فأوضحت ألا تُصرف العبادة إلا لله وحده لا شريك له. وكذلك متضمنة لمكارم الأخلاق والإحسان للغير ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ وكذلك متضمنة للعبادات التي منها الصلاة والزكاة ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ ويتبين في هذه الآية الكريمة حق الله تعالى المتضمن للتوحيد الذي لا يتم أصلاً إلا بتقريره وتحقيقه، وصْرَف العبادة له وحده لا شريك له.

كما أن الإيمان به جَلَّ في علاه يستوجب الإيمان بمن جاء بالرسالة، وهم الأنبياء، وما أُرسِلُوا به من الكتب، وهذا يتطلب كذلك الإيمان بمن نَزَلَ بهذه الكتب، وهم الملائكة المكرمين، وبالتالي فإن عبادة الله تعالى الخالصة الصحيحة تستوجب تحقيق أركان الإيمان وإن لم يتم ذكرها. لدلالة غيرها عليها، ولزوم العبادة والتوحيد لها. كما تفيد هذه الآية خطورة الشرك الذي هو ضد التوحيد، فلا تُصرف العبادة إلا لله وحده لا شريك له ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ وأن من أشرك بالله شيئاً فإنه لم يحقق التوحيد الذي أمر الله تعالى به.

ثم تبين وتوضح الآية العظيمة حق الوالدين، وهو الإحسان بعمومه، والمتضمن لكل أجزائه وأوصافه، فأغنت دلالة ﴿إِحۡسَٰنًا﴾ عن جميع التفاصيل لمكوناتها، والتي تُوجِب عدم الإتيان بما يضاد الإحسان من قول أو فعل، أو ترك شيء من أجزاء الإحسان.

ومن دقائق البيان أن الإحسان أعم من الإنعام، وهو فوق العدل، بل تجاوز ذلك إلى المبالغة في الإكرام. فإن العدل واجب وأما الإحسان فهو تجاوز العدل إلى المبالغة في الإكرام. فأصبح الإحسان في حق الوالدين واجب. حيث انتقل من التفضيل إلى الوجوب بأمر الله تعالى وحكمه، وبما يصل به الأولاد إلى أقصى ما يمكنهم. مما يبين أن حقوق الوالدين تتعالى بالمبالغة في كمال أدائها، دون حدود محددة لكمالها، خاصة وأن الذي أمر بها هو الله الخالق الكريم. وفي هذا الأمر منه سبحانه وتعالى تكريم للوالدين وعناية خاصة منه عَزَّ وجل بهما. وفي هذا بيان لأخلاق الإسلام وهديه العظيم في بر الوالدين، وهذا من كمال الدين وأخلاقه، ومن رحمة الله تعالى وبركاته وفضله. وفي هذا إعجاز بياني وبلاغي لهذا القرآن المجيد. بل كل ألفاظ هذه الآية معجز في دلالاتها اللفظية، المعبرة عن الكثير العظيم بأقل العبارات والألفاظ. وأفادت الآية الكريمة عظيم حق الوالدين، إذ خصت الوالدين من بين ذوي القربى، بالرغم من دخول الوالدين فيهم، كما قدمت حق الوالدين على ذوي القربى وغيرهم. لِتُفيد الأهمية وترتيب الأولويات.

ثم تدرج التوجيه العظيم في الآية الكريمة إلى بيان حق ذوي القربى إجمالاً، والذي لا يخفى على ذوي الألباب من أنهم درجات متتاليات، مما يغني عموم البيان عن التفصيل، ثم تمتد مكارم الأخلاق لليتامى والمساكين، ثم يتدرج التوجيه الكريم إلى عامة مع الناس جميعاً ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾ بما يلزم ويشمل جميع مكارم الأخلاق، وترك منكراته، فيدخل في ذلك حفظ حقوقهم، لأن حفظها من الإحسان، وتركها أو الاعتداء عليها منافي للإحسان. وتخصيص اليتامى والمساكين من بين الناس، وتقديمها على العام دليل على أهميتها، وأهمية العناية بها، حيث لفتت شريعة الله تعالى الانتباه إليها بالتخصيص، مما يفيد أن التخصيص للتنبيه بمزيد العناية. والتخصيص لها، لما يلحقها من العجز عن تحقيق ما يحتاجونه من لوازم الحياة الكريمة، كالمأكل والمشرب والتوجيه والرعاية. وهذه الآية معجزة في بيانها اللفظي العظيم، ودلالاتها المتضمنة لأنواع التشريع بأقل الألفاظ.

ثم يأمر الله تعالى بإقامة الصلاة التي هي عبادة بين العبد وربه ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

ثم تتلوها الزكاة التي هي عبادة لله تعالى، إلا أن أداءها بين العباد فيما بينهم ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي التفاعل والتعاطف العملي بين من أغناه الله تعالى بفضله وبين من أحوجه الله تعالى لغيره بحكمته. وهذا التشريع بهذه المعاني والشمولية المتضمنة للإحسان والرحمة دليل على أنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله تعالى. بما أحاط به دقائقه لأمره وتشريعه، وفق ترتيب تتجاذبه الفطر السوية، مع بلاغة تراكيب ألفاظه ودلالاتها المستوعبة للمراد بكل شمولية ودقة.

ثم يبين الله تعالى حال بني إسرائيل في تطبيق أصول هذه الشريعة ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ والتولي عن الشيء هو تركه بعد الوقوف عليه. مما يبين أنكم قد عرفتموه حق المعرفة ثم تركتموه حيث أعرضوا عن الوفاء بما التزموا به ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ إلا القليل منهم. وفي هذا تذكير لهم بما هم عليه، وتحذير لغيرهم، بأن لا يكونوا مثلهم.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾

يخاطب الله تعالى بني إسرائيل بما كان منهم، عندما اخذ عليهم العهود المؤكدة بأن لا يسفكوا دماء بعضهم بعضا، ولا يُخرجوا بعضهم بعضاً من ديارهم. ثم أقروا بمعرفة هذا الميثاق وقبلوا به، وشهدوا على أنفسهم بذلك. وهذا هو الأصل في دينهم. فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ فبين الله تبارك وتعالى حال اليهود الذين كانوا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وما كانوا يعانونه من الاقتتال، منكراً عليهم مخالفتهم للكتاب، وما كانوا عليه من القتال مع الأوس والخزرج، الذين أصبحوا هم الأنصار بعد إسلامهم ونصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم. وذلك أن الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة. وكانت يهود المدينة ثلاثة قبائل، وهم: بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس. فإذا نشبت الحرب بينهم، قاتل كل فريق مع حليفه، وبالتالي قد يقتل اليهودي يهودياً آخر من ملته في الفريق الآخر، وذلك حرامٌ عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويُخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها، فقال تعالى مبيناً لهم الحال التي هم عليها من مخالفة ما عندهم من الكتاب ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسرى عملاً بحكم التوراة.(١) وبهذا يوافقون التوراة في فداء الأسرى، ويخالفونها بالاقتتال وسفك الدماء، وإخراج بعضهم بعضاً من منازلهم ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ وفي هذا استنكار توبيخي بافتداء الأسرى بعد أن تضع الحرب أوزارها، والأصل أنه محرم عليهم إخراجهم. وقتل بعضهم بعضا.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٥/١)

وهذا يفيد عظيم شريعة الله تعالى التي تحفظ الدماء، وتنهى عن سفكها بغير حق، وتنهى عن الإخلال بأمن المجتمع، وإشاعة الظلم بالاستقواء على الأضعف، وأخذ ماله، وإخراجه وتهجيره من بيته، والعبث به وبأسرته، وربما أدى ذلك لتشتيت شملهم.

كما يفيد ذلك مخاطر وإثم العبث في دين الله تعالى، بتطبيق بعضه والإعراض عن بعضه، فيطبقون ما يشاؤون ويتركون ما يشاؤون، وأن هذا الفعل هو من مسلك الجاهلين من اليهود ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ فحالكم مع دينكم هو تطبيق ما تشاؤون وتتركون ما تشاؤون. فتعاملكم مع الدين بحسب ما تهوون وتشتهون، لا بحسب ما شرعه الله تعالى لكم.

وورد تعبير القرآن الكريم بلفظ ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ فيستجيش قلب التالي والمستمع لكتاب الله تعالى، فكأنما يقتل الإنسان نفسه، فلم يكن اللفظ: يقتل بعضكم بعضا، بل كان بلفظ ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ ليستشعر الإنسان أنه عندما يقتل غيره بغير حق فكأنما يقتل نفسه بفواجع إزهاق الأنفس البريئة، والتي حرم الله تعالى قتلها إلا بالحق، الموجب للقتل. قال ابن كثير: وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة،[١] كما قال صلى الله عليه وسلم (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى)[٢] وفي دلالة ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ ملمحٌ مؤثر، فأهل الملة كالجسد الواحد، وعندما يُقْتَل أحدُهم بغير حق فكأنما قتل القاتل أجزاء جسمه، فكيف يليق ذلك؟ وبالتالي واجب المسلمين أن ينظروا لأنفسهم كجسد واحد، يصعب أن يستقطع الإنسان جسده ويمزقه ليكون أشلاء، أو السعي في تمزيق هذا الجسد ليكون أحزاباً متناحرة، فيعادي بعضهم بعضا إلى درجة الاقتتال واستباحة الدماء والأموال والأعراض.

---

(١) المرجع السابق (١٢٥/١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٩٣/٤) برقم (٦٠١١)

وهنا يلمح التالي لكتاب الله تعالى ذلك التعبير الدقيق، والوصف القرآني المبين، لعظيم جرم التشريد، بأن قال تبارك وتعالى ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم﴾ ولفظة منكم تفيد استقطاع الجزء من الكل، فكأنما قطعوا جزءاً منهم، ثم تظاهروا على هذا الجزء الذي هو عضو من الكل بالإثم والعدوان ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وهو عملٌ محرمٌ بهذا العضو ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ فأي استجاشة للقلب أكثر وأبلغ من هذا الوصف البليغ في دلالته ومعانيه التي تتطاير معانيه للقلب وتتعلق به.

وهذا الإخبار من الله تعالى عما لديهم في التوراة، يدلل ويُثبت لهم ولغيرهم أن هذا القرآن كلام الله تعالى، وأن الذي جاء به رسولٌ من عند الله تعالى، وبالتالي فإن محمداً صلى الله عليه وسلم رسولٌ ونبيٌ من عند ربنا تبارك وتعالى. إذ كيف يخبرهم بما عندهم من دقائق تفاصيل كتابهم.

ومن الفوائد: أن في مواجهة المخالف بحقائق ما يعرفه، ويمتنع عليه إنكاره قوة في إقامة الحجة عليه. وجاء القرآن الكريم بهذا في سياق تقرير الواقع واستنكار الفعل ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ ليأتي بعد هذا السياق مباشرة الجزاء الذ سيواجه من ارتكب هذه المخالفات الشنيعة، ولكن هذا الجزاء يأتي بمقدمة استفهامية مثيرة، قال تعالى ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ فأورد تبارك وتعالى البيان للجزاء بصيغة الاستفهام أولاً، ثم الإجابة عليه ثانياً، ليستثير العقل والعاطفة نحو تصحيح المسار ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ ففي الحياة الدنيا خزي وعار عليهم، وقد عرف الناس بهذا، وأما يومُ القيامة فسيكون هناك عذاب شديد.

وهذا يفيد أن الخزي في الدنيا عذابٌ، لما يحصل للمرء من العار والسمعة الشنيعة السيئة، التي يتأذى بها بين الناس، مما يؤكد أهمية الحذر من عقاب الله تعالى، من وجهين: في الدنيا بالعار، وفي الآخرة بأشد العذاب. ففي الدنيا يُخزى الله تعالى العاصي بالعار الشنيع الذي يلاحقه، ويشوش

عليه حياته ويعكر صفوه، فيمنع عليه سعادة الدنيا، ويقرر عليه العذاب في الآخرة. ثم يختم الله تبارك وتعالى الآية بقوله عزَّ وجل ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ فنفى سبحانه وتعالى الغفلة عن ذاته الكريمة، والتي تُصيب المخلوق. والنفي هنا يفيد المدح وكمال الثناء، فنفي الغفلة دليل على الكمال الذي في ضدها، كما قال تعالى ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ فما أجمل كتاب الله تعالى. وما أجمل أساليبه ووعظه الكريم العظيم.

ثم يصف الله تعالى أوصاف أصحاب هذا الصنيع، فقال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ فهذه الأفعال صفة من يقدم الدنيا على الآخرة، وصفة من يشتري الدنيا بالآخرة، وكأنه يدفع ثمناً من أجل تقديم الدنيا والاستئثار بها على الآخرة، فيجعل الآخرة الباقية بمثابة الثمن الذي يُدفع من أجل الدنيا الفانية. فأي خسارة أكبر من هذه الخسارة التي يدفع ثمنها من هو عالمٌ وعارفٌ بها، ولا جهالة فيها البتة. وبهذا الوصف تستثير الآية الكريمة عقل أولي الألباب، بأن لا تفعلوا هذا.

وهذا يتطلب من المؤمن التعقل أمام المعاصي، فإنما هي أثمان تدفع من حق الآخرة للدنيا، فأي خسارة أكبر من ذلك، خاصة وأن السياق جاء في صورة بيع وشراء، فهي تجارة للآخرة، فرابح وخاسر. ثم يختم الله تعالى جزاء من كان صنيعه هذا، بقوله عزَّ وجل ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ فلن تكون هناك رأفة تخفيف من العذاب، بل هو قائم على أشده. وهذا من عظائم الوعيد ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ ولا ينصرهم ولا ينقذهم أحدٌ من ذلك العذاب المهين الشديد. بما يفيد التحذير من ذلك.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا

يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يمتن الله تعالى على بني إسرائيل بأن أرسل لهم رسوله وكليمه موسى عليه السلام، ثم تابع بعده بالرُسل إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى عليه السلام، الذي أيده وقواه بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام(١) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وفي هذا تذكير لبني إسرائيل بما امتن الله تعالى به عليهم من تتابع الرسل. وأن هذا من فضل الله تعالى عليهم إذ بعث لهم موسى عليه السلام نبياً، ثم تتابعت الرُسُل عليهم. وكان آخرهم عيسى عليه السلام. كما تفيد الآية الكريمة أن الله يعضد من يشاء

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧٥/١)

بتأييده وعنايته، والتي منها أن أيد عيسى بالملك جبريل عليهما السلام. مما يبين أن هذا القرآن الكريم هو من عند الله تعالى، إذ يُخبر بني إسرائيل بحقائقهم.

ثم يبين الله تعالى حال بني إسرائيل مع الرُسل الكرام ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ سؤال استنكارولوم على أفعالهم مع ما سبق من المرسلين، وتقرير بما كان منهم من التوافق في وحدة التعامل بالاستكبار على المرسلين. بل قرر البيان الكريم استعلاء نفوسهم على المرسلين ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يريدون شريعة الله تعالى وفق أهواءهم المختلفة والمتباينة. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: الاستفهام للتعجب من طغيانهم، ومقابلتهم جميع الرسل في جميع الأزمان بمقابلة واحدة، ساوى فيها الخلف السلف، مما دل على أن ذلك سجية في الجميع(١) وهذا يُعلم المؤمنين بمنهج اليهود مع أنبيائهم، واستعلائهم على شريعة الله تعالى. مما يبين خطور الكبر والاستعلاء على النفس، وعلى قبولها للحق.

مما يفيد أن في بني إسرائيل من كذب الرُسل ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ بل وفيهم من قتل الأنبياء ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ بسبب استكبار النفس واستعلائها على من جاء بالهدى، الذي لم تهواه أنفسهم. وهذا يؤكد أن الهوى يجر للكبر والاستعلاء الذي يمنع قبول الحق. وهذا بيان وتحذير للناس من مخاطر الهوى الذي يصد الإنسان عن اتباع رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين. وتحذير لليهود مما هم عليه، بأن لا يمنعهم استكبارهم من قبول الحق، والدخول في الإسلام.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١/٥٦٠)

ثم يتكرر تعليل المعصية والكفر والانحراف، كما في قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ أي قلوبنا مغطاة فلا تعي[١] أي لا نفقه ولا نعي[٢] وهذا يبين مخاطر التبرير الكاذب، عندما يسترسل الإنسان مع هوى النفس. فيقول الله تعالى جزاءً لهم ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أي أن الله تعالى طردهم وأبعدهم عن الخير وعن رحمته بسبب كفرهم، لأن اللعن يفيد الطرد والإبعاد ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ ثم أخبر سبحانه وتعالى بأن القليل منهم من يؤمن ﴿ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ فلا يؤمن منهم إلا القليل.[٣] وقيل: أي إيمانهم قليل جداً.[٤] بل من دقائق البيان أن شمل قوله تعالى ﴿ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ خمس دلالات، ذكرها ابن الجوزي رحمه الله تعالى، أحدها: فقليل من يؤمن منهم، قاله ابن عباس وقتادة. والثاني: يؤمنون بقليل مما في أيديهم، ويكفرون بأكثره. والثالث: فما يؤمنون قليلاً ولا كثيراً. والرابع: فيؤمنون قليلاً من الزمان. والخامس: فإيمانهم قليل[٥] فجميع تلك الدلالات شاملة لهم، مما يبين بلاغة البيان في القرآن الكريم، الذي يستجمع المقاصد في أقل مكونات السياق.

وفي هذا البيان القرآني لحال بني إسرائيل ما يفيد التحذير لهم مما هم فيه وعليه من ذميم الأخلاق والتعامل، والكفر، وأيضاً فيه ما يحذر ويُرهب النفس عن سلوك هذا المسلك الذي عاقبته الطرد من رحمة الله تعالى. فلا ملاذ لها بعد الله تعالى.

وبعد بيان حال بني إسرائيل مع أنبيائهم، يبين الله تعالى حالهم مع الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ

---

(١) تفسير الجلالين، ص (١٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢٨)

(٣) المرجع السابق (١/١٢٨)

(٤) تفسير الجلالين، ص (١٣)

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/٩٧)

ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ وفي هذا المقطع من الآية الكريمة ما يؤكد أن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مُصَدِّقٌ لما معهم من التوراة، ولا يناقضه، بما يؤكد لهم صدق نبوة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا صدق الكتاب الذي جاء به من ربه تبارك وتعالى، وأنه يبين لهم فيه الحقائق التي يعرفونها مما في التوراة. خاصة وأنهم كانوا يستنصرون على أعدائهم بمجيء هذا النبي قبل بعثته، فيقولون لمن قاتلهم: سيُبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرَم.(١) وهو معنى قوله تعالى ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ ولكن لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ فكان جزاؤهم كما قال تعالى ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وهو الطرد من رحمته جزاء لكفرهم.

ثم يبين الله تعالى تقييم موقفهم بكلمة ﴿ بِئْسَمَا ﴾ المستوفية للذم كما أن (نعم) مستوفية للمدح.(٢) فقال تعالى ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ ففيها من الوصف ما يحمل كل ذم للفعل السلوكي الذي سلكوه، فبئسما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم عن تصديقه ومؤازرته ونصرته.(٣) فامتنعوا عن الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم بسبب البغي من أن يُنَزِّلَ اللهُ تعالى القرآن الكريم وهذا الدين على غيرهم ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ فبئس الأمر والشأن الذي اختاروه لأنفسهم، باستبدالهم البطل بالحق، والكفر بالإيمان. فَقُبِّح الفعلُ فعلهم، بأن مالوا إلى الكفر، واشترو به أنفسهم، واستعاضتهم بالكفر على ما أنزل الله تعالى من الحق على رسوله محمد صلى الله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢٩)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٠)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٢٩)

عليه وسلم، والسبب هو ﴿بَغْيًا﴾ حسداً، وبطراً وأشراً، فليس لغير ذلك السبب أمراً آخر ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فلا يريدون الفضل إلا لهم، ومنهم. وإذا كان منهم وفيهم، كفروا، وقتلوا الأنبياء. فلا يرضون بشيء، بسبب البطر الذي في نفوسهم.

مما يعلم المؤمن خطورة هؤلاء، وخطورة هذا المسلك السيء. كما يفيد في الأمور العامة أهمية الرضا عندما يولي الله تعالى أمر أحدٍ لغيره في مهنة، أو في إدارة، أو في مجلس، أو في ناحية من نواحي الحياة المختلفة. فلا يرى العاقل ذلك الحق والاستحقاق محصوراً في نفسه فقط، وكأنه خصيصة وحق له دون غيره، بل يراه حيث يضعه الله تعالى حتى لا تتهاوى النفس في ظلمة الاحتقار والازدراء والاستكبار على الغير، فَتُصَابُ الأمة والمجتمع بالحنق والتشرذم والتناحر والضياع. فإنها خصلة ذميمة، فإذا كانت قد أثرت في طاعة الله تعالى، فكيف لا تؤثر فيما هو دون ذلك من أمور الحياة. فالحذر من هذه الخصلة المانعة للخير والجالبة للشر في أمور الدين وأمور الدنيا.

ولذلك فإن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب قد خسروا الآخرة بسبب الاستكبار والحسد والبغي من أن الرسالة لم تكن فيهم، متجاهلين إرادة الله تعالى في أن يجعلها فيمن يشاء من عباده. قال تعال في مقدار خسارة هؤلاء ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فرجعوا بالخسارة العظيمة، حيث استوجبوا بغضب الله تعالى عليهم بسبب كفرهم بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وما سبق من غضب الله عليهم بما كان منهم من تكذيبهم بمن سبق من الرسل، وقتلهم الأنبياء كما قال تعالى فيما سبق ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فاستوجبوا غضب الله تعالى بما سبق وبما أنزل الله تعالى على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وكذلك لهم مع هذا الغضب ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ العذاب المشتمل على الإذلال والصغار المهين. بل ويشمل كل من كفر، حيث أورده الله تعالى بصفة العموم ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فلجميع الكافرين العذاب المشتمل على الإذلال والصغار المهين.

وهذا يؤكد ويبين أن الله تعالى يختار من يشاء ويُقدم من يشاء ويؤخر من يشاء بحكمته، مما يتطلب التواضع لله تعالى في كل أمر من أمور الحياة، فلا يحتقر خطيباً ولا إماماً، ولا قائداً ولا رئيساً محقاً، بل يكون عوناً وداعماً للخير وصاداً للشر، مع تواضع لله تعالى، ومدافعاً للحق ببيانه لغيره، ورضاً بحكمة الله تعالى فيما يختار ويولي. وهنا تستقر الحياة وتطيب، بما يبين أن دين الله تعالى وشريعته هي التي تحقق لمن تمسك بها الخير والنجاة في الدنيا والآخرة.

ثم يقول الله تعالى تبياناً لحقائق تعاملهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ وحين يقول المؤمنون لليهود ﴿ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي: آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ أجابوا بصيغة المراوغة الكاذبة، بأننا نؤمن بما أنزل الله تعالى على أنبياءنا. في حين أن الذي أنزله الله تعالى على أنبيائهم يقرر بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، ويصفهم لهم وصفاً دقيقاً كما قال تعالى فيما هو قادم من هذه السورة ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ولكنهم يكتمون الحق.

فالمعاندة توجب المراوغة واتباع الحيل، فإذا طُلب من اليهود وأمثالهم الإيمان بما أنزل الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: نكتفي بما أنزل الله تعالى علينا من التوراة والإنجيل، ولا نقر إلا بذلك. ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ أي يكفرون بما سواه، أي بما بعده، وهو القرآن، الذي من صفته ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ بالرغم من أنه مصدق لما معهم من الكتاب الذي فيه خبر نبوة هذا النبي الأمي الكريم. فلا عذر لهم من الإيمان والتصديق، فيكون تكذيبهم هو تَعَمُّد منهم.

وهنا يأتي المحك الذي لا مخرج لهم منه ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن كنتم صادقين في دعواكم من الإيمان بما أُنزل إليكم، وهو قولهم ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ إذاً فَلِمَ قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة. ومن دقائق البيان الكريم أن ورد القتل بصيغة المضارع ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ بالرغم من أنه حادث قد مضى. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والإتيان بالمضارع في قوله ﴿تَقْتُلُونَ﴾ مع أن القتل قد مضى، وذلك لقصد استحضار الحالة الفظيعة، وقرينة ذلك قوله تعالى ﴿مِن قَبْلُ﴾[1] ولبيان الحذر منهم، فإنهم لا يتورعون عن قتل الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد حاولوا ذلك يهود بني النضير. إذ جاءهم عليه الصلاة والسلام للمساهمة في دفع دية قتيلين، فقالوا: لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه. فصعد عمرو بن جحاش بن كعب على رأس بيت ليلقي الحجر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن أتاه الخبر من السماء بما أراد القوم به صلى الله عليه وسلم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة[2] مما يبين دقة السياق في القرآن العظيم، ومقاصده الدقيقة المذهلة، لأنه كلام الله تعالى. كما أفاد هذا أن اليهود أهل غدر، ولا أمان لهم. وأنهم يحملون في قلوبهم الباطل والشر.

وهذا يفيد أهمية إقامة الحجة على الْمُنْكِر، وأهمية العلم الذي يستطيع به الداعية محاورة الْمُنْكِر وردُّه للصواب. وأهمية معرفة حال المدعو وما عنده من مفاهيم ومغالطات، حتى يستطيع أن يجيبه ويرد بطلان ما عنده.

ثم يتكرر التذكير بما حصل منهم مع موسى عليه السلام، عندما جاءهم بالبينات، فاتخذوا العجل، فعبدوه من دون الله تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ فجاءكم موسى عليه الصلاة والسلام بالحجج والبراهين الظاهرة

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٥٧٢/١)

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية (١٩٩/٣-٢٠٠) خالد الحازمي، الفوائد السنية من السيرة النبوية، ص (٢٩٠-٢٩١) ملخص

البينة ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ وذلك حين واعد الله تعالى موسى أربعين ليلة، لينزل عليهم التوراة، التي فيها شريعته عَزَّ وجل، فإنه بعد خروج موسى عليه السلام إلى الطور اتخذ قوم موسى من بعض حليهم التي استعاروها من القبط قبل حدوث الغرق عجلاً، وهو ولد البقر، وعملوه على شكل جسد، له خوار، وهو صوت البقر. وكان هذا بعد ذهاب موسى لميقات الله تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك، وهو على الطور. فعبدتم العجل زوراً وبهتاناً ﴿ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾ وأنتم بهذ الفعل ظالمون لأنفسكم، وظالمون لرسولكم موسى عليه الصلاة والسلام، وظالمون لإنعام الله تعالى عليكم. وفي هذا تذكير لبغيهم، ولإفادة الحذر من الاستمرار فيه، وعليكم باتباع رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي تكرار ذكر المواقف للمُنْكِر ما يُبْهِتُهُ بالحجة، حتى يُدرك أن الأدلة تلاحقه، وأن الحجة قائمة عليه. فلا مناص له منها، حتى تُغلَق عليه أبواب الحيل، فيرتدع أو يمضي في مسلكه العنادي.

ثم يتكرر عليهم التذكير بما حصل لهم من التخويف العقابي، برفع الطور فوقهم، ومع ذلك عصوا وأحبوا عبادة العجل. قال تعالى ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ وهذا تذكير من الله تعالى لبني إسرائيل، وتعليم غيرهم بما حصل لهم، ليعتبروا بمن سبق، وليُفِيد أهمية منهجية التذكير دعوياً وتربوياً، وأهمية بيان الحقائق التي يتعلم بها المرء ما يدفعه ويحثه على الطاعة، ويحذره من المعصية.

وفي أخذ الميثاق ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ ﴾ أي: العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم، ليقروا بما عوهدوا عليه، ويأخذونه بقوة وحزم وامتثال[1] ما يدل على أهميته، وخاصة مع الله تعالى الذي له

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٠٨)

الخلق وله مُلك كل شيء. كما أن في رفع الطور ما يفيد عظيم قدرة الله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ وأنه من رحمته بالخلق يخوفهم بما يَذْهَل له الإنسان، حيث رفع جبل الطور فوقهم ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ الزموا ما آتيناكم من الدين بعزيمة قوية ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي: امتثلوا بما سمعتم من الحق، واستمروا في سماع واتباع رسولكم موسى عليه الصلاة والسلام. فهو تأكيد بعد تأكيد.

فكان الجواب منهم ما ذكره الله تعالى ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ فأجابوا بالسمع ﴿سَمِعْنَا﴾ ولكن قولهم سمعنا كقولهم ﴿وَعَصَيْنَا﴾ بما يفيد أن أفعالهم كانت مناقضة لقولهم بالسمع والطاعة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: سمعنا قولك بحاسة السمع، وعصيناك. أي: لا نقبل ما تأمرنا به. ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم: سمعنا ما هو معهود من تلاعبهم، واستعمالهم المغالطة في مخاطبة أنبيائهم[1] فجمعوا بين القول، وبين المعصية المخالفة لما علموا. فالسمع دليل على الفهم، والعلم، والعصيان دليل على منافاتهم للالتزام بما سمعوا. وفي عطف العصيان على السمع لإفادة أن ليس ثمة وقت بين السمع والمعصية.

ثم يخبر الله تعالى من تمكن المعصية منهم، وكأنهم شربوها حتى تخللت أجسامهم وعقولهم وقلوبهم. فقال تعالى ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: تمكن حب العجل من قلوبهم، وكأنما شربوا حبه شرباً، كالماء، فدخل في جوفهم حب العجل كما يدخل الماء جوف الشارب له. وهو تعبير بليغ، بل غاية البلاغة البيانية التي أظهرت مقدار حبهم للمعصية ومنها عبادة العجل. ثم قال تعالى ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: قل لهم: قبح الله إيمانكم الذي يأمركم بما أنتم عليه من المعصية ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا إن كنتم مصدقين بما أنزل الله ربكم.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١/١١٤)

وقد ورد البيان في ذمهم بعدة دلالات، فمن ذلك ﴿بِئْسَمَا﴾ التي تجمع جميع معاني الذم والتقبيح. ثم إبطال إيمانهم الذي يجب أن يتحلوا به ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ﴾ أي: أن كنتم تعتقدون أنكم مؤمنين، فقبح الله هذا النوع من الإيمان الذي يأمركم بالمعصية، ويحببها إليكم، حتى أُشربتم محبة عبادة العجل. ثم نفي الإيمان عنهم بأسلوب التحقير لهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مصدقين بما أنزل الله ربكم. فبالرغم من الميثاق الذي أُخذ عليهم، ورؤيتهم للجبل فوقهم إلا أنهم تولوا، وأعرضوا وعصوا. فتنتهي الآية الكريمة بتوبيخهم عن دعواهم الإيمان غير الصادق، فبئس هذا الإيمان الذي تَدَّعُونَه فيأمركم بما أنتم عليه من الكفر والكذب والمراوغة. وفي هذا تجلية لأخلاق اليهود، حتى لا ينخدع بها المسلم، ويعرف كيف يتعامل معهم من خلال هذه الحقائق الربانية.

ويبين هذا أن هناك من يدعي الإيمان الكاذب، ويبني عليه بزعمه أكاذيب على أنها حقائق. كما يؤكد هذا أهمية الطاعة وخطورة المعصية والاستخفاف بأوامر الله تعالى، ويفيد هذا أن بعض الناس لا تنفع فيه الآيات والنُّذُر، فمهما بذل الداعية من الجهد فإنه قد لا يتحقق مراده في أخذ الناس أو بعضهم للخير. فيتطلب أن يوطن الداعية والناصح نفسه لكل الاحتمالات التي يمكن أن تكون من الناس، حال الدعوة إلى الله تعالى. فيؤدي ما أوجبه الله تعالى من القيام بواجب الدعوة، ولا يتوقف بسبب الإعراض، فإن هناك من يَقْبَل كما قَبِلَ الصحابة رضي الله عنهم؛ وممن بعدهم، وهناك من لا يقبل مثل مَنْ أبى واستكبر.

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

ولا زال سياق الآيات الكريمات في شأن اليهود، بإقامة الحجة عليهم، حتى يتخذ غيرُهُم من هذا الأمر عظة ودروساً في الإيمان، وفي منهجية التعامل الصحيحة مع دين الله تعالى، ومع نبيه صلى الله عليه وسلم، وليدرك المرءُ رحمة الله تعالى فيما أنزل، وسعة حلمه على العاصي، وترك فرصة التراجع له، فلعله يفوق من هواه ويرجع للحق، فيتمسك بالكتاب والسنة. قال عَزَّ وجل ﴿ **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ ففي الآية محك ودحر وبيان على كذب دعواهم الباطلة التي حكاها الله عَزَّ وجل عنهم في كتابه مثل ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً** ﴾ وزعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، فإن كنتم على حقيقة من الأمر ﴿ **فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ فإن كانت لكم الجنة خالصة من دون الناس كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة ﴿ **فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليس بعد هذا الإلجاء لهم إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، أو تمني الموت الذي يوصلهم للجنة كما يزعمون. وفي عدم تمنيهم الموت دليل كذبهم، إذ لو كانوا صادقين لتمنوه حتى يُثبتوا صدقهم. ولكن امتنعوا من ذلك، وبالتالي عَلِمَ كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحادة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم[١] وقد بين الله تعالى أنهم يعلمون أنهم على باطل بسبب ما قدموا من الأعمال

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٧٨/١)

والاعتقادات الباطلة، وبالتالي لن يتمنوا الموت، فقال تبارك وتعالى ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيستحيل أن يتمنوا الموت، لأنهم يعلمون أن ليس عندهم حجة على ذلك، بل افتراء على الله تعالى، ومن يفتري على الله عَزَّ وجل الكذب فهو أكذب الخلق، وأجرأ الناس على القبائح. وقد ورد الإخبار عن عدم تمنيهم الموت بالدلالة القطعة ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ فأفادت دلالة ﴿أَبَدًا﴾ القطع والجزم بأنهم لن يتمنوه أبداً. لأنهم يعرفون أنهم على باطل كما قال تعالى عنهم ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما يعرفون عن أنفسهم من الكذب على الله تعالى. ثم يخبر الله تعالى بكمال علمه عنهم وعن كل ظالم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فإن الله جَلَّ جلاله عالم بجميع الظالمين، بما يفيد التحذير لهم ولغيرهم، بما يستوجب الاستقامة.

مما يفيد أن هناك من يعاند في أمور الدين، وهو يعلم أنه على غير صواب، فكيف لا يكون ذلك أيضاً في أمور الدنيا، التي هي أهون من أمور الدين، فإن ذلك لكثير. فليُتقِن وليُحسِن العالم والداعية التعامل مع المخالف، بإقامة الحجة الدامغة التي لا مفر منها، من أجل أن يعلم الآخرون حقيقة المكابر في أمور الدين أو أمور الدنيا، وحتى لا ينخدع غيره بما هو عليه من زيف. وليعلم كذلك أن هناك من يُنكرُ الحق والصواب تكبراً واستعلاء.

ثم يبين الله تعالى أن الأمر ليس محصوراً فقط في عدم تمني الموت، بل هم حريصون على الحياة ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فبينت الآية الكريمة شدة كراهيتهم للموت، متمنين أن يُعَمّروا في الدنيا، مثل ما يتمنى المشركون، بل أكثر من المشركين. فيتمنى الواحد منهم لو يعيش ألف سنة، لسوء ما قدم، ولعلمه بسوء ما سيجد، ولهذا لن يتمنوا الموت أبدا، قال تعالى ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فلن يتمنوا الموت لأعمالهم السيئة التي قدموها للآخرة. وقد ورد البيان بدلالة التأكيد،

فقال تعالى ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ ﴾ فاللام: لام القسم، والنون توكيد له. ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ دليل على محبتهم للدنيا وإيثارها على الآخرة. مما يبين أن محبة الدنيا وتفضيلها على الآخرة تجعل من الإنسان أنه لا يبالي حتى ولو استخدم الدين وسيلة له في التمتع بالدنيا. مما يفيد التحذير من مسلك هؤلاء اليهود.

وبالتالي فإن طيلة العمر لن تمنع العذاب. كما بين الله تعالى ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ فطيلة العمر لا تمنع عنهم العذاب، فلن يتزحزحوا ويتحركوا عما أعده الله تعالى له من العذاب. ثم يخبر الله تعالى عن عظيم علمه بما يعمل هؤلاء، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ فإن الله ربكم عالم بما يعمل هؤلاء، بما يفيد الوعيد والتهديد بالجزاء على ما كان منهم.

وهذا يفيد أن المجرم يخاف الموت ويحرص على الحياة خوفاً من العذاب، كما توضح وتدلل الآية على أنه مهما طال العمر فسينتهي، ولن يندفع الحساب والجزاء بتقادم طيلة العمر، مما يقوي هذا المفهوم عند المؤمن أن يكون حُبَّهُ للحياة من أجل عمل المزيد من الصالحات، والاستعداد للقاء الله تعالى بكثرة الطاعة والاستغفار. ودلالة ﴿ أَحْرَصَ ﴾ تفيد التفضيل المفضي إلى المبالغة في التحرص من الموت، والأكثر تمسكاً، والأشد محافظة وعناية على أسباب الحياة، والخوف من الموت.

وهذا يؤكد قوة القرآن الكريم الذي كشف وأظهر لهم حقائق ما تكن صدورهم من الكذب والكبر ومن معرفة الحق وتركه وصده، بالرغم من وضوح الحجة الظاهرة البالغة. وبالتالي صِدْق نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بما معه من هذا الكتاب المعجز.

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

ولا زال السياق في اليهود، حيث تبين الآيات الكريمة أن هناك من يعادي بعض الملائكة. فجاء في التفسير: قول ابن جرير الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم[١] وقيل سبب ذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسئلة، فطلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يُسْلِمُوا إن أجابهم، فقالوا: نعم. فلما سألوه وأجابهم، لم يكن أمامهم إلا الإيمان به. فقالوا من وليك من الملائكة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه) قالوا: إذاً نفارقك. ولوكان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك.[٢] وقالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا[٣] فحتى الملك جبريل عليه السلام لم يَسْلَم من كرههم له. وهذا يفيد شدة التطاول، وقوة الكفر والعناد الذي بلغ مبلغه بعد أن تيقنوا بالحقيقة. كما تكشف هذه الآية الكريمة الأخلاق التي يتصف بها هؤلاء اليهود، فأظهر الله تعالى حقيقتهم وحقيقة أخلاقهم وذِمَمهَم الخبيثة السيئة. وهذا يوضح أهمية الإفادة مما كشفه الله تعالى من أخلاقهم، حتى لا يغتر المسلم بهم، أو يثق فيهم.

ثم يبين الله تعالى أمراً عظيماً في إنزال القرآن الكريم، حيث يقول تبارك وتعالى ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فهذه الآية الكريمة تُثْبِتُ وتبين أن جبريل عليه السلام نَزَل بالقرآن الكريم على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا دليل على شرف جبريل عليه السلام، ومنزلته، حيث هو الذي نزل بالقرآن الكريم على قلبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكون القلب خُص بذلك، فهذا دليل على شرف القلب من بين أعضاء الجسد، فهو الموضع الرفيع في الإنسان الذي إذا صَلُح انصلح الجسد كله، كما جاء في الحديث. ولأنه كما قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢/٢٨٣)

(٢) المرجع السابق (١/٢٨٥)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٦)

عن القلب أنه: موضع العقل والعلم وتلقي المعارف.[١] وكون القرآن الكريم أُنزل مباشرة على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا دليل على مكانة القرآن ومنزلته الرفيعة. ولا شك برفعة منزلة من نزل عليه القرآن الكريم صلى الله عليه وسلم. وفي قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أنه لا ينزل شيء إلا بإذن الله تعالى، ولا يكون شيء في الكون إلا بإذن الله تعالى، فهو صاحب الملك وحده، لا شريك له في ملكه وأمره وقدرته وتصرفه. مما يدل على حاجة المخلوق للخالق في كل أمر وشأن. فسحانه وتعالى هو المطلوب، ومنه العطاء.

ثم تبين الآية الكريمة شيئاً من خصائص القرآن الكريم، وأولها أنه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني مصدقاً للتوراة، فلا يناقضها، وثاني تلك الخصائص أنه هداية ﴿وَهُدًى﴾ فهو كتاب هداية، يأخذ بمن اهتدى به إلى سعادة الدارين، ليقف به في جنات النعيم. وثالثها: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيبشرهم بالجنة. فأي كتاب أعظم من القرآن الكريم الذي يهدي للخير والصلاح، ويُدخل السرور على المؤمن ببشارته بالجنة بإذن الله تعالى.

ويقول الله تعالى ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن من كان معادياً لدينه سبحانه وتعالى ولملائكته فإنه عدو لله. وقد ذكر عَزَّ وجل في الآية الملائكة عامة، ثم ذكر جبريل وميكائيل خاصة، وهذا من باب عطف الخاص على العام، لأن السياق في الانتصار لهما، حيث قالت اليهود: جبريل عدونا، لأنه ينزل بالحرب والقتل، وميكائيل ولينا لأنه موكل بالنبات والقطر. والحقيقة أن جبريل عليه السلام ينزل أيضاً بالهدى، فهو الذي ينزل بالكتب على الأنبياء، ومنها القرآن الكريم. فرد الله عليهم بتلك الآية الكريمة، التي أوضحت أن من كان عدواً لله وملائكته ورُسُله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو له. كما أثبتت الآية العظيمة كفرهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وبالتالي ينطبق هذا على من سلك

(١) المرجع السابق (٢٦/٢)

مسلكهم. وهذا يدل على فضل الملائكة عموماً وفضل جبريل وميكائيل، وفضل الرسل عليهم السلام، وأن معاداتهم كفر، والإيمان بهم واجب. كما يدل هذا على خطورة الأهواء والقول على الله بغير علم، وكذا خطورة الكبر.

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ فهذه تزكية من الله تعالى لكتابه الكريم، من أنه آيات واضحات جليات، تقوم بها الحجة على كل من سمعها، أو قرأها، أو أُخْبِرَ بها. لأن الحق واضح فيها من الأمر والنهي والتشريع والحكمة والجزاء والعقاب، والأدلة الدالة على أن هذا الكتاب من عند الله تعالى، وما فيها من القصص الموضح والمبين للأمم السابقة، وأحوالهم مع أنبيائهم، وما حصل منهم، وما حصل

بهم، وغير ذلك من الدلالات الباهرات الواضحات، وأنه مصدق لما قبله من الكتب الربانية، ولا يتناقض معها. وبالتالي فإن مقتضى ذلك أن من جاء بهذا الكتاب فهو نبي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فإن طاعته ومؤازرته ونصرته واتباعه ومحبته واجب. وبالتالي فإن من يكفر بهذا الحق الواضح البين فهو كافر، لفسقه بخروجه عما يجب أن يكون عليه.

ومن دقائق السياق الكريم أنه تم افتتاح البيان بأداة التوكيد والتحقيق المسبوقة بلام القسم ﴿ وَلَقَدْ ﴾ التي تفيد تأكيد البيان، وقد نسب عَزَّ وجل الإنزال له جَلَّ جلاله، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ ﴾ فألصق الإنزال بضمير المتكلم، الذي أفاد تعظيم الجلالة سبحانه وتعالى، وتعظيم ما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، وتعظيم الرسول الذي نزل عليه القرآن الكريم. فإن ربكم هو الذي أنزل ﴿ إِلَيْكَ ﴾ أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ آيات واضحات، وهو مجموع ما تضمنه القرآن من الآيات الكريمة، المتصفة بالوضوح ﴿ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ ليس فيها مبهمات، بل واضحة البيان. بما يثبت ويبين أن الله تعالى هو الذي أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم هذا القرآن العظيم، وأنه يجب الإيمان بذلك، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه هو الذي يجب أن يُعبد ويُوحَّد في ربوبيته وألوهيته وعبادته وحده لا شريك له. كما أن في الآية لفت الانتباه إلى العلو، بفعل النزول، وبتعيين مكان النزول، وصفة الذي أنزله عَزَّ في علاه أنه ﴿ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ وأن المبلغ له هو الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه لن يكفر بهذا إلا الخارج عن الحق ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ وهم الخارجون عن الإيمان والتصديق. وهم الكافرون. لأن الفسق هو الخروج عن الشيء، بما يعني أنهم خرجوا عن الحق بعد أن عرفوه، وأيقنوه.

ثم قال تعالى ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ وهذا بيانٌ لتكرار نقض المواثيق من اليهود. وكلمة ﴿ أَوَكُلَّمَا ﴾ تدل على التكرار، من أنه قد حصلت عهود متكررة، تم نقضها من اليهود. فوصفهم الله تعالى بحقيقتهم من عدم إيمان أكثرهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مما يفيد أن الإيمان يُلزم المؤمن بما عاهد عليه، خوفاً منه تبارك وتعالى، وخوفاً من عقابه. كما أن انتفاء الإيمان يجعل المرء متفلتاً من كل عهد وميثاق، كلما سنحت له الفرصة في ذلك. بينما الإيمان حجاب عن نقض المواثيق، ومُبعدٌ عن المعاصي.

ثم يبين الله تعالى صفة أخرى لليهود، وهي التكذيب بالحق الذي يعرفونه، والتخلي عن كتاب الله تعالى وما فيه من الحق، وكأنهم لم يعلموا شيئاً. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ولما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً من عند الله تعالى بالقرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ أي: أن القرآن الكريم يُصدق كتاب التوراة، بدليل أن القرآن موافق لما معهم من التوراة، ولا يناقضه، وموافق لِمَا في التوراة من نعت ووصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ترك فريق من أهل الكتاب ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ أي: تركوا التوراة وما فيها من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، وكذلك تركوا القرآن الذي بتوافق مع التوراة ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ أي: أبعدوا كتاب الله خلفهم، ولم يأخذوا به، فأصبح حالهم ﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيتظاهرون بالتجاهل عما يعلمون من حقائق التوراة، وتوافقها مع القرآن العظيم، وأوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يبين قوة إعراضهم عن الحق الواضح لهم، وتلاعبهم بكتاب الله تعالى.

ومن دلالات هذه الآية الكريمة أن القرآن لا يناقض الكتاب الذي عندهم، بل يُصدقه، ومع هذا ينبذونه ويتركونه لما فيه من البشارة بالنبي الأمي صلى الله عليه وسلم، وكأنهم لا يعلمون ما فيه من الحق، ثم اتبعوا السحرة كما سيتبين من الآية التالية.

وهذا يدل على أن اليهود لا ينقضون الميثاق فقط، بل يكتمون الحق الذي يعرفونه، كما يفيد هذا السياق خطر من يأخذ ما يريد من الكتاب، ويتغافل عما لا يريد، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض،

تجاهلاً أو إخفاء. ويبين الله تعالى أنهم تركوا ما عندهم واتبعوا السحر والسحرة. فهكذا حال الإنسان إذا ترك الحق فإنه يتبع الباطل، وإذا تخلى عن السُنَّةَ اتبع البدعة، وإن ترك الصدق أخذ بالكذب. قال تعالى ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ فتابعوا الشياطين فيما عندها من الكفر. حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم. وهم يكذبون في ذلك، بل نزهه ربنا تبارك وتعالى[١] فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ فنفى سبحانه وتعالى عن سليمان عليه الصلاة والسلام الكفر ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ وأثبت الكفر للشياطين ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾ بل إن الشياطين هم الذين كفروا، بدليل أنهم ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ينشرون السحر بتعليمه للناس.

ويفيد هذا أن الكافر حريص على أن يُعلم غيره الكفر، ووسائله وسُبُله، كما تفعل الشياطين، وتفيد كذلك حرص الشياطين على غواية الإنسان، والكذب. وكذلك أنه لا يَسلم أحد من أذى غيره له، كأن يفتري عليه الكذب، فحتى نبي الله تعالى سليمان جاءت الفرية عليه، من أن قوة ملكه بسبب استعماله السحر. مما يدل على أن كل ذي نعمة محسود من الحاسدين الكاذبين الذين يُؤَلُون النعمة والفضل على غير الوجه الصحيح.

ومن الفوائد تنزيه اللهُ تعالى لنبيه سليمان من الكفر واستعمال السحر، ففي قوله تعالى ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ دليل على أن السحر كفر. وهذا أبلغ في الثناء على نبي الله تعالى سليمان، إذ نفى عنه الكفر جملة، وبالتالي انتفت عنه كل خصلة من خصال الكفر، فحاشاه الله تعالى أن يكون كافراً، بل نبياً صادقاً مرسلاً. وحتى نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم، لم يسلم من التقول عليه بالسحر والشعر والكهانة والعياذ بالله من ذلك، فكيف بمن هو دونه من العلماء والعباد والصالحين.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٨١)

وأيضاً بينت الآية أن الشياطين يُعَلِّمون السحر، قال تعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ويذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ أن ﴿ وَمَا ﴾ نفي. والواو للعطف على ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فهاروت وماروت بدل من الشياطين. هذا أولى ما حُمِّلَت عليه الآية من التأويل. وأصح ما قيل فيها.(١) وروي عن على رضي الله عنه، قال: أي والذي أنزل على الملكين، وأن الملكين يعلمان الناس تعليم إنذار من السحر، لا تعليم دعاءٍ إليه. أي دعوة إليه. قال الزجاج: وهذا القول الذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر. ومعناه أنهما يعلمان الناس على النهي، فيقولان لهم: لا تفعلوا كذا، ولا تحتالوا بكذا، لتفرقوا بين المرء وزوجه.(٢) فالملكان عليهما السلام ينذران الناس عن السحر.

مما يفيد أن الابتلاء مُحاط بالإنسان، ليختبره الله تعالى، أيثبت أمام هذه الابتلاءات وتنوعها، أو ينحرف عن الحق. والله تعالى يمتحن من يشاء بما يشاء، مثل ما امتحن الذين كانوا مع طالوت بالنهر. ومثل أكل لحم الخنزير، فهو الذي خلق وهو الذي نهى، كما قال تعالى عن نفسه في سورة الأنبياء ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ فالمسلم يتبع الحق ولا يبتدع.

ثم المتأمل في قول الملكين على ما سيأتي، يدل على أن السحر شر عظيم، وأنهما يحذران مِنْ تَعَلُمِهِ، وبالرغم من التحذير إلا أن هناك من يَقْبَل ويُقْبِل على تعلمه، في إصرار على الكفر، قال تعالى عن الملكين ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ومن الفوائد أن السحر من الكفر، وأن السحرة والسحر فتنة، وأن من يتعلمه قد أفتتن في دينه. وهذا

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٥/٢)
(٢) المرجع السابق (٣٧/٢)

يدل على مخاطر الفتن ووجوب الحذر منها، بل وجوب الابتعاد عنها، وأن الفتن ابتلاء واختبار. عفانا الله والمسلمين منها.

وذكر بعض علماء التفسير أن اليهود اتبعوا السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، حيث أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده، فيعلمانهم السحر.[١] والمسلم يؤمن على أي وجه كانت. فيقول البعض كما تم بيانه سابقاً: التقدير هو: أي وما كفر سليمان وما أُنْزِل السحرُ على الملكين، الذين هما جبريل وميكائيل، ولكن الشياطين كفروا، يعلمان السحر ببابل هاروت وماروت[٢]

ويتعلمون منه أي من السحر إيقاع الشر، قال تعالى ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ وهذا يدل على أن للسحر أثر، ولكن لا يضر إلا بإذن الله تعالى. لقوله الكريم ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ مما يوجب الاعتماد والتوكل على الله تعالى، وأنه لن يُصيب الإنسان شيءٌ إلا بإذن الله تعالى، فيتحصن المؤمن بالله العلي العظيم، ويستعين به، فهو الحافظ وهو القوي العزيز. يقول ابن سعدي رحمه الله تعالى: أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير فإنها تابعة للقضاء والقدر، وليست مستقلة في التأثير.[٣]

ويبين الله تعالى أن هذا السحر الذي يتعلمونه يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ وتفيد الآية عَلِم اليهود بأن الذي اختاروه من السحر تفضيلاً على متابعة النبي صلى الله عليه وسلم أنه في الآخرة ليس له نصيب.[٤] فمقدار رغبتهم في السحر مماثلة لرغبة

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٨١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٣٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٤١)

(٣) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٨٢)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١/١٤٨)

المشتري بالمعاوضة. وثمن ذلك هو عدم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم. وعلموا أن ليس لمن أخذه نصيب وحظ خير في الآخرة. وهذا يفيد الجرأة، وأن الإنسان قد يعرف الشر ويأتيه ويعرف الخير ويتركه.

ثم يصف الله تعالى هذا الصنيع وهذا الاختيار بالذم المقيت. فيقول تبارك وتعالى ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ وبئسما عند العرب مستوفية الذم كما سبق بيانه. وهذا تقبيح من الله تعالى لفعلهم، فبئس الشي اشتروا به أنفسهم ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا يفيد أنهم في منزلة الجهال بهذا الاختيار، وهم يعلمون أن لا حظ لهم في الآخرة بسبب اختيارهم السحر على الإيمان. وهذا مِثْلُ ما يُقال لمن يعرف الخير ويأخذ بضده، فيقال للعاقل في تصرفه الخاطئ: لو كان عاقلاً ما صنع كذا. فكأن صنيعه صنيع غير العاقل، فنفي العقل عنه من سبيل المجاز وليس حقيقياً أنه لا يعقل. لأنه لو كان لا يعقل حقيقة فلا يلام، وبالتالي كأن فعلهم فعل الجاهل وهم يعلمون. بما يفيد ذمهم على ترك ما يعلمون من الحق، واتباع الباطل الذي لا يتبعه إلا الجاهل الذي لا يعلمه.

ثم يبين الله تعالى الاختيار الأفضل الذي كان يجب عليهم اختياره ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ وفي هذا بيان ما كان يجب أن يختاروه، وهو الإيمان وتقوى الله تعالى، ولو أنهم اختاروه لوجدوا المثوبة من عند الله تعالى، مما يدلل على منزلة الإيمان والتقوى التي يحصل العبد بها على مثوبة الله تعالى، لأن الإيمان يؤدي إلى التقوى، والتقوى تمنع الإنسان مما حرم الله تعالى، إذ تُوجب الخشية والخوف من الله تعالى، فمن يتقي الله يخشاه ويخافه ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ولكنهم بمنزلة الجاهل في تصرفاتهم، لأنهم يعلمون ويتصرفون بضد ما يعلمون من الحق، لأن الله تعالى قال في الآية السابقة عنهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ وهذا بسبب كبرهم ومعاندتهم كما اتضح من وصف الله تعالى لهم في آيات سابقات، مثل ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهذا يفيد أنهم في منزلة الجهال بهذا الاختيار، وهم يعلمون أن لا حظ لهم في الآخرة بسبب اختيارهم السحر على الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

يخاطب الله تعالى المؤمنين في شأن ما كان المسلمون يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿رَٰعِنَا﴾ أي راع أحوالنا، فيقصدون معناً صحيحاً. فانتهز اليهود الفرصة، فيخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، وهم يقصدون معناً فاسداً. فنهاهم الله تعالى عن ذلك، سداً لهذا الباب

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بأفضل الوصف والمدح والثناء لهم. فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فبدأ الخطاب الكريم بمناداة المؤمنين بأفضل وأحسن المراتب والرُّتَب، بقوله عَزَّ وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الايمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها

سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[١] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه للمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية.

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم بعد هذا النداء الذي يثير شوق القلوب للمتابعة، ويدفعها لمعرفة الشيء والأمر الذي ناداهم ربهم إليه. يقول سبحانه وتعالى ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ فقد كان المسلمون يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿رَٰعِنَا ﴾ أي راع أحوالنا، فيقصدون معناً صحيحاً. فانتهز اليهود الفرصة، فيخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك، وهم يقصدون معناً فاسداً. فنهاهم الله تعالى عن ذلك، سداً لهذا الباب ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

رَاعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ﴾ وفيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، وكذلك فيه الأدب، واستعمال الألفاظ التي لا تحتمل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة أو التي لها احتمال أمر لا يليق، فأمرهم باللفظ الذي لا يحتمل إلا الحسن، فقال تعالى ﴿ وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ فإنها كافية لحصول المقصود ﴿ وَٱسْمَعُواْ ﴾ فأمر بالاستماع ولم يُعَيّن المسموع، ليكون أعم، فيدخل فيه سماع القرآن الكريم، وسماع السنة لفظاً ومعنى واستجابة، ففيه الأدب والطاعة.(١) ويُستفاد من هذا التحذير من حمل الكلام على غير معناه، بقصد إيذاء الآخرين، أو الاستهزاء بهم، فالأدب مطلب ديني. كما يفيد أن اليهود لا أمان لهم، وأنهم أعداء لدين الله تعالى ولأهله. مما يستوجب الحذر منهم. ثم توعد الله تعالى الكافرين بالعذاب المؤلم ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإن الله تعالى أعد للكافرين عذاباً شديداً، مؤلماً في الآخرة.

وهذا يفيد أن منع الفقهاء لبعض المباحات قد يكون بسبب ما يترتب عليها من المفاسد، وليس لحرمة ذات الشيء، أي لما يتعلق بها، وما تجره وتُفضي إليه من فساد، فقد يتم منع أو تحريم وسيلة ليس لذاتها، بل لما ارتبط أو ما سيتعلق بها، وما ينتج عنها، وما ستؤول إليه الأمور من مفاسد، ولذلك يقولون: الوسائل لها حكم المقاصد.

ثم أوضح وبين تبارك وتعالى شدة بغضاء وحسد اليهود والمشركين للمسلمين ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فهذه العداوة مرتبطة بكره خير الإسلام على المسلمين، وما يتبع ذلك من فضل الله تعالى، فكل فريق منهم ﴿ مَّا يَوَدُّ ﴾ لكم الخير من الله تعالى.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٨٣/١)

فهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: المكذبين بدينكم أيها المؤمنون ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم اليهود ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين هم عبدة الأصنام، لا يحبون، ولا يتمنون لكم الخير، أي: يكرهون ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فلا يتمنون الخير لكم، لقوة العداوة التي يحملونها لكم في قلوبهم.

وهذا يفيد أن اليهود والمشركين قد علموا بأن هذا الذي ينزل من الله تعالى على المسلمين هو خير من عند الله تعالى. ودلالة ﴿خَيْرٍ﴾ عامة، تفيد كل ما يُعطي الله تعالى من القرآن والسنة والآداب والعبادات، وتغيير الأحوال من التناحر إلى التعاضد والتآلف والتواد، والنصر والتمكين، وعلو المنزلة والمكانة، وغير ذلك من خيرات الله تعالى، مما يدل على أن خير المسلمين يغيض الكافرين، وإذا عُلِمَ ذلك وجب الحمد والشكر، وأخذ الحيطة والحذر من أعداء الدين. لأنهم لا يحبون الخير للمسلمين، فوجب التعامل معهم من خلال هذا البيان الرباني الكريم.

ويبين الله تعالى أمراً عظيماً، وهو أنه عَزَّ وجل هو الذي يختص بعطائه ورحمته من يشاء، فقال أرحم الراحمين ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ﴾ فإن من كمال سلطان الله تعالى أنه يخص برحمته التي تشمل جميع أنواع العطاء لمن يشاء من عباده. وبالتالي فلا يستطيع أحدٌ أن يمنعها عن أحد. وهذا يبين أهمية التوكل عليه سبحانه وتعالى، والأخذ بالأسباب، وألا يجعل المسلم للحاسدين والمبغضين أثر عليه، فيمنعه من طلب الفضل من الله تعالى.

وهذا يفيد أن الله تعالى هو الملك، فهو الذي يمنح رحمته ويختص بها من يشاء، ولذلك وجب أن يسأل المسلمُ رَبَّه تبارك وتعالى من رحمته وفضله، ليخصه بمزيد فضل وكريم عطاء، كما يفيد أنه يجب أن ينسب المسلم الفضل الذي يصيبه لله تعالى، فيقول: بفضل الله تعالى رُزقت بكذا، وبفضله عملت وحصلت وربحت ونجحت في كذا، ولا ينسب ذلك لعقله وفكره وفهمه، فهو الذي أفهم، وهو الذي سهل طرائق العلم وكتابته وفهمه وحفظه. وهو الذي يسر البيع والربح والصناعة والزراعة، وغير ذلك من الفضل والإنعام، وهكذا في كل نعمة. ثم يبين الله تعالى سعة فضله

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فإن فضل الله ربكم عظيم، لا يحيط به أحد من خلقه، فاطلبوه بطاعته سبحانه وتعالى، وسؤاله، ولا يمنعه أحد عن أحد، وأنه يكفي الجميع، فلا تحاسدوا بينكم.

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾

يبين الله تعالى حكمته وتدرجه في التعامل مع عباده ليحقق لهم الخير المتدرج والمتعاقب، حيث يقول تبارك وتعالى ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ فتبين هذه الآية أن الله تعالى قد يمحو ويبدل، فينسخ آية بحكم آخر، فينتقل من حكم إلى حكم آخر، وقد يُنسيها، فيزيلها من القلب، وقد ذكر ابن كثير روايات فيما أنساه اللهُ تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم،[1] لحكمة يعلمها تبارك وتعالى، ثم بين تبارك وتعالى مزيد فضله في الحالتين: النسخ أو النسيان، أنه يأتي بخير من ذلك أو مثله في الخير، وذلك فيما تحمله من حكم أو غيره، فتتحقق به مصلحة المكلف. فيكون النسخ لمصلحة يعلمها الله تعالى، وكان المنسوخ هو الأصلح ابتداء، ثم الناسخ هو الأفضل للأمة في واقعها وحالها. وهذا من رحمته وحكمته تبارك وتعالى التي تراعي حال المخلوق، فهو العليم الحكيم الرحيم. وهذا من خصوصيات المالك في ملكه، ومع هذا يأتي بخير منها في الخير أو بمثلها ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ فسبحان الله العظيم الكريم الجواد.

ويفيد هذا بأن العالم لا يمكن أن يفتي أو يحرر مسائل العلم إلا بمعرفة الناسخ والمنسوخ من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وأن من يتجرأ بدون علم فقد خاض فيما يجهل.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٥٤ ـ ١٥٥)

ثم ينوه تبارك وتعالى لأمر عظيم. ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو سؤال تقريري: ألست تُقر بأن الله على كل شيء قدير؟ فلم تُنكر أو تعترض على النسخ، وهذا في الرد على اليهود الذين يُنكرون تحول القبلة إلى الكعبة، أو غيرها مما يُنكرون ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيا أيها الشاك ويا أيها المكذب ويا أيها المنافق اعلم بعظيم حكمة وقدرة الله تعالى، فما الذي يحول بين قدرة الله تعالى وحكمته وبين نسخ ما يريد. فإن الآيات من عنده عَزَّ وجل، وكذلك النسخ من عنده، وتقرير الحكم من عنده أيضاً، وحال لسان المؤمن عندما يسمع قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يقول: بلى علمت يا رب.

ثم يتكرر السؤال التقريري مرة أخرى وفي أمر عظيم آخر ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ألست تُقر بأن الله على كل شيء قدير؟ سؤال تقريري بأن الرسول صلى الله عليه وسلم يُقر بأن الله تعالى على كل شيء قدير. إذاً فمن له ملك السماوات والأرض فإن له الحكم بما يشاء، ويُفِيضُ بفضله على من يشاء، سبحانه وتعالى، فله الحكم كله. وهذا يستوجب على من يعلم أن الله على كل شيء قدير وأن له ملك السماوات والأرض، أن يقول سمعت وعلمت وأطعت يا رب. ولا يعترض على تدبير وأحكام الله تعالى. ومن فوائد ذلك أهمية الأسلوب التقريري وأثره النفسي والفكري في التوجيه والدعوة والتربية، لتقرير ما يراد تقريره مما يتناسب مع الموقف.

ومن جميل مطلع الآية الكريمة والتي قبلها أنها بدأت بأسلوب يشد الانتباه عند الْمُخَاطَب، وذلك بجملة ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ التي تفيد الاستفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومحسوس ومتقرر عند الْمُخَاطَب من كمال الملك والتسخير العظيم. فيدفعه بذلك إلى الحقيقة والبرهان والدليل المحسوس الذي يعايشه كل لحظة في حياته من أوجه الملك والتسخير، ويشاهده بعينه وبصيرته، ويحسه بجميع حواسه، ويستخدمه في جميع شؤونه. وورد الخطاب الاستفهامي ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ ألم تعلم بما

تشاهده أيها المخاطب، دون تحديد، ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمشركين، وجميع عباده منذ نزول هذه الآية العظيمة إلى أن يُفنِي اللهُ تعالى الأرضَ ومن عليها بقيام الساعة.

ثم يقول تبارك وتعالى عطفاً على ما سبق ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وأن ليس لكم ناصر ولا ولي يتولى أمركم وشأنكم غير الله تعالى، فأفادت هذه الآية البيانية والتحذيرية لكل من يعترض على حكمة الله تعالى وشرعه في ملكوته، بأن عليه أن يتنبه من أن ليس له ولي غير الله تعالى، ولا ناصر ينصره إلا الله سبحانه وتعالى، فلا ولي ولا ناصر حقيقي، يملك حق الولاية والنصر إلا الله تعالى. فاللهم أنت ولينا وأنت ناصرنا، ولا نصر إلا بك، فإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت.

ثم يُعَلِّمُ اللهُ تبارك وتعالى الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن بعدهم إلى أن تقوم الساعة أدباً دقيقاً في تعاملهم مع النبي صلى الله عليه وسلم. فينهاهم تبارك وتعالى عن سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ وهذا سؤال استفهام استنكاري، ليعلموا أن هذا منهج اليهود مع موسى، وقد جاء في الحديث (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[١] وهذا الحديث يفيد علة النهي عن السؤال. مما يبين قصور عقل الإنسان إلا بالتشريع الذي يُكَمِّلُهُ، فإنه يسدده ويهديه للمصلحة. فبين الحديث أن كثرة السؤال تجر للاختلاف، فربما هذا يسأل، والآخر يضع احتمالاً، والثالث قد يزيد في فروع السؤال، فيحدث الخلاف. فالله تعالى مطلع ويعرف ما يحتاجه عباده، وما أرسل لهم الرُّسُل والكُتُب إلا وهو يريد بهم خيراً، فلن يترك لهم باباً للخير إلا دلهم عليه، ولا باباً للشر إلا حذرهم منه، وبالتالي فلا داعي للاستعجال بالسؤال. وقد يكون في ترك الأمر خير. كسؤالهم عن

(١) مسلم، صحيح مسلم (٢/٩٧٥) برقم (١٣٣٧)

الحج. حيث قال الصحابي: كل عام يا رسول الله؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم)[١]

ومن هذا يتضح أن في نهي الله تعالى وأمره خير عظيم، ولحكمة قد لا يعلمها البشر. ويترتب على ذلك ألا يقول الإنسان في أمر الله تعالى ونهيه: إلا سمعت وأطعت. فإن عرف الحكمة فخير ونعمة، وإن جهلها فلا يقل إلا خيراً.

كما تفيد الآية اثبات أسئلة قوم موسى لموسى، كما اتضح مما سبق في هذه السورة المباركة، حتى أنهم سألوا موسى أن يريهم الله تعالى جهرة.

والمقصود بالنهي تلك الأسئلة التي قد تُفضي إلى ما لا يتمناه السائل، كمن سأل عن الحج. هل في كل عام؟ وأما سؤال التعليم والتفقه، فليس فليس فيه ما يمنعه. وقد أورد بعض أهل التفسير أدلة، مثل قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ وقوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ﴾ وقوله تعالى ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، كلهن في القرآن....ما كانوا يسألونك إلا عما ينفعهم.[٢] وهذا يفيد التزام الصحابة بما نهى الله عنه من السؤال، وحصروا اسئلتهم فيما يفقههم في دينهم. فأثنى ابن عباس عليهم بتلك الأسئلة المحدودة المعدودة. ولم يتجاوزوها إلى التعنت والاعتراض. وهذا يفيد أيضاً أهمية التأدب في السؤال، بأن لا يسأل الإنسان إلا فيما ينفعه، أو يدفع به جهلاً وشراً، ولا يتجاوزه إلى التمادي فيما لا ينفع.

ثم يقول الله تعالى محذراً ومنبهاً ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وأن من يستبدل إيمانه بالكفر والجحود ﴿فَقَدْ ضَلَّ ﴾ فقد تاه عن ﴿سَوَآءَ ﴾

(١) مسلم، صحيح مسلم (٢/٩٧٥) برقم (١٣٣٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٨)

اعتدال ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ الطريق، أي: فذهب إلى الطرق المعوجة التي تُفضي إلى الشر، وليس للخير.

فيبين الله تعالى في الآية قيمة ومنزلة الإيمان، من أنه حصن حصين، وأنه الطريق المستقيم، لأن من يستبدله بالكفر فقد ضل الطريق المستقيم. لأن الكفر هو طريق الضلالة والغواية، وأن الإيمان هو الطريق المستقيم المحقق لرضى الله تعالى، والموصل للجنة التي عرضها السماوات والأرض.

ويفيد هذا أن من أعطاه الله تعالى نعمة فلا يستبدلها بالمعصية، كأن يستبدل الرزق بالإسراف، وصرفه في غير طاعة الله تعالى، أو يستبدل النعمة بالتكبر والتعالي، أو بأي وجه يُخرجها عما أُعْطِيت له.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ
بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟
لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن
يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ
عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ
شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يبين الله تعالى للمسلمين ويُعَلِّمُهم ما يخفى عليهم من حال الذين معهم من أهل الكتاب

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا

﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود يتمنون لو أنهم يستطيعون ردكم إلى الكفر عن الإيمان، والسبب ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ حسداً من قلوبهم ونفوسهم، لما يعلمون من أنكم على الحق، ولا يريدون غيرهم أن يكون أفضل منهم، فيتمنون أن تماثلوهم في الكفر، بدليل أن هذا الحسد ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر لهم الحق واضحاً جلياً، بأن محمداً صلى الله عليه وسلما نبياً ورسولاً من عند الله تعالى، وأن ما جاء به هو الحق بلا ريب ولا شك. وقد أفاد قوله تعالى ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أن الحق قد ظهر لهم واضحاً، وأنهم على باطل، وأنه واجب عليهم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن لوجود الحسد الذي في قلوبهم ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ لا يحبون أن يؤمنوا ويصدقوا، فيحسدون غيرهم على النعمة. ويمنعهم الاستكبار، الذي أثار عندهم نزعة الحسد. فهم إذاً يصطلون بنار الحسد، فيتمنون أن تماثلوهم في الكفر.

فيبين الله تعالى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من حسد للمسلمين، والذي لم يكن ليعرفوه إلا بتنبيه من الله تعالى لهم، فيكشف لهم حقيقتهم، لأن الحسد لا يكون إلا ممن عرف النعمة على المحسود، وقد أثبت الله تعالى ذلك في قوله ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وبالتالي يفيد ذلك أنهم عرفوا ما عليه المسلمون من الحق الذي لا ريب ولا شك فيه، وأيقنوا أن نبيهم حق، وكتاب الله تعالى حق، فلو لم يكن كذلك لما حسدوهم على نعمة الإيمان. لأن الحسد لا يكون إلا على نعمة. وكذلك بينت الآية الكريمة أنهم يحاولون رد المسلمين للكفر. مما يفيد أن أهل الكتاب لن يألوا جهداً في ثني المسلمين عن دينهم، بإثارة الشبه، وإثارة الغرائز والشهوات التي تفتك بالمسلم وتثنيه عن دينه، وكذلك نشر ما يجعل المسلم يُفرط في دينه، ويتساهل به ويخرج منه. مما يبين ويعزز أهمية الحذر من بعد أن أظهر وبين الله تعالى مقاصدهم في المسلمين. وهذا يفيد أن أهل الباطل والفساد يتمنون أن يخرج الصالحون عن صلاحهم، ويكونون مثلهم في الفساد، ويفرحون بذلك. لأنهم لا يريدون غيرهم في صلاح وهم في فساد.

ثم يأمر الله تعالى بمنهجية التعامل معهم ﴿ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ ﴾ يأمر الله تعالى المؤمنين وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعفو عنهم. وحدد هذا العفو بقوله عَزَّ وجل ﴿ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ ﴾ بما يفيد أنه سيتلوه أمراً. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: فنسخ العفو جَلَّ ثناؤه عنهم والصفح، بفرض قتالهم على المؤمنين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: وقتادة أنها نُسخت بآية القتال[١] وكذلك أورد الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى أنها منسوخة بالقتل[٢] وهو قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ وهذا يفيد الحكمة في التعامل، بأن الله تعالى أمر بالعفو والصفح عنهم حتى يحين قتالهم بعد مكرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين في المدينة. فتكون الحجة قد قامت عليهم بعد العفو والصفح والانتظار، لعلهم يرشدون، ولكنهم كانوا برسوله وبالمؤمنين يمكرون. مما يبين الحكمة في التنزيل، والحكمة في التعامل

ثم يخبر الله تعالى بما هو ثابت عند المؤمنين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

فلا يعجزه شيء. فيقرر سبحانه وتعالى لجميع العباد بأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء، وأن كل شيء تحت قدرته وسلطانه وقهره، ويدخل في ذلك أرزاقهم، ونصرهم وتمكينهم في كل شأن من شؤونهم. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بما يفيد التطمين، والترغيب في طاعته، وتعظيم شأن ربهم. وزيادة إيمانهم. وكذلك التحذير من معصيته، فإن قدرته عَزَّ وجل تشمل كل شيء، فاطلبوا عونه ليعينكم وتمكينكم، وأن لا تيأسوا، واحذروا مخالفة ربكم سبحانه وتعالى.

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢/٤٢٣-٤٢٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٥٨)

فهو عزَّ وجل لا غيره ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فقد حصر سبحانه وتعالى كمال القدرة له بنون التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ المؤكدة لِمَا بعدها، وهو كمال القدرة الربانية. ثم لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ الذي أفاد أنه المألوه، ذو الألوهية، الذي لا يُعبد سواه، الجامع لكل صفات الكمال والجلال والإجلال. فأفاد البيان مع ما بعده حصر وقصر كمال القدرة له وحده تبارك وتعالى. وأفادت دلالة ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في قدرته على ما يشاء من غير وبدون استثناء، من الإنعام، والقهر، والغلبة، والنصرة، والخلق، والتسخير، وما يمنحه للمخلوق من القدرات، وغيرها مما يشاء سبحانه وتعالى، فليس لقدراته عَزَّ وجل حد محدود، بل هي مطلقة لا حدود لها.

فهو القادر على نصرهم، ولكن سنن الله تعالى تقتضي وجود الأسباب والآجال، كأسباب النصر ووقته وكيفيته، ودواعيه ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ والمتأمل في جملة ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ يجد أنها قوة للمؤمن، فيصبر ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ ويجتهد ولا ييأس ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ ويتداوى إذا مرض ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ ويأخذ بالأسباب في كل أمر ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ إنها قوة يتقوى بها المؤمن على كل أمر من أموره. ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قاعدة تملأ قلب المؤمن قوة، وتشحنه بالصبر والمثابرة.

ثم يوجه الله تعالى بما يجب من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وهذا أمر من الله تبارك وتعالى بوجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مبيناً سبحانه وتعالى أن ما يقدمه المسلم من الخير فهو لنفسه، وسيجده عند العزيز الحكيم محفوظاً. مما يفيد أن ما يقدمه المسلم من خير فلن يضيع عند الله تعالى، بل يجده نعيماً مقيماً عند رب العالمين. ويختتم الله تبارك

وتعالى الآية بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فهو بصير بكل أحد، وبما يقدمه ويعمله، فلا يخفى عليه شيء، ولو كان مثقال ذرة أو أصغر منها. وفي هذا السياق القرآني جانب تشجيعي للمؤمن، من عدم ضياع ما يقوم به من خير في الدنيا، فإنه سيجده وافياً في آخرته. كما أن في لفظة ﴿خَيۡرٖ﴾ ما يفيد عموم أصناف الخير، لتستوعب هذه الكلمة جميع أنواع ومجالات الخير التي تستوعب جميع مفرداته، وتستوعب جميع أنواعه، وكذلك مقداره، وقدرة كل أحد من المؤمنين. وتفيد لفظة ﴿مِّنۡ﴾ التبعيض، وهي الأجزاء من الخير، أي فما تقدمه من شيء من أجزاء وأنواع الخير ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يحفظه لكم ربكم، ويجازيكم به، ولا يضيع لكم منه شيئاً أبداً.

ومن دقائق البيان ورود أداء الصلاة بفعل الأمر ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ والإقامة تجمع جميع متطلبات الصلاة، من الشروط والأركان والواجبات والمستحبات. ودلالة الصلاة أنها صلت بين العبد وربه. وقد ورد فعل الأمر بأداء الزكاة بدلالة الإيتاء ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يشمل الأخذ والإعطاء، الأخذ من الموجود وتقديمه للغير. وفي ورود الصلاة والزكاة بفعل الأمر ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ما يفيد الوجوب الذي لا خيار للمؤمن فيه. كما أن في تعيين الصلاة من بين العبادات دليل على عظمتها، وأنها رأس الأمر في العبادات بعد الإيمان. وفي تعيين الزكاة كذلك ما يبين عظيم شأنها، فكما أن الصلاة عبادة لله تعالى، بمشاركة المؤمنين في الأداء المماثل معهم، فكذلك الزكاة عبادة لله تعالى بالمشاركة مع الغير على وجه الإعانة. وفي تسميتها بالزكاة، ما يفيد أنها نماء للمعطي، لأن الزكاة تعني الزيادة والنماء. فهي نقص من وجه ولكن هذا النقص يحقق البركة والزياة والنماء، والذي يراه أهل الزكاة في أموالهم، ولله الحمد. وهذا يدل على عناية الإسلام بالتكافل والتعاون الاجتماعي. وأن للمسكين والفقير حق في مال الغني، وكذلك بقية أصناف أهل الزكاة، وهم: العاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب.

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة ببيان كمال علمه. فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فربكم بصير بما يكون من أعمالكم التي تقومون بها. والبصير هو الذي يرى كل شيء، فلا يغيب عنه شيء من أحوال الكون، وأحوال جميع خلقه على كثرتهم وتعددهم وتنوعهم، واختلاف أماكنهم. وبالتالي لا يخفى ولا يغيب عليه عَزَّ وجل شيء من أحوال الناس، وأعمالهم، وإيمانهم، وكفرهم، وحاجاتهم، فيعطي كل أحد بما يستحقه في الدنيا والآخرة. وفي هذا تحذير من مخالفة شريعة الله تعالى، وتحضيض على الطاعة، لأن الله تعالى يعلم ما يكون منكم فيثيبكم، مهما كان الشأن قليلاً أو كثيراً. وهو تهديد لمن يخوضون في الباطل، ومن يوادون الكفرة، فإنه سبحانه وتعالى يسمع كل شيء، ويرى كل شيء، فلا يعزب عن علمه تبارك وتعالى مثقال ذرة، ولا أدنى من ذلك، بل إنه محيط بكل شيء علماً وقدرة وتصريفاً. مما يقوي عزيمة المؤمنين أمام الباطل، وأمام شطحات النفوس، وأمام مكائد الأعداء. فيعلمون أنه لا يخفى عليه عَزَّ وجل شيء من أعمالهم، وأعمال ونوايا غيرهم.َفيقْوَى بذلك التوكل عند المؤمن، ثم تعلو وتقوى الشجاعة القلبية في كل شأن، سواء تجاه مواجهة الباطل بجميع أنواعه وأحواله. أو بذل المعروف والإحسان، والإقدام عليه. فهي قوة من كل وجه للمؤمنين، وتحذير لغيرهم من ربهم سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم من الله تعالى إلى كشف كذب أهل الكتاب وقلبهم للحقائق ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فزعموا لأنفسهم الجنة دون غيرهم، وبمعنى من كان يريد الجنة فليكن يهودياً كما يرى اليهود ذلك، أو نصرانياً كما يرى النصارى ذلك، فكل يرى أن الجنة خاصة بهم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وكيف جمع اليهود والنصارى في هذا الخبر، مع اختلاف مقالة الفريقين. اليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها في ثواب الله نصيب، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك؟ قيل إن معنى ذلك بخلاف الذي ذهبْتَ إليه. وإنما عُني به: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى. ولما أن المعنى مفهوم عند الْمُخَاطَبين به، جُمِعَ الفريقان في الخبر عنهم(١) والجمع بينهم لأنه من سياق الآية الكريمة عنهم،

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٢٨/٢)

وليس هو من قولهم على وجه الاتفاق بينهم، أي بين اليهود والنصارى. وإنما جمع القائل سبحانه وتعالى قولهم. بما يفيد أن حالهم واحد فيما زعموا من الباطل، فوحَّدَ بينهم البيان الكريم. بما يفيد أن حالهم واحد فيما زعموا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: اختصم يهود المدينة، ونصارى نجران عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء. ولا يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وكفروا بالإنجيل وعيسى. وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً[١] بما يفيد أن حالهم واحد فيما زعموا من الباطل، فوحَّدَ بينهم البيان الكريم.

ثم يبين الله تعالى أن حال أولئك اليهود والنصارى هو حال المتمني ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ مما يبين أن الأمنيات بلا حقيقة لا قيمة لها، إلا بالحجة والدليل والبرهان. فقال عَزَّ وجل ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ فتلك مزاعمهم التي تمنوها بغير حق. مما يفيد أن المنحرف في عقيدته يرى أن الحق له، وأن مسلكه هو المسلك الذي يؤدي به إلى مبتغاه، ولا يلتفت للحقيقة، وإن عرفها حاد عنها بسبب استحواذ الباطل على قلبه وفكره، مع خشية ما يلحقه من قومه وأهل مذهبه، إلا من غَلَّب الحق على هواه. وهذا يكشف حال من يخادعون أنفسهم.

ثم طالبهم سبحانه وتعالى بالدليل، فقال جَلَّ جلاله ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قدموا دليلكم الذي يبرهن على صدق ادعاءكم. فالبرهان هو الذي يعجز عنه الكاذب والمعاند والمتكبر والمتأول بغير حق. لأن الدليل الذي عندهم في كتبهم يُوجِبُ عليهم اتباع النبي الأمي صلى الله عليه وسلم عند بعثته، بدليل تصديق القرآن الكريم لما معهم من التوراة.

وهذا يفيد أن الجنة ليست بالادعاء ولا بالتسميات ولا الانتماءات، بل باتباع الحق كما أمر الله تعالى به. ولذلك تُفيد هذه الْمُحَاجَّة أن هذا الدين قائم على البرهان والدليل في كل أمر.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١١٥)

وليس على الأهواء، والمغالطات والمزاعم. وأن المنحرفين عن الدين لا برهان صحيح لديهم يثبتون به ما هم عليه من الباطل. ولذلك يقابلون غيرهم من أهل الدليل بالنعوت والقذف، لا بالدليل والبرهان، لأنه لا دليل عندهم.

ثم يرد الله تعالى عليهم بقوله جَلَّ جلاله ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ليس الأمر كما تزعمون، وإنما يدخل الجنة من استسلم لله تعالى، الذي أخلص لله وحده لا شريك له، وفق شرعه الحكيم. فإن من فعل وأتى بذلك فله عند ربه الأجر الذي يستحقه بدخول الجنة، وأنه لا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر وشأن الآخرة، ولا يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا.

وقد استهل البيان الكريم بحرف ﴿ بَلَىٰ ﴾ الذي ينفي ما قبله من دعواهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً أو نصرانياً. فليس الأمر كذلك كما تدعون، فليس بأمانيكم ولا بادعائكم، ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ فالذي له الجنة هو من استسلم وخضع وأخلص لله تعالى بعمله، متوجهاً لربه بقلبه، وهو مُحسن فيما يعمل. قال الإمام القرطبي: وخُص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يُرى من الإنسان.[١] فهؤلاء هم الذين لهم الجنة ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فأجرهم الجنة، ولهم الأمن مما يخافون، ولن يصيبهم الحزن أبدا. لأن ما يكدر الإنسان هو الخوف من القادم والحاضر، والحزن والحسرة على ما فات من فرص انتهت وتولت وضاعت، ولا يمكن استرجاعها، فكل هذه المخاوف تتبدد في الجنة، فلا خوف ولا حزن يعتري أهلها ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بل سرور دائم. فاللهم ارزقنا الجنة وما قرب إليها من قول وعمل. وبالتالي فإنه مَن لم يكن كذلك فهو من أهل النار، فلا نجاة إلا بالإخلاص لله تعالى، والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) لقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٢/٢)

ثم يقول الله تعالى عن اليهود والنصارى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فبين الله تبارك وتعالى حال أهل الكتاب، حيث كان بين اليهود والنصارى تباغض وتناقض وتعادي وتعاند، وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل، فكل من التوراة والإنجيل قد كانت مشروعة في وقت. ولكنهم تجاهدوا فيما بينهم عناداً وكفراً، ومقابلة للفاسد بالفاسد [(١)] وهم يتلون التوراة والإنجيل.

فهذا الحال وهم جميعاً من بني إسرائيل. فكيف سيكون حالُهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو من نسل إسماعيل عليه السلام. كما يفيد هذا أن مسلك العناد والتباغض يتناقض مع ما يجب أن يكونوا عليه، لمعرفتهم بالتوراة والإنجيل، والذي أثبت الله تعالى أنهم يتلونه. ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ وهذا يكشف أن الإنسان إذا لم يتق الله تعالى بما لديه من آيات الله تعالى، فقد يُكَذِّب الحقَ، وينتصرُ لنفسه ولأخطائه، نتيجة ميله لحب الانتصار، والتباهي بذاته وما هو عليه. مما يبين حالة بعض النفوس التي يلزم أن يتنبه المرء لها، حتى لا يقع فيما وقع فيه هؤلاء. فالهوى والشيطان قد يجران ويأخذان الإنسان عن الحق إلى الضلال، ثم يتدرج إلى العناد ومحبة الانتصار بالباطل على الحق. ثم الاجتهاد في التأويل لمراده الباطل. فليس هناك ملاذاً للحق عن الباطل إلا بالدعاء والتقوى والاعتصام بالله تعالى وبكتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ويُضاف إلى هذين الصنفين: اليهود والنصارى ما أوضحه الله تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ فهذا صنف ثالث كذلك. يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: في قول الجمهور: هم كفار العرب. لأنهم لا كتاب لهم.[(٢)] فتساوى أهل الكتاب في هذا المنهج مع الجهال الذين هم كفار العرب. وهذا يفيد أن العلم والمعرفة إذا لم يترتب عليها حصول تقوى الله تعالى، وطاعته كما أمر، فسيحتويها الهوى، فيصبح صاحب العلم كالجاهل تماماً، لأنه لم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٦٠)

(٢) لقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/٥٢)

ينتفع بعلمه. بل يدافع ويعادي الحق وأهل الحق، من أجل ما انعقد عليه هواه. ﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ فإن الله تعالى يفصل بينهم فيما تخاصموا فيها من تكفير بعضهم بعضاً، مع ادعاء كل فريق منهم أنه على الحق، وغيره على الباطل. فيجازيهم بما يستحقون.

ويفد هذا البيان من الله تعالى أن يحذر المسلم من هذا المسلك الخطير بالتحزب، ثم التباغض والتكفير، وما يترتب عليه من استباحة دماء المسلمين والمعصومين، بسبب قلة العلم الذي يقود للجهل بالدين، ومن ثم تفسيره وفهمه على غير مراد الله تعالى ومنهجه. وكذلك يستوعب هذا الأمر المعاملات بين الناس، فيستحل لنفسه ظلم الآخرين، والإفساد في المعاملات والتعاملات ومصالح العباد بتأويلات الهوى وتزيين الشيطان لسوء العمل، أو الانتصار للنفس بالظلم والتجاوزات التي تحقق الفساد والتباغض بين العباد. والتي جميعها تتنافى مع الكتاب والسنة.

والْمُتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أسلوب التشويق في العرض، وتفتيح الذهن، والارتقاء بالْمُخَاطَب إلى البعد عن الذاتية إلى النظرة العامة، والمصلحة العامة، والجسد الواحد للأمة، والحذر من مساوئ الجهل والهوى، ومخاطر التطاول على الحق. وأن الهوى والكبر يقودان للأخطار الدينية والمجتمعية، ويثير التطاول والتعالي الذي يقود إلى التباغض ثم التناحر والتشتت. بما يؤكد أن جماع مصلحة الأمة في وحدتها، ووحدتها مرهونة بالتجرد عن الذاتية والأنانية، وهذا يتطلب تعزيز تربية التجرد من الهوى والكبر، وتحقيق الإيمان والتقوى، من خلال معرفة مراد الله تعالى حقيقة، والعمل به إخلاصاً له تبارك وتعالى، ومتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥ ﴾

يبين الله تعالى عظمة وحرمة المسجد ومكانته ومنزلته، قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فليس هناك أشد ظلماً من الذي يمنع عباد الله تعالى عن ذكره في المساجد، بإقامة الصلاة أو الاعتكاف أو غيرها من الطاعات، وأيضاً السعي في خرابها، وسواء هذا الخراب بالتحطيم والتهشيم، أو رمي ما لا يليق ولا يجوز رميه فيها. أو تخريبها بالأباطيل. مما يفيد الحذر من وضع العراقيل التي تمنع وتُؤَدِّي إلى إخلاء المساجد من الذاكرين لله تعالى. وهذا التحذير دليل على مكانة المسجد، ومنزلة وحظوة الذاكرين لله تعالى في المساجد، وأيضاً منزلة وأهمية ذكر الله تعالى وخاصة في المساجد، فرتب على من يمنعهم بأنه ظالم، قد ارتكب ظلماً يوجب عقابه.

ومن الفوائد كذلك صيغة التوجيه الممتلئة بالتعجب ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ فهل هناك أكثر ظلماً ممن يمنع عباد الله تعالى من أن يذكروا ربهم في المساجد. سؤال يستثير العقل للإنتباه من هذا الفعل الذي لا يليق بأهداف وغايات المساجد، التي بُنيت من أجلها. ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ فليس هدف وغاية الدخلين إلى المساجد إلا ذكر الله تعالى ﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ﴾ بأن يجعلها مهجورة من قاصدينها لذكر الله تعالى، وأعظ الذكر هو الصلاة. إن كان هناك أكثر ظلماً من التعدي على بيت الله تعالى بمنع الناس عن ذكره فيه، أو تخريب المساجد وامتهانها، ففي الصياغة ما يفيد التحذير والتخويف، وكذا الترغيب بذكر الله تعالى في المساجد، والعناية بخدمتها وحفظ أمنها وسلامتها. وبالمقابل تكون رفعة ومنزلة عظيمة لمن يعتني بها، ويحافظ عليها ويبنيها ويشيدها ويعمرها، حيث رَتَّب المولى تبارك وتعالى على معطليها بالمنع أنهم ظالمين ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ﴾ بل أقصى أنواع الظلم وأقبحه. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى بعد أن بين أسباب النزول والأقوال في ذلك. قال: وقيل: المراد من منع من كل مسجد إلى يوم القيامة، وهو الصحيح، لأن اللفظ عام، وورد

بصيغة الجمع، فتخصيصها ببعض المساجد، وبعض الأشخاص ضعيف[١] وقال السعدي رحمه الله تعالى: لا أحد أظلم وأشد جرماً ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها. وإقامة الصلاة، وغيرها من الطاعات ﴿وَسَعَىٰ﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾ الحسي والمعنوي. فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها وتقذيرها. والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها. وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة[٢] فهي عامة، وشاملة.

ثم بين عاقبة هذا الجرم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ فالأولى بهؤلاء أن لا يدخلون المساجد للتخريب. فالذي يليق بأولئك هو عدم دخولهم لها، ومنعهم منها، لما هو حاصل منهم من الأذى ومنعهم للذاكرين الله، والتي منها إقامة الصلاة. فالجزاء الدنيوي لمن يصنع هذا التعطيل والتخريب هو الخوف والخزي، فإذا استولى المسلمون عليها، وأصبحت تحت سلطانهم فلا يتمكن الكافر من دخولها، وإن دخلوها يكونوا خائفين من إخراج المسلمين لهم وتأديبهم على دخولها.[٣] وهذا يفيد خطورة وفداحة أمر من يسعى في خراب المساجد، فإن الله ينتزعها منهم كما انتزع البيت الحرام من المشركين، الذين أدخلوا فيه الخراب بما وضعوا من الأصنام. ففتح الله مكة على نبيه صلى الله عليه وسلم، وأصبح المشركون خائفين. وكذلك بيت المقدس، فتحه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. وقد عاقب الله جَلَّ في علاه إبرهةَ ومن معه، عندما أرادوا هدم الكعبة.

ثم يقول الله تعالى جزاء هؤلاء الساعين في خراب المساجد ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فلهم في الدنيا العار والخوف والذل والمهانة، لتعديهم على مساجد الله تعالى، بأن يسلط الله عَزَّ وجل عليهم من يُذيقهم ذلك الخزي ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٥٣)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/٣٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٥٤)

﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فلهم في الآخرة العذاب المتصف بالعظمة من شدته. مما يبين عظمة وقدسية المساجد.

وهذا يفيد خطورة العبث بالمساجد، والسعي في تعطيلها أو إهانتها وابتذالها، والخوف على من يفعل ذلك من غضب الله تعالى. وفي المقابل أهمية العناية بالمساجد وعمارتها بكل وجه، من أوجه البناء، كعمارتها وإصلاح أعطالها وبنائها وإنشائها وترميمها، وإقامة الصلاة والاعتكاف، وذكر الله تعالى فيها بتلاوة القرآن الكريم وحفظه، وكل ما يدخل في عموم ذكر الله تعالى.

وفي شأن القبلة وتحديدها، يقول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فاستهلت الآيات القرآنية العظيمة ببيان الحكم القطعي في تحديد وتعيين من يملك الاتجاهات ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ ليستوحي منها الْمُخَاطب أن هذا شأن الله تعالى وحده لا شريك له. وكذلك جاء أول البيان متعلق بتحديد المالك للمشارق والمغارب، وهو الله سبحانه وتعالى ﴿وَلِلَّهِ﴾ وهذا تدرج تقريري وتعليمي، يتبين من خلاله جمال العرض القرآني للمعرفة، ولبيان مراد الله تعالى، ولكنه بأسلوب بلاغي بديع، بل في غاية الجمال الإبداعي، وفي تخصيص المشرق والمغرب بإضافتها إليه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ فإن الله رب العالمين هو ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ﴾ الذي تُشرق منه الشمس، فيظهر به ومن جهته النهار، وكذلك هو رب المغرب ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾ الذي تغيب منه الشمس، فيأتي الليل بظلامه. فله مُلك الكون من مشرقه إلى مغربه. ثم بعد بيانه سبحانه لكمال ملكه للكون، ثم يعضد ذلك بما يستلزمه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فهو يختار بتشريفه من يشاء. فهو الذي أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أولاً باستقبال بيت المقدس، ثم نسخ ذلك باستقبال بيته الحرام، فكانت الكعبة هي قبلة المسلمين.

فكل الكون ملكه، فله حق التوجيه كما يشاء وكيف يشاء ومتى يشاء، ولا معقب لحكمه. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فأينما تتجهون من الجهات التي يأمركم بها الله تعالى فقد توجهتم

لوجهه الكريم فيما يأمركم به، مثل الصلاة والذبح على القبلة، وعدم التوجه للقبلة بقضاء الحاجة. ثم يخبر جَلَّ جلاله عن سعة علمه عَزَّ في علاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو واسع في علمه، ويوسع على عباده في دينهم، وفيما يحتاجون إليه، فلم يضيق عليهم شيئاً لهم به حاجة. وأنه جَلَّ جلاله واسع الرزق، وواسع العطاء، وذلك لعظيم ما عنده، فإن له جميع خزائن الأرض، جَلَّ جلاله، وأنه عالم بكل أحد، وما يكون منهم، من الخير أو الشر. وما يستحق كل واحد منهم، وما يكون منه، وما يكون له من الرزق، ومقدار ما يصلح به حاله، وما يفسد عليه حاله. كما يفيد ﴿عَلِيمٌ﴾ التحذير من ارتكاب المعاصي، ومنها إيذاء الناس في المساجد، وتخريبها، ومن يصونها ويخدمها، وما يزول به الخير. فليحذر العبد من ذلك، فإن الله تعالى عليم بالعباد، وبأحوالهم، وبما يصلحهم، وبما يكون منهم، فاستقيموا، واطلبوا العون منه، وأحسنوا الظن به تبارك وتعالى، وتعاملوا مع دينه بهذا العلم عن عظيم علمه عَزَّ وجل.

وهذه الآية فتقت أذهان العلماء والفقهاء، ووسعت عليهم جوانب الفهم المتعدد في تناول أحكام أداء الصلاة إلى غير القبلة، سواء جهلا بها، أو لظلمة بليل أو غمام، وإن كانت الصلاة نفلاً أو واجبة، وحال أن أدرك المصلي وعَلِم خطأ تعيينه للقبلة بعد فراغه من الصلاة، ولم ينته وقتها، فهل يُعيد أو لا يعيد ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فهناك فقه عظيم قد تفتقت عنه العقول حول هذه الآية العظيمة، فاتسعت عقولهم لتستوعب النقاش، وجمع الأدلة. فكم من خير حصل على العقل والعلم بهذه الآية وبغيرها من آيات الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. فلينظر من أرد الفقه في هذه المسائل كُتُبِ التفسير والفقه.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

ثم يعود البيان القرآني لمشهد حال النصارى ومن شابههم من اليهود، والمشركين في أكاذيبهم وجرأتهم على صفات خالقهم تبارك وتعالى ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ حيث قالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزيرٌ ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله. فأي مشهد افترائي أعظم من أن ينسب العبد لله تعالى الولد. وكيف يفتري على الله الكذب. وهو القائل ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ مما يفيد أن الإنسان إذا لم يضبط سلوكه وعلمه وفكره بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد ينزلق في مزالق عظيمة، مما يتطلب من المرء أن يدعو الله بما كان يدعو به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[١] وتقول أم سلمة رضي الله تعالى عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم: ما أكثر دعائك (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) قال: (يا أم سلمة: إنه ليس آدمي إلا قلبه بين أُصبعين من أصابع الله. فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ)[٢]

ثم يرد وينزه الله تعالى نفسه عما نُسب إليه بقولهم ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ فيقول تبارك وتعالى تنزيها لذاته من شناعة ذلك القول ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزه وتبرأ من ذلك جَلَّ في علاه، فقد أفادت ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ التنزيه والتبرئة والمحاشاة من قولهم ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ ثم يبين

(١) الترمذي (٥/٥٠٣) برقم (٣٥٢٢)

(٢) المرجع السابق

سبحانه وتعالى ملكه العظيم، الذي ينتفي به ما يفترون من الولد ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فمن له هذا الملك العظيم كله، مع إيجاده من العدم، فلا يحتاج لولد يعينه. بل كلٌ له خاضع تحت قدرته ومشيئته تبارك وتعالى ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: خاضعون ذليلون، ومنقادون. فمن له الملك كله، وخضوع ملكه له، وتحت قدرته وتصرفه، ولا يحدث شيء إلا بعلمه، فهو منزه عن كل نقص، وبالتالي فله الكمال كله سبحانه وتعالى.

ويفيد هذا السياق عظيم منهجية الاستدلال في القرآن الكريم، إذ بين أولا قول الكافرين، ثم نزه تبارك وتعالى عن نفسه ما قالوه ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ ثم بين عظيم خلقه وملكه، ثم عظيم سلطانه وقهره ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ بحيث يدرك التالي للآية والسامع لها المراد المقصود، ويحصل له الاقتناع التام الذي لا يدع لديه شبهة أبدا. فسبحان الله العظيم.

ثم تبين الآية التالية مزيداً من بيان ملكه وقدرته جل في علاه ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو من أبدع خلق السماوات والأرض، فلم يكن لها مثال سابق، وكل خلقه كذلك تبارك وتعالى، بل له من القدرة ما يوضحه قوله تعالى ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فأي قدرة أعظم من هذه القدرة العظيمة الباهرة. مما يوجب تنزيه الله تعالى وتقديسه والمداومة على ذكره، وسؤاله في جلب الخير ودفع الشر، فهو الذي لا يعجزه شيء، وكل شيء يقضيه بقوله تعالى ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاج إلى ما يحتاجه المخلوق عَزَّ في علاه.

ثم يبين الله تعالى المزيد من تعنت الجهلة من أهل الكتاب، أو مشركي العرب، فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ فيقولون: هلا يكلمنا الله بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لنعلم أنه نبي، فنؤمن به، أو يأتينا بآية تكون علامة على

نبوته.[١] وهذا من باب التعنت في الطلب، وليس المراد طلب الحق، فيجيب الله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ فهذا دأب الجاحد المكابر بمماثلة مَن كان قبلهم في رد الحق الواضح الظاهر، ممن قالوا لأنبيائهم أرنا الله جهرة، كقوم موسى ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ مما يفيد تكرار الحدث، وتكرار المتشابه، فما يحدث بالأمس قد يحدث اليوم، قال تعالى ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهذا يفيد أن هناك قلوباً تتشابه في الباطل، وتتكرر قديماً وحديثاً، وبالتالي فإن هناك قلوباً تتشابه في الطاعة واتباع الحق. فما كان صالحاً للهداية في عهده صلى الله عليه وسلم فهو الصالح في كل عهد، ومن يريد الحق يهتدي به في كل حين، ومن كان معانداً مكابراً متعنتاً سيكون كذلك في كل جيل. ولذلك كما ورد عن الإمام مالك لا يُصلحُ آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. ثم يبين الله تعالى أن الآيات التي تُوجِب الإيمان قدتم بيانها ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ فإننا قد أوضحنا وأظهرنا وبينا الآيات للقوم الذين يصدقون بالحق إذا ظهر لهم. بما يفيد أن هناك أقوام معاندة للحق، مهما كان ظاهراً فلا تؤمن به، والسبب هو الاستكبار والحسد.

فإن كل رسول جاء بالبينات والآيات الواضحات، بما يبين أنه نبي الله ورسوله، وكان خاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالبيات الواضحات، وإلا لما أسلم الجمع الغفير، وانتشر الإسلام بين الخلائق. ولكن المعاند والمكابر يبحث في باب التعنت الذي لا يحقق له إلا الخسارة. وهذا يفيد أهمية البعد عن أساليب التعنت التي تُبعد الإنسان عن الخير في أمور معاشه ومعاده. كما يفيد هذا أن أساليب التعنت يبتعد بها المتعنت عن الحق، وينجرف بها وراء التقاطع والتدابر مع من يتعامل معهم، وربما تؤدي إلى إقصائه بين من يتعامل معهم، ويكون محل الذم والريبة والحذر. مما يبين أن التعنت بالمطالب والسؤال، لا يحقق لصاحبه خيراً حتى في التفاعل الاجتماعي، مع من يُحيطون به، أو يتعامل معهم.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٦٤)

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان حقائق عن الرسالة المحمدية، وذلك من خلال مخاطبة نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآية العظيمة، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فهذه الآية تبين حقائق الرسالة المحمدية لكل أحد من الناس. ف**الحقيقة الأولى:** أنه رسول الله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ أي: إنا كلفناك بواجب ومهام الرسالة. وفي هذا تزكية للنبي صلى الله عليه وسلم. لأن الرسول يكون باصطفاء من الله تعالى الذي اختاره من بين خلقه وكلفه بها. وهي رتبة وحظوة كريمة. وفيه أنه قد تحمل عليه الصلاة والسلام مسؤولية تبليغ هذه الرسالة، وأنه مُؤيَّد من الله تعالى. وفي دلالتها ما لا يحصى من الفوائد والأوصاف الكريمة. ومن دقائق البيان أن تصدر التكليف بضمير التفخيم للمتكلم سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّآ ﴾ الذي يفيد التعظيم والتبجيل، والقوة والعزة والتأكيد. ثم أكد ذلك أيضا بإسناد الضمير مرة أخرى في الإرسال والتكليف إليه سبحانه وتعالى ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ وذلك لبيان المزيد من التفخيم والتعظيم والإجلال، والتأكيد بأن الإرسال منه سبحانه وتعالى، وأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس من ربهم عَزَّ وجل.

والحقيقة الثانية: أن مضمون رسالته الحق ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فقد كلفناك بالحق الذي خلا من الباطل. بما يعني ويفيد: فإن الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هو حق من الله تعالى، لاريب ولا شك فيه، فالقرآن الكريم حق، وسنته صلى الله عليه وسلم حق. ودلالة ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ تدل على التحلية بكل وصف كامل، والتخلية من كل عيب ونقص. ومن يتأمل فيما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مما في القرآن الكريم والسنة النبوية، يجد أنها شريعة كلها حق، فهي في أهدافها حق، ومنهجها حق، وأساليبها حق، وتيسيرها حق، وموافقتها للفطرة حق، وأنها هداية حق، لا تأمر إلا بخير، ولا تنهى إلا عن شر، ومبينة لمنهج تحقيق الخير، ومنهج دفع الشر والبعد عنه. وفي المقابل عجز البشرية أن تأتي بمثل هذا الْهُدَى الثابت والبائن في صلاحه لكل زمان وفي كل مكان. بل تحداهم أن يأتون بمثل هذا القرآن، ولو اجتمعت الإنس والجن، كما قال عَزَّ وجل في سورة الإسراء ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ومن يتأمل ما اخترعه الناس من تشريعات وضعية يجدها أنها تتبدل بين الأيام، ومن جيل إلى جيل، لما يرون فيها من العيوب والأخطاء والنقص، وما فيها من القصور والخلل، وما تعجز عن تحقيقه من الأمن والرخاء والتآخي والتآزر. وغير ذلك من النقائص التي لا حصر لها.

والحقيقة الثالثة: أنها رسالة بشارة. فهو عليه الصلاة والسلام ﴿ بَشِيرًا ﴾ فهو مبشر بالجنة والنعيم المقيم. أي: مبشراً بالجنة لمن صدقك واتبعك، بطاعة ربه عَزَّ وجل. **والحقيقة الرابعة:** أنها رسالة إنذار. فهو عليه الصلاة والسلام ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ فهو منذر للعاصي من النار. أي: منذر بالنار وسوء العذاب لمن كذب به ولم يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يعلم الناس بأن ليس على الرسول صلى الله عليه وسلم مسؤولية من امتنع عن الإسلام ولم يستجب، فكل إنسان يتحمل مسؤولية نفسه، ووزر امتناعه وذنوبه. فهو مكلف بهداية الدلالة على دين الله تعالى بالشارة للمطيع، والذارة والتحذير لمن كفر.

والحقيقة الخامسة: أنه صلى الله عليه وسلم غير مسؤول عمن كفر ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وفيه أنه صلى الله عليه وسلم لا يملك هداية التوفيق، وإنما مُخَول بهداية الدلالة، أما من أصر على كفره فلا يملك له هداية توفيقية، وبالتالي فهو غير مسؤول عن أعمالهم، وعن دخولهم الجحيم. وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: لا تُسأل عنهم، فإنهم في أمر عظيم، فيكون ذلك على وجه التعظيم لما هم فيه. والجحيم هي النار، وقيل النار إذا اشتد وقودها.(١) فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس مُكلف بإجبار الناس على الطاعة.

وقد بينت الآية في جملتها عظيم محتواها مع قلت كلماتها، وتسلسل بيانها التوضيحي، وأجملت ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم في كلمة واحدة، أنه جاء ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وأن الحق يحتوي على أمرين: بشير بالجنة لمن أطاع، وكان هذا في كلمة واحدة ﴿بَشِيرًا﴾ وأن الحق أيضاً يحتوي على الإنذار من النار لمن عصى، وكان هذا في كلمة واحدة ﴿وَنَذِيرًا﴾ وتحديد مسؤولية النبي صلى الله عليه وسلم من أنه غير مسؤول عمن كفر، وعن أعمالهم، وأن مَرَدَّهُم إلى الجحيم، بما يفيد نوع العقوبة، وكان ذلك كله في قوله تعالى ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ وقبل ذلك بينت الآية في أول مطلعها مسؤولية ووظيفة النبي صلى الله عليه وسلم في كلمتين ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ فهو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأي بيان بلاغي أبلغ من هذا.

ثم بين الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين موقف اليهود والنصارى، قال تعالى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ فإن اليهود ومعهم النصارى لا يرضون بما أنت عليه من الدين، بل يريد كل طرف أن تتبعه. بالرغم من أنهم يعرفون من خلال كتبهم المنزلة من الله تعالى أنه رسول من الله تعالى، بل حتى صفاته كما قال تعالى في هذه السورة ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٢١ ــ ١٢٢)

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ولكنهم يكتمون الحق. وفي هذا بيان للنبي صلى الله عليه وسلم بأن ذلك منهم هو من باب التعنت.

كما أن في الآية بيان إعجازي لحال ما هي عليه قلوبهم من عدم رغبتهم في الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم يطمعون في أن يتابعهم في ملتهم. وهذا لا ينفي أن بعض أفرادهم في المدينة قد دخل في الإسلام. مثل الصحابي الجليل عبد الله بن سلام، ولكن القصد العموم. وقد جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود)[١] والمقصود لو آمن من كبرائهم، وذلك لما لهم من تأثير. ولكن لله حكمة في كل شأن.

وتبين الآية مقدار استحالة إيمانهم ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ واستدل كثير من الفقهاء من قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة، حيث أفرد الملة[٢] أي ملة اليهود وملة النصارى في قوله تعالى ﴿ مِلَّتَهُمْ ﴾ فجعلها ملة واحدة، لأنه لا ملة مشروعة بعد بعثته صلى الله عليه وسلم إلا الإسلام الذي جاء به عليه الصلاة والسلام، فجميع الملل هي ملة واحدة كافرة.

ثم يبين الله تبارك وتعالى ما يقوله صلى الله عليه وسلم لهم ولغيرهم ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: أن الهدى الذي من الله عَزَّ وجل محصور في هذا الهدي. وهذا بيان قطعي، مجمل وحصري، بأن الهدى محصور في هدي الله تعالى، وكذلك أن هدي الله هو الهدى. وبالتالي فما سواه باطل. لأن ما بُعِث به صلى الله عليه وسلم نسخ الله تعالى به ما قبله مما أنزل تبارك وتعالى. وكذلك كل ما اخترعه البشر فهو ضلال. لأن الهدى انحصر فيما جاء من الله تعالى على نبيه ورسوله

---

(١) البخاري (٣/٨٠) برقم (٣٩٤١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١/١٦٨)

محمد صلى الله عليه وسلم. كما قال تعالى في سورة آل عمران ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾

والمتأمل في دلالة قوله عَزَّ وجل ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ يجد أنها قوة للمؤمن، إذ يتوقف بها عند كل ضلالة ليقول ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ ويتوقف ويحترز عند كل بدعة ليقول ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وليتوقف عند كل انحراف سلوكي ليقول ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وليقف عند كل هوى ليقول ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ وإذا أراد نصح غيره قال له ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ فتكون قاعدة ونوراً وسلاحاً يُذَكِّرُ بها المؤمن نفسه وغيره إذا ما الشيطان سول له، مع سؤال الله تعالى الهداية والثبات. ثم ليُذَكِّر بها غيره، ويحتج بها لكتاب الله تعالى ولسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في مواجهة كل ضلالة.

ثم يبين الله تعالى أن اليهود والنصارى أهل هوى. فقال عَزّ وجل ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فهذه الآية تثبت أنهم أصحاب هوى ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ وفيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم، فيما يختص بطرائقهم. والخطاب وإن كان للرسول صلى الله عليه وسلم، فإن أمته داخلة في ذلك. لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص الْمُخَاطب. كما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.(١) ويقول ابن كثير رحمه الله تعالى: فيه تهديد ووعيد شديد للأمة من اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من الكتاب والسنة. فإن الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، والأمر لأمته.(٢) فالمؤمنون أتباع لرسولهم صلى الله عليه وسلم.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٩١/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١٦٨/١)

وفي كون الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه يفيد عظمة النهي. بل يزداد تعظيماً بقوله تعالى ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فإن تابعتهم في أهوائهم بعد هذا الحق الذي جاءك من ربك ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ تحذير ووعيد شديد لجميع المسلمين في شخص النبي صلى الله عليه وسلم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يعني بذلك: ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به، ولا نصير ينصرك من الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبة[١]فإذا كان ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم، على جلالة قدره ورفعة منزلته صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن هم دونه. ففي هذا رفع لمقام وقوة التحذير والتهويل، ليكون تنبيهاً قوياً بأقوى الدلالات. وليكون ذلك التحذير أكثر أثراً على المؤمنين وغيرهم. وكقوله تعالى في سورة الزمر ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم فيما لو مال إليهم بعد هذا الحق، فلن يكون له ولي يواليه ويتولى أمره وشأنه، ولا ناصر ينصره وينجيه من العذاب. إذاً فكيف غيره صلى الله عليه وسلم. وهو أبعد ما يكون عن ذلك، ولكن لشدة تحذير الأمة، فإنه عندما يُخاطَبُ الكبير من تحمل المسؤولية بأمر أو نهي فإنه يفيد خطورة الأمر لمن دونه، وهو مُستبعد عليه ذلك، كما يقول عليه الصلاة والسلام (والذي نفس محمد بيده. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[٢] ليدل ويفيد قوة تمسكه صلى الله عليه وسلم بتطبيق دين الله تعالى، حتى وإن مست العقوبة التشريعية أقرب الناس إليه، وحاشاها أن تسرق رضي الله تعالى عنها.

ويقول الله تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ فالذين يقومون بحق الكتاب الذي أنزله الله تعالى حق القيام، سيؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، لما حصل عندهم من الإيمان بما فيه، ولما يجدونه عندهم فيه من مبعثه صلى الله عليه

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٨٥/٢)

(٢) البخاري (١٥٣/٣) برقم (٤٣٠٤)

وسلم، ونعته وصفته، والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، فيقودهم ذلك الحق للإيمان به[١] وهذا يفيد أن اتباع الحق يقود صاحبه للحق، وأما من كان قائده الهوى سيجره للأهواء. مما يترتب على هذا أهمية الحرص على معرفة الحق والتمسك به، والبعد عن الهوى وأصحابه، فهو يقود إلى البدع، والبدعة تجر إلى بدعة أخرى، حتى تتكاثر الضلالات، فيخرج عن منهج الحق إلى الضلالة. ونعوذ بالله من ذلك. وكذلك مثله الانحراف الأخلاقي، فإنه يجر المنحرف إلى لمزيد من الانحراف، شيئاً فشيئاً، حتى يصبح الانحراف هو السلوك الراجح والمحبوب عنده، وبالتالي يحب أن تشيع الفاحشة بين الناس وتكثر، لأنها جاءت على هواه المنحرف. وكذلك التمسك بالفضيلة، يؤدي إلى المزيد من الفضائل، كما قال صلى الله عليه وسلم (وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتَب عند الله صديقاً. ولا يزال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب، حتى يُكتب عند الله كذابا)[٢]

ثم بين الله تبارك وتعالى جزاء من يكفر به، فقال تعالى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فإن من ينكر رسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فيكفر بها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فهؤلاء هم الذين خسروا طاعة الله تعالى، وخسروا الدنيا، وخسروا الجنة، فدخلوا النار. وبالتالي فإنه لا دين حقيقي اليوم غير دين الله تعالى الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يعود تكرار الخطاب التذكيري والوعظي من الله تعالى لبني إسرائيل ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وقد سبق هذا التذكير لابني اسرائيل في صدر هذه السورة، بما أنعم الله تعالى عليهم، وكُررت هنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم، ونعته واسمه وأمره وأمته، فحذرهم من كتمان هذا،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١٦٩/١)

(٢) مسلم (٢٠١٣/٤) برقم (٢٦٠٧)

وكتمان ما أنعم به عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله تعالى من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم الحسد على مخالفتهم، وتكذيبه والحيد عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين.(١)

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام. وقد بين تبارك وتعالى في هذا السياق عموم النعم على بني اسرائيل، ومطالباً لهم بعموم الوفاء، حتى يوفي لهم الجزاء غير منقوص. وورد الخطاب بصيغة النداء ﴿ يَٰبَنِيٓ ﴾ والذي يحمل في دلالاته الدعوة لهم بالانتباه والإنصات لمن يناديهم

فقد افتتح الله تعالى توجيهه الكريم إلى بني إسرائيل بأحسن الألقاب وأطيبها ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ بما يفيد التذكير لهم بما ينتمون إليه، وهو يعقوب عليه الصلاة والسلام. وهي منزلة كريمة. وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي منهم هذا النداء الكريم الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

فقد نسبهم إلى نبيهم يعقوب عليه السلام، الذي هو إسرائيل ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ وهذا من لطفه تبارك وتعالى، إذ يخاطبهم بهذا التكريم. مذكراً لهم بما أنعم عليهم من النعم التي يعرفونها تماماً، على ما سيأتي بيانها في آيات قادمة بإذن الله تعالى ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ وهي تشمل جميع إنعامه سبحانه وتعالى عليهم، ومن ذلك نعمة التوراة المشتملة على صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وإنجائه سبحانه وتعالى لآبائهم وأجدادهم من فرعون وقومه، وأهلك عدوهم بالغرق، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعامهم المن والسلوى. ومن دقائق البيان أن أورد تبارك وتعالى هذا الإنعام بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱذۡكُرُواْ ﴾ والتي تفيد وجوب الشكر، لأن من لا يشكر لا

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١٦٩/١)

يذكر النعمة. كما أوردها بالتخصيص ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وفيها عظيم الامتنان ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ فقد خصصتكم بما تعرفون من عظيم الإنعام، الذي يستوجب اتباع الرسول الموصوف في التوراة صلى الله عليه وسلم.

ثم يخص سبحانه وتعالى نعمة التخصيص بالفضل، فيقول جَلَّ شأنه ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فقد فضلتكم على سائر الأمم في ذلك العهد بما خصهم من الإنعام، والإنجاء من فرعون، وبالرسالة.

وقد سبق هذا التذكير لابني اسرائيل في صدر هذه السورة، بما أنعم الله تعالى عليهم، وكُررت هنا للتأكيد. وهذا التكرار في القرآن الكريم يدل على أهمية التذكير، وأن في تكراره فوائد. ولعل من أبرزها إعادة إقامة الحجة، لما تحتاجه النفس البشرية من إعادة التذكير، فلربما يحصل عندها القبول للنصيحة. وأما التذكير للمطيع فللوقاية والمعالجة مما قد يحصل عنده من التفلت والضعف والنسيان، فمهما بلغ الإنسان تظل حاجته للتذكير مستمرة.

والتكرار في لقرآن الكريم يأتي بتكرار بعض التوجيه، مثل هذه الآية، ويأتي كذلك بذكر بيان إضافي غير مسبوق كما في قصص القرآن الكريم، وذلك ليتذكر قارئ القرآن المواقف ويربطها ببعضها، ويُضيف علماً على علم، وفي ذلك تنشيط للذهن بأسلوب لا يمل منه التالي والمستمع.

وبعد ما سبق من التذكير لهم بالإنعام المتنوع عليهم من فضله تبارك وتعالى، يتدرج البيان بما تلاه من الأمر لهم بالتقوى، فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ فاتقوا وخافوا الله ربكم، وأطيعوه. فيذكرهم بيوم القيامة ﴿يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ فأشار تبارك وتعالى إلى ما تميز به ذلك اليوم، من العواقب المغنية عن ذكرها، فلا يُقبل من أحد شفاعة لأحد. وهي النفوس الكافرة التي لم تترك لعظم ذنبها الكفري مجالا لعفو الله تعالى وقبول شفاعتهم. وفي هذا الأسلوب تعريض بشدة ذلك اليوم

الذي لا يغني ولا ينفع أحدٌ عن أحدٍ شيئاً إلا بعمله، فلا صديق ولا قريب ولا أقل ولا أكثر يستطيع أن ينتفع بعمل غيره. فكل بعمله إلا ما شاء الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى أمراً آخر في هذا اليوم ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي فداء ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ولا أحد يُقَدِّم لأحدٍ نصراً وعوناً. وهذا الجزاء يدل على كفر من لم يؤمن بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، حتى من أهل الأديان السماوية السابقة. وفيما يخص الشفاعة، فهناك تفصيل لها ولأنواعها في كتب العقيدة.

وقد جاء هذا التدرج إلى المحك الختامي لما بعد الدنيا، فعبر عن ذلك اليوم بمحتوياته الخاصة بعمل الفرد من الناس، الذي ينتفي فيه الانتصار والنصير بالغير، وفداء النفس بما يمكن، مما يوجب للعبد أمام هذا الموقف الخوف ومحاسبة النفس، ويتذكر أنه يجب عليه أن يقطع تعلقه واعتماده على أحد غير الله تعالى لينجيه ويدفع عنه هول ذلك اليوم، فلا قبيلة ولا نسب ولا حسب، ولا كونه من سلالة أحد من الصالحين، أو من سلالة نبي، أو غير ذلك، فليس أمام الفرد إلا قطع العلائق بكل أحد غير الله تعالى.

وهذا يفيد تربوياً ودعوياً، أهمية البدء بالنعم للتذكير بها، فإنها توجب للسوي من الناس الحياء من الْمُنْعِم المتفضل، ثم التذكير بما يُرَغِّب في الصلاح وقبول الحق والإخلاص، ثم التخويف ليكون ختام الأساليب.

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾

ينتقل السياق والبيان الكريم إلى شأن خليله ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فيُخبر الله تعالى بشيء عن أمره وشأنه فقال تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فقد ابتدأت الآية الكريمة بذكر ما يفيد أن الرسالة ابتلاء بمسؤولية أدائها، وهذا ابتلاء اللهُ تعالى لإبراهيمَ، أي ابتلاه واختبره بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، قال تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ وهي الشرائع والأوامر والنواهي، وللعلماء أقوال في دلالتها.(١) ويُستفاد من ذلك: أنه إذا كان النبي مبتلى بأداء الرسالة، فإن مَن أُرْسِلَ إليهم مُبْتَلَونَ بما هم مُطَاَلَبُون به من الإيمان والعبادة وعموم الشريعة، وبالتالي فإن كل مُكَلّفٍ بهذه الشريعة فهو مُبْتَلى ومُخْتَبر بها، هل يعمل بها أم يحيد عنها، حتى يُكافَأ ويجازى بما يستحق. وكل إنسان مبتلى، وعلى رأس أنواع الابتلاء أخذه لدين الله تعالى والاعتصام به أو تركه والحيدة عنه، ومن أمثلة التكليف: مسؤولية الأب بما ابتلاه الله تعالى بمن هم تحت ولايته من أبناء وزوجه وخدم، وغيرهم، وكذلك الأم، والحاكم مبتلى بالولاية، أيصدق فيها ويكون عليها أميناً، أم يخون ويجور ويضيع. فإن كان عادلاً، كان من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، كما ورد في الحديث(٢) وكل مُكلف هو كذلك (كلكم راع ومسؤول عن رعيته)(٣) حتى الإنسان في نفسه مكلف بتطبيق أوامر الله تعالى ونواهيه على نفسه. فكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام مُتِمٌ ومُوَفِّي بما كُلِّف به، كما قال تعالى عنه ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: فأداهن كاملة. ولأهمية منزلة الإتمام جاء الإخبار بها قبل بيان تفصيل التكليف الذي هو ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

ومن فوائد ذلك أن أوامر الله تعالى ابتلاء، ليعلم من يطيعه ومن يعصيه، مع قيام الحجة عليهم. وهم درجات متفاوتة في الطاعة والمعصية، وكذلك يصبح الجزاء والأجر متفاوت، بحسب ما

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢/٤٩٨-٥٠٢)

(٢) البخاري (١/٢١٩) برقم (٦٦٠)

(٣) البخاري (٢/٢٢٢) برقم (٢٥٥٨)

يكون منهم من الطاعة، حتى في عبور الصراط. وهذا يفيد أهمية لزوم الاجتهاد في إتمام تكاليف الله تعالى، وسؤاله العون والثبات.

وفي قوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أي يقتدون ويتأسون بك في الدين، الذي هو الهدى، أي هدى الله تعالى. وهي منزلة عظيمة كريمة. وكل ما كان الإنسان إماماً للناس في الخير زاد أجره بعدد من اقتدى به، لا ينقص من حسناتهم شيئاً، كما ورد في الحديث (من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء)[١] ولأهمية القدوة أرشدنا الله تعالى إليها، كقوله عَزَّ وجل عن صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ وهذا يتطلب من المؤمن أن يكون حريصاً على دينه وأخلاقه في التطبيق، ولا يغتر بالمتساهلين في بعض الأوامر والنواهي، وخاصة تقليد غير المسلمين فيما لا يجوز تقليدهم فيه.

ولمنزلة هذا المقام الشريف، وما فيه من الخير، فقد سأل إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام ربه هذا الفضل لذريته ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ بما يفيد حرص إبراهيم عليه الصلاة والسلام على مصلحة الدين ومصلحة ذريته. بأن تستمر الطاعة لله تعالى، ويستمر دينه، وأن تستمر القدوة والإمامة في ذريته عليه الصلاة والسلام. ويفيد هذا أهمية التأسي به عليه الصلاة والسلام، بأن يهتم المسلم بدينه، وباستمرار منهج الله تعالى، ليكون عالياً شامخاً، ويحرص كذلك على إصلاح ذريته حتى تكون أسوة وقدوة لغيرهم في الدين. وهذا يتطلب أن يكون المسلم في أقل الأحوال غير مقتدي بغير المسلمين فيما لا يجوز الاقتداء بهم، حتى لا يكون قدوة في الشر ونشره. وقد عَلَّمنا تبارك وتعالى ذلك في سورة الفرقان ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

---

(١) مسلم (٢/٧٠٤ – ٧٠٥) برقم (١٠١٧)

وأجاب الله تعالى خليله ونبيه إبراهيم على مطلبه بقوله عَزَّ وجل ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فبين له المانع فقط من تحقيق هذا المطلب، وفي بيان المانع بلاغة ورحمة في مراد الله تعالى، وبالتالي كل أحد متمسك بالدين يكون قدوة وأسوة لغيره. ما عدا الظالم لنفسه بالشر ولانحراف عن منهج الله تعالى، فهو الذي ينتفي حصوله على هذا المقام الرفيع، فإنه لا يكون للناس إماماً في الخير. فهذا هو الشرط. ويُستفاد من ذلك أهمية تعاهد الأبناء بالتربية على الْهُدَى، ليكونوا للمتقين إماماً، فَيُقتدى بهم في الدين والخير والسمت والسلوك والمنهج الصحيح، بإذن الله تعالى.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان بعض خصائص البيت العتيق، فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ فلقد جعل وصَيَّرَ اللهُ تعالى في هذا البيت الحرام خصائص ومقاصد دينية لعباده، فأولها أنه ﴿ مَثَابَةً ﴾ أي يثوبون إليه، قاصدين إليه، ليتحصلوا على منافعهم الدينية والدنيوية، ويرجعون إليه مرة بعد أخرى، لتحصيل هذه المنافع التي لا تنقطع. ففيه الحج والعمرة والطواف، وفيه منافع التجارة، التي كانت منها رحلة الشتاء ورحلة الصيف التجاريتين. وثاني هذه الخصائص ﴿ وَأَمْنًا ﴾ فيأمن فيه كل أحدٍ في أمر دينه ودنياه. ولذلك عَظَّمَهُ الناسُ حتى وهم في شرك، فكان أهل مكة يعظمونه ويحترمونه وهم في شركهم، حتى ليجد الرجل قاتل أبيه فلا يخيفه. وقد زاد تعظيماً ببعثته صلى الله عليه وسلم، مما يفيد أهمية تعظيم هذا لبيت، بقصده وزيارته للعبادة، وبتعظيم حرمته وإجلاله، وحفظ أمنه من كل ما يخل به، وتعظيمه من أن يعصي الله تعالى فيه، مهما صغرت المعصية في عين العاصي، لأن عظمته أرفع من ذلك. وثالث هذه الخصائص أن جعل الله مقام إبراهيم مصلى، فقال تعالى ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ والمقام هو موضع القدمين كما قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى، وهو المكان الذي يصلي عنده الطائفون ركعتي الطواف[١] وهذه الخصيصة تُفيد منزلة أبو الأنبياء وإمام الموحدين إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ربه تبارك وتعالى، ووفاء له ببنائه البيت وعمارته، والأذان بالحج للناس، والدعاء لمكة وأهلها.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٧٧)

ثم يبين الله تعالى أنه أوحى وأمر إبراهيم وابنه إسماعيل بعمل عظيم، فقال تعالى ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ والأمر بالتطهير جاءت عامة، مما يفيد: تطهيره من الرجس الحسي والمعنوي كالأصنام والنجاسات والأقذار والشرك والكفر والمعاصي، ليكون نظيفاً للطائفين والعاكفين والركع السجود. وهذه منزلة عظيمة لبيت الله الحرام، وللطائفين بالبيت وللعاكفين، ولمن أراد الصلاة به. وكذلك رفعة منزلة هذه العبادات التي أمر الله تعالى أن يُعتنى بالبيت لأجل أدائها. وقال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد الحرام.[١] ويفيد الأمر بتطهير المسجد الحرام للعبادات، أنه كذلك يلزم تطهير المساجد للمصلين والعاكفين من كل ما يؤذيهم ويشغلهم، أو يمنعهم من الصلاة والاعتكاف. لأن علة التطهير موجودة بعموم مساجد المسلمين. وفي هذا من الفوائد ثواب من قام عليها بذلك، لأنه ائتمار بما أمر اللهُ تعالى به إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام. وكذلك لما ورد من أحاديث تأمر بتطهيرها وتطيبها، وعناية النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

وورد امر لإبراهيم عليه الصلاة والسلام بدلالة العهد ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي: أمرنا وأوجبنا عليهما. فهو أمر واجب، وليلتزم به مَن بعدهم به. ومن دقائق البيان والتوجيه في قوله تعالى ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ أن الله تبارك وتعالى أضاف البيت إليه ﴿بَيْتِىَ﴾ فهذا تشريف وشرف عظيم للبيت الحرام بمكة. مما يفيد أن من تعظيم الله تعالى أن يُعظِم المؤمنُ ما عَظَّمَهُ اللهُ سبحانه وتعالى، فَيُعَظِم هذا البيت ويُجِلُّهُ إجلالاً يليق بهذه المكانة الرفيعة.

وقد ذكر تبارك وتعالى خصوصية العبادات في هذا البيت العتيق، والعناية والاهتمام بالمؤدين لهذه العبادة. ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ ثم ذكر جَلَّ جلاله العلة والسبب ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ القادمون للطواف بالكعبة، ثم تلاهم،

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٩٤/١)

الذين يريدون الاعتكاف في البيت العتيق، وثالثهم المؤدون للصلاة. وقد وصفهم هنا بصفتين للصلاة، وهما الركوع والسجود، لما فيهما من التذلل والانكسار لله تعالى، وتعظيم الرب جَلَّ جلاله.

ثم تبين هذه الآية الكريمة حرص أبينا إبراهيم عليه السلام على هذا البيت وأهله الساكنين بجوره ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ فهذا الطلب من إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدل على بُعد تفكيره واهتمامه وحرصه عليه الصلاة والسلام، إذ لم يفكر في نفسه فقط، بل تجاوز حرصه إلى أهل هذا البيت، ولكل من يقصده، بأن يكون آمناً من كل ما يُخاف منه، حتى تحصل الطمأنينة لمن فيه ولمن يزوره، وكذلك أن يرزق أهله من الثمرات، وقيد هذا الدعاء للمؤمنين.

فبدأ بسؤال الأمن والأمان ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ وقدمه على الرزق. لأن الأمن أعظم المطالب، ولأن الرزق لا يهنأ به صاحبه ما لم يكن في أمن وأمان. ثم تلاه طلب الرزق لهم ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ لأن الثمرات من أطايب الطعام، فسأل أحسن الأطعمة لأهلها. وربط ذلك بالطاعة له عَزَّ وجل ﴿ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ فحقق الإيمان بالله تعالى رباً، وصدق بيوم القيامة. وهما عماد الطاعة والامتثال، والبعد عن المعصية. فالإيمان بالله تعالى يُحقق الخوف من الله تعالى، ورجاء ما عنده بتوحيده والإخلاص له جَلَّ جلاله. والإيمان باليوم الآخر يحقق في النفس الانضباط، لأنه يعرف أن هناك حساب وجزاء.

وأما الذي يكفر منهم فقد قال الله تعالى فيه ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فكان رزق الله تعالى شاملاً للمؤمن والكافر والعاصي والطائع، لأنه أمهل في امتاع الكافر ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾ فالمسلم يستعين بالنعمة على طاعة الله فيدخل الجنة، وأما الكافر ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ﴾ أي: يُلجئه ويضطره إلى النار، فيسوقه إليها. ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وبئس ما سيؤول إليه من المصير الذي سيصير إليه، وهو

عذاب النار الذي سيؤول إليه الكافر. مما يبين التحذير من الكفر، فإن الامتاع فيه إلى حين، ثم يأتي العذاب.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ
إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾
إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ
يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ
حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ
ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ
خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

ثم ينتقل السياق القرآني إلى شأن بناء البيت، والدعاء والالتجاء إلى الله تعالى من إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلامن. فقال عَزَّ وجل عنهما ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ واذكروا حين رفع إبراهيم وابنه إسماعيل أسس بناء الكعبة، وهما يدعيان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يعملان ويدعيان في تذلل لربهم أن يتقبل منهما هذا الجهد في البناء. ممجدين لله تعالى، قائلين ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إنك أنت لا غيرك يا الله الذي يسمع كل شيء، ويعلم بكل شيء، فلا يفوته شيء. بما يفيد شمول كمال السمع والعلم لربنا تبارك وتعالى، بحيث لا تخفى على الله عَزَّ وجل خافية.

وسواء ما كان، أو ما سيكون. فهو يسمع كلام عباده، وكلام كل متكلم، وحركة كل متحرك، ويعلم ما هو منهم، بما يؤكد إحصاء ذلك وإثباته.

وقد وردت الصفتان لله تعالى ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بأكمل وجه، وأتم بيان، بل جاءت بصفة العموم الدالة على الشمول، فهو سميع لكل شيء، وعليم بكل شيء. بل وحصرت وقصرت كمال السمع والعلم عليه سبحانه وتعالى، فلا يشاركه أحد في كمال السمع والعلم. فإن الله تعالى يسمع ويعلم ما قيل، وما يُقال، ويعلم ما توسوس به النفس، مما يدل على قوة إيمانهم، وقوة رجائهم في أن يتقبل الله تعالى منهم جهدهم. وفي هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه مطلع عليه، وعلى ما يكون منه، وما يكون من غيره معه، فعليه أن يستعين بربه الذي يسمع ويعلم حاله، ومناجاته، وما يكون منه، وما يكون من غيره معه، أو عليه. مما يجعل المؤمن في ثقة بالله تعالى.

كما تضمن هذا التمجيد: قصر كمال السمع والعلم على الله سبحانه وتعالى، فقصروا اسم السميع والعليم، وما تحملاه من الوصف عليه وحده لا شريك له ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ إنك أنت يا ربنا، لا غيرك السميع العليم. بل كرروا الحصر بالتأكيد، الأول ﴿ ﴿إِنَّكَ﴾ ﴾ ثم التعقيب عليه بقولهم ﴿أَنتَ﴾ المتصف بكمال السمع لكل شي، والعلم بكل شيء، فلا يشاركك فيه أحد من الخلق. مما يعلم المؤمن كيف يتأدب مع ربه في الخطاب والسؤال والدعاء، فيمجد ربه عَزَّ وجل بما هو له من الأسماء الحسنى والصفات العليا.

وإذا علم وأيقن الإنسان أن الله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ جعل منه ذلك العلم العظيم، شخصاً ملتجئاً إلى الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، مثل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، لأنه مُوقن بأن الله تعالى يعلم أمره وشأنه، وأنه به عليم خبير، فيفوض أمره إلى الله تبارك وتعالى. كما يعينه هذا العلم والفهم على استحضار مراقبة الله تعالى له ولغيره في جميع تصرفاته وأحواله، وأن الله تعالى يراه على كل حال يكون عليه، مما يدفعه ذلك إلى الاجتهاد في السير على الجادة، خوفاً من معاقبة الله تعالى له إن حاد عن الطريق. وكذلك هو به عليم بما يعمل من الصالحات والطاعات. فهو موقن أن الله تعالى يعلمه، وسيجزيه أجر ما صنع من الخير، فلا يحتقر معروفاً يقوم به، ولا يستخف بمعصية يمكنه القيام بها. فإنه عِلمٌ يربي في المؤمن الاستقامة، ويقوده للخير، ويمنعه عن الشر.

ومن دقائق البيان أن السياق ورد بالفعل المضارع المستمر في رفع إبراهيم القواع من البيت وإسماعيل. فقال الله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ لشد الانتباه والسمع نحو استحضار شأنهما في رفع البيت وكأنه حاضر أما مهم. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: فإنه لحبهم لإبراهيم وإجلالهم إياه لا يزالون يذكرون مناقبه، وأعظمها بناء الكعبة، فشبه الماضي لذلك الحال. مما يُوجب امتلاء أذهان السامعين بإبراهيم وشؤونه، حتى كأنه حاضر بنهم(١) وأورد الله تعالى الرفع للقواعد بما يفيد الظهور والارتفاع بها من بطن الأرض إلى العلو، لبيان قوة البناء وشدته، وارتفاعه وعلوه. ووردت القواعد بصيغة الجمع، لإفادة تعددها وأسماه الله تعالى البيت ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ ليفيد أنه مألوه بالدخول والخروج، وما فيه من السكينة والأمن والراحة لمن دخله. فهو بيت الله الحرام.

ففي الآية الكريمة بيان لحالة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان أساس الكعبة المشرفة، وهما يلهجان بالدعاء، أن يتقبل الله تعالى منهما هذه الطاعة، مما يبين أن الإنسان المؤمن يلزمه اللَّهجُ بالدعاء أن يتقبل الله تعالى منه عبادته، وجميع أنواع طاعته، لا أن يرى من نفسه أنه قد أتمها بكمالها وتمامها، وأنها قد قُبِلَت. فلا يدري عن خاتمة أداء عمله. يقول العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى: فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما. ويحكي أن وهيب بن الورد أنه قرأ هذه الآية، ثم بكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يُتَقَبَّلَ منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخُلّص في قوله تعالى من سورة المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي يُعطون ما أَعْطَوا من الصدقات والنفقات والقرابات وقلوبهم خائفة أن لا يتقبل منهم.(٢) فالخوف من التقصير هو حال المؤمن، لأنه يرى أنه لم يوف حق ربه عليه.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٧٤/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١٨١/١)

ثم يقول إبراهيم وإسماعيل ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أي صيرنا مسلمين مستسلمين، ومنقادين، وخاضعين مطيعين لك، فيطلبان من الله تعالى التثبيت والدوام على الإيمان والأعمال الصالحة. ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ ﴾ ومن فوائد ذلك أن المؤمن يسأل الله تعالى التثبيت، ولا يغتر بالطاعة، بل يدعوا بالقبول عند الطاعة، ويسأل الله تعالى أن يثبته على الحق ولا يزق عنه. كما كان يدعوا إبراهيم وكذلك نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام، إذ يقول (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[١] [٢] بل ويتجاوز دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى الدعاء لذريتهم ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ ﴾ وهذا يعطينا القدوة في الدعاء للذرية، وأن يشارك الولد أباه في عمل الخير، كما شارك إسماعيل أباه، فيأخذ عنه ويقتدي ويتأسى بأبيه. ويستمر الدعاء ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فيطلبان من الله تعالى أن يريهما ويعلمهما مناسك الحج ومعالمها، وقيل جميع العبادات المطلوبة، فالناسك هو العابد، والمناسك الْمُتعبَّدَات[٣] ولأن الله تعالى أمره أن ينادي بالحج، كما في سورة الحج ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ ﴾ فيُرَجَّح أنه الحج، ولا يمنع شموليته للحج وغيره.

ثم يتوسلان الله تعالى بأسمائه وصفاته أن يتوب عليهم ﴿ وَتُبۡ عَلَيۡنَآ ﴾ والتوبة هي: الندم على ما فات من الذنب أو التقصير في الطاعة، والأسف على ذلك، والعزم على أن لا يعود إليه، وطلب المغفرة والصفح من كل ما يكرهه الله تعالى من الأعمال والأقوال والاعتقادات الباطلة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فإن قال قائل: وهل كانت لهما ذنوب، فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟ قيل: لا أحد من خلق الله تعالى إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة

(١) الترمذي (٥/٥٠٣) برقم (٣٥٢٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٨٧) ملخص

(٣) المرجع السابق (٢/٨٧)

منه، والتوبة[١] والأنبياء مع حرصهم يرون أنهم مقصرون في طاعة ربهم، فيطلبون المغفرة من الله عَزَّ وجل.

ثم يقرران بأسلوب التوسل مع التأكيد والالتجاء إلى الله سبحانه، بأنه عَزَّ وجل أهل التوبة والرحمة بعباده. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ مما يبين أهمية التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته، ولا يتوسل بغير الله من المخلوقين. وبالرغم من أنهما في عمل تعبدي وطاعة، إلا أنهما يسألان الله تعالى التوبة، لأن الإنسان مهما عمل، فإن عمله يعتريه التقصير. وإذا كان هذا شأن خليله الذي اصطفاه ومعه ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وهما يطلبان التوبة، فكيف بغيرهم. مما يفيد ألا يغتر الإنسان بعبادته، بل يدعو الله عَزَّ وجل أن يتقبل منه ويغفر له تقصيره.

ويستمر الدعاء ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ ويبين هذا الدعاء حرص أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن يُرسل الله عَزَّ وجل فيهم رسولاً من ذريته. وقد قال العلماء عن قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ ﴾ وقد استجاب الله دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فبعث الله تعالى فيهم نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، من ذرية إسماعيل بن إبراهيم، كما قال عليه الصلاة والسلام (أنا دعوة أبي إبراهيم، وكان آخر من بَشَّرَ بي عيسى ابن مريم)[٢] واشتمل الدعاء على بيان مهمة الرسول ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ فأولاً: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ ﴾ يقرأ عليهم كتابك الذي توحيه إليه، وهو القرآن. والثاني: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ وهو تعليمه لهم القرآن الكريم، فَهْمَاً وتطبيقاً، لأن التعليم يكون بالتفهيم والتطبيق. والثالث: ويعلمهم ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وهي السنة، والمعرفة بالدين، والتفقه فيه. والرابع

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٧٢/٢)

(٢) أحمد (٥٩٥٩/٣٦ _ ٥٩٦) برقم (٢٢٢٦١) والسلسلة الصحيحة للألباني (١٥٤٦)

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ والتزكية هي التنمية والزيادة، فينقلهم مما هم فيه إلى الرُّقي بهم في الطاعة والامتثال، حتى تزكوا نفوسهم بالعقيدة الصحيحة، والعبادة وفق ما شرع سبحانه وتعالى، وترتقي أخلاقهم. وهذا يبين مهمة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وأن مهام تعليم الدين تنضوي على تَعَلُّم القرآن الكريم تلاوة وفهماً وتطبيقاً، وكذا تَعَلُّم السنة النبوية، بفهمها وتطبيقها والعمل بهما، وكذا التربية المقتضية لعملية التزكية والتطهير بالطاعة والإخلاص لله تعالى، والتي هي التطبيق والتنشئة على كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وتطهير النفس من كل ما يضاد منهج الله تعالى ومراده.

ويمكن استخلاص أسس التعليم بأنها قائمة على: الممارسة والإيضاح والبيان اللفظي لعملية التعلم وكذلك ما يقتضيه التعليم من الفهم وتنمية القدرة على الاستنباط والاستنتاج، وهو الاجتهاد للوصول للحكم بعد تَعَلُّم جميع أدواته الْمُوصِلَةُ له. وكذلك ما يتعلق بتقوية الإرادة وتنشيطها وتحفيزها للعمل والتطبيق، وليتطهر بها العقل والعمل والسلوك من كل شائبة وعائق.

ثم تنتهي الآية الكريمة بتمجيد الله تعالى من إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ والعزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع عليه شيء، فكل شيء طواعية له. وما شاء كان بلا ممانع، لأنه القاهر لكل شيء. حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.(١) والعزة تتضمن القوة الكاملة، والقدرة القاهرة، فهو غالب على أمره سبحانه وتعالى. والحكيم: الْمُحْكِم للأشياء. قاله الخطابي(٢) والحكمة تتضمن وضع الشيء موضعه، فهو حكيم في شرعه وأمره سبحانه وتعالى. وهذا يتطلب من المؤمن تعظيم الله تعالى عند الدعاء والطلب، واستشعار هذه المعاني من صفاته جَلَّ جَلاله، لأنها تبعث في النفس التوقير، والخوف، والامتثال، والاهتداء، الذي يحقق الطاعة لله تعالى.

ثم يقول الله تعالى ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ فما يرغب عن ملة إبراهيم إلا من امتهن نفسه وجهلها ورضي لها بالذلة، فغبن نفسه. ويُقال: رغب في الشيء إذا أراده. ورغب عنه إذا تركه. وبالتالي فإن من يرغب عن دين الله تعالى وشريعته بعد معرفتها، ثم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٢٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/٥٠)

يستعيض عنها بغيرها، فإن حاله هو حال السفيه الجاهل الذي يرى النور والخير ويتركه، ثم يستعيض عنه بما هو دونه، وإنها لمن أرذل الصفاة المتعلقة بالعقل الذي يسلك به العاقل خلاف الحق الواضح أمامه، والذي لا لبس فيه.

وفي دلالة جملة ﴿ **إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ** ﴾ ما يفيد أن الإنسان قد يؤذي نفسه بنفسه، فيكون سبباً في تحقيرها وإذلالها وامتهانها، وسبباً في هدرها، وكذا سبباً في إضعافها، وإبعادها عن الحق والخير، لأن السفه عدم التحرز من الشر بالدخول فيه، وترك الخير واجتنابه، وهذا يبين أيضاً تحمل الإنسان مسؤولية نفسه، لأنه هو المسؤول عن نفسه. وبالمقابل هو الذي يرتقي بها بتوفيق الله تعالى نحو الخير والصلاح، وينمي قدراته، ويصبر عن المعصية، ويصبر على الطاعة وعلى المشاق، ويسعى للتغلب على ما يواجهه من الموانع عن الخير والصلاح ودروبها.

ثم يبين الله تعالى منزلة هذا النبي الكريم في الدنيا والآخرة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ **وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ فلقد اختاره الله تعالى من بين خلقه، ووفقه لما يحبه ويرضاه، وأما في الآخرة فهو من الصالحين، والصالح هو الفائز بعظيم ثواب الله تعالى.

وتفيد دلالة ﴿ **ٱصْطَفَيْنَٰهُ** ﴾ على الاختيار من بين غيره، وتدل على محبة الله تعالى لمن اصطفاه، وتدل على عنايته الخاصة به، وتُوجِب من بقية العباد توقير من اصطفاه الله تعالى عليهم، ومحبته، وتصديقه. وفيها تزكية لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في كل شأن وأمر، في عقله وخِلْقَتِهِ وأخلاقه ونبوته، وما يلتحق بها. وأما في قوله تعالى ﴿ **وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ ما يثبت منزلة ومكانة خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأنه من الفائزين بعظيم الثواب والمنزلة من الله تعالى. مما يُعَلِّم المؤمن إذا وفقه الله تعالى في أمر فعليه أن يحمد ويشكر ربه، ممتثلاً بالطاعة والتواضع.

ثم يبين الله تعالى سرعة تجاوب إبراهيم لأوامر الله تعالى ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ فامتثل أمر الله تعالى مباشرة. وهذا السياق للآية الكريمة يفيد أن

الأمر من الله تعالى كان بكلمة واحدة ﴿ أَسْلِمْ ﴾ لتفيد هذه اللفظة الواحدة معاني ودلالات كثيرة: ففيها: أسلم لله بالطاعة والانقياد والتطبيق والإنابة والتوحيد والعبادة. فاستوعبت كلمة واحدة لجملة من الدلالات المقتضية للمعاني المرادة من إبراهيم عليه السلام، وهذا من الإعجاز البلاغي البياني المبين في القرآن العظيم. وكذلك بينت الآية الكريمة تجاوب إبراهيم واستجابته لربه في كلمة واحدة ﴿ أَسْلَمْتُ ﴾ دون تردد، وقد شملت وحملت كل معاني القبول والطاعة والامتثال بلا تردد، حتى عندما أُمر بقتل ابنه، لم يتردد أو يتأول أو يفكر، بل باشر عملية الذبح، غير أن الله الكريم الرحمن فداه بالذبح العظيم. مما يعطي القدوة والنموذج للمطيع لربه، ليكون المسلم كذلك مع أوامر الله تعالى ونواهيه. فلا يتردد في طاعة الله أو يخضعها للهوى.

وفي قوله ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يمثل التوحيد الخالص، فلم يُسلم لغيره، أو ليُشرك معه غيره، بل لرب العالمين، ليتحقق فيها توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية. ففي قوله ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تحقيق توحيد الربوبية، بأن الله رب كل شيء ومليكه، وتوحيد الألوهية في قوله ﴿ أَسْلَمْتُ ﴾ وتحديد وتعيين استسلامه بقوله ﴿ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ما يفيد القصر والحصر للعبودية بأنها لله رب العالمين فقط. فحصر وقصر خوفه وخشيته ومحبته ورجاءه وطاعته وحياته ومماته وإيمانه وعبوديته كلها لله تعالى، فلا يصرف شيئاً من العبادة لغيره سبحانه وتعالى، لأن اسلامه كان لله وحده، كما بينته الآية الكريمة. وبالتالي فإن دلالة ﴿ أَسْلَمْتُ ﴾ استوعبت جميع ما يجب أن يكون من العبد لربه سبحانه وتعالى، فلم تترك شيئاً البتة، وهذا كذلك من البلاغة الإعجازية للقرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه، التي استوعبت مراد الله تعالى كما يريد ويحب عَزَّ وجل، فلم تضق به آية أو عظة وموعظة.

ويستمر حرص إبراهيم على ذريته وعلى استمرا دين الله تعالى، إذ يبين الله تعالى حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع ذريته، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فقد أوصى ووجه إبراهيم

عليه الصلاة والسلام بنيه، وكذلك يعقوب قائلاً لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ إن الله تعالى خصكم، فاصطفاكم بهذا الدين الحنيف، للقيام به، والدعوة إليه، والتي تفيد عظيم الإنعام بالتخصيص، والذي يجب أن تقابلوه بالتمسك به ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فلا تغادرون الدنيا إلا وأنتم على دين الله تعالى.

واستجاب الله تعالى دعاءه عليه الصلاة والسلام، فأخذ بهذا المنهج أبناؤه عليه وعليهم الصلاة والسلام، حتى أن حفيده يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام يوصي بنيه بمثل ما وصى به إبراهيم، قال تعالى ﴿وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ويفيد هذا الأسلوب التوجيهي، إظهار وإعلان نعمة اصطفاء الله تعالى واختياره لهم، للقيام بهذا الدين، ومذكراً لهم بالموت الذي يستثير ويستجيش القلب نحو التمسك بهذا الدين. ولكن كان تذكيره لهم بأسلوب التنبيه للخاتمة التي يطويها الموت، لتكون أكثر وأقوى تأثيراً، ويكون موتهم وخاتمتهم على الإسلام.

ثم تتوالى الوصية كما قال تعالى عن يعقوب عليه السلام ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ يذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن الخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون لإبراهيم ما لم يوص به بنيه، وأنهم على اليهودية والنصرانية. فرد الله تعالى عليهم قولهم، مكذباً لهم، وقال لهم على سبيل التوبيخ، أشهدتم يعقوب؟ وعَلِمْتُم بما أوصى، فَتَدَّعُونَ عن علم؟ أي لم تشهدوا، بل أنتم تفترون. و﴿أَمْ﴾ بمعنى بل. و ﴿شُهَدَآءَ﴾ جمع شاهد. أي حاضر. ومعنى ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي مقدماته

وأسبابه.(١) فلم تكونوا شاهدين. فكيف تفترون الكذب عليهم؟ إذ أجابوه بنوه بما قرت به عينه، أنهم على التوحيد الخالص الذي لا شرك فيه.

وقال بنوه لأبيهم يعقوب عليهم السلام بما أخبر الله تعالى عنهم ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والاستسلام لكل ما جاء عن الله تعالى: إيماناً وعبادة وأخلاقاً. فكانت إجابة جامعة لكل خير، ومانعة لكل احتمال مضاد. مما يفيد الحرص التربوي على هذا الدين واستمراره، وصلاح الذرية، بتمسكها بدين الله تعالى، حتى في آخر لحظات الحياة، وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كذلك، يوصي في آخر حياته بالصلاة وما ملكة أيمانكم، وينظر لأصحابه يصلون خلف أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهم أجمعين، لتقر عينه بهم صلى الله عليه وسلم.

ويفيد هذا ويبين أهمية عناية الوالد والعالم والداعية بأمر الإسلام، وخاصة في ذريته الذين هم تحت مسؤوليته، فيحمل همهم، وَهَمَّ هذا الدين. ومن الفوائد كذلك افتراء المفترين من اليهود والنصارى حتى على من سبقهم من الأنبياء، ومن الفوائد الأسلوب التقريري في الآية بكذبهم، وبدليل أنهم لم يحضروا وصية يعقوب عليه السلام لبنيه، فيفترون عليه باليهودية والنصرانية.

ثم بين الله تعالى أن أبناءه أجابوه بما اتفقت عليه الرُسل، وهو توحيد الله تعالى بالإسلام.

ثم يختم الله تعالى ذلك بقوله ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ تلك أمة قد انتهت وتولت، فلهم أعمالهم التي قدموها. وأنتم لكم أعمالكم التي تكتسبونها اليوم في الدنيا، فنجازيكم عليها بما تستحقون. ولستم مكلفين بما كان منهم من أعمال، فلن يسألكم الله تعالى عنهم.

فيبين الله تعالى بأن كلاً له عمله. ولن تُسألون عن أعمالهم. فالواجب إذاً أن تنظروا في أمركم وما أنتم عليه، وما أنتم مكتسبون. مما يفيد: أن المعاند يُوَضَّح ويُبَيّن له الحق والطريق والحقيقة،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/٢)

والرد على مزاعمه، فإن قبل وإلا فعليه ما اكتسب، وليس لأحد هداية التوفيق لأحد، بل يكفي في حقه هداية الدلالة على الخير والصواب.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٦ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ١٣٩ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٠ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤١﴾

ويعود السياق في الآية الكريمة لأهل الكتاب. فقال عزَّ وجل ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ توضح وتبين هذه الآية العظيمة استكبار اليهود والنصارى، ورفضهم الحق بعدما تبين لهم، بل ويتمادى بهم الأمر إلى دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين إلى اليهودية من قِبَل اليهود، وإلى النصرانية من قِبَل النصارى. وهذا يفيد أن أهل الباطل قد لا يستجيبون للحق الواضح، وقد يَدْعُون ويطلبون من أهل الحق أن يتبعوهم في باطلهم، وهم يعلمون بباطلهم، ويَدَّعون أنه هو الهدى ﴿وَقَالُواْ

﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ فحصروا الهدى فيما هم فيه من الكفر بما أُنْزِل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وهنا يأتي أهمية الإعلان بالحق وحقيقته، فيقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مما يدل على أن هذا الدين هو امتداد لدين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وأن دين الله تعالى هو الاستقامة والتوحيد الخالص ﴿حَنِيفًا﴾ وليس الشرك والبدعة. مما يفيد أن البدعة والشرك تخرج بالدين عن الملة، وأن المشرك يخرج عن الإسلام بشركه المنافي لجوهر التوحيد. وفي قوله تعالى ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ قل لهم بل نسير على ملة أبينا إبراهيم. بما يفيد الثبات أمام الباطل. وقد اشتملت الآية الكريمة على إثبات الملة الصحيحة ونفي الشرك، فكان مطلعها حرف ﴿بَلْ﴾ الذي ينفي طلبهم، ويبطله، ويثبت ما بعده ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إننا فقط على ملة التوحيد ﴿حَنِيفًا﴾ أي: موحداً الله سبحانه وتعالى، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يكن من أهل الشرك. ليبين لهم أن الشرك منقصة ومذمة للمشرك، لأنه خلاف للحق، وخلاف لمراد الله سبحانه وتعالى.

ثم يبين الله تعالى المزيد من القول الواضح لهم ولغيرهم ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فإن مُنطلق هذا الدين هو الإيمان بالله ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فقولوا بتوحيد الله تعالى، وحده لا شريك له، فنزهوه عن الشريك والولد. والمنطلق الثاني ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: وتؤمنون بما أُنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن والسنة. لقوله تعالى كما في سورة النساء ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ والمنطلق الثالث: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وهو الإيمان بالرُسُل وما أُنْزِل عليهم، وهي الكتب. والمنطلق الرابع: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ لا نفرق بينهم، فنؤمن بهم جميعاً. والمنطلق الخامس: ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ وأننا إلى الله مستسلمون منقادون لما أنزل الله تبارك وتعالى. مما يفيد أن هذا الدين هو امتداد لما جاء به الرُسُلُ من قبل، فيؤمن المسلم بالله تعالى وبما نزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أنزل على النبيين من ربهم، من قبل، والانقياد والاستسلام لله وحده لا شريك له.

وهذا يفيد وضوح الإسلام، وأنه مُصَدِّقٌ لما أنزل الله تعالى من قبل، وأنه امتداد لما جاء به الأنبياء عن الله تعالى، وأن دين الإسلام يوقر ويحترم جميع الرسل، ولا ينتقص منهم. وأن ذلك من صُلب الإيمان. ومن انتقص من أحدهم فقد نقض إيمانه.

ثم يتبين الله تعالى الشرط الذي يُحْكَمُ به عليهم ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ فإن اتفقوا معكم على ما أنتم عليه من الإيمان فقد حَصَّلُوا الهداية إلى الطريق المستقيم. وهذا يفيد أن الهداية منحصرة في هذا الدين الإسلامي القويم. كما يُفيد أن ليس هناك هدىً خلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين. وهذا يفيد بطلان كل دين غير ما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فإن لم يؤمنوا بما أنتم عليه، فإنهم باقون في نزاعهم ومخالفتهم وجدالهم ومعاداتهم وكفرهم. فقال الله تعالى ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ﴾ فإن لم يوافوكم فيما أنتم عليه من الإيمان فإنهم في تعارض معكم، ومشاقة واختلاف وجدال.

وهذا يفيد أن في توليهم حصول الشقاق وتحققه، وأن في توليهم عن هذا الدين جدالاً ومعاندة ومعاداة. ولكن الله تعالى بين لرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، أنه سيكفيهم شر هؤلاء المعاندين، فإنه عَزَّ وجل يسمعهم ويسمع كل شيء، ويعلمهم ويعلم كل شيء ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فإن تولوا عن الحق الذي أُرسِلت

به، فإنهم في خلاف واختلاف معكم، فسيكفيكهم اللهُ تعالى شقاقهم واختلافهم عليكم ومخالفتهم لكم. فإنه تبارك وتعالى يسمع ويعلم ما أنتم وما هم عليه. فأنجز الله تعالى وعده لرسوله صلى الله عليه وسلم، حيث قُتل من قُتِل منهم، وأُجلي بني النضير.

وهذا يفيد أهمية معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، ومنها ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي يُوجب للمسلم الخوف والحياء من الله تعالى الذي يسمع ويعلم حال كل أحدٍ من خلقه، وهذا يُعَلِّمَ المسلم أن لا يرجوا ولا يستعين ولا يستنصر ولا يتوكل إلا على الذي يسمعه ويعلم حاله في كل حين ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

فإن ربكم فقط هو الذي أحاط بكل شيء سمعاً وعلماً. فأخبر سبحانه وتعالى عن ذاته الكريمة في شأن إحاطته بكل شيء ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فإن الله تعالى هو لا غيره ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾. الذي يسمع كل شيء، وكل صوت من مخلوقاته، ومنها أقوال عباده، وما يكون بينهم، وما يتَخَفَّون به عن غيرهم، وما يتناجون ويتخافتون به، وما يناجي به المؤمن ربه، أو يخافت به غيره. وهي من صيغ المبالغة، التي تفيد دقة سمعه وسعته لكل شيء في وقت واحد، فلا تختلط عليه الأصوات سبحانه وتعالى،

وكذلك هو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء، وهي من صيغ المبالغة، التي تفيد دقة علمه وسعته، فهو الذي لا يغيب عنه شيء أبداً. فإن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون، وما سيكون قبل أن يكون. وما قيل، وما يُقال، وما سيقال قبل أن يُقال. ويعلم ما توسوس به النفس، وما يدور في خلجاتها. وفي هذا تعزيز لثقة المؤمن بربه تبارك وتعالى، بأنه مُطَّلِع عليه، وعلى ما يكون منه، وما يكون من غيره معه، فعليه أن يستعين بربه الذي يسمع ويعلم حاله، ومناجاته، وما يكون منه، وما يكون من غيره معه، أو عليه. مما يجعل المؤمن في ثقة بأن الله تعالى يصرف الشر ويجلب الخير. وأنه على كل شيء قدير، وأنه يسخر ما يمتنع عن المؤمن من الخير، ويكتب له ثواب جهده وجهاده لنفسه. وكذلك تشمل دلالة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الترهيب لغير المؤمنين،

بأن ربكم يعلم ما أنتم عليه من كل وجه وحال، ومن النوايا، والأعمال، والأقوال، فلا يخفى عليه منكم خافية.

وأفاد السياق الكريم قوة التأكيد بأن الله تعالى هو السميع العليم لا غيره، وأنه هو المخصوص بذلك، فلا يشاركه فيه غيره. فبدأ البيان باسم الإشارة ﴿ وَهُوَ ﴾ لقصر وتوكيد ما بعدها من الإخبار والإعلام، ولإفادة القصر والحصر على كمال السمع والعلم. الذي أحاط بكل شيء علماً بالسمع والبصر، وما يتبع ذلك من القدرة وكمال المشيئة. فأفادت دلالة ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ قصر كمال السمع وكمال العلم له عَزَّ في علاه، وليس لغيره من المخلوقات إلا ما خصها به من المحدودية السمع والعلم، وبقية الحواس، فهو المتفرد بذلك. فكيف يذهل المخلوق عن هذا؟ أفلا يخاف ويهاب ربه، وهو الذي يعرف منه كل شيء. مما يفيد جهل من يتخفى بالمعاصي، وجهل من عبد غير الله تعالى. وفي هذا كمال الإنذار للعباد من معرفة علم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علما ومعرفة وقدرة. وكذلك فيه ترغيب للمؤمنين بأن ربكم يسمع منكم ما تدعون وتطلبون وتقولون من الطاعة، ويعلم ويبصر أحوالكم، فلن يضيع مما تعملون شيئاً من الخير والطاعة. وسيجزيكم به خير الجزاء.

ثم يصف الله تعالى دينه بالحُسْن، وأنه لا أحسن منه ديناً ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ أي: دين الله. فالصبغة بمعنى الدين. مثل ﴿ مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ وعن أبي العالية رحمه الله تعالى، قال: دين الله(١) فمطلع هذه الآية هو ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ وهو تعريف وتقرير بأن هذا هو دين الله تبارك وتعالى، ثم سؤال تعجيزي تقريري، يوجب التصديق والإيمان ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ فهل هناك دين أحسن من هذا الدين، توحيداً وعبادة وتيسيراً وأخلاقاً. فبه تتحقق السعادة في الآخرة بدخول الجنة، والسعادة في الدنيا من جميع شؤونها: الاجتماعية والأسرية والمهنية بتطبيقه، وكذا سعادة الفرد بما يغرسه فيه من خصال لا يمكن أن تكون

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٠٤/٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩٣/٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٥/١)

إلا بهذا الدين، والذي يتأكد للمتمعن فيه أنه دين الله تعالى، الذي يجب أن يصدقه ويؤمن به، ليهديه إلى سعادة الآخرة التي هي مطمع كل مؤمن بها.

ثم إن البيان القرآني جاء بصيغة سؤال استفهامي تقريري ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ ليقررهم بأنه ليس هناك دين خير منه. فهاتوه وبينوه وقارنوه، لتثبتوا أن غيره أحسن منه. فإذا كان واقعه غير موجود، وهي الحقيقة، فليس أمامكم إلا اتباع ما أنزل الله تعالى على الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم يتقرر في ختام الآية الكريمة أن النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين عابدون بهذا الدين لله تعالى ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ فقرروا لهم أننا على هذا الدين ثابتون، ولا نحيد عنه، ولا تطمعوا أن نتركه أبداً. وفي هذا تقرير نتيجة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ بأنه ليس هناك أحسن من هذا الدين. ويفهم من ذلك أننا متمسكون بهذا الدين، وأما ما يخصكم أنتم، فأنتم وشأنكم، فمن أراد هذا الدين فله ذلك، ومن امتنع فقد قامت عليه الحجة.

ثم يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل لليهود والنصارى ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أتجادلوننا في دين الله تعالى، بأنكم أولى مِنَّا به، وذلك بِدَعْوَاهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وكذلك لِقِدَمِ آبائهم وكتبهم. أفتجادلوننا وربنا وربكم واحد؟ وكل مجازى بعمله، فأي تأثير لقدم الدين. ونحن نخلص له العبادة، وبالتالي لن يكون هناك تقرب إلى الله تعالى بأحد من خلقه إلا بطاعته وإخلاصه لله تعالى.

والمتأمل في سياق الكثير من آيات القرآن الكريم يجد أنها تقرع الكافر بالحقيقة نحو الحقيقة، وذلك بأسلوب الحجج البالغة، ومناقشتها وتقرير الصواب، بما لا يدع مجالاً للشك والريبة للبيب، إلا من كان في قلبه عناد وكبر. في هذه الآية الكريمة: يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لأهل الكتاب أتجادلوننا ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في دين الله تعالى، بأنكم أولى مِنَّا به، وذلك بِدَعْوَاهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وكذلك لِقِدَمِ آبائهم وكتبهم. أفتجادلوننا وربنا وربكم واحد؟ وكل مجازى بعمله،

فأي تأثير لقدم الدين. ونحن نخلص له العبادة، وبالتالي لن يكون هناك تقرب إلى الله تعالى بأحد من خلقه إلا بطاعته وإخلاصه لله تعالى ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ فهو ربنا كما هو ربكم، فليس لأحد أي نوع من التميز إلا بطاعته سبحانه وتعالى. وهذا يفيد أهمية الإخلاص لله تعالى، وتجريد العمل التعبدي من كل ما ينحرف به لغير الإخلاص له سبحانه وتعالى، كالشرك والرياء. ويفيد هذا أيضاً أن مجادلة أهل الباطل تكون بالتي هي أحسن، وليست بالعنف والقوة. ﴿ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ فإن نتيجة ومحصلة أعمالكم لكم، ومحصلة أعمالنا ونتيجتها لنا. فاختاروا لأنفسكم النتيجة التي ترضونها لأنفسكم. وبما يفيد لا تغتروا بما أنتم عليه من الجدال والحسد والاستكبار، فانظروا إلى النتيجة. ثم يعلن المسلمون بتأكيد إخلاصهم لله تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ نحن نخلص العبودية والمتابعة لله تعالى وحده لا شريك له. بما يفيد كونوا معنا، فما الذي يمنعكم ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ فإنها محاجة في أقوى ما تكون المحاجة الوعية الصادقة، والمحبة للخير.

ثم يُنكر الله تعالى عليهم دعواهم: بأن الأنبياء كانوا على اليهودية أو النصرانية ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ أفتدعون بأن هؤلاء الأنبياء كانوا من اليهود والنصارى، وقد بُعثُوا وماتوا قبل نزول التوراة والإنجيل. فهذه دعوى باطلة، لأن الدعوى الصحيحة لا تكون إلا بعلم. والعلم في هذا لا يكون إلا من عند الله تعالى ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ فهذا سؤال تقريري واستنكاري لهم، إذ أن هذا البيان حَصَر الادعاء في أمرين: إما أن تقولوا: اللهُ أعلم. وبالتالي كذبتم أنفسكم، فعليكم إذاً الرجوع عن ذلك. وإما أن تقولوا: أنكم أعلم من الله تعالى، وهذا لا يمكن. فإذاً ليس أمامكم إلا أن تتبعوا ما يقوله الله تعالى. وقد نفى الله تبارك وتعالى عن خليله إبراهيم اليهودية والنصرانية في سورة آل عمران ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ويُستفاد من ذلك أهمية معرفة حال المدعو، ومعرفة ما لديه من شبهات، ومعرفة منهج إقامة الحجة عليه.

ثم تأتي مرحلة أخرى تفيد وتبين منهجية إقامة الدعوى وإبطال باطل أهل الباطل ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ فهل يوجد أكثر ظلماً ممن يكتم الشهادة التي جاءته من عند الله تعالى، وهو سؤال تقريري واستنكاري لهم، لما يعرفونه عن أنفسهم من كتمان ما عندهم من العلم في كتبهم، قال الحسن البصري: كانوا يقرأون في كتاب الله تعالى الذي أتاهم أن الدين الإسلام، وأن محمداً رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية. فشهدوا لله بذلك، وأقروا على أنفسهم لله تعالى، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك.(١) وهذا يعطي بياناً لمسلك أهل الكتاب في دينهم، وليكون المسلم على بينة وبصيرة من أمرهم وطباعهم. وكذلك لإقامة الحجة عليهم، وأيضاً ليعرف أهل العلم بمنهجية إقامة الحجة على المكابر والمعاند، ولمن عنده شبهة.

ثم بعد هذا البيان الرباني من الله تعالى، تأتي خاتمة الآية بالوعيد والتهديد، من أن علم ألله تعالى محيط بأعمالك ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فإن الله تعالى عالم بما تعملون، وليس بغافل عنكم. بما يفيد المدح لمقام الله تعالى بأسلوب نفي النقص، وإثبات علم الله تعالى بأعمال وأقوال المخلوقين. ويفيد كذلك بأن الذي لا يغفل عن عمل المخلوق يلزم أن يخافه المخلوق، لإحاطة علمه به، ووعليه أن يرجوه ويدعوه خوفاً من إحاطة علمه وقدرته وتحكمه في طلب وحاجة المخلوق.

ثم يؤكد الله تعالى حقيقة العلاقة بين من سبق من الأمم وبين من لحق بهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وهذه الآية قد وردت سابقاً. تلك أمة قد انتهت وتولت، فلهم أعمالهم التي قدموها. وأنتم لكم أعمالكم التي تكتسبونها اليوم في الدنيا، فنجازيكم عليها بما تستحقون. ولستم مكلفين بما كان منهم من أعمال، فلن يسألكم الله تعالى عنهم.

فيتأكد بها أن الإنسان لا يغنيه دعوى الانتساب، بل العمل هو الذي يُثبت حقيقته وما هو عليه، وبالتالي يُجْزَى به، ولكل أحد ما اكتسب من خير وشر. ومن طاعة ومعصية.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٤)

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

ينتقل سياق الآيات القرآنية الكريمة إلى ما يقول السفهاء عن تغيير اتجاه القبلة، وبيان ما رَدَّ الله تعالى عليهم به، حيث كان اتجاه القبلة هو استقبال بيت المقدس، ثم انتقلت بأمر الله تعالى إلى الكعبة المشرفة بمكة المكرمة، بلد الله الحرام. فقال الله تعالى عنهم ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فلقد وصف الله تعالى المعترضين على تغيير القبلة بالسفهاء، وهي صفة ضُعَفَاء وخِفاف العقول، وهم يهود المدينة، وكل من يقول بذلك. والسفهاء: هم من خف وضعف عقله، ووهن تفكيره، وغلب هواه على المنقول والمعقول. وهم كل من استنكر تحول اتجاه القبلة، سواء من أهل الكتاب أو من غيرهم من العرب والمنافقين والمشركين. وبالرغم من أنهم يملكون عقل الإدراك، فَيُدْرِكُون الأشياء والحقائق، إلا أن تفكيرهم سيطر عليه الهوى أو الكبر والتعنت، فكان تفكيرهم بمنزلة الذي نقص عقله وخف، فأصبح حاله كحال غير الراشد من الناس، فماثل تفكيرهم تفكير السفهاء.

وهذا يفيد أن هناك من الناس، من يستغل الأحداث من أجل أن يثير الفتنة، سواء على مستوى الأمة أو على مستوى دوائرها الاجتماعية المختلفة، فيتحدث إلى الناس كما تحدث أولئك الذين أشار إليهم ربنا تبارك وتعالى وهم يقولون ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ فيثيرون بهذا السؤال الذي طرحوه الشك، ويثيرون التفكير نحو زعزعة اليقين، وإحداث الفتنة في صفوف المسلمين. ويبين هذا خطورة السؤال الذي يحمل فتنة وشراً، وأن إحداث الشر قد يكون بطرح سؤال الفتنة. وأن السؤال قد يكون شراً وفتنة، مما يجب الانتباه إلى مالات السؤال، وما سَيُحْدِثُهُ

من خير أو شر. ولكن رد عليهم رَبُّ السماوات والأرض رداً ملجماً، فيأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ فالعاقل يعلم ويفهم أن مَنْ له ملك المشارق والمغارب، فإن له ما يشاء من التغيير والتبديل في اتجاه ما يريد، فأين المشكلة إذاً؟ فهو يتحكم في ملكه وفي عباده بما يشاء.

ويفيد هذا خطورة إثارة سؤال الفتنة والريبة عموماً، وخاصة أثناء الأحداث، من خلال التشكيك في الثوابت، فيتم نقل الأمر الطبيعي عن حقيقته إلى غير حقيقته، وعلى أنه غير مقبول، وغير طبيعي، فيفتتن السفهاء به، ويستغله الأعداء للوقيعة.

ومن الفوائد أن الله تعالى يُعَلِّم المؤمنين منهجية الرد العلمية التي تُلجم السفيه، وترد الغافل، وتزيد إيمان المؤمن، ومن الفوائد كذلك، أهمية الرد على من يثير الفتنة بالحكمة، والإجابة المنصفة الملجمة، المتصفة بقوة البيان من الحق، ليثوب الناس إلى رشدهم. وينكفئ السفيه الذي اثار الفتنة.
ومن الفوائد ما قاله الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: فيه دليل واضح على أن في أحكام الله تعالى ناسخ ومنسوخ، وأجمعت عليه الأمة إلا من شذ. وفيه أن من لم يبلغه الناسخ إنه متعبد بالحكم الأول حتى يبلغه، وفيه دليل على أن القرآن كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً بعد شيء.[1]
وفيه أن القرآن عالج أمور الأمة، فكان ينزل رحمة ورأفة بما يدفع الشر، ويجلب الخير والنفع. كما قال عَزَّ وجل في سورة الإسراء ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ حصر وقصر محتوى القرآن على التي هي أحسن.

ثم يلفت الباري جل جلاله إلى أمر التوفيق والتسديد ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فإن الله تعالى هو مالك الهداية، فيلزم من يشاء بالهداية والتوفيق لها. ومما يفيد أن ضلال من ضل من العباد ليس خارج عن إرادة الله تعالى ومشيئته، فلو شاء لألزمهم بما يريد. ولكن الله تعالى قد جعل للعباد مشيئة حتى يحاسب كل أحد بما كان منه.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٢/٢)

ويفيد هذا أن الله تعالى هو الذي هدى هذه الأمة إلى هذه القبلة. وفيه أن شريعة الله تعالى هي الطريق الحق والمستقيم الذي لا اعوجاج فيه. وأن الهداية بيد الله تعالى، فليطلبها الإنسان منه تبارك وتعالى بالدعاء واتباع مرضاته، والإذعان لها. وقد قال الله تعالى في سورة الرعد ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ فللهداية أسبابها، بأن إذا سمع الإنسان الهدى أقبل عليه وأخذ به.

فإن الله تعالى يهدي ويوفق بهذا القرآن العظيم من يشاء من عباده، وهم الذين أقبلوا على الحق. ومما يفيد أن كل مهتد هو بفضل الله تعالى عليه، ولو شاء لما وفقه لهداه. وأن كل من أقبل على الله تعالى هداه ووفقه. والقرآن العظيم هو هداية من الله تعالى لجميع عباد، فيهدي به من أخذ به، فيوفقه. وأما من أعرض عنه فليس من المهتدين الذين يوفقهم الله تعالى للهداية، لأنه أعرض عنه.

فإن الله تعالى يهدي ويوفق من أراد طاعة ربه، فيسدده، ويعينه ويوفقه، لأنه جاء إلى ربه مطيعاً، لأن من تقرب إلى الله تعالى شبراً أو ذراعاً قابله الله عَزَّ وجل بأعظم من ذلك تقريباً وتسديداً، كما جاء في الحديث القدسي (إذا تقرب العبد مني شبراً، تقربت منه ذراعاً، وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً) [١] مما يبين أن من اختار الهداية والهدى وفقه الله تعالى، وربط على قلبه، وأعانه ووفقه. ومن حاد عن الله تعالى وعن طاعته أضله الله تعالى بما كان منه. وله سبحانه وتعالى المشيئة الكاملة، فإن أراد أن يهدي الضال هداه، فلا معقب لحكمه سبحانه وتعالى. فربنا يعلم ما لا يعلمه العباد، وهو أرحم الراحمين. فلا أحد يحكم على الله تعالى، بل هو الحاكم الذي له الحكم المطلق، بلا قيود ولا شروط، وما ربنا بظلام للعبيد.

ثم يبين الله تعالى شيئاً من مميزات هذا الدين الذي ميز به الأمة عن غيرها من الأمم. قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ فبهذا الدين القويم أصبحت هذه الأمة موصوفة بالوسطية. ويفهم منه المدح والثناء على هذه الأمة، بهذا الدين، الذي حقق لهم هذا الوصف من الله تعالى، فهي الأعدل والأخير

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤/٤١٤) برقم (٧٥٣٧)

والأجود. والوصف لهذه الأمة بالوسط: مدح وثناء، فكانت قريش أوسط العرب نسباً، وكان صلى الله عليه وسلم وسطٌ في قومه(١) والكعبة وسط الأرض، وفي الحديث (خير الأمور أوسطها)(٢) ومنه قوله تعالى ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ أي أعدلهم وخيرهم.(٣) ويفيد هذا أن يَحْمَد المؤمنُ خالقه تبارك وتعالى أن جعله من هذه الأمة الموصوفة بهذا الوصف، وأن يلتزم بهذه الشريعة فلا يحيد عنها، ليتمثل بها في وسطيتها، ولا ينحرف بها عن هذا الوصف العظيم. لأنها الأكمل في كل شيء، فانتفى عنها الحرج، وكانت موافقة للفطرة، وكذلك اتصفت بالسماحة في مضمونها وأهدافها وغاياتها، والتي تَحُثُ على مكارم الأخلاق، وتنهى عن مساوئها، وجعلت التدرج سمة في منهجها، والعدل ركيزة فيها، وحرمت الظلم، وأمرت بالرفق.

وبهذا التفضيل يكون أهل الإسلام شهداء على الناس ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ وهي منزلة ومكانة عظيمة. فقد مرت جنازة وأثنى عليها الصحابة رضي الله عنهم، فقال عليه الصلاة والسلام وجبت. ومرت أخرى، وقال بعضهم بئس الرجل، فقال صلى الله عليه وسلم: وجبت.(٤) وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى(٥): أن معناه: لتشهدوا للأنبياء على أممهم، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال (يجيء النبي يوم القيامة، ومعه الرجل، ويجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه أكثر من ذلك، فيقال لهم: أبَلَّغَكُم هذا؟ فيقولون: لا. فَيُقال للنبي: أبلغتهم؟ فيول: نعم. فَيُقال: من يشهد لك؟ قال: محمد وأمته. فيشهدون أن الرُسُل قد بلغوا. فَيُقال: ما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرُسُل قد بلغوا. فصدقناه. فذلك قوله ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ويكون الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/١٩٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٣٨)

(٣) المرجع السابق (١/١٣٨)

(٤) مسلم (٢/٦٥٥) برقم (٩٤٩) الترمذي (٥/٥٠٣) برقم (٣٥٢٢)

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٣٨)

شهيداً عليكم بأعمالكم. وهذا يفيد أهمية الشهادة، وأهمية الاتصاف بالخيرية، وتبليغهم الرسالة. ومن الفوائد: أن الشاهد ممدوح، ومن قُبِلَت شهادته فإنه دليل على أنه عَدْلٌ مُزَكَّى، فكيف وأن الله تعالى هو الذي جعل هذه الآمة شاهدة على غيرها من الأمم، بشهادة نبيها محمد صلى الله عليه وسلم. فإنها منقبة عظيمة جليلة. وكذلك منقبة ومنزلة عظيمة للنبي صلى الله عليه وسلم أن تكون أمته شاهدة على الناس، ويكون هو أيضاً عليه الصلاة والسلام شهيد على الأمة الشاهدة، وهي منزلة أرفع وأعلى له عليه الصلاة والسلام.

ثم يبين الله تعالى الحكمة من تغيير القبلة ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ فيبين الله تعالى الاختبار والابتلاء بتغيير القبلة، حتى تكون التصفية بين من يطيع ويقبل ويُذعن لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ومن ينكص ويرتد عن دينه. وأن هذا الأمر تمحيص عظيم بتحول القبلة، إلا على نوع من الناس، وهم أولئك الذين وفقهم الله للهداية، وأيقنوا بصدق وبتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم، واطمأنت قُلُوبُهُم بكل ما يأمر به أو ينهى عنه، أو يتم نسخه بغيره.

وهذا يفيد أن الابتلاء هو محك للإيمان، فمن يثبت ومن ينكص، وأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم يُمَحَصون في مواقف متعددة، وأن من بعدهم أيضاً كذلك يُمحصون كما قال تعالى في هذه السورة المباركة ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ وبالتالي تظهر حاجة وفقر المؤمن لله تعالى ليثبته، كما قال تعالى في الآية الخاصة بالقبلة ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ فقد استكبر تحويل القبلة من كانت قلوبهم فارغة من اليقين ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ إلا من هداهم ووفقهم الله تعالى، فكانوا راضين مؤمنين بأن لله تعالى المشرق والمغرب. مما يُظهر فقر الإنسان لأن يثبته الله تعالى على الحق.

وقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[١] ومن الفوائد أن تمييز هؤلاء ليس متعذراً على الله تعالى العليم بقلوب عباده، وبما سيعملون قبل أن يعملوا، ولكن لتقوم عليهم الحجة، وأن الله تعالى يتعامل ويسير بهذا الكون وفق السنن التي جعلها تبارك وتعالى في نظامه الْمُحْكَم البديع.

ومن الفوائد أن تغيير القبلة يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم، إذ لو لم يكن نبياً لتحاشى وتفادى تغيير القبلة، حتى لا يواجه اعتراض من يعترض، واحترازاً من مغبة ذلك، ولكنه صلى الله عليه وسلم عبدٌ لله تعالى ينفذ أوامره، حتى ولو كانت شاقة على بعض النفوس. ومن الفوائد أنه لا مكان للمعقول وغير المعقول أمام النص الشرعي ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾ أي: شاقة على النفوس التي تريد أن تتعامل وفق العقل الناقص أمام الحكم الشرعي الكامل، وأما مَن قدم النص الشرعي على الهوى والتفكير الناقص فليس كذلك، حيث استثناهم اللهُ تبارك وتعالى من الحكم، حيث قال عَزَّ في علاه ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فهؤلاء امتثلوا ولم يجدوا في نفوسهم حرجاً، لأنهم عرفوا أن الحكم لله تعالى، وأنه لا يعترض أحدٌ على الله تبارك وتعالى، كما قال جَلَّ جلاله في سورة الأنبياء ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ فلا يعترض ولا يَسألُ المستسلمُ لِمَا فعل الله كذا، ولماذا قدم هذا، ولماذا أخر هذا، ولماذا حصل هذا على هذا، ولماذا أعطى هذا ورفع مقام هذا، ونزع هذا من هذا؟ وأن غيره أحق به منه. فهذه جالبة للشر، ومناقضة للاستسلام. فلا يُقدَّمُ العقلُ على النقل أبداً. ولا يُعْتَرَضُ على أمر الله تعالى وأفعاله وقضائه وقَدَرهُ سبحانه جَلَّ شأنُه.

ثم يبين الله تعالى عدله مع عباده، فيقول الحكيم الرحيم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ فلن يضيع ربكم ثواب من صلى تجاه بيت المقدس، ومات قبل أن تتحول القبلة إلى مكة المكرمة. فعن البراء، قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس. فقال الناس: ما حالهم في

---

(١) البخاري برقم (٤٤٨٧) صحيح ابن ماجه برقم (٣٤٧٦) واللفظ له

ذلك. فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ وسؤال الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، في هذه المسألة يدل على شدة اهتمامهم، ودقة متابعتهم لدينهم، ومحبتهم لمن سبقهم من إخوانهم المسلمين. مما يجسد لمن بعدهم أهمية محبة المسلم لإخوانه، حتى وإن لم يعش معهم ويراهم، فيدعو لهم بالرحمة. وقد علمنا الله تعالى ذلك في سورة الحشر، بقوله عزّ وجل﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة ببيان رحمته ورأفته الكريمة، حيث قال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهذه صفة من صفات الله تعالى، أنه رؤف رحيم. وصفة: الرؤف تحمل معاني مليئة بالدلالات العظيمة، التي منها ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فالرؤف بمعنى الرحيم، والرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. والرأفة أخص، والرحمة أعم.[١] فكيف وقد اجتمعت مع بعضهما البعض ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ فمن رحمته ورأفته بالناس أن أرسل الرُسُل وأنزل الكتب، وبسط لهم الأرض، ورزقهم من كل خير، ولم يعجل لهم عقوبة الذنوب، لعلهم يرجعون ولعلهم يرشدون، ولعلهم يتوبون، ولولا ذلك لما بقي عليها أحد من كثرة المعاصي والتقصير في الطاعة، وقلة الذكر والشكر له تبارك وتعالى، وهذا عام للناس، فكيف والأمر متعلق بالمؤمنين، إنه رؤف رحيم، فكيف يُعصى وهو بالناس رؤف رحيم؟ وكيف يُشرك به وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُشكر وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُذكر ويُمَجَّد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يتذلل له العبد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُدعى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُرجى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُطمع فيه وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُستحى منه وهو الرؤف الرحيم؟ فلو رحم عبدٌ عبداً لاستحى منه، فكيف بمن رحمته هي السبب في تراحم العباد بينهم. إنها صفات تستوجب الشكر لله تعالى من العبد، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٠/١)

صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي، قد تحلب ثديها تسقي .أي تُرضع. إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه؟ فقال (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[١] مما يستدعي محبة الله تعالى، ومجاهدة النفس في طاعته عَزَّ وجل.

﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥ ﴾

ثم يقول الله تعالى ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾ فقد كان صلى الله عليه وسلم يقلب ناظريه بوجهه إلى السماء، يترقب أمراً من الله تعالى يُغَيِّرُ به اتجاه القبلة التي كان عليها نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً [٢] فيحمل هم الاستقلال بتفرد القبلة عن اليهود، لتكون تجاه مكة المكرمة التي كان عليها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، مما يؤكد، أهمية الاعتزاز بخصوصيات هذا الدين والابتعاد به عن تقليد الكفار في شيء من دينهم، وفي عاداتهم وتقاليدهم، وخاصة التي لا نفع فيها، أو تُقوي شوكتهم ومعنوياتهم، ولا مصلحة للمسلمين فيها. وقد كانت رؤية الله تعالى وعلمه وإحاطته لعبده وتحركاته، ومعرفة ما يدور في خلجاته، وأمنياته

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٩١/٤) برقم (٥٩٩٩)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٧/٢)

ورغباته، تحيط بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. فقال الله تعالى مخاطباً رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فالله يرى كل أحد من خلقه، ولكن خصه بالتنويه للتكريم والاستجابة لما يدور في خلجاته صلى الله عليه وسلم، ثم تلبية مطلبه عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ فهذه مكانة ومنزلة رفيعةٌ وعظيمة للنبي صلى الله عليه وسلم، بأن يحقق له ما يريد من شأن القبلة، كما أن في ذلك رفعة لمكانة الرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه تبارك وتعالى، والتي تعمق مكانته في قلوب المسلمين، وفي هذا الانفراد في القبلة تكريم من الله تعالى للمؤمنين ولهذا الدين. وفيه دليل على مكانة هذا البيت العتيق الذي جعله الله تعالى قبلة للمسلمين، واستأثر به هذه الأمة.

فقال تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فتوجه إلى المسجد الحرام قبلة لكم ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ وحيثما تكونون فتوجهوا بصلاتكم ونسككم لهذا البيت الحرام. فأين كان موقع المسلم فإنه يتوجه بصلاته ونسكه تجاه المسجد الحرام، وأما في داخل المسجد الحرام فيولي وجهه تجاه الكعبة. فإنها نعمة عظيمة كريمة من الله تعالى. وأما عن استقبال القبلة في النافلة للمسافر، والجاهل، ولمن كان في مانع من معرفتها، فقد تناولتها كتب الفقه والتفسير، فتنظر في مظانّها.

ومن الدلالات البيانية العظيمة أن بدأ السياق الكريم بحرف ﴿ قَدْ ﴾ الذي سبق في اجتماعه مع الفعل ﴿ قَدْ نَرَىٰ ﴾ ثم حال الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ فأفاد حرف ﴿ قَدْ ﴾ التحقق والتأكيد، قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ قَدْ نَرَىٰ ﴾ كثرة الرؤية ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ تردد وجهك، وتصرف نظرك في جهة السماء[1] فذلك جواب لمن ينتظر الخبر. وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وجيء

(1) الزمخشري، الكشاف (٢١٢/١)

بالمضارع مع ﴿ قَدْ ﴾ لإفادة الدلالة على التجدد، والمقصود تجدد لازمه ليكون تأكيداً لذلك اللازم، وهو الوعد. فمن أجل ذلك غلب على ﴿ قَدْ ﴾ الداخلة على المضارع أن تكون للتكثير[١] وقد أفاد قوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ الأمر بالإتجاه، ثم حرر البيان هذا الاتجاه بأدق ما يكون به التوجه وهو: الوجه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ ليفيد دقة التعيين، وكذلك أن المقصود بالتوجه، هو للعبادة، وأعلاها الصلاة ﴿شَطْرَ ﴾ أي: الناحية والوجهة التي يتجه لها الوجه ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فعينه تبارك وتعالى تعيناً دقيقاً بتسميته ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وهي التسمية الخاصة بالمسجد العتيق بمكة المكرمة، لأن الله تعالى حَرَّم الاقتتال فيه، وكما قال صلى الله عليه وسلم (إن هذا البلد حَرَّمَهُ اللهُ، لا يُعضَد شوكه، ولا يُنَفَّر صيدُهُ، ولا يُلتقط لقطته إلا من عَرَّفَها)[٢] مما يبين دقة البيان الكريم في التحديد، وفي عمق التوجيه والسياق العظيم والبديع.

ثم يبين الله تعالى حال أهل الكتاب في تغيير اتجاه القبلة ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فهذا بيان قطعي من الله تعالى، العالم بما يخفونه من علم، بأنهم يعرفون أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً من الله تعالى، وبالتالي يعلمون أنه لا يأمر بشيء ولا يغير شيئاً إلا بأمر الله تعالى. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كُتُبِهِم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.[٣] مما يؤكد أن أهل الكتاب يعرفون ويقرون بذلك، ولكنهم يجحدون، استكباراً وتعالياً.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٢٣/١)

(٢) الالبخاري، الجامع الصحيح، برقم (١٥٨٧) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (١٣٥٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٩٩/١)

ثم يبين الله تعالى حقيقة من حقائق ذاته الكريمة، والتي هي ركيزة في عقيدة المؤمنين، قال تعالى ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ فإن الله تعالى غير غافل بعمل أهل الكتاب وما يعملون، وبالتالي سوف يجازيهم على ما يقترفون، وعلى ما هم عليه من العناد والاستكبار. والنفي هنا يفيد إثبات الضد، فنفى الله تعالى عن ذاته ما يصيب الإنسان من الغفلة والنسيان، ليزيل بذلك كل نقص، فيثبت العلم والإحاطة التامة والدقيقة بكل شيء، كما قال تعالى في سورة يونس ﴿ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾

ثم يبين الله تعالى تجذر عناد أهل الكتاب ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ ﴾ فلوا أتيت لأهل الكتاب بكل دليل قطعي فلن يؤمنوا لك، وقد كانت قبائل من أهل الكتاب يسكنون المدينة، ونجران. وإثبات هذا الامتناع دليل إعجازي للقرآن الكريم. فكانوا كما أثبت القرآن هذه الحقيقة. ويقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ ﴾ فبين الحقيقة التي عليها النبي صلى الله عليه وسلم من أنه لن يتابع قبلتهم، وكذلك هم لن يتبعوا قبلتك. فالأمر منتهي بينك وبينهم في المحاولة معهم.

بل حتى اليهود والنصارى فإنهم فيما بينهم كذلك، فكل من الفريقين لا يُذعن للآخر في قبلته ﴿ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖ ﴾ فاليهود قبلتهم تجاه بيت المقدس. والنصارى تجاه المشرق، مخالفين لنبيهم عيسى عليه السلام الذي كانت قبلته تجاه بيت المقدس. وبالتالي فإن هم لم يُذعنوا لبعضهم البعض في القبلة. فلن يُذعنوا لقبلة نبي من العرب، بسبب استنكافهم وتعاليهم.

ثم يبين الله تعالى أنهم أصحاب هوى، وأن من يتبع أهواءهم فقد تحقق له ظلم نفسه ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وفي هذا تحذير عن مخالفة الحق الذي بيَّنَهُ الله تعالى، وأن من خالفه فهو ظالم من

الظالمين، وهذا دليل ونهي تحذيري من مخالفة أمر الله تعالى، وتزداد خطورة المخالفة وشدة التحذير من كون الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن أن يفعل النبي صلى الله عليه وسلم ما يكون به ظالماً، لكنه محمول على التحذير لأمته صلى الله عليه وسلم. ثم جاء هذا التحذير بعد إعلام الله تعالى ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ مما يفيد أن ترتيب النهي والتحذير يكون بعد الإعلام. كما يفيد أن هذا الدين علم وحق عظيم. لما فيه من التشريع والعبادات والإيمان والأخلاق والشفاء والعافية من كل بلاء، والحصن الحصين والقوة والحبل المتين، والذي كشف الله تعالى به خلجات الأنفس، وما غاب من أحوال الأمم، وما فيه من الإعجاز والبيان الواضح لطريق الحق والخير. وأوصاف ونِعَمٌ تعجز الأفكار عن حصرها، والأقلام عن تدوينها. فله الحمد تبارك وتعالى.

وفي قوله تعالى ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دليل على أن الذي هم فيه باطل وظلم عظيم، يقابل ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الهدى والحق والعلم والبيان الواضح، والدين العظيم، وأن أهل الكتاب في ظلالة، وظلم عظيم، وأن من دخل فيهم اندرج في جملتهم. وفي هذا توجيه وقائي لكل مسلم من دين اليهودية والنصرانية، وكل دين غير ما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلا يقبله الله تعالى بعد مبعثه ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ من بعد ما جاءك من الوحي الذي كشف الله تعالى به الحق من الباطل.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾﴾

ثم يبين الله تعالى حقائق لا يمكن معرفتها إلا بالوحي ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فأهل الكتاب يعرفون أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبيٌ، لما عندهم من الأوصاف التي يزول بها الجهل عنهم زوالاً حقيقياً، حتى بلغت معرفتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم درجة معرفتهم بأبنائهم. وهذه دقة

في الوصف القرآني لما لا يمكن أن يعرفه بشر إلا بالوحي، وبالتالي فمعرفتهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وبصحة القبلة أنها وحيٌ من الله تعالى هي معرفة تامة، لا ينقضها شيءٌ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا بوحي من الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ بما يبين دقة معرفتهم التي لا يلامسها أي شبهة، فهو تشبيه دقة المعرفة بدقة معرفتهم لأبنائهم، فكما لا يغلطون في أبنائهم فكذلك لا يغلطون ولا يشكون في أن هذا هو الحق من الله تعالى، لما في كتبهم من التوراة والإنجيل.

ثم يخبر الله تعالى بإن فريقاً منهم يكتمون هذا الحق الذي يعلمونه علماً يقينياً ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فأحبار اليهود، وعلماء النصارى يعرفون أن البيت الحرام قبلتهم، وقبلة إبراهيم، وقبلة الأنبياء قبلك، كما يعرفون أبناءهم[١] مما يفيد أن الحقد والكبر قد يدفع بالمرء إلى المعاندة والمكابرة، وإخفاء الحقائق التي يعرفها. وهذا يستلزم من المسلم أن يدرك خطورة هذا الداء العضال، فإذا كان مفعوله في الدين بهذه الصورة البغيضة، فكيف بما هو دونه من أمور التفاعل الاجتماعي وأداء الحقوق. فقد يدفع المرء إلى السكوت عن الحقيقة، وربما غَيَّبَهَا لأنه يرى أنها لا تتوافق مع ما يريد، أو أنها تضعه في موضع لا يرغبه. فالحذر من هذا الداء العضال، وذلك بأمرين: سؤال الله تعالى العافية من ذلك، وتعويد النفس على التواضع وقبول الحق، وترويضها للحق، وألا يجاريها في طغيانها. فإن ذلك الحقد المركب من الكبر والحسد هو الذي دفع أهل الكتاب إلى إخفاء الحق الذي يعلمونه من الله تعالى وهو ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وسواء كان المقصود بها نبوة النبي صلى الله عليه وسلم أو صحة استقبال بيت الله الحرام.

ثم يؤكد الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين صحة ما هو عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، فنهاهم عن ضد ما جاءهم من الحق بجعل النهي في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ فلا تكنن من الشاكين في أن القبلة هي وجهتك. وذلك

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٧٠/١)

لتعظيم أهمية قطع الشك باليقين الْمُسنَد من الله تعالى بهذا البيان العظيم. فكن على يقين وثقة أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى تعلم الأمة عِلْم اليقين بما هُم عليه من الحق، فتطرد كل شك شيطاني قد يطرأ على القلب بسبب شياطين الإنس والجن، الذين هم أعداء الدين وأعداء الطائعين. فإن النهي عن ضد الحق هو أمر بالحق والاستمرار عليه. وهذا يفيد أهمية الوقاية بالتحذير من المخاطر، ليحصل التثبيت أمام مخاطر المخالطة والتعامل. فقد كان أهل الكتاب في المدينة يختلطون بالناس في أمور حياتهم كالأسواق وغيرها مما تكون به المخالطة والمجالسة.

ثم يبين الله تبارك وتعالى الفصل في أمر أهل الكتاب، وما ينبغي للمسلمين أن يشتغلوا به ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يُظهر اللهُ تعالى قوة المفارقة بين المؤمنين وبين أهل الكتاب بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ فلكل منكم قبلة ومنحى وغاية هو متوجه لها، بما يفيد المفارقة، وعدم الاشتغال بهم، فهم معاندون لكم، وعليكم بالمبادرة والمسابقة في فعل الخيرات ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ فسارعوا في طلب الخيرات. والتي وردت بصيغة الجمع ﴿ الْخَيْرَاتِ ﴾ بما يفيد تنوع وكثرة الخيرات التي جاء بها الإسلام، والتي يتسابق إليها من يعرف قيمتها وثمنها الحقيقي. وفي تسمية أفعال الدين وأقواله واعتقاداته القلبية والعملية بدلالة ﴿ الْخَيْرَاتِ ﴾ ما يفيد أن شرائع هذا الدين كلها خيرات، تحتاج أن يتسابق المسلمون في تحصيلها، وأن يتنبهوا لها.

وقد أفادت دلالة ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ أنها قوة يتقوى بها المؤمن في كل حال، فإذا جاءه الشح والطمع استقوى على شحه بقوله تعالى ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ وإذا تكاسل عن عبادة تقوى بقوله ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ وإن داهمه الامتناع عن قول الحق، قال ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ وإن جاءه الحسد لأخيه المسلم، طَرَدَه بقوله ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ وإن تردد بين الخير والتقصير فيه، تذكر قوله تعالى ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ وإن رأى من غيره تكاسلاً عن نوع

من الخير وعظه بقوله عَزَّ وجل ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فإنها قاعدة قوية يُصَدُّ بها كل شر، ويندفع بها في كل خير.

ثم يقول الله تعالى في تمام الآية العظيمة مبيناً قدرته ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ فيعيد الله تبارك وتعالى للأذهان التذكير باليوم الآخر، الذي سيجمعكم فيه جميعاً أيها المسلمون والكفافرون. حتى يكون هذا التوجيه الرباني تحذيراً للمنكرين الجاحدين، وأيضاً تحفيزاً للمؤمنين نحو العمل لليوم الآخر الذي سيجمع الله فيه الخلائق. ومن الفوائد: أن في قوله تعالى ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ دليل القدرة الربانية، وفيها نفي الاختيار للبشر في المجيء، وتنتفي فيه الحيلة في الغياب والتواري، ويفيد هذا اثبات البعث والحساب بعد الموت، فليعلم المرء أنه قادم لربه تبارك وتعالى. وهذا فيه تخويف من المعصية، وترغيب في الطاعة، فاجتمع في هذا البيان ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ الترهيب والترغيب.

ثم يقول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي هذا بيان وتذكير بقدرة الله تعالى على الجمع وإعادة الخلق، والبعث والنشور والحساب والجزاء. فهو على كل شيء قدير سبحانه وتعالى. وقد حصر سبحانه وتعالى كمال القدرة له بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة لِمَا بعدها، وهو كمال القدرة الربانية. ثم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ الذي أفاد أنه المألوه، ذو الألوهية، الذي لا يُعبد سواه، الجامع لكل صفات الكمال والجلال والإجلال. فأفاد البيان مع ما بعده حصر وقصر كمال القدرة له وحده تبارك وتعالى. وأفادت دلالة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في قدرته على ما يشاء من غير وبدون استثناء، من الإنعام، والقهر، والغلبة، والنصرة، والخلق، والتسخير، وما يمنحه للمخلوق من القدرات، وغيرها مما يشاء سبحانه وتعالى، فليس لقدراته عَزَّ وجل حد محدود، بل هي مطلقة لا حدود لها.

﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠ ﴾

ولا زال السياق في شأن القبلة، إذ قال تبارك الله وتعالى ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ﴾ فهذا أمر ثالث باستقبال المسجد الحرام، **فالأول:** قوله تعالى ﴿ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةً تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾ وهو متعلق باستجابة رغبت الرسول صلى الله عليه وسلم. **والثاني:** قوله تعالى ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ فيه تأكيد وبيان أن هذه القبلة حق، وأن هذه الرغبة النبوية حق، وموافقة للحق الذي أراده الله تعالى، فالله تعالى يُحبه ويرضاه. **والثالث:** قوله تعالى ﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ ﴾ ففيه بيان عام للمسلمين أنه حيث ما كنتم فاتجهوا تجاه المسجد الحرام، حيث قبلتكم ﴿ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ ﴾ ثم تبين الآية الكريمة فائدة ومحصلة عظيمة وهي ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ ﴾ فقطع الله تعالى بهذه القبلة حُجْة الْمُخَالِفين من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قبلتهم، من أنه يتبعهم. وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سَيُصْرَف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام التي هي الكعبة، وكذلك انقطعت حُجَّة مشركو العرب لَمَّا انصرف الرسول صلى الله عليه وسلم عن بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام. وقد كانوا يعظمون الكعبة. وأعجبهم استقبال

الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة[١] فتحقق بها خير كثير، حيث انقطعت حجت العرب، وقامت الحجة على اليهود بما يعرفون أن قبلة هذا النبي صلى الله عليه وسلم هي قبلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بأنها تجاه مكة. وأنه ليس بتابع قبلتهم.

فكانت قوة دينية للمؤمنين. وتمحيص لمن كان في قلبه مرض. ولله الحكمة البالغة في الأمر والنهي والنسخ بعد الأمر. وبهذا انقطعت الحجة على اليهود ومشركي العرب إلا من في قلبه مرض، فظلموا أنفسهم بالعدول عن الحق ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ حتى لا يكون لأهل الكتاب والمشركين عليكم حجة، فيحتج أهل الكتاب بأنكم تتبعون قبلتهم، ويحتج المشركون بأنكم تابعون لأهل الكتاب. ثم استثنى من هؤلاء الظالمين من قامة عليه الحجة واستمر على ظلمه وعناده ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ قال الزجاج رحمه الله تعالى: إلا من ظلم باحتجاجه فيما قد وُضِحَ له. كما تقول: ما لك عليَّ حجة إلا الظلم[٢] فهؤلاء لا تخشوهم ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ فلا تصرفوا شيئاً من الخشية إلا لله تعالى. فلا تكترثوا وتهتموا وتخافوا مطاعنهم ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ واصرفوا الخشية لربكم، بأن لا تخالفوا أمري.

وفي هذا اطمئنان وتطمين للمؤمنين، بأنه لا فزع ولا خوف منهم، لحقارة تصرفاتهم وتعنتهم، وأنها لن تبلغ بهم ما يريدون، فاصرفوا الخشية للخالق تبارك وتعالى. ففي حصر خشية المؤمنين من ألا تكون إلا من الله تعالى ما يُذِيب كل خشية من مخلوق ظلوم غير محق في حجته. فالخوف من الناس عندما يكونوا أصحاب حق، فينصرهم الله تعالى على من ظلمهم، فيخشى الظالم رَبَّه سبحانه وتعالى من ظُلْمِه لهم. وأما والحجة مع المؤمن فعليه ألا يخشى إلا الله تعالى. وفيها تثبيت وتقوية للمؤمنين. وفيها إشارة إلى نُصرتهم على اليهود، لأن من أمرك بأن لا تخشاه فلا تخاف قوته، لأنك

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٠١/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٤/١)

منصور عليه. وهذا يبين عظمة ومكانة ومنزلة خشية الله تعالى، بأن يجعلها المؤمن مساره ونصب عينيه في كل شؤونه، فإن النصر بيد الله تعالى.

ومن الفوائد كذلك التدرج في التوجيه، ومعالجة الجوانب النفسية، من خلال التأكيد والتكرار الذي يحمل فائدة في كل توجيه، فقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة واهتمام بها، لأن موقع التحويل كان صعباً في نفوسهم جداً.(١) ومن الفوائد ما استنبطه واستفاده أهل العلم من فوائد عديدة، ومنها ما ذكر ابن كثير وغيره(٢) وهي: أن الآية الأولى لمن هو مُشَاهِدٌ للكعبة. والثاني: لمن هو في مكة غائباً عن الكعبة فلا يشاهدها بعينها. والثالث: لمن هم في بقية البلدان. فمن كان مُشَاهِداً للكعبة استقبلها بعينها. ولمن في مكة خارج المسجد، يتجه تجاه المسجد الحرام، والثالثة لمن كان في بقية البلدان فيتجه صوب مكة حرسها الله تعالى.

ثم بهذه القبلة تحققت نعمة عظيمة جليلة كما قال تعالى ﴿ وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ فكان تعيين قبلة المسلمين نعمة عظيمة قد أتمها الله تعالى برحمته وتوفيقه، ليحصل للمؤمنين المزيد من الهداية والتوفيق بهذا التشريع العظيم، الذي توالت وتكاثرت به النعم. فالحمد لله رب العالمين. كما أن هذا يستدعي استشعار نعمة القبلة إلى البيت الحرام، وتوجه المسلمين لأول بيت وضع للناس، وكذلك ما خصه الله تعالى من البركات لهذا البيت، ولهذه الأمة، وذلك بمضاعفة ثواب الصلوات في البيت الحرام، وما فيه من الاستشفاء بشرب ماء زمزم. وغيرها من خصوصيات هذا البيت العظيم.

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٣/٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٠٠/١)

يُذَكِّر ويمتن اللهُ تعالى على عباده المؤمنين بنعمة بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول الله سبحانه وتعالى ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ فيخبر الله تعالى بعظيم امتنانه على عباده ببعثة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ ﴾ فإن من عظيم إنعامنا عليكم أن أرسلنا فيكم منكم رسولاً تعرفونه بما هو عليه من الصلاح قبل بعثته، فلا تنكرون عليه ما يجعلكم تكذبونه. ليقوم بمهام الرسالة، المتضمنة لخمس أمور رئيسة. أولها: أنه ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ أي: يتلوا عليكم آيات ربكم البينات الواضحات التي يوحيها الله تعالى عليه، وهي آيات القرآن الكريم، والأمر الثاني: ﴿ وَيُزَكِّيكُمۡ ﴾ أي: ويطهركم من الشرك، وأعمال الجاهلية ومساوئ الأخلاق، ودنس النفوس. والأمر الثالث: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أي: ويعلمكم القرآن العظيم، وهنا أعاد سبحانه وتعالى القرآن باعتباره الكتاب الكامل، بعد أن ابتدأ به على أنه آيات ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا ﴾ بما يبين أنه كان آيات متفرقات تنزل عليه خلال نبوته صلى الله عليه وسلم، حتى صار كتاباً كاملاً في تشريعه وعموم محتواه.

ثم عطف عليه سبحانه وتعالى السنة النبوية المطهرة، وسماها بالحكمة. وهو الأمر الرابع: ﴿ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ أي: والسنة النبوية المطهرة، لأنها تعلمهم الحكمة في التطبيق المباشر للقرآن، وتوسع مداركهم في الفهم للقرآن العظيم، والتفقه في دين الله تعالى. ثم أسند إلى ما سبق عموم ما يعلمهم به عليه الصلاة والسلام، وهو الأمر الخامس: فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ ويعلمكم ما كنتم تجهلونه من جميع أبواب الخير التي كنتم تجهلونها في جاهليتكم.

فكما أنعمنا عليكم بأن أرسلنا فيكم رسولاً منكم بهذا الدين، وتعليمكم إياه من بعد جهلكم بما جاء به، فاذكروني بعبادتي وحدي كما أمرتكم وشرعت لكم ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ فواجبكم تجاه

هذه النعمة العظيمة أن تذكروا ربكم بطاعته، وقد رتب على ذكره عَزَّ وجل أن يذكرهم، جزاء وثواباً لذكرهم ربهم عَزَّ في علاه ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ كما ورد في الحديث القدسي، يقول الله تعالى (وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي. وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منه)[١] فما أعظم ذكر الله تعالى للعبد في الملأ من الملائكة.

وكذلك يأمر عباده أن يشكروه ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ واشكروا ربكم بأن تحمدوه على هذا الإنعام العظيم ﴿ وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ أي: ولا تنكرون هذا الإنعام العظيم، فتسترون النعمة بعدم شكر المنعم بها عليكم. فواجبكم تجاه هذه النعمة العظيمة أن تذكروا ربكم بطاعته.

وهذا يفيد أن من أنواع معاني الكفر هو عدم الشكر. لأن في عدم الشكر ما يفيد الجهل بفضل النعمة، وعدم الإحساس بقيمتها، بينما الشكر يوقظ عند المؤمن حاسة استشعار الخير والفضل، فيحمد الله تعالى عليها، وكلما استشعر النعمة ازداد طمأنينة وراحة وسعادة، فإذا تذكر نعمة الإسلام وأنه مسلم، أزهقت عنه ما يعاني من صلف الحياة وما فيها من ابتلاء، وإذا تذكر نعمة الأولاد، أَنْسَتْهُ شيئاً من حاجاته للمال أو غيره من الحاجات، وأما إذا غَفَلَ عن النعمة تعس وازداد تعاسة، فإذا غَفَلَ عن نعمة الصحة، استدعته الغفلة عن غيرها من النعم، فتتراكم عليه هموم الأطماع التي لا تنتهي. فلا علاج لذلك إلا باستشعار النعمة التي تؤدي إلى الشكر الذي به تدوم النعم، وتتكاثر وتزداد.

ومن الفوائد كذلك أن الله تعالى يُحب الذاكرين والشاكرين، ويُحب أن تُرى أثر نعمته على عبده، تعبداً لا أشراً ولا بطراً ولا كبراً، بل من باب الاعتراف بالنعمة. يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: يُذَكِّرُ الله تعالى عبادَه المؤمنين بما أنعم به عليهم من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم، يتلوا عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم: أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب: وهو القرآن، والحكمة: وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فانْتَقَلُوا ببركة هذه الرسالة إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا

---

(١) البخاري (٣٨٤/٤) برقم (٧٤٠٥)

أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة.[١] فهو إنعام عظيم جليل. فالحمد والشكر لله تعالى على ما أفض من كثرة الإنعام.

ومن الفوائد تقرير التوحيد في النفس والقلب وباللسان والعمل ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ ﴾ فيكون الذكر أولاً بالقلب، ثم ينطق به اللسان، ثم تؤديه الجوارح بأداء العبادات ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِي ﴾ والحمد والشكر يكون أولاً من القلب بما يشعر به، ثم ينتقل إلى النطق باللسان، ثم تؤديه الجوارح باحترام الإنعام من جميع نزاحيه ومفرداته. فَذِكْرُ اللهِ تعالى يؤدي إلى تَذَكُّرِ النعمة، وتذكر النعمة يؤدي إلى ذكر الله تعالى، ويؤدي بالْمُتَذَكِّرِ إلى الشكر، وأما نسيان النعمة فيؤدي إلى الغفلة عن الشكر. وأما في ربط الذكر به سبحانه وتعالى ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ ﴾ وكذلك الشكر ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِي ﴾ فهو تقرير لتوحيد الله تعالى. بأن لا يُصرف لغيره فيما هو له جَلَّ جلاله. بأن يذكر العبد ربه سبحانه وتعالى بِنِعَمِه، وألا تُنسي الأسبابُ الظاهرة مُسبب أسباب النعم، بل يقول العبد ربحت بفضل الله تعالى، وسخر الله لي فلاناً فأعانني جزاه الله تعالى عني خيراً، وهيأ الله تعالى بفضله ذلك الأمر، ومثل ذلك مما يُجْرِيهِ العَبْدُ على لسانه اعترافاً بأن الأسباب هي بفضل الله تعالى، وفي هذا شكر للمنعم بأنه هيأ له الأسباب، مع الثناء على من جعله الله تعالى سبباً في ذلك من البشر، أوغيره من الأسباب.

وفي قوله تعالى ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ قوة يتقوى بها المؤمن في رؤية ما هو فيه من نعم الله تعالى، التي قد يغفل عنها الجاحدون بها. فإذا تذكر إسلامه استعظم هذه النعمة، من أنه ليس من الكافرين. فاستصغر بها كل حاجة وفاقة أمام هذه النعمة العظيمة الجليلة، فشكر الله تعالى عليها، وبالتالي تدخل عليه السعادة من كل باب. وإذا رأى الصحة والعافية استعظمها لأنه ليس من المرضى، فحمد الله تعالى عليها، فاستصغر بها كل حاجة أو فاقة أو مصيبة لديه. فاستحوذت عليه الطمأنينة والسكينة والسعادة من كل وجه. وهكذا يكون حال المؤمن في كل نعمة.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٠١/١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

يوجه الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين إلى القوة التي يستعينون بها على ما يواجهونه من مصاعب الحياة المختلفة، فيقول الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ فيوجه الله تعالى المؤمنين إلى ما ينفعهم من خلال نداءاته ومخاطبته لهم بالإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وفي مخاطبتهم ونداءاتهم بالإيمان رتبة ومنزلة عظيمة من الله تعالى لهم، وتقرير إيمانهم به منه تبارك وتعالى، فأي نعمة أجل من هذه النعمة الكريمة، وهذا كله ليلفت انتباههم وليعلمهم ما ينفعهم. ويفيد هذا تربوياً أهمية مناداة المتعلم والمدعو بأفضل ما يمكن أن يُنادى به، فإذا كان هذا هو الله تعالى ينادي عباده بهذه الرتبة العظيمة، فكيف العبد مع عبد مثله. ومن الفوائد كذلك مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ حتى يلفت انتباههم، ويسترعي وتسترعي أسماعهم. لأن في النداء ما يفيد لفت الانتباه لأمر مهم، يوجب الانتباه له باهتمام بالغ. وهذا أسلوب توجيه دعوي وتربوي مؤثِّر على انتباه الْمُخَاطَب.

فقد خاطب الله تعالى المؤمنين بأفضل الوصف والمدح والثناء لهم. فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فبدأ الخطاب الكريم بمناداة المؤمنين بأفضل وأحسن المراتب والرُّتَب، بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك

تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[١] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه للمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية.

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم بعد هذا النداء الذي يثير شوق القلوب للمتابعة، ويدفعها لمعرفة الشيء والأمر الذي ناداهم ربهم إليه. يقول سبحانه وتعالى ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ فينادي اللهُ تبارك وتعالى المؤمنين ليعلمهم ما يفيدهم، بأن يستعينوا بأمرين مهمين في كل شيء يواجهونه ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ ولم يُحدد تبارك وتعالى مجال ومحل ما يُستعان عليه، لتكون في كل شأن وأمر، وليفهم المؤمن بهذا التوجيه أن عليه الاستعانة بهما في دفع كل شر وجلب كل خير، لأن حاجات الإنسان قائمة بين جلب خيرٍ ودفع شر ومكروه، وبحسب درجاتها. فالاستعانة ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ تكون على أداء الطاعة، وطلب الخير أو دفع الشر، أو حبس النفس عن معصية، أو حملها على فعل أو قول خير، أو الصبر على ما يمكن أن يحل بالنفس مما تكره، أو غيرها مما يحتاج صبراً.

وذلك أن في الصبر تقوية للإرادة والتحمل. بل وباعث على كل نشاط، ومعينٌ على طمأنينة النفس، ومُبعدٌ عن اليأس وما يتبعه من كسل وعجز مدمر لحياة الإنسان، كما أن الصبر يرتبط به عظيم الأجر والثواب، كما سيتبين بإذن الله تعالى فيما هو قادم من الفوائد الزكية، وأقربها معية الله تعالى للصابر، كما في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولو لم يكن للصبر من نعمة إلا أن الله تعالى مع الصابرين، لكفى بها منزلة ورفعة وقوة وتأييداً ونصراً.

والصبر: نقيض الجزع. وهو: حبس النفس عن الجزع. وأما التصبر فهو: تكلف الصبر[١] وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى: هو خُلُق فاضل، من أخلاق النفس. يمتنع به من فعل ما لا يَحْسُن، ولا يَجْمُل. وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها[٢] مما يفيد ويُعَلِّم المؤمن أن عليه بالصبر، وتوصية غيره بذلك، وأن يلزم الصبر في مواجهة الصعاب، ومقابلة ما يحدث من غيره له بالروية والصبر، المتضمن للحكمة، والبعد عن الغضب، الذي يبدد العلاقات، ويبدد أو يعطل تحقيق الأهداف. فإن الصبر خُلُق يتعايش به الحكيم مع غيره. ويسأل الله تعالى العون والتوفيق والسداد، فهو خير مُعين على بلوغ الحق والخير. كما يبين هذا أهمية الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، من خلال سيرته العطرة.

والاستعانة الثانية: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه وأهمه أمرٌ استعان بالصلاة. قال حذيفة رضي الله تعالى عنه (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ

---

(١) ابن منظور، لسان العرب (٤/٤٣٨-٤٣٩)

(٢) ابن قيم الجوزية، عدة الصابرين، ص (١٦)

أمرٌ صلى) [١] ففي الصلاة صِلَةٌ بين العبد وربه، إذ فيها المناجاة والانكسار بالركوع والتذلل بالسجود، والتلاوة بالفاتحة وغيرها من كلام رب العالمين، وفيها التسبيح والتحميد والتكبير لله تعالى، وفيها الوقوف بين يدي الله تعالى، وفيها الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا الصلاة على أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وفيها الدعاء، وأقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد. فحقاً إنها عون يستعين بها المؤمن على أموره كلها، فأداء الصلاة في وقتها والاجتهاد بأداء السنن، مع الفزع بالتنفل إذا حزب المسلمَ أمرٌ فإنها قوة معينة للمسلم في أموره.

ثم تنتقل الآيات لبيان حال الشهيد الذي استشهد في سبيل الله تعالى. فقال عَزَ وجل ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ لا تقولوا ولا تعتقدوا أيها المؤمنون بأن الذين قُتِلُوا في الجهاد في سبيل الله أمواتاً، فإن الأمر ليس كذلك ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ حياة خاصة بهم ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ فأنتم لا تشعرون بأنهم أحياء، لأن لهم حياة لا يعلم كيفيتها إلا الله عَزَّ وجل.

وهذا البيان القرآني من الله تعالى يُعَرِّف الشهيد بأنه من قُتِل في سبيل الله تعالى. ويفيد كذلك بأن الشهيد في سبيل الله تعالى حيٌ حياة لا نشعر بها، مما يفيد ويبين فضل الجهاد في سبيل الله تعالى، وفضل الشهداء الذين قدموا أرواحهم في سبيله تبارك وتعالى، ولم يقدموها طمعاً في دنيا، أو دفاعاً عن باطل، أو رياء وسمعة، بل في سبيل الله تعالى كشرط ليكون شهيداً. وبالتالي لا نعتقد بأنهم أمواتاً، بل نعتقد ونجزم بأن من مات شهيداً في سبيل الله تعالى فهو حيٌ. وقد قال صلى الله عليه وسلم (إن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمرة الجنة أو شجر الجنة)[٢] وفي ذلك دليل على نعيم القبر، وبالتالي دليل على عذاب القبر. ولكن لا نشعر في الدنيا بما هم فيه من حال. فسبحان الله العلي العظيم الحكيم الذي له الأمر كله.

---

(١) أحمد (٣٨/٣٣٠) برقم (٢٣٢٩٩)

(٢) الترمذي برقم (٤/١٥١) برقم (١٦٤١)

وقد قال الله تعالى في سورة آل عمران ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ وهذا يعطي فوائد جليلة القدر، وعظيمة الفائدة: من أن الموت ليس هو نهاية الإنسان، وأن منزلة الشهيد عند الله تبارك وتعالى عظيمة المكانة، مما يعزز لدى المؤمن محبة الجهاد، واسترخاص النفس لما هو بعد الشهادة، وأن الله تعالى عظيم الكرم والجود، بما أكرم به الشهداء من الحياة والمنزلة العظيمة.

ويلاحظ في سياقات القرآن الكريم التنقلات المبهرة في التوجيه والأمر والنهي، والبيان، والرد، وفي تنوع قرآني كريم عظيم جميل ومبهر في تنقلاته التي تستعذبها الآذان، ويخشع لها القلب، ويتدبرها ويستعقلها العقل، فيجد القارئ للآيات حلاوة في سياقها وألفاظها وتراكيب كلماتها، فيستنير بها العقل ويستجيش بها القلب، ويتحرك بها الوجدان. فسبحان من أبهر بالقرآن العقول، وأعجز ببيانه ومكنونه الثقلين، وتحدى به كل متحدي من الإنس والجان، حتى ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ففي الآية السابقة كانت عن حال من قُتِل في سبيل الله تعالى، وقبلها عما يستعين به المسلم من الصبر والصلاة، ثم ينتقل السياق هنا إلى الابتلاء الذي يُستعان عليه بالصبر والصلاة، فتراه تنقلاً في غاية الجمال والتشويق. فسبحان من أعجز عباده بكتابه.

يقول تبارك وتعالى مخبراً عباده بما يحصل لهم في الدنيا ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ يخبر الله تعالى بحال العباد في الدنيا، بأنها قائمة على الابتلاء المتنوع، ومع تنوعه فهو ﴿ بِشَىْءٍ ﴾ أي: ببعض أنواعه ﴿ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ ثم يحثهم تبارك وتعالى على الصبر بأسلوب البشارة ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ بما يفيد أن لهم مقابل هذا الصبر ثواباً عظيماً من عند ربهم الرحمن الرحيم الكريم.

مما يفيد ويوضح العلاقة بين آية الاستعانة بالصبر والصلاة وهذه الآية، وكذلك آية الجهاد في سبيله تعالى، لما يتطلبه المجاهد من الصبر في مواطن الجهاد وغيره. وفي هذا منهج معالجة من العزيز الحكيم لأمور الحياة وأحداثها.

وفي هذا الإخبار بالابتلاء ما يُبَصِّرُ ويفيد عباده المؤمنين أن الابتلاء مقصود من الله تعالى، بما يجعلهم يعرفون ما قد يصيبهم في هذه الدنيا من تمحيص واختبار، ليدركوا أنها دار فتنة لما بعدها، فما من اختبار إلا لهدف وغاية، وما من نتيجة بعد تمحيص إلا ليصل بها الفائزون للدرجات العلا. فيقابل المؤمن هذا الابتلاء بالعلم والمفهوم الذي بينه الحق تبارك وتعالى. حتى يتعامل مع ما يصيبه من الابتلاء بالذي يتوافق ويليق بمن يعرف ربه تبارك وتعالى. والأصل في الابتلاء أنه يكون في الخير ويكون في الشر، كما قال تعالى في آية أخرى من سورة الأنبياء ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾

فبينت الآية الكريمة أن هناك تنوعاً في الابتلاء: درجة ونوعاً، ومنه ما هو ظاهر للغير، ومنه ما هو خافي عن الغير، ومن تلك الأنواع: الخوف الذي استفتح به أنواع الابتلاء، كما قال تعالى ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ فهو بشيء من الخوف وليس بكله، فالحمد لله تعالى على ذلك. والخوف هو ما يصيب الإنسان من عدم الطمأنينة بحدوث الانزعاج والاضطراب، كما يحدث في الحروب من الفزع والخوف بسبب القتل والنهب والتشريد، وقد يكون الخوف في السلم من عدو أو أمرٍ من أمور الدنيا، كالخوف من فوت محبوب، أو مجيء مكروه، أو غير ذلك من الأسباب المانعة للشعور بالأمن. وفي هذا تذكرة لنعمة الأمن الذي هو ضد الخوف، أو الذي ينعدم به الخوف بحسب درجاته، والتي توجب الشكر والثناء لله تعالى. كما قال صلى الله عليه وسلم (من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)[١]

ومن تلك الأنواع التي ذكرتها الآية الكريمة ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ الذي يفقد به المرء ما يقيم به جوعه، من الطعام بسبب قلته، أو عدم قدرته على جلبه، أو لجائحة أصابت المحاصيل الزراعية، أو

---

(١) الترمذي (٤/٤٩٦) برقم (٢٣٤٦)

تعطل وسائل نقله، أو لأي سبب من الأسباب. وقد أشار الحديث النبوي السابق لذلك بقوله (عنده قوت يومه) والنوع الآخر ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ لما في نقصها من إضعاف القدرة على تحقيق المراد من الحاجات أو الكماليات، والنوع الآخر: هو النقص في الأنفس ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ﴾ بموت العزيز والقريب، فتتأذى النفس بذلك النقص بالموت. والنوع الآخر ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قيل المراد بهم الأولاد، لأنهم ثمرة القلب، وقيل قلة النبات وانقطاع البركات، وعلى كلا الوجهين هو ابتلاء. فإذا علم المؤمن بهذا البيان الرباني من الله تعالى، كان أكثر تقبلاً من غيره، وأحسن حالاً وحكمة في التعامل معها، وأفضل طمأنينة نفسية من غيره. وكلما قوي الإيمان والإدراك لهذه الدلالات ازداد المؤمن بها صبراً وطمأنينة.

فالعلم بهذا البيان من الله تعالى يغرس قدراً من الطمأنينة عند الابتلاء، فكيف إذا زاد عليها بما أمر به تبارك وتعالى عباده أثناء الابتلاء، من الصلاة والصبر، فإن حاله سيكون أحسن وأفضل في الدنيا والآخرة. قال تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين يلوذون إلى الله تعالى بحبس النفس عن الجزع والتسخط، ولا يقولون إلا خيراً، وحمداً وشكراً، وثناء على الله تعالى. بل قد ورد البيان بدلالة البشارة ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ والبشارة هي دخول السرور بما يحب الْمُبَشَّر بالبشارة، فكيف إذا كان الْمُبَشِّر بها هو الله سبحانه وتعالى، فإن فيها وبها تحصيل العظيم من الأجر والثواب، والعِوض الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

فهذه بشارة من الله تعالى للمسلمين الصابرين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فهم الذين جمعوا بين الصبر وبين قولهم ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فتحصل البشارة لهم بأمرين: الأول: الصبر ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ والأمر الثاني: قولهم ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ والصبر حبس النفس عن الجزع من المصاب. وهو

سكون القلب بما ورد على النفس. وهذه البشارة غير مقدرة بمقدار محدد. بما يدل على أنها عظيمة المكاسب.

وقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ ملجأً وملاذاً لكل من أصيب بمصيبة، لأن قول من أصابته مصيبة ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ اعتراف بأنه عبد ومُلْكٌ لله تعالى، فأقر بالربوبية والألوهية، والتوحيد الخالص لله عَزَّ وجل، وأن المملوك عبد لمالكه سبحانه وتعالى، وأنه غير معترض على قضائه وقدره عَزَّ في علاه. كما في الحديث (عدل فيَّ قضاؤك) (١) وقوله ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار بالرجوع إلى الله تعالى، فيكون إقرار بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، وإقرار بالجنة والنار. فهي سند عظيم، أرشد الله عباده المؤمنين لهذه القوة العظيمة، التي يستعين بها المؤمن على كل مصيبة تصيبه.

ثم يبين الله تعالى الثواب العظيم لمن سلك هذا المسلك الرباني ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ فهؤلاء الصابرين المسترجعين لهم من الله تعالى ثلاث خصال. الأولى ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ وهي عفوه وبركاته وتشريفه إياهم في الدنيا والآخرة. والثانية: ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ والرحمة الإنعام، بإعطائه ما يَسُرُّهُ ويدفع عنه ما يضره، ودخول الجنة. والثالثة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ إي السائرون بهدي الله تعالى، والموفقون للسعادة والكمال، لإيمانهم بالابتلاء وصبرهم على ذلك. وهذا يفيد أهمية الصبر والاسترجاع حال وقوع المصيبة، والعلم بأن الله تعالى قد يبتلي المؤمن، وأن الابتلاء قد يكون لرفع درجات المؤمن. وقد يكون عقاباً وسبيلاً لمغفرة الذنوب. فالأمر كله لله تعالى، في أي وجه، وعلى أي وجه كان أمره وتدبيره.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾

(١) أحمد، برقم (٣٧١٢)

وينتقل السياق إلى بيان شعيرة السعي بين الصفا والمروة، لِيُزِيل تَوَهُّم مَنْ تخوفَ من المسلمين من السعي، بسبب ما كان يُفعل في الجاهلية من الطواف وعليها صنمان. فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ فعالجت وبينت هذه الآية الكريمة شعيرة السعي بين جبلي الصفا والمروة، وهما العلمان المعروفان. فبينت الآية الكريمة في السياق القرآني العظيم فائدتين: الأولى: أنهما من شعائر الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذا السياق التنبيه أولاً بأن الصفا والمروة من أعلام دينه الظاهرة، والفائدة الثانية: ليزول كل خوف متعلق بما كان من أمر الجاهلية. ثم بين ارتباط شعيرة السعي بالعمرة والحج. وهذا يفيد تربوياً أهمية إزالة الجهل المركب أولاً، ليستقبل الْمُخَاطب المعرفة على حقيقتها. والجهل المركب هو أن يفهم الشخص الشيء أو العلم أو المعلوم على غير الوجه والمراد الصحيح.

ثم بين الله تعالى بعد إزالة ما علق في ذهن البعض من أمر الجاهلية، أن السعي مرتبط بشعيرة الحج والعمرة ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فجاء الحكم هنا بأنه لا إثم عليه، ولا حرج في ذلك لمن تحرج مما كان يُفعل في الجاهلية بقصد الأصنام التي كانت في ذلك المكان.(١) وهو من واجبات الحج والعمرة. وهذا يفيد أهمية معرفة أسباب النزول، لفهم المراد، وما كان مرتبط بالأمر والنهي إن كان له سبب. ويفيد هذا أن الله تبارك وتعالى له الحكم وحده فيما يتخذه ويقرره على عباده. وأن ما ينحرف به أهل الأهواء والبدع والكفر من الشعائر لا يوجب تركها من أجل ما حصل فيها، بسبب انحراف المنحرفين، بل يجب اتخاذها كما أمر الحق جَلَّ جلاله. ليعرف الناس الحقائق في هذا الدين.

---

(١) وقد استوفت كتب التفسير كل ما يتعلق بأسباب النزول في هذه الآية وغيرها، مثل: تفسير ابن جرير، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير وغيرها. للرجوع إليها لمن أراد.

ثم يقول الله تبارك وتعالى في حق من تطوع بالحج والعمرة ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ وهذا يفيد أن التطوع بالحج والعمرة ﴿ خَيْرًا ﴾ فيه خير كثير لصاحبه، والتطوع هو ما زاد عن الفرض، ففيه خير عظيم، يجده المؤمن عند الله تعالى، الذي يشكر له عمله بالجزاء العظيم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ لأن شكر الله تعالى للعبد إثابته على الطاعة. وفيه الترغيب في عدم الاقتصار على الواجبات، بل يتزود المؤمن بكثرة النوافل من العبادات، لأنها خير لصاحبها بما يلقاه من الله تعالى الذي نوه عن ثواب ذلك بأجمل عبارة، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فهو يعلم ما تتزودون به من الطاعة، فلن يذهب سُدى، بل لكم الإثابة العظيمة. كما يمكن الاستفادة من ذلك، أنه إذا كان الله سبحانه وتعالى يشكر لعبده ما زاد من النوافل، فإن من غاية مكارم الأخلاق أن يشكر العبدُ من أسدل له من الناس معروفاً لا يجب عليه. وتأمل لطف الله تعالى بعباده، وكيف يخاطبهم بأطيب الكلام وأحسن الجزاء وهم عبيده. فإن لُطْف الله تعالى بعباده أعظم من لطف الناس ببعضهم البعض، بل أعظم من لطف الأم بولدها كما ورد في الحديث.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم لبيان المزيد من تصرفات وسلوك أهل الكتاب، ليكون عليهم حجة، وأيضاً لعلهم يهتدون بهذا البيان وغيره من كتاب الله تعالى. وأيضاً ليتعلم المسلمون مما حصل من غيرهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ

مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾ قال المفسرون: وإن كان السياق في أهل الكتاب، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله تعالى. فيبين الله عَزَّ وجل أن من يكتم ما أنزله في الكتاب ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ التي هي العلم الذي يحصل به إقامة الدين، وتحصل به الهداية التي تُوصِلُ الإنسان إلى مراد الله تعالى، فإن هؤلاء الكاتمون لما أنزل اللهُ تعالى لهم اللعنة من الله عَزَّ وجل ، وذلك بطردهم وإبعادِهِم عن قربه ورحمته. وكذلك يلعنهم اللاعنون من الملائكة والناس، أو كذلك من غيرهم من خلق الله تعالى، بسبب ما يُخْفُونَه عن الناس من البينات والهدى التي ينتفع بها البشر، ويتوصلون بها لعبادة الله تعالى وطاعته بما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر. وذكر الإمام القرطبي أن المقصود بالكتاب في قوله تعالى ﴿مِنۢ بَعْـدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ جميع الكتب، لأنه اسم جنس[١]

وهذا يُفيد خطورة كتم العلم ابتداء، ويزداد وجوبه عندما يحتاج الناس إليه، ويتضاعف عندما يسأل الناس عنه. مما يوجب إظهار العلم وبيانه للناس، وتفنيد ما يُرضي الله تعالى وما لا يرضيه، وألا يجامل به أحداً، أو يسترضي به أحداً من الخلق، بإخفاء شيء منه ً، أو يلوي عُنُقَ المراد من النص وتطويعه ليقضي به مراده، أو مراد أحدٍ من دون الله تعالى. أو ليجلب به مصلحة، فيتقرب به لأحد من الناس، أو غير ذلك مما لا يُرضي الله تعالى. وهذا يدل على المسؤولية العظيمة التي يتحملها العلماء، أعانهم الله تعالى، وهذا يوجب مؤازرة الربانيين منهم، ومناصرتهم على الحق، وإكرامهم لما يحملونه من مسؤولية دينية عظيمة.

ومن شدة خطورة هذا الصنيع أنَّ الله تعالى حذر منه بقوله عَزَّ وجل ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾ فاللعنة من الله تتضمن الطرد والإبعاد من الخير، واللاعنون لهؤلاء هم كرماء خلقه سبحانه وتعالى من الملائكة والمؤمنين. قال السعدي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً، صارت اللعنة عليهم

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٥/٢)

وصفاً ثابتاً لا يزول، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.[١] ومن فوائد ذلك أن مكن خلقه سبحانه وتعالى من لعن الكاتمين لهدى الله تعالى، لما يقومون به من حجب الخير عن الناس. ليتأكد بذلك شناعة كتمان هدى الله تعالى.

ولكن رحمة الله تعالى تتواصل على التائب من ذنبه وفعله، فيقول الله تعالى في حق أولئك ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ فهي ثلاثة شروط: الشرط الأول: التوبة: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ بالرجوع عما كانوا يعملون، وهذا يتطلب التوقف عن ذلك، والعزم على أن لا يعودوا إليه، والشرط الثاني: ﴿ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ أي: إصلاحوا أنفسهم بالعودة إلى الحق، وإصلاح ما أفسدوه، وقد يتطلب ذلك أن يعلن ما كان عليه من الخطأ، وبيان الحقيقة للناس، ببذل كل ما يستطيع في إزالة ما أفسد، ويُصلح فيما هو حال وقادم. والشرط الثالث: ﴿ وَبَيَّنُواْ ﴾ وهو: البيان الواضح الذي لا لبس فيه. ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وهذا يفيد أن الله تعالى رحيم بعباده، إذ يَقْبل التوبة من المسيء إذا رجع وأقلع عن الإثم واستغفر وتاب وأناب إلى ربه من ذنبه. فأي خير أعظم من هذا الخير للعاصي الذي يتوب اللهُ تعالى عليه فيقبل توبته، ويمحو عنه أثرها، وما تستوجب من العقوبة.

وهذا يدل ويفيد على أهمية القبول الاجتماعي لمن ترك ما كان عليه من الانحراف، واحتوائه، وكأنه لم يفعل شيئاً من ذلك. وألا يُعّيَّره بما كان منه، لأن الله يتوب على من تاب. ويفيد هذا في باب التعامل الاجتماعي قبول المعتذر ولا يُعَنّف عليه. ويفيد كذلك أن من عمل خطأ ولو لم يعلم به أحدٌ أن يتوب إلى الله تعالى، وأن يُصلح ما كان منه. ثم تنتهي الآية الكريمة المملؤة بعظيم التوجيه وكمال الرحمة بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فإن من صفاته وأسمائه عَزَّ وجل أنه تواب رحيم. وهذا من فيض كرمه عليهم وعلى عباده بتقريره أنه سبحانه وتعالى تواب رحيم، وأنها صفة من صفاته، بل ورد اسم ﴿ ٱلتَّوَّابُ ﴾ بصيغة المبالغة، التي تفيد كثرة التوبة منه عَزَّ وجل

---

(١) بن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٢٣/١)

لعباده، وتحقيقاً وتوفيقاً لها، فلا تضطربوا ولا تخافوا، بل اطمئنوا وأمِّلُوا الخير من الله تعالى. وكذلك ورد اسم ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ مثلها، بأنه عَزَّ وجل متصف بالرحمة التي هي اسم من اسمائه سبحانه وتعالى، وتفيد المبالغة كذلك في سعة رحمته وكثرتها وعظيم دلالتها. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بعباده، إذ يعتني بنفوسهم غاية العناية. بل وردت مسبوقة بضمير المتكلم سبحانه وتعالى ﴿ وَأَنَا ﴾ لإفادة التعظيم والتبجيل لجلالته عَزَّ في علاه، مع كمال القدرة. وكذلك أفادت الحصر والقصر بأنه لا غيره الذي يتوب على جميع التائبين، ويرحمهم برحمته التي ليس لها مثيل ولا شبيه. فله عَزَّ وجل، وتبارك وتعالى الحمد والشكر، اللهم اغفر لنا وارحمنا.

ثم يبين الله تعالى حال من اختار الكفر ومات كافراً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ففي هذه الآية بيان لحال من اختار الكفر على الإسلام، ومات على كفره والعياذ بالله تعالى من الكفر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ استمروا على كفرهم، فماتوا كافرين ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ فاجتمعت عليهم لعنت الله عَزَّ وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ ﴾ وكذلك كرام خلقه سبحانه وتعالى، وهم ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ وعطف عليهم ﴿ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ مما يبين شد غضب الله تعالى عليهم ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ خالدين في النار، خلوداً أبدياً ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ فلا تخف عنهم شدة العذاب ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ولا يمهلون وقتاً ليتوبوا ويرجعوا عن كفرهم، لأن الإمهال في الدنيا، وقد انقطع، وأما شأن الآخرة فهو حساب وجزاء. مما يفيد اغتنموا دنياكم خير لكم.

فقد وصف الله تعالى عذابهم بالخلود الدائم، وأنه لا يُخفف عنهم العذاب ولا يُمهَلُون. مما يفيد أن الدنيا هي دار الإمهال للتوبة والرجوع إلى الله تعالى، وأما الآخرة فهي دار جزاء. وهذا بيان

وتنبيه وإنذار من الله تعالى لعباده بأن مآل الكافر هو النار، مما يفيد التحذير بالبيان والوصف، وقطع ما يمكن أن يدور في ذهن الإنسان من أنه ربما يُنظر ويُمْهَلُ ويعود يوم الفصل والجزاء. فالأمر قطعي واضح وجلي.

ثم ينتقل السياق إلى بيان أوجب ما يجب على العبد أن يعرفه عن خالقه تبارك وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ فقد بينت الآية العظيمة صفة الله تعالى التي يجب على العبد أن يعرفها ويعتقدها، ويعمل بما تقتضيه من دلالات كثيرة وعظيمة.

فإن ربكم هو معبودكم ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ ﴾ فإنه هو الذي يجب عليكم أن تتوجهون له بالعبادة، والطاعة والامتثال والرجاء والخوف، والرهبة والرغبة. فينقطع بذلك عنكم كل معبود غير الله تعالى. فينتفي معه غيره ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فربكم هو معبود واحد لا شريك له. وهذا إثبات وحدانيته سبحانه وتعالى. وأما دلالة قوله عَزَّ وجل ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فقد اشتملت على نفي وإثبات، بأنه لا يوجد إله يَعْبُدْهُ خَلْقُه بحق غيره تبارك وتعالى. فنفى كلَّ معبود سواه، فإن كلَّ إله سواه فهو باطل، وإثبات أنه تبارك وتعالى هو الإله الواحد الأحد. مما يفيد أنه يجب ألا يُوَجِّه العبدُ شيئاً من العبادة إلا له وحده لا شريك له، وبالتالي هو الرب وهو الخالق وهو المتصرف، وكل صفة له عَزَّ وجل تُوجِب ما يترتب عليها من الخشية والخشوع والاستعانة والاستغاثة.

ثم يبين الله تبارك وتعالى أنه ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ فهذا ما يتصف به ربنا تبارك وتعالى من الرحمة التي شملت الكون كله، إذ من رحمته بعباده أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وسخر لهم ما في السماوات والأرض برحمته، ويقبل التوبة من عباده وذلك لرحمته بهم، ولو لم يكن كذلك لَمَا قَبِل توبة الكافر إذا ترك الكفر، وتوبة من ادَّعى له الولد، سبحانه وتعالى عما يقولون ويصفون، وكذلك توبة عباده في غيرها من المعاصي المختلفة. فالحمد لله تعالى على رحمته التي وسعت كل شيء.

وفي قوله تعالى ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ نفي أن يكون هناك إله غيره مُتصف بهذه الأسماء وهذه الصفات. وبالتالي كل ما يُعْبَد من دون الله تعالى فهو لا يملك ما يملكه

الله تعالى من الرحمة، ولا غيرها من خصائص أسماء الله تعالى وصفاته، ولا يمكن أن يتصف بما اتصف به الرحمن من أسماء وصفات. وبالتالي لا يستطيع غيره أن يعطي ما يعطي الرحمن الرحيم. بما يدل على بطلان جميع أنواع الشرك. فلا معبود بحق، ولا رب ولا مالك للكون كله إلا هو تبارك وتعالى. وهذا بيان بانفراده سبحانه وتعالى بالألوهية

كما اشتملت الآية الكريمة على حصر هذه الصفات فيه تبارك وتعالى، بالنفي والقصر والإثبات. فبالنفي قوله تبارك وتعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ فنفى جميع الالهة من دونه عَزَّ وجل، فلا إله غير الله تعالى، وأفاد هذا النفي: القطع والجزم بأنه لا ألوهية لأحد غيره سبحانه وتعالى. ثم الحصر والإثبات بأنها له عَزَّ في علاه ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فكل مألوه غير الله تبارك وتعالى باطل من أصله، فلا يوجد إله غيره سبحانه وتعالى، فمن عبد غير الله تعالى فقد كفر بربه عَزَّ وجل. فاشتمل قوله عَزَّ وجل ﴿إِلَّا هُوَ﴾ على اثبات الوحدانية لله تعالى. ثم تقرير أن اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ له وحده لا شريك له. فاشتملت الآية العظيمة على تقرير التوحيد بأقسامه الثلاثة، توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

فدلالة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تُعَلِّم العباد بأن العبادة لا تُصرف إلا له عَزَّ وجل، وبالتالي لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له، فعليكم أيها الناس بعبادة ربكم وحده لا شريك له.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

يلفت الله تعالى انتباه عباده إلى ملكوته العظيم، وما فيه من الآيات الباهرات، الدالة على ربوبيته وألوهيته، وأنه خالق كل شيء ومالكه والمتصرف فيه بحكمته، وينبه ويوجه تبارك وتعالى عباده إلى الالتفات والتأمل فيما يُحيط بهم من ارتفاع سقف السماء، ولطافتها واتساعها، وما فيها من

كواكب سيارة وثابتة ومبثوثة في السما، ولا يحصيها أحد، مهما بلغ العادُّون. ليندرج في ذهن الْمُخَاطَبين السؤال العظيم: فمن أبدع هذا في أدق ما يكون؟ أليس هو خالق هذا الكون؟ أليس هو رب الكون؟ ورب هذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها الشامخة، وبحارها، وقفارها، ووهادها، وعمرانها، وما فيها من المنافع. فمن سخر هذه الأرض بهذه الكيفية، وشق فيها الطرق ومسارات السيول؟ أليس هو مالك الكون وخالقه؟ ثم النظر في اختلاف الليل والنهار، فهذا يجيء وهذا يغيب، فيخلف بعضها بعضاً في نسق دقيق، لا يتخلف أحدهما عن الآخر، ولا يتقدم عليه الآخر لحظة.

وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا، ثم يتعاوضان. أليس هو المبدع في خلقه؟ أليس هو المسخر والمتحكم؟ أليس هو الله تبارك وتعالى أحسن الخالقين؟ وكذلك لفت النظر والعقل والحواس إلى البحار كيف سخرها لحمل السفن، والتنقل بها من مكان لآخر، تحمل المتاع والأرزاق، فيتناقلون بها ما تنوع من عطاء الرحمن تبارك وتعالى. فمن أوصل البحار ببعضها؟ ومن قدر مسافاتها؟ ومن أنزلها عن اليابسة بمقدار؟ حتى لا يفيض الماء على اليابسة فيغرقها. أليس هو الله اللطيف الرحمن الرحيم؟

ثم يوجه الله تعالى الفكر لما يراه العبد ويحسه بحواسه، ويعرف نفعه وضرره من تسخير السحاب بين السماء والأرض، فينزل بقدر ما تحتاجه الأرض والناس، وبقدر ما يحقق لهم الخير، ثم ينقبض شيئاً فشيئاً لتتجه به الرياح لأماكن أخرى، ولو زاد هطول ما أمطر عن القدر المقدر من الله تعالى لهلك الناس والزرع والبهائم. فمن قدر هذا؟ أليس هو خالق الكون بقدرته؟ ثم يُحيي الأرض بهذا الماء بعد موتها، فينبت العشب وتخضر الأرض، ويفرح الناس بهذا العطاء. وقد خلق وبث ونشر فيها الدواب للركوب والدواب والزروع للأكل منها، ولبهائمهم.

ثم يلفت الله تبارك وتعالى إلى تأمل الرياح التي يُرى أثرها بحمل السحاب والانتقال به من مكان لآخر. وكذلك حمل أتربة الأرض دون أن يرى الإنسان هذه الرياح للطافتها، غير أنه يحسها عندما تهب على وجهه وبشرته، فيشعر بلطافتها، أو يرى ما تحمله أو تُحركه أو تعطبه وتقتلعه، فيرى أثرها ولا يراها، ويُصَرِّفُها الحقُ تبارك وتعالى كيف شاء، فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه. ثم تارة تأتي من الشمال وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن، وتارة صبا، وهي الشرقية، وتارة دبوراً

وهي الغريبة[١]. فمن سخر هذه؟ ومن أجراها بتلك الكيفيات والاتجاهات؟ أليس هو مدبر هذا الكون وخالقه؟ اليس هو المعبود بحق؟ أليس هو الرحمن الرحيم؟ فكل شيء من مخلوقاته يدل على أنه الله تبارك وتعالى خالق ومدبر كل شيء. وتختم الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى: إن في ذلك ﴿لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن فيما سبق ذكره من الخلق والتدبير لعلامات ودلائل تدل عليه تبارك وتعالى لمن يتأمل ويتفكر، ثم يتعقل فيعقل.

وهذا دليل على أهمية التفكير فيما يحيط بالإنسان، ليحصل له الإيمان والطاعة لله تعالى.

كما يفيد هذا أهمية اشتمال المناهج التعليمية، والدروس، وطرائق الدعوة على عملية التأمل والتفكر في إبداع الله تعالى لمخلوقاته، التي هي الكون كله بما حواه، وما فيها من العبر والدلائل الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى، وأنه هو الخالق، وهو رب كل شيء ومليكه. وبالتالي فإن العبادة لا تُصرَف إلا له عَزَّ وجل وفق ما شرعه جَلَّ جلاله، وبينه نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

بعد أن بين الله تعالى في المقطع السابق لهذه الآيات العظيمة ما اشتمل عليه ملكوته العظيم من الآيات والعلامات الباهرات الدالة على ربوبيته وألوهيته، وأنه خالق كل شيء ومالكه والمتصرف فيه بحكمته، فإن من الناس من يكفر ويشرك به سبحانه وتعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ فمن البشر مع كل ما يرى ويشاهد ويحس من دلائل

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١/٢٠٧) بتصرف

وحدانية الله تعالى وربوبيته وألوهيته يتخذ من دون لله شريكاً، فيصرف له العبادة: كالرجاء والخوف والخشية والدعاء والاستغاثة وغيرها، كأنه مثيل ونظير لله تعالى، فيعبدونها من دون الله تعالى، بل يحبون تلك المعبودات، ويساوون بين محبتهم لله تعالى ومحبتهم لتلك المعبودات من دون الله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ وهذا يبين خلل التفكير عند البعض، وخلل التحليل، وخلل الاستنتاج. نتيجة التقليد الأعمى لما عليه غيره، أو للتنشئة التي نشأ وتربى عليها، أو تعطيله لهذه القوة العاقلة التي زود اللهُ تعالى بها عباده، من عقل يفكر ويستنتج به ما يدل على وحدانية الله تبارك وتعالى وربوبيته. ثم يتدرج به الأمر إلى أن يخاف تلك المعبودات من شجر وحجر وأضرحة وغيرها، ويبدأ يحبها حباً شديداً، يضاهي حبه لله تعالى ﴿ يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ وهذا يفيد أهمية مناقشة الفكر في عملية الإقناع التربوي والدعوي، بالحيثيات التي تبين خطأ ما هو عليه المنحرف من انحراف.

ويفيد هذا أن كل مخلوق هو عبد لله تعالى، فكيف يجعل المخلوق مخلوقاً مثله شريكاً أو معبوداً له من دون خالقه الذي لفت انتباهه للكون وما فيه من آيات باهرات، دالة على وحدانية الله تعالى. ولما أن كل مخلوقٍ ناقصُ الإرادة، فكيف يطلب المخلوق من مخلوق ناقص الإرادة أن يدفع عنه شراً أو يجلب له خيراً، حتى الأنبياء عبيدٌ لله تعالى، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في سورة الأعراف ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فكيف يملك ممن هو دونه من المخلوقات لنفسه أو لغيره.

ثم يبين الله تعالى الفرق بين محبة هؤلاء وبين محبة المؤمنين لله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾ فأهل الإيمان الذين هم أهل التقوى أشد حباً وطاعة وامتثالاً لله تعالى. ودلالة كلمة ﴿ أَشَدُّ ﴾ توحي وتُظهر وتبين أن المؤمنين لا يحبون شيئاً أكثر من حبهم لله تعالى، فكل ما هو دونه هو دونه أيضاً في المحبة. وهذا يفيد أن محبة الله تعالى ومحبة شريعته ومحبة الانقياد له هي من طاعته ومن علامات الإيمان، فيكره المؤمن أن يعصي ربه عَزَّ في علاه، ويكره أن يأتي بالعبادة ناقصة،

ويشتاق للعبادة، لأن من أحب شيئاً اشتاق إليه. ومن يحب الله تعالى يُحب طاعته، ويستحي من التقصير والمعصية، لأنه يستحي من أن يراه ربه تبارك وتعالى وهو على غير ما يحب أن يكون عليه.

فأوجب حب المؤمنين لله تعالى تنزيهه جَلَّ جلاله عن الشرك والنقص، فيعظمونه ويتوكلون عليه، ويدعونه رغباً ورهباً، فاستولى حُبَّهُ على قلوبهم، فلا يحبون شيئاً أشد حباً منه تبارك وتعالى، ولا يستغيثون إلا به، ولا يلجؤون إلا إليه، فيعبدونه ولا يشركون به شيئاً.

وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ قوة يتقوى بها المؤمن، وقوة يُقَوي بها المسلم إرادته أمام كل ناقض لها، فإن كان أمام خيارين، اختار الذي يحقق قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وإن كان أمام إغراء تَقَوّى عليه بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وإن وهنت نفسه عن العبادة، استنهضها بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وإن جذبته شهواته إلى ما يُغضب الله تعالى، استقوى واستعصى عليها بقول العزيز الكريم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وإن أُفْتُتِنَ بفتنة استعداها بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وإن زاغ البصر، حجبه ومنعه بقول الرحمن الرحيم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وإن شَطَّ الفكر أعاده لصوابه بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وإن رأى غيره على تقصير أو انحراف وعظه بقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ فكل قوة انحرافية يستقوي عليها بالله تعالى، وبتقديم محبته لله تعالى على كل ميل وهوى وشطط، لتكون محبته لله تعالى كالجبال يَصُدُّ ويحارب بها فِتَنَ الحياة.

ثم بين العليم الحكيم أن الشرك ظلم ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ فصور وماثل تبارك وتعالى الشرك بالظلم، فيكون المشرك قد ظلم نفسه بشركه، وكذلك لأن الشرك ظلام حالك، يحجب المشرك عن النور. فلو يرى الذين ظلموا أنفسهم بهذا التصرف الذي دخلوا به ظلام الشرك، لما دخلوه عندما يرون العذاب. مما يفيد

أن الشرك ظلم وظلام على صاحبه، يمنعه من نور التوحيد والعبادة التي يستنير بها القلب، ويطمئن بها الفؤاد.

والشرك يجعل صاحبه ظالم، فيستحق العقوبة والجزاء الذي ذكره الله تعالى بعد بيان حال الناس في محبته، إذ قال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ وهذا تهديدٌ ووعيدٌ عظيم الدلالة، ترتجف له القلوب، فحين يرون العذاب سيعلمون ذلك الوقت أن القوة لله تعالى، وجاء لفظ ﴿ جَمِيعًا ﴾ في قوله تعالى ﴿ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ليتبين ويبين عَزَّ وجل أن القوة جميعاً محصورة ومقصورة له تبارك وتعالى. وأما القوة البشرية فإنها ضعيفة، لأنها قوة ناقصة، وليست ﴿ جَمِيعًا ﴾ وبالتالي فإن قوة معبوداتهم من البشر ضعيفة هزيلة، لأنها ليست ﴿ جَمِيعًا ﴾ فبالحيلة يستطيع أن يهرب ويعتذر المشرك من معبوداته، ولكن لا يستطيع ذلك أمام من له القوة جميعاً، فلا يستطيع أن ينفك من تلك القوة ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

فبعد أن وصف الله القوي العزيز حال المشرك والمؤمن بالمقارنة التي توضح حقيقة المحبة، جاء الوعيد ليكون إنذاراً وتوجيها، فإما أن يعود المُخَاطب للصواب، أو سَيَلقَى الجزاء الموعود به في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ فقد علموا بهذا الوعيد الرباني، أن عذاباً شديداً مهولاً لا يقدرون عليه من شدته ينتظرهم، إن لم يتركوا ما هم عليه من الشرك ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ فإن عقاب ربكم أيها الناس موصوف بالشدة التي لا تراخي فيها أبداً. وفي هذا تهديد ووعيد لأهل الكفر بأنواعه، وهو من رحمة الله تعالى بعباده، إذ يعلمهم، ويرشدهم، ويعظهم ويحذرهم. ثم من عصى فقد استحق العذاب الشديد بسبب عصيانه وتمرده على بينات ربه وحججه سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل السياق إلى بيان حال التابع والمتبوع ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ فتتبرأ جميع المعبودات منهم، فالملائكة تتبرأ ممن عبدها، وسوف يتبرأ الرُّسُل والصالحون الذين عُبِدَت قبورهم، كما قال الله تعالى عن عيسى ابن مريم عليه السلام في سورة المائدة ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾

فلم يطلب الذين عُبِدُوا من دون الله تعالى أن يتخذونهم الناس آلهة. وفي هذا عدل الله عَزّ وجل، إذ يتبرأ مَنْ عُبِد من غير الله تعالى بغير رغبته، فتقوم الحجة عليهم بأفعالهم التي كانوا يفعلونها ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ فعاينوا عذاب الله تعالى، وانقطعت عنهم الحيل والحجج وأسباب الخلاص، ولم يجدوا مفراً عن النار. فيقول الذين اتبعوا وهم المشركون ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ فهنا يطلبون العودة للحياة الدنيا، ليوحدوا الله تعالى، لَمَّا عاينوا العذاب. فتأتي الحسرة والندامة على ما كان منهم من ذلك الشرك والعبادة الظالمة ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ فبمثل ما كانوا عليه من الشرك ومن العناد بالاستمرار على الباطل، فكذلك يجعلهم الله تعالى يرون ويعاينون أعمالهم الباطلة حسرة في قلوبهم، فيجتمع عليهم العذاب النفسي ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ وكذلك يجتمع عليهم العذاب الجسدي من النار ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ فتنتهي الآيات الكريمات بتوضيح المصير، لتكون إنذاراً لكل مشرك، وحجة لعذاب الله تعالى عليهم، لمن مات على كفره. ولا شك أنه أعظم حسرة تمر بالإنسان الكافر. فإنها موعظة قرآنية ربانية عظيمة، فمن لم يتعظ بالقرآن الكريم وما فيه من الوعظ فبأي حديث بعده يتعظ، فنسأل الله تعالى العصمة والهداية والتوفيق والثبات على ما يُحبه ربنا ويرضاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾

يذكر ويبين اللهُ تعالى للناس جميعاً نعمة ما يخرج من الأرض بإذنه ورحمته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ يوضح ويبين ويُفيد هذا المقطع من هذه الآية الكريمة، شمولية الرزق، بأنه للناس كافة، فإن رزق الله تعالى للناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾

فالخطاب ورد للناس جميعاً، وهذا دليل كرمه تبارك وتعالى وعظيم رحمته وجليل إحسانه، وأنه هو الرزاق الذي برحمته وقدرته وحكمته جعل الأرض تُنْبِت وتُخْرِج ما يحتاجه الإنسان إليه من أنواع الطعام. وجاء لفت الانتباه هنا من خلال التوجيه بالأكل مما في الأرض، الذي يتوافق كماً ونوعاً مع حاجة الإنسان. مما يثير تساؤلات تقود للإيمان.

فأول هذه التساؤلات هو: مَن قَدَّرَ هذا التوافُق الكمي والنوعي بين الحاجة والعطاء؟ أي: حاجة الإنسان وعطاء الله تعالى من الأرض وما عليها. ومن قَدَّرَ وجعل هذه الأرض الجرداء تُخْرِج أشجاراً وحشائش متنوعة في الشكل والحجم، وتنوعاً واختلافاً في الأوراق والثمار؟ وتنوعاً في المذاق، فمنها ما كان حامضاً، ومنها ما كان حلو المذاق، ثم تتفاوت درجات كل مذاق، بالرغم من أنها خرجت جميعاً من أرض واحدة وبماء واحدٍ. وهذا يستدعي تفكير الإنسان للتساؤل، من أخرج وقَدَّر هذا؟ فلا بد أن هناك خالق ذو قوة وقدرة وحكمة ورحمة، إذ سخر لهم هذه الأطعمة المتنوعة من أرض واحدة، مما يستوجب الإيمان به وعبادته وتوحيده وحده لا شريك له.

وقد وصف الله تعالى حكم أكلها بالحلال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا﴾ وهو حكمٌ مضاد للتحريم، ولا يصدر الحكم إلا ممن له حق إصدار الحكم، وبالتالي يفيد التنويه من الخالق الكريم أنه هو الْمُنْبِت والْمُخْرِج لهذا الرزق، الذي أمدكم به ﴿حَلَٰلٗا﴾ وأيضاً ﴿طَيِّبٗا﴾ مستطاباً لا شر فيه. وهذا بلا شك ولا ريب، يستوجب شكره عَزَّ وجل على إحسانه وتفضله بهذا الإنعام الكريم. فنحمد الله تعالى على هذه النعم الجليلة العظيمة.

وكونه موصوفاً بالحلال فهو على الأصل، بأن الأصل فيما تخرجه الأرض هو حلالاً وطيباً. قاستوجب بذلك النهي عن أكله بالطرق المحرمة كالسرقة، واغتصابه من صاحبه، أو أكله بمعاملة محرمة. وكونه طيباً يستوجب أكله على الأصل وليس بتغييره من حلال طيب إلى خبيث مُحَرَّم. كأن يكون مسكراً، بعد إحالته من الحلال الطيب إلى لخبيث المحرم، أو أن يوضع فيه ما يجعله مضراً على أي وجه من الأوجه.

ثم بعد بيان هذه النعمة من المطعوم، يأتي التنبيه لنعمة عظيمة أخرى، وهي نعمة التعريف والبيان بالعدو، للناس جميعاً ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ فهو عدو واضح في عداوته للناس جميعاً. لما يأمر به ويزينه من الشهوات والشبهات. فهو عدو للمؤمن بتزيينه للشر وبما يوسوس به في الصدور، كتسويف الطاعة وتأخيرها، ليفوت أو يخرج وقتها، وكذلك عدو للكافر بإثارة الشبهات التي تصده عن اتباع الحق، وتزيين الشهوات التي تجعله ينغمس فيها، فلا يلتفت للحق بشكوكه وريبه. فنهى عن اتباع خطواته، التي هي طرائقه. وقد أعطت دلالة ﴿خُطُوَٰتِ﴾ ما يفيد أن الشيطان يتعامل مع الإنسان وفق خطوات متتابعة متدرجة، فكلما تابعه الإنسان في خطوة، قاده وسحبه وجره إلى خطوة أخرى، حتى يُبعده عن مصالحه وفلاحه ونجاته، فيقع فيما يَسُوؤهُ من المعاصي. وورد النهي بأسلوب التحذير من المتابعة ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ بما يفيد التوقف عن السير خلف ومتابعته ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ﴾ فإن متابعتكم له تقودكم إلى الشر والوقيعة بكم فيما تكرهون وتندمون عليه في الدنيا والآخرة.

ثم علل البيان الكريم سبب النهي عن متابعته، فقال الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ إن الشيطان عدو لكم، وقد ظهرة عداوته لكم، ابتداء من آدم عليه السلام. وكما قال عَزَّ وجل في سورة آل عمران عن عداوته التي يتوعد بها جنس الإنسان ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: كما أضللتني وأهلكتني، لأقعدن لعبادك الذين هم من نسل آدم، والذي بسببه أبعدتني عن الطريق المستقيم. إذاً هو عدو للجنس البشري كله.

ثم زاد البيان في الكشف عن مواطن غوايته، بأن حصر سبحانه وتعالى خطوات الشيطان المتتابعة بأنها كائنة في جميع أنواع السوء والفحشاء. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي: لا يأمركم إلا فيما تسوء به عواقبكم، من مصالح المعاش والمعاد، فإنه يأمر بالفحشاء، التي هي كل ما نهت عنه الشريعة من المعاصي.

وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء خاص والسوء عام في الضر كله، إذ يشمل السوء كل ما يسوء الإنسان، وأما الفحشاء فهي: ما تناهى قبحها، كالقتل، وشرب الخمر، والزنا، والقذف. وفي هذا ما يفيد أن من أساليب الإيضاح عطف الخاص على العام، للبيان والتنبيه، ولفت الذهن للخاص، أو لنفي احتمال متوقع عند الْمُخَاطب، من أن العام قد لا يشمل الخاص. وأن في ذكر الخاص بالتخصيص هو لإظهار وبيان تميزه عن العموم، وذلك للتنبيه والحرص والاهتمام.

وأفاد البيان الكريم حصر أمره للإنسان في السوء والفحشاء ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ ﴾ لإظهار أنه لا يمكن أن يقزدكم لخير ومنفعة، حتى وإن أظهرها منفعة، فهي تؤدي إلى ما يسوؤكم . فاحذروه. وهذا من رحمة الله تعالى للعباد بأن بين وأظهر لهم عدوهم الشيطان الرجيم بأدق البيان. مما يستوجب الحذر منه، والتعوذ بالله تعالى من شره. والحمد لله رب العالمين.

ومن أشد خطوات الشيطان هو أمره وتزيينه التَّقوّل والكذب على الله تعالى ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهو القول على الله بلا علم، مما يفيد أن من يقول على الله بلا علم ومعرفة فإنه قد سلك مسلك الشيطان، وأنه قد صَادهُ وأوقعه فيما نهى الله تعالى عنه، وحَذَّرَهُ منه. مما يفيد الحذر من أن يقول الإنسان على الله تعالى بلا علم، فَيُحَرِّم ويحلل ويبتدع في العبادات والأحكام، ويعضده الشيطان بتزيين السوء له، مما يفيد خطورة التعالم وتقديم العقل على النقل، وتقديم الأوهام والظنون والتجرؤ على الله تعالى. فإن الشيطان كما بين الله تعالى قد توعد بغواية الإنسان كما جاء في سورة الأعراف ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فأي نعمة أجل من نعمة

بيان العدو الخفي، الذي لولا بيان الله تعالى لنا به، لما عرفناه، لما يتخفى به من خصائص خِلقته. فإنها نعمة توجب الشكر، وتوجب الحذر.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

وبعد أن بين الله تعالى مسلك الشيطان وخطواته وحَذَّرَ منه، يوضح ويبَيِّنَ جَلَّ جلاله حال الكافرين الذين يُصِرُّونَ على الكفر بعد أن جاءتهم البينات والنذر الواضحة، ومع ذلك يتحججون بما كان عليه الآباء، ليقتدوا بهم. فقال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ وإذا نصح المؤمنين أهل الضلال، فقالوا لهم ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ أي: اتبعوا القرآن الذي أنزله الله تعالى، وهدي رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ أي: اعترضوا على المؤمنين، قائلين لا نتبع دينكم، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا مما هم عليه من الكفر.

فيقدم المتحجج ما كان عليه الآباء من الجهل والضلال على البينات الواضحات التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم. مما يفيد خطورة المتابعة في الدين بدون علم. كما يفيد أن عقل الإدراك لا يغني عن عقل الرشد. فعقل الإدراك هو ضد الجنون، وهو الذي يدرك به الإنسان الأحجام والألوان والأطوال، وهو عند كل أحد من الناس: مسلمهم وكافرهم. وأما عقل الرشد فهو العقل الذي يُعْرَفُ به الخير من الشر، والحق من الباطل. ثم يختار الحق ويقدمه على الباطل، مهما كان الأمر.

وكون الإنسان يعطل عقل الرشد عن التماس ومعرفة الحق فإنه يُهلك نفسه، ويؤدي بها إلى التهلكة. ولذلك نلمح في الآية قوله تعالى ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ فهل يتركون الحق حتى ولو اتضح لهم أن آباءهم كانوا لا يعقلون شيئاً عن الحق؟

سؤال واستفهام استنكاري. فجاء بصيغة التعجب من اختيار متابعة الآباء حتى ولو لم يعقل أولئك الآباء شيئاً من الحق. لأن دليل الرشد هو اختيار الحق واتباعه، وأنه عند حصول التقليد يكون ذلك التقليد بعلم، وأما تقليد الباطل فهو دليل سفه وعدم رُشد. خاصة إذا جاء الحق واضحاً أبلجاً، فبان به الصواب من الضلال، فما يكون تقليد الباطل منهم ومتابعته إلا سفهاً.

والتقليد والمتابعة للجاهل والجهال مع وضوح الحق، يحرم الإنسان من الخير في دار معاشه ومعاده. فنسأل الله تعالى التوفيق والسداد. ولذلك أنزل الله تعالى القرآن يخاطب الإنسان بالآيات والدلالات الواضحات، التي تنقله من الجهل إلى العلم والمعرفة، ومن الباطل إلى الحق، فيلفت الله تعالى انتباه الإنسان لكل ما يحيط به، ليدرك به الحق فيتبعه، حتى في إنبات الأرض وما عليها مما يأكله ويتغذى به الإنسان في يومه قد لفت سبحانه وتعالى انتباه عباده إليه.

وتُعطي معطياتُ الآية الكريمة الداعيةَ خبرةً وعلماً، لما قد يواجهه في طريق الدعوة. كما يفيد هذا أهمية الوعي وحُسن استخدام العقل بالتفكر والتأمل في كل أمر ديني ودنيوي، وألا يكون الإنسانُ إمعةً، يُحسنُ إن أحسنَ الناسَ، ويُسيءُ إن أساء الناسُ، كما ورد في الحديث. بل يُوَطِّنُ الإنسان نفسه. فإن الذي منع بعض الكفار من الدخول في الإسلام هو تقليدهم لمن سبقهم، واحتجوا بما كانوا عليه، فمنعهم ذلك من التفكير الناقد الفاحص الذي يوصلهم إلى لحق. وبالتالي فإن التقليد إما عن جهل، وإما عن علم ومعرفة. فالتقليد عن جهل تَهلُكةٌ للإنسان الْمُقَلِّدِ، وأما التقليد عن وعي وعلم في الخير، ولأهل الخير فهو مطلوب، وعلى رأسهم الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى تفصيلاً لأقوال العلماء في التقليد وأنواعه وأحكامه، فلينظره لمن أراد المزيد[١] وكذلك فَصَّلَ فيه الإمام الشوكاني من خلال كتابه: أدب الطلب ومنتهى الأرب.

ثم ضرب الله تعالى لمسلكهم مثلاً، وذلك لزيادة الإيضاح والتعليم، لعلهم يرشدون، ولعل غيرهم يتعظ بهم، وليكون علماً وبياناً ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وفي هذا بيان لخطورة تعطيل أدوات التعلم والفهم، فيعطل الإنسان أذنيه عن سماع الحق، ولسانه عن الاستفسار والنطق بالخير الذي ينفعه،

(١) انظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/١٤٢_١٤٤)

ويغمض عينه عما يحيط به من علامات ودلالات واضحات وموضحات للحق، ومن ذلك ما يراه من الرسول صلى الله عليه وسلم، ويسمعه من القرآن. فمثل الذين كفروا كمثل البهائم التي يصيح لها الراعي وليس لها فهم ولا علم بما يقول الراعي من كلمات ودلالات ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ فهي تسمع الصوت فقط، ولا تعرف مضمونه، وهم كذلك يسمعون صوت نداء الحق، ويعطلون آذانهم وألسنتهم وأبصارهم عنه، كأنهم لم يسمعوا ولم يروا شيئاً، إلا صوتاً تقوم به الحجة عليهم دون أن ينتفعوا به. فهؤلاء لا يعقلون ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي: لا يعملون ويوظفون عقولهم فيما ينفعهم. فدلالة ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أي: لا يرشدون، وهو عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يُرْفَعُ به القلم عنهم. وكذلك يصدق المثل على أنهم يعبدون ما لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم من الأصنام، فيدعونها ويطلبون منها، وهي لا تفقه شيئاً مما يقولون. مما يبين ويفيد أن ضرب المثل أحد أساليب التعليم التي يُوصِلُ بها الداعية والمربي مراده بدقة، وبتقريب المراد من عقل المُخَاطَب، ولْيَسْتَيْقِظُ به العقل وينتعش به الفكر، من خلال محتويات ومضامين المثل. وهذا يدل على أهمية أسلوب ضرب الأمثال تربوياً ودعوياً. وهو ما تميز به القرآن العظيم في الوعظ والإرشاد والتعليم. فالحمد لله رب العالمين.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ
ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ

أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾ ﴾

ففي الآية ما قبل السابقة كان النداء للناس جميعاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴾ وفي هذه الآية نداء خاص بالمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ كما أن في الآية ما قبل السابقة تحذير للناس من متابعة الشيطان الذي يصدهم عن خالقهم ورازقهم. بينما في هذه الآية يأتي بما يتناسب مع حال المؤمن خاصة، فيأمرهم بالشكر، بينما في الآية ما قبل السابقة لم يأمرهم بالشكر، لأنه خطاب عام لكل أحد من الناس، من آمن ومن لم يؤمن، فغير المؤمن لم يأت بما يقتضي أن يأمره بالشكر، فجاء الأمر بما يتناسب مع حالهم جميعاً بالتحذير من اتباع عدوهم، الذي يأمر بالسوء والفحشاء، والقول على الله بغير علم. ويدل هذا الترتيب والتناسق في التوجيه ودلالاته على دقة الخطاب والتوجيه في القرآن الكريم، وإعجازه البياني العظيم. كما تفيد تلك الدلالات أهمية مراعاة المقام في الخطاب، فلا يكون هناك أمراً دعوياً ولا تربوياً ولا إدارياً إذا لم يأت المُخَاطَب بما يقتضيه هذا الأمر، فلا بُدَّ من النظر فيما هو مرتبط به من موجباته، وبمعنى أهمية ترتيب الأولويات، فمثلاً إذا أُقيمت الصلاة فلا يُؤمر الكافر بأدائها وهو لم يأت بمقتضاها وهو الشهادتين.

وفي هذه الآية يوجه الله تعالى المؤمنين بصيغة النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يا من آمنتم وصدقتم. وفي مخاطبتهم ومناداتهم بالإيمان رتبة ومنزلة عظيمة من الله تعالى لهم، وتقرير إيمانهم به منه تبارك وتعالى، فأي نعمة أجل من هذه النعمة الكريمة، وهذا كله ليلفت انتباههم وليعلمهم ما ينفعهم. ويفيد هذا تربوياً أهمية مناداة المتعلم والمدعو بأفضل ما يمكن أن يُنادى به، فإذا كان هذا هو الله تعالى ينادي عباده بهذه الرتبة العظيمة، فكيف العبد مع عبد مثله. ومن الفوائد كذلك مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ حتى يلفت انتباههم، ويسترعي وتسترعي أسماعهم. لأن في النداء ما يفيد لفت الانتباه لأمر مهم، يوجب الانتباه له باهتمام بالغ. وهذا أسلوب توجيه دعوي وتربوي مؤثرٌ على انتباه المُخَاطَب.

فقد خاطب الله تعالى المؤمنين بأفضل الوصف والمدح والثناء لهم. فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فبدأ الخطاب الكريم بمناداة المؤمنين بأفضل وأحسن المراتب والرُّتَب، بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه(١) وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه للمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية.

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

فبعد هذا النداء الكريم من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين، يلفت انتباههم إلى أن ينعموا بالأكل من طيبات أرزاق الله تعالى الكثيرة والمتنوعة ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾

ويفهم من الآية الكريمة: بأن لا تأكلوا من ضد الطيبات التي سيأتي بيانها في الآية التالية، ليكون التوجيه مرتبط بما بعده، فيكون هنا عاماً، كقاعدة ضابطة في أكل المطعومات، ثم بيان تفصيلها في الآية التالية، فيكون تناسقاً في التوجيه وجمالاً في الْكَلِمِ، ويفيد تعليمياً وتربوياً: التدرج في إعطاء المعلومة، بأن تُقَدَّم عامة ومختصرة كقاعدة أولية على الأصل في المطعومات من الأرض، ثم تُقَدَّم مفصلة، ليستوعبها الذهن كلياً ثم تفصيلاً.

وفي الآية مدار الحديث إثبات أن الرزق من الله تعالى، إذ نُسِبَ الرزقُ للهُ تبارك وتعالى ﴿ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ فنحن الذين رزقناكم برحمتنا، وخلقنا أسباب الرزق، وقدرنا الأرزاق، لتؤمنوا بذلك، وتنسبوا الرزق لربكم الرزاق الكريم، فتعبدوه وتشكروه وتسألوه، وتتضرعوا إليه.

ثم يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بعموم الشكر ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ فيكون الشكر لله تعالى الذي رزقكم هذه المطعومات الطيبات، والشكر يكون بالقلب اعتقاداً، وباللسان نطقاً، وبالعمل تطبيقاً، وذلك بالقيام بما يحقق شكر لله تعالى، ومن ذلك صرف الرزق فيما يرضي الله تعالى، كالصدقات مثلاً. والبُعد بهذه الأطعمة عن كل ما يغضب الله تعالى، كالإسراف والتباهي.

ثم يبين ويُظهر الله تعالى الترابط والتلازم بين العبادة والشكر، والذي أوضحته الآية الكريمة، حيث قال عَزَّ في علاه ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ ففي الآية دليل على أن الشكر عبادة، لأنه يُفهم منها: فإن كنتم تعبدون الله فاشكروه على هذه النعم، ففي الشكر إثبات ودليل على أن العبد المؤمن يعبد الله تعالى، لأن في الشكر لله تعالى إقرار بأن هذه الطيبات رزقٌ من الله تعالى، بالإيجاد العام لها، وبالتخصيص للعبد، ولا يَنْسِب العبد حصوله عليها لجهده، وما يكون من السقي والحرث، والصناعة، والتجارة، وغيرها من المهن المختلفة، كما قال تعالى في سورة

الواقعة ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ على ما سيأتي بيان فوائدها في مكانها بإذن الله تعالى. مما يفيد أن الشكر عبادة عظيمة، يلزم المؤمن القيام بها وبلوازمها.

ثم يبين الله تبارك وتعالى ما حَرَّمَ أكله من الأنعام ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ والمتأمل يجد أن علة التحريم كونها تحمل الضرر الذي تأباه النفس الزكية، فالميتة من ماتت حتم أنفها، ففارقتها الروح من غير ذكاة. وقد بينت الآية الكريمة طريقة الموت دون تحديد وسيلة موتها، وفي عدم التحديد فائدة جليلة، فقد استجدت أسباب لم تكن معروفة مثل الصعق الكهربائي. وهذه من معجزات التوجيه الرباني في القرآن الكريم، فهذا النوع المحرم يحتبس الدم في لحم الميتة، لأنها لم تُذَكّى. ويستثنى من ذلك الحوت والجراد كما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم (أحلت لنا ميتتان: الحوت والجراد، ودمان: الكبد والطحال)[١] ومعنى الدم: أي المسفوح السائل، وكذلك ﴿ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ لِخُبْثِه، وكذلك ما ذُبِحَ لغير الله تعالى، وهو ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ كالتي تُذبح للآلهة. فهذه محرمة، وقد تناولتها الأحكام الفقهية بالتفصيل في كتب الفقه ولله الحمد. ولكن من رحمة الله تعالى ولطفه بعباده أن أباح لهم في حالة الاضطرار الأكل من تلك المحرمة بما يرفع عنهم ضرر الحاجة، فإذا خاف على نفسه الموت من الجوع، فيأكل بقدر حاجته. فقيد ذلك بثلاثة أمور: الأول: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ ﴾ الخوف من الهلاك. فإنه في حالة من الجوع الذي يستوجب به الأكل. والثاني: ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي: فأكله لهذه المحرمة، غير طالبٍ ومُبْتَغِي ما حرم الله تعالى. والثالث: ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ أي: ولا متعدي بمجاوزة الحد، فما الدافع لها إلا الاضطرار، وهو الخوف من هلاك الجوع. فإن الله تعالى غفور رحيم تجاه هذا الاضطرار. ففي هذه الحالة ﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ غير مترتب على ما أكل أي إثم يستلزم

---

(١) أحمد، المسند (١٠/١٥-١٦) برقم (٥٧٢٣) وصحيح ابن ماجه برقم (٢٦٩٥)

العقوبة له من الله سبحانه وتعالى. لأن الله ربكم سبحانه وتعالى مُتصف بالمغفرة والرحمة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر ما حصل، ورحيم بهم في إباحة ما حرم عليهم عند الاضطرار. فهذا من رحمة الله تبارك وتعالى. كما أن من فوائد الآية الكريمة: عناية الشريعة بحياة الإنسان، منعاً وإباحة، إذ حرم الله تبارك وتعالى عليه ما يضره، وأباح له عند الاضطرار ما يمنع عنه الهلاك. وهذا يفيد منزلة ومكانة النفس في الإسلام، والعناية بحفظها وعلاجها، وسد الذرائع المؤدية لهلاكها.

ويفيد هذا في باب الأنظمة واللوائح، أهمية الاستدراك وبُعد النظر، ووضع الاحتمالات المتوقعة عند التوجيه وعند صياغة الأنظمة واللوائح العامة. وفيه دليل قاطع على أن هذا التشريع رباني من الله تعالى إذ استوعب ما لم يفطن إليه الإنسان من احترازات ودقة البيان والتوجيه، وما لا يقدر أن يستوعب دقائقه الإنس والجن جميعاً. وكذلك يلاحظ قلة الألفاظ، وسعة المفاهيم والدلالات والمعطيات المتنوعة، مع قوة التأثير العقلي والنفسي للقرآن العظيم.

ثم يعود السياق القرآني الكريم إلى بيان حال أهل الكتاب، فيقول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إن الذين يُخفون ويتكتمون على ما أنزل الله تعالى من الحق، الذي هو ما في كتب أهل الكتاب من صفة نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك من الحق، ليحصلوا بذلك على القليل من عَرض الدنيا الزائلة، مقابل إخفاء الحق، فما يأكل هؤلاء مما اكتسبوا مقابل كتمان الحق إلا النار، التي تتأجج في بطونهم، ولن يكلمهم الله تعالى يوم القيامة، ولا يطهرهم بمغفرة ذنوبهم، ولهم أشد العذاب.

فلقد اشتمل هذا البيان القرآني الكريم على عمليتين يقوم بها أهل الكتاب. هما: الكتمان والشراء. فعن الكتمان قال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وفي الشراء قال عَزَّ وجل ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيبين ويندد الله تعالى في هذه الآية

الكريمة بصنيع علماء أهل الكتاب، من كتمانهم الحق وإخفاء نبوة وأوصاف النبي محمد صلى الله عليه وسلم، التي بينها الله تبارك وتعالى في كتبهم. ويشترون بما يكتمونه الثمن القليل الذي تنقطع مدته، وينتهي ويزول بالتناقص من المال المدفوع لهم. وأيضاً هو ثمن قليل وحقير مع ثواب الآخرة الدائم الذي لا يتناقص ولا ينقطع. وفي هذا ما يفيد الحذر من كتمان أو تحوير دلالات الشريعة ومعطياتها عن مراد الله تعالى، ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم من أجل حطام الدنيا. والتزلف للكبراء ولزعماء الباطل بالتحريف الذي يتوافق مع ما يطلبون ويهوون، ويتعارض مع مراد الله تعالى ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن الفوائد البيانية: التوضيح القرآني الكريم من خلال لفظتين عميقتين، هما ﴿ يَكْتُمُونَ ﴾ والثانية ﴿ وَيَشْتَرُونَ ﴾ لما تحمله اللفظتين من شر النفس، وخُبث الطوية، والاستخفاف بأوامر الله تعالى، والجرأة على الله عَزَّ وجل، وكذلك الحسد، والتعمد بما يُضاد مراد الله تعالى، بما يفيد أن بعض النفوس قد تحمل من الخبث والجرأة الشيء العظيم، الذي يدفع تلك النفوس إلى كتمان بيان الله تعالى وحججه، ويقبلون بذلك التعاوض الذي يأكلون به الحرام.

وكذلك من الفوائد الإيضاح بعملية الاستبدال والاستعاضة التي تحملها دلالة ﴿ وَيَشْتَرُونَ ﴾ بما يبين للمُخَاطب عُمْق الخسارة التي يراها ويحس بها في عملية ما يحصل من البيع والشراء في شأن الدين، وشأن تجهيل الناس، وإطفاء الحق وكتمانه، من أجل مكاسب دنيوية رخيصة، سرعان ما تزول، ثم ليقابلها بعذاب لا ينتهي في الآخرة. فإن في هذا البيان لأكبر الأثر في استيعاب المقصود والدلالة، وعمق خسارة الآخرة التي يتعمدون تحقيقها لأنفسهم، مع الاستعجال الخاسر. بما ينبه ويحذر من مثل هذا المسلك الذي حدث من أولئك، فيكون المأمور به أن يتعظ من غيره بما سمع وعَلِمَ.

ثم يبين الله جَلَّ في علاه جزاءهم ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإن أكلهم لتلك الأموال في الدنيايتحول إلى نار في بطونهم يوم القيامة. بما يفيد الحذر من وعيد الله تعالى. ثم يلحق

ذلك الجزاء الثاني: والذي هو حرمانهم من كلام الله تعالى لهم ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ فلا يجدون رضا الله تعالى عنهم، بل يجدون الغضب والسخط والمقت من الله تعالى. وأي عقوبة يوم القيامة أشد على النفس من ألا يَشْرُفَ الإنسانُ برضا الله تعالى وتكليمه له. والجزاء الثالث هو: ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ ﴾ فلا يطهرهم من ذنوبهم لغضبه تبارك وتعالى عليهم، وعدم رضاه عنهم. وأما الجزاء الرابع، فه: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وتدل دلالة ﴿ أَلِيمٌ ﴾ على شدة العقوبة، وأثرها عليهم.

وصفة هؤلاء أنهم استعاضوا عن الهدى بالضلالة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ فقدموا الخسارة بالضلالة على الربح والفوز بالهدى. فإنهم استعاضوا عن الهدى بالضلالة الواضحة، فقدموا فيها الثمن. مما يدل على معرفتهم بما يقومون به. وهذا فيه بيان وكشف لحال علماء أهل الكتاب، ومن وجه آخر يفيد الحذر من الطمع الدنيوي الذي قد يجعل المرء يبيع آخرته بدنياه، مما يوجب الحذر من الغفلة أجارنا اللهُ والمسلمينَ منها. وبالتالي كأنهم اشتروا العذاب ودفعوا فيه الأثمان، وباعوا مغفرة الله تعالى التي تُوصل إلى الجنة بعرض من الدنيا ﴿ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ فما أشد جرأتهم على النار، وما سيكونون عليه من وجوب الصبر على عذاب النار. وقد أورده الله تعالى بأسلوب الاستفهام. ليفيد التقريع والتوبيخ، والتعجب من اختيارهم لما يُردهم النار وبئس المصير. فما الذي يجعلهم يصبرون على ما يحقق لهم عذاب النار؟ غير الجرأة، ومحبة الدنيا، وتقديمها على الآخرة. فهو سؤال يستثير التفكير نحو الانتباه لغرور الدنيا وزينتها.

وهذا يفيد أن الإنسان قد ينحرف بالمقاييس والمكاييل فكرياً، ثم ينجرف بها عملياً، ولا سيما مقاييس منافع الدنيا ومنافع الآخرة، وتقديم القليل الفاني على الكثير الباقي الدائم. مما يستوجب التفكير العميق في التصرفات، ومحاسبة النفس والرجوع بها إلى الحق. اللهم إنا نسألك الهداية والتوفيق يا رب العالمين.

ثم يبين الله تعالى أنه نَزَّلَ هذا القرآنَ العظيم بالصدق والحجة، وهو الحق، فقال عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ذلك الحكم بالنار لهم، بأن الله تعالى أنزل هذا القرآن بالحق الذي لا ظلم فيه، ولا باطل يقبله من أحد، فكفروا به. ذكر القرطبي رحمه الله تعالى: ذلك الحكم بالنار. وقال الزجاج، تقديره: الأمر ذلك، أو ذلك الأمر، أو ذلك العذاب لهم[١] قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: الإشارة بذلك إلى ما تقدم من الوعيد بالعذاب. فتقديره: ذلك العذاب بأن الله تعالى نزل الكتاب بالحق، فكفروه به، واختلفوا فيه[٢] فهو بيان لسبب ذلك العذاب الذي توعدهم الله تعالى به. مما يفيد أنه يلزم ويجب عدم صرف كتاب الله تعالى عن مقصده، بل هو كتاب حق لا عوج فيه.

ثم يأتي السياق الكريم عن اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم من اليهود والنصارى، ليكون عظة وتوجيهاً للمؤمنين. فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ فأهل الكتاب من اليهود والنصارى في شقاق واختلاف، بسبب اختلافهم في الكتاب. فالاختلاف قادهم لهذا الشقاق. مما يفيد الحذر من شر الاختلاف. فالحق يجب ألا يختلف عليه أهله، ولكن دخول الأهواء يُوجِد موجبات الاختلاف في الحق بالتأويل الفاسد، والفهم القاصر، والهوى الهالك، وذلك بصرف بعضه عن مراد الله تعالى إلى ما تُمْلِيهُ الأهواء. مما يفيد ويبين أنه يجب إخضاع الأهواء للحق، وليس الحق للأهواء، وأن من أخضع الحق للهوى ضل وصار في شقاق مع غيره ومع الحق، كما يفيد أن الحق يجمع وتجتمع عليه الأمة، وأما من خالف الحق فسيكون في شقاق مع الحق وأهله. ويفيد هذا أهمية العناية بالدعوة الْمُوصِلَةُ للحق. واتباعه بالدليل. وسؤال الله تعالى الهداية والثبات على الحق.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٩/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٩/١)

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

ابتدأت الآية الكريمة ببيان بطلان وإبطال الفهم القاصر عن حقيقة البر، من أنه التوجه للقبلة لأداء الصلاة، وذلك لإزالة الجهل عن الذهن حول هذا المفهوم، حتى يتفرغ لمعرفة صحيح الحقيقة، وليشتد الانتباه لمعرفة تلك الحقيقة. فقال الله تعالى ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ ليس البر كما تعتقدون في حصر التوجه في العبادة نحو جهة من الجهات. فهذا نفي لمفهو البر الخاطئ. وإزالة الجهل من ذهن المتلقي، أو الْمُخَاطَب. وكأن حال الْمُخاطب يقول، فما هو البر إذاً؟ وفي هذا شد لذهن وفكر الْمُخَاطَابين نحو المعرفة لحقيقة البر. وفي هذا معالجة لشأن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، ولينفي به أن البر هو لزوم ﴿ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ ليأتي بعده حرف الاستدراك ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ليبين حقيقة البر. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس البرأن تصلوا ولا تعملوا. وهناك قول آخر: أن اليهود تصلي قبل المغرب، والنصارى قبل المشرق، فنزلت الآية. ورجح ابن جرير رحمه الله تعالى قائلاً: وأولى هذين القولين، الذي قاله قتادة والربيع بن أنس: اليهود والنصارى، لأن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولومهم[1] والحقيقة أنه لا تعارض بين القولين، فمن رحابة الدلالة القرآنية أن استوعبت معالجة ما يخص اليهود والنصارى، وما يخص من حصر البر في الاتجاه للقبلة فقط، ليبين السياق رحابة البر، وأنه أوسع مما تعتقدون. ليأتي بعده البيان الكامل والشافي بحقيقة البر.

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢/٧٤-٧٦)

فقال الله تعالى عن حقيقة البر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ فالبر هو إيمان وعبادة وأخلاق ومجاهدة النفس على طاعة الله تعالى، ومراعاة حقوق الآخرين التي أوجبها الله تعالى. فكان المضمون عِلْماً وتشريعاً في آية واحدة، ومتضمنة لما يحقق سعادة الفرد والمجتمع.

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: البر، اسم جامع للخير[١] فهو جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وقال علماؤنا: هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام، لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار والملائكة والكُتُب المنزلة، وأنها حق من عند الله تعالى، والنبيين والإنفاق للمال، والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود، والصبر على الشدائد[٢]

فبينت هذه الآية العظيمة الكريمة شمولية البر، وعدم حصره في أداء الصلاة تجاه القبلة، بل هو أعم وأرحب، بل هو انشغال القلب والجوارح باعتقادات وأداء واجبات لله تعالى.

فذكرت الآية الكريمة أركان الإيمان: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فهو شامل للإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب، أي الكُتُب، والنبيين. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الكتاب: اسم جنس، يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى خُتِمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب[٣]. وأما الركن السادس

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦٠/٢)

(٢) المرجع السابق (١٦٢/٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢١٣/١)

فهو القضاء والقدر. فلم يرد نصاً، ولكن نوه الله تعالى عن ذلك في الآية بقوله تعال ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ وهذا الصبر متعلق بالقضاء والقدر. والله تعالى أعلم.

كما تضمنت الآية الكريمة جانب التعاضد الاجتماعي، بالتفقد لأحوال الغير وإعطائهم من المال الذي تعب المُقْتَدِرُ في كسبه، حتى صار حُبّه متعلقٌ في قلبِه، وهنا لم يجرد الله تعالى هذا الإنسان من هذه الخصيصة التي هي حب المال، ولم يزهده فيه، بل عالج هذه الخصيصة بما يدفعه إلى الانتصار عليها، من خلال ترغيبه في تقديم مراد الله تعالى على ما تعلق بقلبه من حبه للمال، فقال تعالى ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ فقد قدم المال لغيره مع شدة حبه له، إلا أنه آثر طاعة الله تعالى على قوة حبه للمال. بما يبين أن هذا العبد المؤمن قد جاهد نفسه، الأمر الذي يبين أهمية مجاهدة النفس على الطاعة. كما أفاد ذلك أن الله تعالى لا يجرد الإنسان عن طبيعته، بل يهذبها، ويعالجها، ليحصل التوازن، والانضباط بهذه الشريعة الغراء والعظيمة، والنفيسة، والتي هي نعمة عظيمة من الله تعالى على العباد.

وقد أثبت الله تعالى في كتابه العزيز أنه غرس في الإنسان حب الشهوات، والتي منها حبه للمال. كما ورد في سورة آل عمران، ولكن حُب الشهوات والميل إليها لغاية عظيمة وهدف قويم، حتى يندفع الإنسان لمطالبها التي تقوم بها حياة الإنسان. فلو أن الله تعالى لم يجعل للمال حب في قلوب جنس الإنسان لتعطل هذا الإنسان، وتعطلت حركة الحياة، ولكن جعل الشريعة ضابطة لتلك الشهوات ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ فيكون أيضاً ابتلاء لهذا الإنسان، من حيث التزامه للحدود والضوابط التي حَدَّها وشرعها سبحانه وتعالى في شرعه الحكيم، والتي ضبط الله تعالى بها التعامل مع هذه الشهوات، وكذلك حتى تتحقق الحكمة من وجود هذا الإنسان على هذه الأرض.

ومن فوائد هذا النهج الرباني في التربية ألا تُزَهِّدَ المتربي في أمرٍ هو حقيقة من الحقائق، أو تُغَلِّطَهُ بما يخالف الحقيقة، من أجل أن تدفعه لأمر خير آخر، أو لترك أمرٍ لما هو أفضل. بل أكد له

الحقيقة المتوافقة مع الفطرة والعقل، لينسجم ذهنه مع التوجيه والإرشاد. ثم تبين له حقيقة ما تريد أن تصل به إليه من أمر أو نهي، أو تفضيل فاضلٍ على مفضول.

وتضمنت الآية الكريمة العظيمة تنويع قاعدة الإنفاق، وعدم حصره في ذوي القرابة. فقال تعالى ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ فشملت قرابة الْمُعطي، الذين هم ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ واليتيم من فقد والده ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ لأنه فقد الذي يعوله بالنفقة والرعاية ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينَ﴾ الذي أسكنته الحاجة، وظهر عليه الفقر ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر الذي انقطع به المال، واحتاج لمال غيره ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذين دفعتهم الحاجة إلى سؤال الناس، ومد أيديهم إليهم ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ الإعانة على فك الرقاب من الرق والأسر.

ويلاحظ عدم حصرعطاء المال في ذوي القربى، ليمتد نفعه للغير، وليتعاضد المجتمع برمته، وليمتد التعاون والتعاضد وشد الأزر للمحتاجين من عموم مكونات المجتمع. خاصة وأن هذا الأمر من الله تعالى، الذي أعطى فأمر، وأحوج غيرك إليك، وأن الذي أحوج إليك غيرك هو الذي دفعك وأعطاك وأمرك ببرهم وتفقدهم والبحث عنهم.

ومن الفوائد كذلك العلم بأن الذي أفقر وأحوج هو الذي أمر غيره من الميسورين بالبحث عنه وإعطائه، فضلا من الله تعالى، لا كرماً من العاطي، وهذا التوجيه لا يُقْصَدُ به الزكاة، بل هو خارج عنها، لأن في المال حقاً سوى الزكاة. لأن الله تعالى نص على الزكاة في هذه الآية نصاً باسمها. وقد حرر ذلك أهل العلم كالقرطبي مثلاً

كما أن هذا التنوع في قاعدة المستحقين قد اشتمل على التدرج في ترتيب أولويات العطاء: ابتداءً بذوي القربى، لما لهم من حق متقدم على غيرهم، ثم اليتيم الذي لا يَعْرِفُ كيفية التكسب والوصول للمال، لصغر سنه وجهله. ثم المسكين الذي قد يعقل سُبُل الوصول للمال غير أنه عاجز عن ذلك، فكان ترتيب اليتيم أولى منه ومُقَدَّمٌ عليه، ثم ابن السبيل الذي تقطعت به السُبُل من الغرباء والمسافرين. ثم السائلين الذين يَمُدُّون أيديَهم لطلب ما يحتاجونه، ثم ما يتعلق بعتق الرقاب.

ولو تأمل الإنسان في تدرج ترتيبهم، بحسب عجزهم وقدرتهم، لأذهل هذا الترتيبُ المتأملَين، وذلك لعظيم وغزارة معانيه ودلالاته التي لا يمكن أن تصدر إلا من العزيز الحكيم العليم.

ثم أورد البيان الكريم العبادات التي هي من مفردات البر، فبدأ سبحانه وتعالى بالصلاة التي هي أعظم العبادات، فقال تعالى ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي وحافظ على أداء الصلوات المفروضة. بجميع شروطها وواجباتها وأركانها، كما يؤديها الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ورد الأمر بأداء الصلاة بدلالة الإقامة ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لتفيد المحافظة على الصلاة، والمداومة على أدائها، وإقامة جميع ما يتعلق بها، فإن دلالة ﴿وَأَقَامَ﴾ تستجمع إخلاص القلب لها بالنية والخشوع، واستحضار القلب فيها، وكذلك قيام الجوارح بالنهوض لها، والعزم، والامتثال، والنشاط في أدائها على سبيل الاستمرار الذي لا ينقطع، ولا يتوقف. وليفيد ويبين الاستمرار في إقامتها حتى يموت الإنسان المؤمن. وهذا التوجيه الكريم يدل على أنها شرط لصحة الإيمان. كما هو تحريض على المداومة والاستمرار، ليعطي دلالة المبالغة في ذلك. وعدم الانقطاع، أو التراخي والتهاون.

وكذلك يؤدون الزكاة، حيث عطف سبحانه وتعالى الزكاة على الصلاة، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيؤتوا الزكاة كما شرع ربنا تبارك وتعالى. وفي إفراد الزكاة والصلاة من بين جميع العبادات دليل على أهميتها. كما جعل رتبة الزكاة بعد الصلاة مباشرة، ليدل على منزلتها ومكانتها. ومن دقائق البيان أن الامتثال بأداء الزكاة ورد بدلالة الإيتاء ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ والإيتاء يفيد معنى الإعطاء، فالمزكي يُعطي غيره الزكاة. بما يفيد أن هناك مستحق بحاجته إلى الزكاة، فوجب على المؤمن أن يؤدي ذلك بأمر ربه عَزَّ في علاه. وهذا يُظهر عناية الدين بالمحتاجين، وأن لهم حق في أموال غيرهم. ويجب على من وجبت الزكاة عليه أن يدفع ذلك وفق ما شرع الله تعالى. وليظهر بذلك عناية منهج الله تعالى بالتعاون بين أفراد المجتمع المسلم.

وفي إفراد الزكاة ما يدل ويفيد على أن العطاء السابق لذوي القرابة واليتامى والمساكين وغيرهم هو من غير الزكاة، فورود الزكاة منفردة دليل على أن العطاء السابق لذي الحاجات خارج عن الزكاة، فكل نفقة هي من البر، سواء كانت من الزكاة أو غيرها.

وقد تضمنت الآية الكريمة من العبادات الصلاة والزكاة كما سبق بيانه، فمن الفوائد أن الصلاة عبادة بين العبد وربه، والزكاة عبادة لله تعالى بين العبد ومجتمعه، وكأن فيهما إشارة إلى هذين الجانبين من مضامين العبادة، باعتبار أنهما يمثلان بقية العبادات من حيث مقاصد الدين، فالصيام والحج مثل الصلاة بين العبد وربه تبارك وتعالى. والزكاة عبادة لله تعالى قوامها وركيزتها التفاعل بالعطاء بين أفراد المجتمع، فكأنها تمثل ما يماثلها كشعيرة الصدقة والكفارات.

وتضمنت الآية الكريمة مجموعة من الأخلاق العظيمة التي تحقق تماسك المجتمع، وتزيل عنه دوافع الشر البشري، وهي: الوفاء بالعهود: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ والتي هي أمان وضمان بين أطراف المعاهدات، إذ في نقضها وخيانتها العداوة والبغضاء على مستوى الأفراد والمجتمعات، أو الدول والبلدان. ففي حفظها والوفاء بها أمن اجتماعي عظيم.

ثم ذكرت الآية الكريمة الصبر في ثلاثة مواقف، وهي من أشد المواقف، إذا تَمَثَّلَ الإنسان واحدة منها، استطاع بتوفيق الله تعالى أن يتمثل بها في غيرها، قال تعالى ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ وهي في حالة: ﴿ٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: الفقر الشديد جداً ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الذي هو المرض. ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ شدة القتال في سبيل الله تعالى. فكل واحدة من تلك المواقف جهاد بحد ذاته، فاحتاجت إلى الصبر. ومن استشعر رقابة الله تعالى عليه يَنَالُ التحلي بهذه الصفات، لأن أمله في الله عظيم بأن يعوضه عن بؤسه خيراً، وعن مرضه عافية وأجرا، وعن صبره أمام قتل العدو انتصاراً، أو شهادة ينال بها حياة سعيدة أبدية لا تنقطع.

وفي هذا بيان من الله تعالى بأن الإنسان قد يبتلى بشيء من ذلك، فإن أصابه شيءٌ منها، فليعرف عاقبة هذا الأمر الذي أتم الله تعالى به هذه الآية العظيمة الكريمة، فقال سبحانه وتعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فمن قام بمضامين هذه الآية مخلصاً لله تعالى فهو المتصف بالصدق مع الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ وكذلك ﴿هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين يخافون ربهم، ويرجون ما عنده من الخير في الدنيا والآخرة. ولصادقون المتقون هم خيرة الْخَلْقِ، لما اتصفوا به من خيرة الأخلاق، فاستحقوا كمال الثناء. وقد ذكر الله تعالى ما أعده للمتقين من

الأجر والمثوبة في آيات كثيرة عظيمة من كتابه الكريم. فاللهم اجعلنا من الصادقين المتقين برحمتك يا رب العالمين يا أرحم الراحمين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾

بعد بيان الله تعالى لحقيقة البر وما يضبط به حياة الناس ومفاهيمهم، وما يغرس فيهم الأمن والاستقرار، حتى يستطيعوا أن يعيشوا ويتعايشوا فيما بينهم في حياة كريمة آمنة مطمئنة، بأدائهم ما يجب عليهم من حقوق الدنيا والآخرة، ينتقل البيان بعد ذلك إلى شأن القصاص الذي تنضبط به العلاقة بين الناس في المجتمع المسلم. فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ﴾ فبدأت الآية الكريمة بالنداء، ونداءً خاصاً بالمؤمنين، لأنهم هم المعنيون بتطبيق شرائع هذا الدين العظيم. ثم جاء البيان بما بدلالة ما فُرض عليهم ﴿كُتِبَ﴾ أي فُرِض وأُثبِتَ عليكم تطبيقه عدلاً ومساواة فيمن قتل. وصياغة هذا التوجيه تُفيد الالتزام به وتحقيقه. ليكون هناك العدل والقسط بين العباد فيما يقترفون من القتل. ويفيد هذا أنه يجب على جميع الأطراف حماية ما فرض الله تعالى من عدم المجاملة وإخفاء الحقائق، بل يجب على الحاكم التطبيق وعلى المحكوم الامتثال، بل وحتى على أهل القاتل تمكين الحاكم من تطبيق ما كتب الله تعالى وفرض. وألا يأوي أحدٌ قاتلاً بالتستر عليه، لأنه يتستر ويستر ويمنع قضاء الله تعالى عمن كَتَبَ اللهُ عليه القصاص.

ويستهل الخطاب في الآية القرآنية الكريمة، بالنداء، الذي يفيد شد الانتباه، لما يُلْقَى إليهم، مع إظهار أهميته، وإظهار أنكم أحق بمن يطبقه ويمتثل به. فقال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وفي مخاطبتهم ومناداتهم بالإيمان رتبة عظيمة من الله تعالى لهم، وتقرير إيمانهم به، منه

تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأي نعمة أجل من هذه النعمة الكريمة، وهذا كله ليلفت انتباههم، وليعلمهم ما ينفعهم. ويفيد هذا تربوياً أهمية مناداة المتعلم والمدعو، بأفضل ما يمكن أن يُنادى به، فإذا كان هذا هو الله تعالى ينادي عباده بهذه الرتبة العظيمة، فكيف العبد مع عبد مثله.

ثم يُحثهم الله تعالى على الالتزام بالقصاص حال وقوعه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ فُرِض عليكم الاقتصاص عندما يقتل أحَدٌ أحداً. ثم فَصَّل تبارك وتعالى ذلك، بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ قال الإمام القرطبي: قالت طائفة: جاءت الآية مبينة لحكم النوع إذا قُتل نوعه، فبينت حكم الحر إذا قتل حراً، والعبد إذا قتل عبداً، والأنثى إذا قتلت أنثى[١] وذَكَرَ أهل التفسير ما يفيد أنها نزلت بسبب وجود من كان يُجحف في القصاص، فإذا قُتل عبد طلبوا أن يُقْتَل مقابله حراً، تعنتاً وتعدياً[٢] مما يفيد أن مما عالجه القرآن في نزوله قضايا وواقعاً كان سائداً، وكان يستمد قوانينه من الاجتهادات الفردية الظالمة، والمتعدية، وكان سيمتد إلى ما بعده، ولكن رحم الله تعالى الناس بشريعته الغراء، فنظم الله تعالى بأحكامه حياة المسلمين في حاضرهم ومستقبلهم.

كما يفيد هذا أهمية معرفة أسباب النزول لإنزال كلام الله تعالى على مراده، وكذا أهمية معرفة الناسخ والمنسوخ، وأهمية جمع الآيات المرتبطة ببعضها البعض، وذلك لمعرفة مراد الله تعالى، لأن هناك قوله تعالى في سورة المائدة ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ وأن من الأخطاء الشنيعة جداً، اجتزاء الآية دون ربطها بغيرها، أو بما يبينها فهماً وتطبيقاً من السنة المباركة. وفي هذا كله ما يبين أن منهج الإسلام فتق العقول وارتقى بالفكر، مما جعل علماء الشريعة من خيرة الناس عقلاً وفكراً، ولذلك فَصَّلَ العلماء في كُتب التفسير والفقه تلك الأحكام الفقهية من جميع الأوجه، حتى فيما يتعلق بمن قتل ذمي أو سرق ماله. بما يفيد أن هذه الشريعة قد أنارت الحياة للناس

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/١٦٥)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢١٥) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (١/١٦٣) وغيرها من كتب التفسير.

بالحدود، وأنارت عقول العلماء بالتبحر في تفصيل الأحكام، وتمحيص دلالات الأدلة، والربط بينها في كتاب الله تعالى وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، حتى جعلت الفقه الإسلامي مدرسة جليلة القدر والمكانة. وأغنت المسلمين عن ابتكار قوانين لا يتفق عليها الناس. فالحمد والشكر لله تعالى.

ثم تبين الآية القرآنية الكريمة جانب العفو، وهو أحد مطالب الشريعة فيما بين المسلمين ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ وهنا تم إثبات الأخوة حتى والقضية قضية قتل، فيسمي الله تعالى العلاقة بالأخوة ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ فإن ما حصل لا يُسقط أخوة الإسلام، فمن تنازل عن القاتل بدية، أو عفواً بِلَا مقابل، عليه أن يتعامل مع أطراف الموقف بالمعروف والإحسان ﴿ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ فليتبع ولي المقتول أخاه القاتل ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ من غير مشقة، فلا يحمله ما لا يطيق، بل يُحسن في التقاضي والاقتضاء والطلب، ولا يدفعه إلى ما يعجز عنه إن طلب الدية. وفي المقابل على القاتل الأداء، وأن يكون هذا الأداء بإحسان ﴿ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ من غير مماطله، أو أي إساءة قولية أو فعلية. فهو توجيه كريم عظيم من رب رحيم كريم، بأن دَفَعَ للعفو من خلال الحث والإشارة إليه، ثم بين أدب التعامل من الطرفين، وأركزهما إلى الأخوة ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾

ثم يبين الله تعالى رحمته في هذا الحكم، بقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي: أن ذلك الحكم، وما فيه من العفو، والمعروف هو من باب التخفيف من ربكم عليكم، إذ جعل لكم مساحة من التقاضي والعفو فيما بينكم. فكون الله تعالى كتب القصاص، وأتاح فرصة العفو، فإن ذلك من تخفيف الله تعالى عليكم، ومن رحمته بكم. فالشكر والحمد لله تعالى. وهذا يستوجب الشكر والحمد لله على هذه الشريعة في أحكامها العظيمة، المشتملة على الرحمة الظاهرة والباطنة، فيما يأمر الله تعالى به ويقضيه، وفيما يمنعه وينهى عنه. وهذا دليل على رحمة الله تعالى، وأنه ما أراد عسراً بعباده في هذا الدين.

ثم يبين الله تعالى ما يمكن أن يحصل من تعدي بعد تطبيق القصاص، أو أخذ الدية أو العفو التام بين طرفي القضية، ليبين عقوبته مباشرة عَزَّ وجل لمن بغى بعد المعروف. فقال جَلَّ جلاله ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فمن قام بالاعتداء بعد التصالح بالمعروف والإحسان فإن له عذاب شديد عند ربه عَزَّ في علاه. ليمنع تبارك وتعالى التطاول والبغي، أو أن يمتد الشر بين الطرفين، فيقطعه بالوعيد الشديد، والعقوبة الأليمة ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا من دقة الشريعة واستباقيتها لما قد يحدث من الشر بعد الشر من البشر، لأنها شريعة جاءت من عليم حكيم، لتعالج أيضاً كل احتمال وارد في قضايا مؤلمة للنفوس. ليقطع دابر الشر بين العباد.

ثم يبين الله تعالى نعمة هذا الحكم الرباني في القصاص ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فبهذا القصاص الذي هو تطبيق الحد في القاتل، أو قبول الدية، أو العفو، ففيه حياة الناس. وأن حياتهم فيما بينهم من خلال تطبيق هذا الحكم، إذ به تنزجر النفوس عن غيها وعنفوانها وتماديها، ويحرك خوف القصاص قلب الإنسان، من أن مصيره هو تطبيق القصاص بحقه، فإذا قُتِلَت نفسٌ فسوف يُقتل القاتل شرعاً، فمن له حق عند أخيه فليطلبه شرعاً وليس بالتعدي عليه بالقتل. وهنا تأتي أهمية الحاكم ووجوده وقيام الدولة، وبسط نفوذها وقوتها ليتحقق بها تطبيق شريعة الله تعالى. وكذا أهمية معاضدة الحاكم في تطبيق شريعة الله تعالى.

ثم اكتملت الآية بقوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فلعلكم بتطبيق شريعة الله تعالى تحصل لكم التقوى، ويحصل اتقاء قتل الأنفس، والتعدي فيما بينكم على بعضكم البعض، والانقياد لأحكام الله تعالى التي تتحقق بها تقوى الله تعالى، فقد أفادت دلالة ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ الإطماع، فتستدعي المؤمنين إلى تطبيق ما بينه وشرعه لكم ربك؛ لتتحقق فيكم التقوى، وتحصلون بذلك على المزيد من التقوى. فأعطت دلالة ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ الإطماع في الإنضباط بشريعة الله تعالى، وتطبيقها.

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني إلى تعليم المسلمين حال وجود أسباب الموت بأن يبادروا إلى الوصية، قال الله تبارك وتعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ أي: فُرِض عليكم أيها المؤمنون إذا ورد وحضر أحدَكم أسباب وعلامات الموت، من الأسباب المتنوعة والمتعددة ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا ﴾ من المال ونحوه ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ فعليه أن يوصي لوالديه وقرابته بخير من غير إجحاف على ورثته. مما يبين دقة الشريعة الربانية بجميع ما يتعلق بالإنسان، وما يجب عليه تجاه غيره من العباد.

وقد بدأ البيان الكريم بقوله تعالى ﴿ كُتِبَ ﴾ أي فُرض عليكم أيها المؤمنون إذا حصلت أسباب وعلامات الموت، كالمرض الذي لا يُرجى بُرؤه، أو مصائب يظهر فيها القتل وما شابه ذلك، أن يقوم من رزقه الله تعالى المال الوفير، وهو معنى ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا ﴾ أن يقوم بما أمر الله تعالى به ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ فإذا ترك خيراً كثيراً من الأموال ونحوها، فعليه أن يوصي لوالديه منها، وأن يوصي لأقاربه، ولا شك بأن عليه أن يُرتب الأقارب بحسب الدرجة والحاجة والفاقة، فإن تلك الوصية من موجبات التقوى، فهي حق على من اتصف بالتقوى ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ وبالتالي هي دليل على تقوى الموصي. وللعلماء تفصيل في ذلك، هل هو في الثلث، وهل الثلث في المال الكثير دون القليل. وهل هذا متعلق بالوالدين اللذين لا يرثان؟

فالينظر من أراد أحكامها الفقهية في كُتب التفسير، وفي كتب الفقه المتعلقة بالمواريث. ولكن يُستفاد من ذلك عناية الله تعالى بالإنسان وبماله ووالديه وورثته، وبأقاربه، حفظاً وتوزيعاً وتآلفاً. وكذلك دقة التوجيهات بما يتفتق به الذهن علماً وفكراً ورؤية وهدفاً ومآلاً، وفي نفس الوقت تغرس في القلب محبة له سبحانه جَلَّ جلاله. فيدرك الإنسان أن هذا التشريع لا يمكن أن يكون إلا من عند ربنا تبارك وتعالى. فكله إعجاز في دقته وبيانه وأحكامه، وأن كله رحمة وتواد فنحمد الله تعالى ونشكره.

ثم أمر تبارك وتعالى بأن تتصف هذه الوصية بصفة المعروف ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وهو الرفق والإحسان، الذي لا منكر ولا إجحاف فيه بورثته، بأن يكون من غير إسراف ولا تغتير، ثم بين حكم ذلك بقوله سبحانه وتعالى ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ بما يفيد الوجوب، بل جعله الله تعالى من لوازم التقوى، فإنه ﴿ حَقًّا ﴾ يجب أن يقوم به. ومن فوائد قوله تبارك وتعالى ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ اختصاص التكليف بالمؤمنين إن كانوا متقين لربهم جَلَّ جلاله. أي: بأن فعل ذلك من علامات التقوى. لأنهم هم الذين يتقون الله ويخافونه سراً وجهراً، وفي المنشط والمكره. وفي هذا الاختصاص تحفيز للمسلم بان يتحلى بهذه الخصيصة العظيمة التي هي التقوى، وفي هذا دليل على منزلة التقوى، وأن أهلها يتعاملون مع الله تعالى بالطاعة والامتثال والإخلاص رغبة ورهبة.

ثم ينوه ويبين الله تعالى حال من شهد الوصية وعَرَفَهَا من الشهود أو من ورثته، ثم يبدلها عما أوصى به الموصي ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فإن الإثم يقع على من يبدل الوصية. وأما الموصي فقد وقع أجره على الله تعالى بما أوصى به، ويبقى الإثم على من عَقِلَ الوصية بعد السماع، فبدل وغير، فإن الإثم يقع على من بدل وغير.

ثم يحذر الله تعالى من يبدلها بعظيم سمعه وعلمه سبحانه وتعالى بما يكون من العباد. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فإن الله ربكم أيها الناس قد سمع وصية الموصي، وعَلِمَ بسماعكم ومعرفتكم للوصية، وعَلِمَ بما حصل من بعد الوصية من تطبيق لها أو تغيير وتبديل. فمن كان سمعه وعلمه أحاط بكم، فلا ينبغي عليكم أن تكونوا إلا كما يكون المؤمن العالم الموقن بأن الله سميع عليم.

فمن كان موقناً بذلك أوجب له هذا العلم مخافة من أحاط به سمعاً وعلماً وقدرة. فكان هذا التوجيه الرباني توجيهاً بليغاً ومؤثراً على سامعه العارف لمعناه.

وقد أفادت دلالة قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أن ربكم سميع لأقوالكم، وعليم بنواياكم وأفعالكم. فاجعلوا هذا العلم بأن الله تعالى سميع عليم نَصب أعينكم، ليعينكم ذلك على التقوى. وفي هذا ما يفيد التحذير من مخالفة منهج الله تعالى على أي وجه كان، ووجوب تقييد الأقوال والأفعال بنصوص الكتاب والسنة، وعدم التحريف والحيف والظلم والابتداع في الدين بقول أو فعل، أو اعتقاد، أو حكم.

ولما أن الموصي قد يحيف ويجحف ويحصل منه الجور في الوصية جهلاً، أو ميلاً لأحد من الورثة، أو بحيلة من الحيل، أو لأي سبب من الأسباب، وبأي وجه من أوجه الإضرار، فإن الله تعالى عالج هذا بتوجيهه الكريم العظيم، بما يحقق المصلحة. فقال عزَّ وجل ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهنا يلاحظ عناية الله تعالى بالعباد، فلأنه قد يحصل منهم الخطأ غير المقصود، والخطأ المتعمد، فقد فَصَّلَ ذلك بقوله عزَّ وجل ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾ والجنف هو الميل عن الصواب والحق من غير تعمدٍ ﴿ أَوْ إِثْمًا ﴾ وهو التعمد في الخروج عن الحق. فاحتاج الموصي في كلا الحالتين إلى النصح من الناصح الذي حضر الوصية، لتنصلح به الوصية، وينصلح به شأن الموصي والموصى لهم. فكان واجب من حضر الوصية أن يقوم بهذا الأمر من النصح، ولا إثم عليه في ذلك، لتبرئة ذمته من الوقوع في الإثم ﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أي: فلا ذنب عليه بهذا الإصلاح بينهم بما يتحقق به العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة.

وذكر الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى في هذه الآية: أنه يجب على من حضر وصية الموصي أن ينصح بالإحسان والعدل، وينهى عن الجور، فإن تعمد الموصي ذلك، ولم يفعل بما نُصح به، فينبغي لمن حضر الوصية أن يُصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبرئة ذمة ميتهم. فهذا قد فعل معروفاً عظيماً، وليس عليهم كما على من بدل

الوصية[١] وفي هذا التوجيه الكريم من رب العالمين نزع وإزالة لِمَا قد يحدث في قلب الحاضر للوصية من شأن الموصي والوصية والموصى لهم، فلا يلزم أن يمنعه ذلك من النصح إحساناً وعدلاً، بما يمنع الحيف في الوصية. فأزالت الشريعة الغراء كل ما يمكن أن يكون من احتمالات، وهذا والله من دقة شريعة الله تعالى. إذ فَصَّلَ في دقائق لا يتنبه لها بشرٌ ابتداء. فكيف لا يكون كذلك وهو العليم الخبير.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله جَلَّ شأنه ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ فإن ربكم مُتصف بالمغفرة والرحمة. وهذه المغفرة من الله تعالى لمن أخطأ غير متعمد. كما يمكن أن يُستفاد من هذا أن الإنسان عرضة للخطأ، وأيضاً قد يتعمد ذلك حتى وهو مُدبر عن الدنيا ومُقْبِلٌ على الآخرة، وأن الآثار النفسية من المحبة والميل أو الكراهية والبغض قد تبقى مع الإنسان حتى مفارقته للحياة، مما يتطلب أن يتنبه المرء لهذه الحالة النفسية، وأن يجتهد في التغلب عليها، وأن يجاهد نفسه، ويُغَلِّب ما عند الله تعالى على كل حال، وألا يدفعه حبه ولا كرهه إلى الشطط والحيف.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٤٢ _١٤٣)

ينتقل السياق والتوجيه الكريم من الله تبارك وتعالى إلى بيان حكم فريضة الصوم بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ فابتدأت الآية العظيمة بمخاطبة ومناداة المؤمنين بأفضل وأحسن المراتب والرُّتَب، بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[١] وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه للمؤمنين بإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية.

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل أمر وشأن. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

وكم هو عظيم أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان العالية. ثم يأتي بعد النداء البيان بما كُتِبَ وفُرِض وأُثبِتَ عليهم من الصيام. وجاء البيان بنفس الصياغ في آية القصاص وفي آية الوصية، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ أي: فُرِض وأُثبِتَ عليكم. وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة النبوية الكريمة. وهذا دليل على أهمية ما أمر، وما أوصى به الله تعالى. إذ أن في دلالة ﴿كُتِبَ ﴾ ما يفيد صيغة الوجوب، وأنه فرض على كل مؤمن، وأنه قد فُرِض وأُثبِتَ.

ثم يبين الله تعالى أن فريضة الصوم ليست عليك بشرع جديد، بل أيضاً فُرِضت على من كان قبلكم ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ وفي هذا الإخبار والإعلام ما يُحفز المسلم على مسابقة من قبله بالتطبيق، وكذلك أنه لم يكن خاصاً بكم، بل هو فريضة تعبدية عليكم وعلى من كان قبلكم. ولينقطع ما قد يُظَن أنه عقوبة، ولينتفي من النفوس ثقل وتعب الصوم. وهذا من لطف الله تعالى بعباده، أن بين لهم سنته في خلقه من هذه الفريضة، وما تُحققه من فائدة عظيمة، وهي حصول التقوى. مما يفيد أن الصوم يبني في المسلم تقوى الله تعالى، لأن الصائم يترك طعامه وشرابه لله تعالى، فيجزيه تبارك وتعالى بما يحقق له التقوى، بهذه العبادة العظيمة. ولا شك أن الصوم وجاء ووقاية لمسالك الشيطان الرجيم.

وفيه من الفوائد النفسية والأخلاقية والصحية الشيء الكبير والكثير، وفيه من الأجر الشيء العظيم الذي توافرت فيه الأحاديث النبوية الكثيرة. ثم أخبر تبارك وتعالى بأن الصوم يزيد التقوى، ويقويها، بل ويحصل به رفعة الدرجات ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ لعلكم تصلون بهذا الصوم إلى كمال التقوى. لما في أداء الصيام من تربية النفس على الإذعان لله عَزَّ وجل، والخوف منه، وطاعته عَزَّ في علاه.

ثم أخبر تبارك وتعالى عباده بأيامه، وما في شرعه من رفع الحرج عن المريض والمسافر. فقال عزَّ وجل ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فإن صيامه أياماً محددة وليست مدة كثيرة وزمناً طويلاً ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ فمن الرحمة والتخفيف الرباني على النفوس أن بين مدته، في صيغة تفيد القلة ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ فليست بأيام كثيرة، بل قليلة معدودة، وهذا من رحمة اللطيف الرحمن في تلطفه بعباده المؤمنين لمضمون بيان فريضة الصوم. مما يفيد أهمية الرحمة واللطف والتلطف عند توجيه العباد بعضهم لبعض، أثناء التربية والدعوة والنصح، وكذا أثناء التعامل مع الغير في كل جوانب الحياة، كمجال العمل والمهنة، ومجالات التعاون بين أفراد المجتمع، وفي كل حال ما لم يقتض الأمر خلافه، لعلة توجب الزجر.

ثم تتوالى رحمة الله تعالى برفع الحرج عن المريض والمسافر ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ فمن كان مريضاً يُرجَى منه الشفاء، أو على سفر، فإنه يقضيه في أيام غير رمضان. فأعطى التشريع مساحة لذوي الأعذار من القضاء ما فاتهم من الصيام في رمضان. وهذا من دقة فرضية العبادات في الإسلام، بأنها راعت ما يمكن أن يمنع أداء الفريضة، فبينت ما يرفع الحرج عنهم، مما يبين عظيم رحمة الله تعالى، فقد تَفَوّق فيها الجانب الاحترازي الذي لا يدع مجالاً للشك من أن هذا لا يمكن أن يصدر بهذه الدقة من عند غير الله تعالى، الحكيم العليم الخبير الرحيم بعباده.

ثم تناولت الآية الكريمة نوعاً آخر من أحوال الصائمين، فقال الله تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ وهم الذين يُطِيقون الصيام ويقدرون على أداء صيامه، ولكن يَشُق عليهم الصيام، لأي سبب من الأسباب، فلهم أن يفطروا ويُطعموا عن كل يوم مسكيناً. وهذا في ابتداء فريضة الصوم، ثم نُسخت هذه الإباحة على ما سيأتي بإذن الله تعالى. وذكر ابن الجوزي

رحمه الله تعالى أنه نُقل عن ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم، وغيرهم كذلك من التابعين: أنهم قالوا: كان من شاء صام، ومن شاء أفطر وافتدى، يُطعم عن كل يوم مسكيناً، حتى نزلت ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾ فعلى هذا يكون الكلام: زعالى الذين يطيقونه ولا يصومونه فدية، ثم نُسخت[١]

ثم رجح الله تبارك وتعالى لهم أفضلية الصوم على الإفطار، ليندفعوا للصيام أكثر من اندفاعهم للفطر والإطعام. فقال الله سبحانه وتعالى ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ﴾ أي: إن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام. قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطاوس ومقاتل وغيرهم من السلف[٢] وهذا يفيد مراعاة هذه الشريعة للطبيعة البشرية في التوجيه، وأخذها بالتدرج، مع التحفيز والتشجيع للأفضل والأكمل، مما يفيد أهمية مراعاة أحوال الناس عند التوجيه في الجانب التربوي والأداء المهني، والأخذ في الاعتبار اختلاف القدرات بين الناس، والاحتياط لها، مع عدم إهمال من قدرته أقل من الآخرين، بل يتم العناية بهم، ووضع ما يتناسب معهم، ثم تحفيزهم وترغيبهم في الارتقاء بأنفسهم نحو الأكمل والأحسن. فإذا كان هذا الاحتراز من الله تعالى فيما يخص العبادات، والتعامل مع عباده بالرفق والتشجيع والترغيب نحو الكمال، فمن باب أولى أن يكون ذلك بين العباد فيما بينهم.

وفي قوله تعالى ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ تحفيز لهم بالخيرية، والأفضل. وفيه لفت انتباه المؤمنين إلى ما حصل عندهم من العلم بالإذن لمن يطيقه ولكن يشق عليه، وما يلزم أن يقوم به من إطعام مسكين أو أكثر، فشجعه بذلك على الصيام، لأنه الأفضل والأخير ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ فجعل العلم مرتكزاً للأخذ بالأفضل بعد أن علمتم بالمفاضلة ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ مما يفيد التخيير مع التشجيع والتحفيز نحو الأكمل، وهذا أسلوب غاية في الإبداع التوجيهي. فنحمد الله تعالى أن علمنا عَزَّ وجل في طريقة تشريعه ما

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٦٩/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٠/١)

يمكن أن نستفيد منه في حياتنا بالقياس عليه. فيأتي هنا دور المسلم في الإفادة من طرائق التوجيه الرباني في القرآن الكريم، دعوياً وتربوياً وأسرياً ومهنياً واجتماعياً وإدارياً.

ثم يأتي تمام الآية في فرضية الصيام بأسلوب المدح، حيث قد استهلت بالمدح والثناء على شهر رمضان ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ إنه شهر رمضان الذي أنزل الله ربكم فيه أعظم كتاب، وهو القرآن العظيم. وفي هذا ما يبين للمؤمن منزلة هذا الشهر ومكانته عند الله تعالى، مما يوجب للمؤمن العناية بهذا الشهر، واستشعار مكانته ومنزلته، وفي هذا ما يشجع المؤمنين على ما سيأتي من نسخ إباحة الإفطار لغير المسافر والمريض. ويتعلم المسلم من هذا السياق القرآني الكريم أسلوب بيان أهمية الشيء وفضله من خلال الاستهلال به في بادئ الأمر، ليكون محفزاً للأخذ به، وإدراك أهميته، والاشتغال به عن قناعة.

وتفيد وتبين الآية الكريمة فضل القرآن الكريم ومنزلته إذ كان وسيلة مدح لشهر رمضان، الذي هو شهر الصوم. كما أن فيه بيان من أن القرآن نزل إلى السماء الدنيا في شهر رمضان، وتحديداً في ليلة القدر، كما قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ ثم نزل بعده مفرقاً بحسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فإنه ذُكِر أنه نزل في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر من شهر رمضان، ثم أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم على ما أراد الله إنزاله(١) كما روي من غير وجه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما(٢)

وكذلك امتدح الله تبارك وتعالى القرآن في هذه الآية بأن وصفه بالهُدَى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ فهو

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٨/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٢/١)

هدى للناس جميعاً، للكافر وللمسلم، فللكافر حتى يهتدي به لدين الله تعالى، لما فيه من البينات الدالة والهادية إلى لله تعالى. وهدى للمسلم لأن فيه بيان لِمَا يُرِيدُه الله تعالى منه، وما نهاه عنه، إذ يبين له ما يحبه الله تعالى وما يبغضه ولا يرضاه، وفيه الأمر والنهي.

وكذلك امتدح الله تعالى القرآن بما اتصف به من البينات، فقال تعالى ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ فإن القرآن العظيم قد تضمن دلائل وحجج بَيِّنَةٍ واضحةٍ جليةٍ لمن قرأها وتدبرها. فهي دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام.[١] وهذا يفيد أن من أراد الهدى فعليه بالقرآن الكريم، ومن أراد أن يتعلم أو يعرف الحجج والبراهين فعليه بالقرآن الكريم، ومن أراد أن يبين الحق للناس فعليه بالقرآن العظيم، ومن أراد العلم وأصوله فعليه بتعلم القرآن الكريم، ومن أراد الفقه والتوحيد فعليه بالقرآن، ومن أراد معرفة الفوارق والأضداد بين الحق والباطل فعليه بالقرآن الكريم. فهو الخير والنور الذي يستنير به السائر إلى مراد الله تعالى. وكذلك تفيد هذه الخصوصية العلاقة بين شهر رمضان ونزول القرآن الكريم فيه، فإنها فضيلة للشهر، ومنزلة للقرآن الذي احتفى الله تعالى به، بأن جعل الشهر الذي أنزل فيه القرآن هو شهر الصيام.

وبعد بيان منزلة وميزة شهر رمضان ونزول القرآن الكريم فيه، يقول الله تعالى ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فأمر من شهد استهلال الشهر فليصمه، لتنسخ هذه الآية الإباحة المتقدمة، لمن كان صحيحاً مقيماً من أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم، كما تقدم في الآية السابقة[٢] ثم استثنى تبارك وتعالى المسافر والمريض ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وهذا من كرمه ولطفه سبحانه وتعالى كما تم بيانه في الآية السابقة،

---

(١) المرجع السابق (٢٢٢/١)

(٢) المرجع السابق (٢٢٢/١)

وتكراره هنا يدل على تثبيته بعد النسخ، بإفراده، حتى لا يتوهم أنه منسوخ مع غيره ممن يستطيع الصوم بمشقة، وله الخيار بين الصوم أو الإفطار والإطعام. كما سبق بيانه.

ثم يبين الله تعالى علة إعفاء المريض والمسافر من الصوم، وتأجيله لأيام أخرى، حيث يقول تبارك وتعالى ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ لأن ربكم أراد بكم اليسر في الصيام، ولم يكن مراده أن يشدد عليكم في ذلك. فهذا من رحمته وعنايته، إذ مَكَّن المريض والمسافر من التأجيل، بما يفيد ويبين أن الله تعالى ما أراد بهذه الفريضة الكريمة ولا بغيرها التشديد والعسر بالمسلمين، بل يَسَّرَ لهم الأمر الذي يوصلهم لتحقيق طاعة الله تعالى، وأراد بهذا الصوم أن تحصل لهم التقوى التي فاز من تَحَصَّلَ عليها، حيث بين ذلك تبارك وتعالى في الآية السابقة بقوله عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وهناك تفصيل فقهي في القضاء وأحوال المريض والمسافر، ومدة السفر ومسافته، وعلى من يجب الصيام وغيرها من مسائل الفقه، يراجعها من أرادها في مضانها من كتب التفسير والفقه.

ثم قال تعالى في حق المريض والمسافر ﴿ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ فبين الله تعالى أنه أراد منهم قضاء ما أفطروا حتى يكملوا عدة أيام الشهر. ثم أرشدهم تبارك وتعالى إلى التكبير الذي يعبر عن الشكر والامتنان لله تعالى أن هداهم لهذه العبادة ووفقهم لأدائها، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وفي هذا حثٌ وحضٌ على التكبير في آخر رمضان، في قول جمهور أهل التفسير. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حقٌ على المسلمين إذا رأوا هلال شوال أن يُكبروا. وروي عنه كذلك: يُكبر المرء من رؤية الهلال إلى انقضاء الخطبة.[١] فدل هذا على أن الصوم نعمة تستحق الشكر من العبد لله تعالى، بل كل

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٠٤)

عبادة نعمة جليلة عظيمة من نعم الله تعالى، تستحق الشكر الْمُستهل بالتكبير، الذي يعتبر أيضاً شعيرة من شعائر الذكر والشكر لله تعالى.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الإجابة على سؤال من سأل عن قُرْبِ الله تعالى وبُعْدِه، وقد سأل أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم: أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[١] فإنها آية عظيمةٌ، وسؤال صادقٌ، قد التمس صاحبه العلمَ والمعرفة بِقُرْبِ وبُعْدِ ربه تبارك وتعالى، فكان التوقف من النبي الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، وكذلك جواب عظيم من رب رحيم. فإن الله تعالى قريب من عباده يسمعهم، بل يسمع سرهم ونجواهم، ويعلم حالهم وتقلبهم، فلا يغيب عنه تبارك وتعالى شيء من أمر خلقه. فَقُرْبُ الله تعالى من خلقه قُرْبٌ يليق بعظمته وجلاله، ليس كقرب مخلوقاته فيما بينها، وليست قدرته تبارك وتعالى كقدرتهم، بل هو خالق قدرتهم.

وهذه الآية تُفيد العلم بأن الله تعالى قريب بقدرته ومعرفته وعلمه، كما قال تعالى في سورة ق. ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (يا أيها الناس اربعوا على نفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً. إنه معكم، إنه سميع قريب. تبارك اسمه وتعالى جده)[٢] وقد كان هذ البيان من النبي صلى الله عليه وسلم لمن كان معه في غزوة من الغزوات، حيث كانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير. فبين لهم أنه أقرب للعبد من نفسه بنفسه. فلو فكر العبد في أمر ليتخذ فيه قراراً لنفسه، لربما أخذ منه وقتاً، وإذا أراد الله أن يوفق العبد فيما فكر فيه ألهمه الصواب قبل

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣/٢٢-٢٢٣)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢٩٩٢) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٧٠٤)

أن يمحص العبدُ فيه بفكره، فتنشرح نفسه وتنجذب إليه رغبته، فيتخذ القرار. فكان الله جَلَّ جلاله بقدرته أقرب من قدرة العبد لنفسه.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة العظيمة أهمية الأدب مع الله تعالى في الطلب والمناجاة والدعاء والاستغاثة، وغيرها فيما يتعلق بمخاطبة العبد لربه، وأن تكون من مُوقِنٍ بأن الله قريب يسمع نجواه وشكواه، وحاجته ومطالبه. فلا يرفع بها صوته. ومن الفوائد أن الله تعالى يُجيب الدعاء، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فليدعو المسلم وهو مُوقن بالإجابة. ويعلم أن الله تبارك وتعالى أعلم به وبأنسب الأوقات لإعطائه مسألته. ليدفع عنه بها شراً، ويجلب له بها خيراً. فليستجيب المسلم لأوامر الله تعالى بالتطبيق، ويستجيب للنواهي بالترك والبعد عنها، وليستجيب للمستحبات بالاجتهاد فيها. وليؤمن الإيمان الذي يجعله من الراشدين ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ والرشد ضد الغي، والرشد وضع الشيء موضعه، والرشد تقديم الآخرة على الدنيا، والرشد هو معرفة الطريق الصحيح والسير فيه، ومعرفة الطريق الخاطئ والبعد عنه. ويستفاد من هذا التوجيه الرباني ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ أن كمال الرشد يتحقق بالاستجابة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، والإيمان بالله وبما أمر أن يؤمن به المؤمن.

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

ثم يعود السياق القرآني الكريم لشعيرة الصوم بعد فاصل الإجابة عن سؤال من سأل عن قُرْب الله تعالى من عِباده. ومن فوائد هذا الفاصل بين آيات الصيام، ليشتد الانتباه إليه، وحدوث التشويق لما بعده من الآيات الكريمات المتضمنة لرحمة الله الرحمن الرحيم بعباده الصائمين، بتمديد زمن مباشرة الرجل لأهله والأكل والشرب في رمضان. بعد أن كانت الرخصة في أول فريضة الصوم من الإفطار إلى صلاة العشاء، أو حصول النوم قبل العشاء، فمتى نام أو صلى العشاء أمسك وحَرُم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، أي التي بعدها. فوجدوا مشقة كبيرة[1] فمدد الله لهم، كما قال تعالى ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ** ﴾ وهو الجماع. وبالتالي كل ما هو دونه مباح، لأن بيان إباحة الأعلى دليل على أنه يشمل الأدنى.

ثم يبين الله تعالى ميزة العلاقة بين الزوج وزوجته، فقال عزَّ وجل ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ فهن سكن لكم وأنتم سكن لهن. فالذي وضع هذه الخاصية بين الزوجين هو الله تبارك وتعالى. وهذا يفيد أن نعمة السكون النفسي نعمة متبادلة بين الطرفين. ليس لأحد فضل على أحد فيها، بل هما متساويان في تقديمها للآخر. ودلالة ﴿ **لِبَاسٌ** ﴾ تفيد الستر والتغطية والقرب والمباشرة، لأن اللباس هو الذي يباشر الجسم، فهذه المعاني إذا نظر إليها الإنسان واتعظ بها، فإن الزوجين يكونان لبعضهما بمثابة تلك المعاني، تحقيقاً وتلمساً، لتكون واقعاً في الحياة.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٢٦)

ثم يكشف الله تعالى عن علمه بتلك المشقة بسبب قِصَرِ زمن الإفطار، وأنهم كانوا يخونون أنفسهم، لما قد يحصل من المباشرة أو الأكل. فلذلك رفع عنهم الحرج، كما قال تعالى ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡ ﴾ وهذا من رحمته وجوده تبارك وتعالى. وفي قوله عَزَّ وجل ﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ ﴾ ما يفيد عِلْمُ الله تعالى بما يحصل من الإنسان، وفي كون البيان بصيغة الجمع ما يرفع الحرج عمن جاء يشكو للنبي صلى الله عليه وسلم من أكله أو شربه أو وطئه، فيظن بهذا السياق أنه قد حصل من غيره مثل ما حصل منه. بما يُفيد أهمية الستر عند التوجيه والتصحيح للأخطاء. كما كان منهجه صلى الله عليه وسلم حين يوجه فيعمم، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها (كان النبي صلى الله عليه وسلم، إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟)[1] مما يعلم المؤمن أدب البيان بالتعميم، دون التعيين.

ثم يتبين لطف الله تعالى في عفوه، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡ ﴾ فلم يتب عليكم فقط، بل جمع بين التوبة والعفو، فإن ربكم قد عفا عما حصل، وكأنه لم يحصل شيء. فسبحان الله التواب الرحيم. ثم يأتي الإذن بالمباشرة، فقال تعالى ﴿ فَٱلۡـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ ﴾ ثم يُلحق هذه المباشرة بالهدف من تلك المباشرة ﴿ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ وهو الولد، اطلبوا الذرية بهذه المباشرة. وهو تنبيه على الهدف مما يبتغيه الزوجان من المتعة. فالحمد لله المتفضل على عباده بهذا الإنعام، من التسخير والتيسير والتسهيل والتعليم.

ثم يأتي المزيد من البيان وإزالة كل الاحتمالات التي تزيل الشك وتقطعه، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ﴾ بما يفيد أن الرخصة شاملة حتى للطعام والشراب ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ﴾ ثم بين المدة التي تنتهي بها الرخصة ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ

---

(١) أبو داود (١٤٣/٥) برقم (٤٧٨٨)

﴿ٱلْفَجْرِ﴾ أي حتى يتبين بياض النهار من سواد الليل من وقت الفجر. وهذا من دقة بيان القرآن الكريم في تعيين بداية الصوم ليبقى ثابتاً لا يتغير، وهو الفجر، والفجر يُعرف باستبانة بياض النهار من سواد الليل. ثم يبدأ الصيام إلى دخول الليل وهو غروب الشمس ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ إي: إلى غروب الشمس الذي يبدأ معه أذان المغرب. وهو بداية الليل.

ثم يليه التنبيه فيما هو محظور على المعتكف من الجماع، إذ أن المعتكف قد تلبس بعبادة جليلة عظيمة اختيارية، وهي الاعتكاف ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ فلا تباشروا زوجاتكم وأنتم في عبادة الإعتكاف. وهذا من باب استثناء المعتكفين من المباشرة من بين الصائمين ليلاً. فليس للمعتكف الوطء نهارا ولا ليلاً. فالمنع ليلاً باعتبار الاعتكاف، ونهاراً باعتبار الصيام، ثم الاعتكاف.

ولاعتكاف هو لزوم المسجد طاعة لله تعالى. ثم يقول عَزَّ وجل ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ فهذه الأحكام هي حدودٌ قد حدَّها الله تعالى فلا تخالفوها. وكلمة ﴿تِلْكَ﴾ هي إشارة لهذه الأوامر والنواهي. وأما ﴿حُدُودُ﴾ فهي الحواجز، وسميت حدود الله تعالى لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو فيها، ومنها سُميت الحدود في المعاصي، لأنها تمنع أصحابها من العودة إلى أمثالها.(١) ويُستفاد من ذلك أهمية تعظيم حدود الله عَزَّ وجل في الأنفس، وأهمية تربية النشأ على ذلك، حتى يعتادوا التعظيم لها. وأهمية انقياد النفس على الوقوف عند حدود الله تعالى، وعدم مجاوزتها.

وقد أفادت دلالة ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ البعد عنها إلى درجة أن لا تصلوا إليها، لأن القرب منها يؤدي إلى تعديها واقتحامها، بسبب الطبيعة البشرية. وإن كان المعنى لا تتخطوها ولكن في النهي عنها بلفظة الاقتراب دليل على البعد عن كل ما يوصل لتخطيها بالمخالفة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٢٥)

ويُستفاد من ذلك أن على المسلم أن يعتبر هذه الآية قوة يتصدى بها لكل هوى وكل زيغ، فإذا داهمته معصية، قال لنفسه ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ وإذا استهوته النفس لمخالفة أمر، تصدى لها بقوله ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ وإذا زين له الشيطان اقتراف حد من حدود الله تعالى، استقوى بقوله تعالى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ وإن رأى غيره قد استهوته نفسه للتجاوز وعظه بقوله تعالى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ فإنها قوة للمؤمن إذا استحضر دلالتها في حياته.

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فكما بين الله تعالى هذه الحدود، كذلك بين جميع الأحكام المتعلقة بها، حتى لا يتجاوزوها الْمُخَاطَبُون بها، وحتى يعرفوا كيف يهتدون، وكيف يُطيعون ولا يتجاوزون حدود الله تبارك وتعالى. فلعلهم بالتزام أوامر الله تعالى ونواهيه تحصل لهم التقوى. مما يُفيد أن من يتقي الله تعالى في حدوده يرزقه الله التقوى، ولا شك أنه سيزداد بها خيراً عظيماً.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى معالجة أخذ الأموال وتداولها بالباطل، وتحقيق الفساد بها، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

فبدأ السياق الكريم في هذه الآية بالنهي ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ فيأتي النهي عن أخذ الأموال وتبادلها وتناقلها على سبيل الباطل، الذي هو خلاف الحق، فجاء التعبير عن صيغة تداول الأموال بهذه الحالة الفاسدة والمعبرة بالأكل ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم ﴾ فأخْذُها قد

يُصْرَف في الأَكل أو في غير الأَكل، ولكن جعل الله تعالى أخذها بهذه الحالة الفاسدة، بمثابة الاستطعام أو الأَكل المحرم الذي يُدخله الإنسان في جوفه، وهي أكثر شناعة في الوصف، فأخذها وصرفها على أي وجه كان، هو أكل لها بالباطل، وتصويرها بالأَكل، هو تشنيعٌ لها، ودليل على رفض النفس المحترمة لأساليب الباطل. ودلالة ﴿بَيْنَكُم﴾ تفيد عملية التداول للأموال بأي صورة فاسدة. كما أن دلالة ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ تفيد جميع الأنواع والأساليب المحرمة شرعاً، لأنها باطل. كالخداع والقمار والرشاوي والربا، وأخذ الأجرة بدون استيفاء العمل، أو منع كامل الأجرة لمن استوفى العمل. فالأوجه لأعمال الباطل لا حصر لها. ولكن لفظة واحدة قد استوعبت أنواع الباطل، ومختلف مفرداته، وهي نهيه تعالى عن أكل الأموال ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ فاستوفت هذه اللفظة جميع أنواع المعاملات التي تحمل ما حرم الله تعالى من البيوع والتداولات والمعاملات المحرمة. وهذا من عظيم البيان والبلاغة القرآنية الكريمة.

وفي هذه الآية الكريمة تقعيد قاعدة جامعة مانعة، دون تحديد وتعيين لمسميات أنواع الباطل، أو لطريقة تداول المال المحرم، حتى تستوعب جميع أنواعه وأساليبه، وما قد يستجد من الأنواع أو الطرق. ولا شك أن في ذلك قيمة أخلاقية وفقهية عالية في مساحة استيعابها لمستجدات الباطل، ولطرائقه. مما يدل على الإعجاز الفقهي والإعجاز الفكري، والإعجاز الأخلاقي في هذه الشريعة الغراء، وإثبات الإعجاز القرآني في أوجه متعددة، والتي منها الاستيعاب لجميع الأنواع، ولما قد يستجد من الصور والأنواع. فهي قاعدة توجيهية عظيمة جليلة من الله جَلَّ جلاله. كما أن في هذا النهي الذي يفيد التحريم بيانٌ من أن مقاصد الدين قاطعة لشر الفساد الاجتماعي، وما يؤدي إلى التباغض، أو استغلال الحاجات.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ وهذا بيان نوع من أكل الأموال بالباطل، عن طريق الدفع بالأموال للحكام، بالرشوة والحيلة من أجل الحصول على مال الغير بالباطل ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا تنويه وبيان لما قد يحصل من الإنسان ظلماً وزوراً في حق الغير، من أجل أكل ماله بالباطل، وهو يعلم أنه غير محق، فيأكله إثماً. مما يفيد أن الشريعة لم تَعْمُد في ضبط تداول المال أو

أخذه بناء على حكم الحاكم، الذي ربما غُيّبَت عنه بعض الأدلة، فيحكم للظالم على المظلوم، بل عمدت إلى أعظم من ذلك، وهو محاسبة النفس، من خلال تخويفها من الإثم والعقوبة من الله تعالى ﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ لتأكلوا أموال فريقاً من أموال الناس، وهم الضعفاء.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الأكل ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: بالذنب، الذي يترتب عليه العقوبة منه سبحانه وتعالى، ثم أوضح جَلَّ جلاله بأن هذا الأكل ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم موقنون أنكم تأكلونه بالباطل الواضح المبين. بما يفيد قوة الجراءة على أكلها، وتداولها بينكم. بما يفيد ويبين عناية الشريعة بتربية المسلم وضبط سلوكه، بأن لا يجعل ويسخر قدراته إذا تمكن من الحرام أكله، وشرع في أخذه وتداوله مع غيره بالتعاون معهم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

فبعد معالجة القرآن الكريم لمن يأكلون أموال الناس بالباطل ينتقل السياق المبارك إلى الإجابة عن سؤال تم طرحه على النبي صلى الله عليه وسلم، حول الأهلة، وهو ظهور الهلال صغيراً ثم يَكْبُر شيئاً فشيئاً حتى يكتمل، فيصبح بدراً، ثم يتناقص شيئاً فشيئاً حتى يتلاشى، ثم تتكرر هذه الحالة على رأس ثلاثين أو تسع وعشرين يوماً. فأنزل الله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ مما يبين أن من فوائد نزول القرآن متدرجاً، أن فيه إجابات عن الكثير من الأسئلة التي يتم طرحها على النبي صلى الله عليه وسلم، فتأتي الإجابة عليها. أو تظهر حاجة فيتم بيانها، وغير ذلك من أسباب النزول.

وفي دلالة ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِ ﴾ دليل على بدأ تفتق الأذهان على التفكير والتأمل بعد مجيء الإسلام. كما أن في الإجابة بقوله تعالى ﴿ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّ ﴾ ما يفيد ارتباط بعض العبادات بمواقيت معينة ومحددة. فدلالة ﴿ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾ تحمل منافع عديدة كثيرة، وللناس جميعاً، مسلمهم وكافرهم، لأنهم يشتركون في الانتفاع بمواقيت الأهلة، ويزيد عليهم أهل الإسلام بمواقيت العبادات. فهي مواقيت للعبادة كالصوم، والزكاة، وللعقود، وللديون، وللمواعيد، ولِمَا يتفق عليه الناس من زمن ووقت في شؤونهم، ومما لا يُحْصَى من أغراضهم. وهذه فائدة عظيمة في جملة واحدة. بما يبين نظام الكون وخدمته لجنس الإنسان، الذي لو تأمله الإنسان لوحد ربه في عبادته، وأطاعه رغبة ورهبة.

كما أن دلالة ﴿ مَوَٰقِيتُ ﴾ استوعبت الآجال والازمان، واستوعبت ما يتفق عليه الناس فيما بينهم، من حلول سداد الديون، والمواعيد المتنوعة في أغراضها، وكذلك مواقيت العبادات. وقد استوعبت دلالة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ جميع العباد، مسلمهم وكافرهم. وهذه من منافع الله تعالى العامة. فليتأمل الإنسان هذه الصياغة القرآنية الكريمة، وما فيها من الدقة اللفظية، والغزارة البيانية والبلاغية العظيمة.

ثم خص الله تبارك وتعالى من بين منافع المواقيت وقت ﴿ وَٱلۡحَجِّ ﴾ وفي هذا إبراز وإظهار له كمثال للعبادات المرتبطة بالأهلة. وكذلك لارتباط الحج بما بعده من توجيه، حيث صحح الله تبارك وتعالى اعتقاداً تعبدياً خاطئاً عند من أحرم بالحج في الجاهلية، فنبه الله تبارك وتعالى له بصيغة النفي ابتداء، فقال عزَّ وجل ﴿ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ وقد كان الأنصار إذا أحرم أحدهم بالحج أو العمرة في الجاهلية، وخرج من بيته، ثم أراد أن يعود للبيت في حاجة، فلا يدخله من الباب، بل يتسور الجدار، فيدخل من ظهر البيت، لئلا يحول بينهم وبين السماء حائل[١] لأن للباب عارضة يمر من تحتها الداخل للمنزل. ويرون في عدم المرور من تحت عارضة الباب براً

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٣٠)

وطاعة لله تعالى. فأبطل الرحمن الرحيم هذه العادة، أو الاعتقاد بأسلوب نفي البر عن هذا المسلك، فبدأ بإزالة الجهل المركب، ليحل محله العلم الْمُشَرَّع ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ فبين سبحانه وتعالى أن البر هو تقوى الله تعالى. وفي هذا بيان بطلان البدع، وإن كانت بنية تعبدية، وإثبات أن البدعة ليست من الطاعة ولا من البر، وأن البر في تقوى الله تعالى، بالتزام ما أمر به الله تعالى، وفق ما شرع، بلا زيادة ولا إنقاص، وعدم الحيدة عنها.

ثم قال تعالى آمراً بالصواب ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا﴾ وادخلوا البيوت من أبوابها المعتادة للدخول. وهذا يفيد أن منهج الإسلام منهج أخلاقي رفيع، وكذلك ليس مبني على العسر والتعنت، بل سمحاً بلا تعنت ولا تشدد. وبالتالي تظهر هنا علة وسبب ذكر الحج من بين العبادات في هذه الآية، حيث ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أنه اتصل هذا بذكر مواقيت الحج، أي دخول البُيُوت من ظهورها. لاتفاق وقوع القضيتين في وقت السؤال عن الأهلة، وعن دخول البُيُوت من ظهورها.[١]

ثم يأمر الله تعالى في تمام الآية الكريمة بالتقوى المؤدية للفلاح ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ واتقوا الله ربكم ليحصل لكم به الفلاح والفوز في كل أمر وشأن. مما يفيد أن تقوى الله تعالى تسير بصاحبها للفلاح والنجاح والنجاة. مما يدفع بالمسلم إلى تربية النفس والغير على التقوى، فإنها ضابطة للسلوك في السر والعلن.

ويستفاد من منهجية الترتيب في الآية الكريمة أهمية التدرج في المعالجة، حيث بدأت الآية الكريمة بإزالة الجهل المركب أولاً ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ ثم الإعلام بالعلم الصحيح، الموجب للاتباع والأخذ به ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ ثم يأتي تصحيح السلوك بعد أن تم تصحيح الفكر والفهم للبر ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا﴾ ثم تأتي بعد ذلك

---

(١) المرجع السابق (٢/٢٣٠)

الموعظة الدافعة للتغيير والعمل بمقتضى الأمر ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وبهذا قد أعطت الآية الكريمة منهجية علمية تعليمية وتربوية دقيقة في المعالجة والتصحيح والتعليم.

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ
وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ
ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ
ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾

يتوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، حيث جاء بصيغة الجمع والأمر ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ يوجه الله تعالى في أول آية نزلت في الإذن بالقتال بالتزام أمرين: أولهما: مقاتلة من يقاتلون المسلمين ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ والثاني: عدم الاعتداء ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ ومن فوائد دلالة هذه الآية، تحديد هدف القتال، بأن يكون في سبيل الله تعالى ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فينتفي بذلك كل قتال ليس في سبيل الله تعالى، وبالتالي فإن المجاهد هو من جاهد في سبيل الله تعالى، وأن الشهيد هو من قُتِل في سبيل الله تعالى. ثم اشتملت الآية الكريمة على مقاتلة من يقاتل المسلمين ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ ثم بينت أخلاق القتال في كلمة ودلالة واحدة ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ والتي تجمع جميع صور الاعتداء، وحالاته.

وذكر العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى: أنه يدخل في ذلك الْمُثلَة، والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة[١] وهذا يبين أن الإسلام دين أخلاق وسلام ورحمة، لا دين انتقام وقتل وإيذاء. فيحفظ للناس أمنهم وقوتهم. وأن من مقاصده القتالية دفع الشر وتحقيق النفع، وعدم الاعتداء بمجاوزة الحد حتى في الحرب. بل تُخْتَم الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ فإن ربكم لا يُحب الاعتداء ومجاوزة الحد، وبالتالي لا يُحب الذين يفعلون ما لا يُحب من الاعتداء. مما يُفيد الحذر من الاعتداء، وضبط النفس، وأنه يجب أن يعمل المسلم وفق مراد الله تعالى ليتحقق الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى.

وقد ورد النفي عن حب الله سبحانه وتعالى للإعتداء عاماً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ ليشمل جميع أنواع الاعتداء، سواء كان في الحرب أو السلم، وسواء كان في السراء أو الضراء. فإن الله ربكم يبغض المعتدين الذين يعتدون على حقوق غيرهم، بأي وسيلة كانت.

وبعد أن أذن الله تعالى بقتال الذين يُقاتِلون المؤمنين، أَذِنَ أيضاً بقتال مشركي مكة بصيغة الأمر، بل ويأذن بقتالهم حيث تمكن المسلمون منهم ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ وكذلك ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أي: فأخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه، وهي مكة المكرمة، أي: المعاملة بالمثل. حيث أُخْرِجَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين منها، وتركوا أموالهم ومتاعهم فراراً بدينهم من بطش وأذى المشركين. فكان التوجيه الرباني عدلاً مع العدو، فكما آذوكم واضطهدوكم وأخرجوكم، فاقتلوهم وأخرجوهم من مكة. مما يفيد عدل الإسلام في تعامله.

ثم يبين تبارك وتعالى حقيقة دينية عظيمة، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ ففتنة الدين لكم منهم أشد خطراً وجرماً من قتلهم. وبالتالي فإن فتنتهم للمؤمنين لإرغامهم على الكفر أشد من قتل المؤمنين لهم، وذلك لما كان منهم من التعذيب والاضطهاد، والحرب الحسية والمعنوية

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٣٣)

والنفسية بالنعوت الخسيسة، كرمي النبي صلى الله عليه وسلم بالسحر والكهانة والشعر، وكذلك بالأذى الحسي، كرمي الشوك في طريقه، ومحاولة قتله صلى الله عليه وسلم. وتعذيب بلال وغيره من الصحابة رضي الله عنهم. مما يفيد أن الفتنة في الدين من أعظم المصائب والجرائم، وكذلك عِظَم وخطورة من يُفْتِن الناس عن دين الله تعالى، مما يُوجب الحذر من فتنة الدين ومن أساليبها وصورها وأشكالها، أو نقلها لبلاد المسلمين من خلال الكلمة والصورة، أو غير ذلك من الأساليب.

ويأتي البيان القرآني من خلال المقارنة بين خطورة وضرر القتل، وبين خطورة وضرر فتنة المؤمن عن دينه ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ مما يفيد أهمية كشف وإزالة ما يمكن أن يكون من الفكر والمفاهيم التي قد تعوق عملية الجهاد، أو تعوق تحقيق الهدف. وبالتالي أهمية تهيئة النفس لصولة الحق. وأهمية نُصرة المؤمن الذي يُفتن في دينه. كما يفيد هذا في عموم المجالات الدعوية والتربوية والإدارية وغيرها، بإزالة العوائق الفكرية، من خلال المقارنة بين المصالح والمفاسد، وتحرير المسار الصحيح والاختيار الحكيم.

ثم يُبين الله تعالى حُرمة مكة المكرمة ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذا دليل على قدسية بيت الله الحرام، مما يُوجب إجلال البيت وتعظيمه في النفوس وفي الأفعال، والتحلي بكل أصناف الأدب والاحترام والإجلال. بل جاء النهي القاطعُ إلا إذا بدأوكم فاقتلوهم. وهكذا كان فتح مكة إذ لم يبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم القتال، فحقق الله له فتح مكة دون قتال. وهذا هو جزاء الكافرين، كما قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ثم يبين الله تعالى ما قد يمكن أن يحصل، وما يلزم اتخاذه ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن انتهوا عن الشرك ودخلوا في الإسلام، فإن الله تعالى يغفر لهم ويرحمهم. وهذا يفيد أن الله تبارك وتعالى يُكفِّر ويَجُبُّ بالإسلام ما قبله، وأن الهدف ليس هو الانتصار بالقهر والتشفي منهم، بل بتحقيق الهدف، وهو دخولهم في الإسلام. فبصفح الله تعالى عنهم جميع ما كان من جرائمهم لقاء دخولهم في الإسلام. مما يُظهر ويبين عظيم رحمة الله تعالى بالإنسان، وأنه غفور، ورحيم، وأن غاية هذا الدين هو صلاح هذا الإنسان وليس تعذيبه.

ويبين الله تعالى علة وسبب قتالهم ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ فالهدف من قتالهم، حتى لا يَفْتِنُوا الناس عن دينهم، ولا يبقى في مكة مُضطهد، فَيُفْتَن في دينه، وليكون الدين في مكة لله وحده لا شريك له. فَيُجْتَث الشرك من أساسه، ولا يبقى إلا دين الله تبارك وتعالى. وإن انتهوا عن شركهم وكفرهم وأسلموا، فإن القاعدة هي ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ حصر العدوان على من ظلم، وهو الكفر والإعتداء. وأما من لزم السلامة والإسلام فلا يجوز الاعتداء عليه. فإنه تنظيم حكيم من لدن عزيز حكيم.

ويظهر من سياق ما سبق: كمال العدل وعدم الظلم، وتحقيق الهدف، والمعاملة بالمثل، وأن الإسلام يُغَلِّب الإيمان على جميع الضغائن والعداوة، ويمنع به كل أسباب العداوة، ويحقن به الدماء، مهما كان منهم قبل الإسلام. فلم يأمر المسلمين بالاقتصاص والتنكيل بهم إذا أسلموا، بل قال تعالى ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ كما في الآية المتقدمة على هذه.

ثم يخبر الله عَزَّ وجل عن علة وسبب مقاتلتهم في الشهر الذي حَرَّم الله عَزَّ وجل القتال فيه، فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ ﴾ وتفيد هذه الآية المعاملة بالمثل، لصد كل اعتداء، فمن اعتدى وقاتل في الأشهر الحرم: شهر ذو القعدة وشهر الحج وشهر الله المحرم ورجب فقاتلوهم. فمن تجرء على ما حرم الله فإنه يُقْتَص منه، أي المعاملة بالمثل ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ وهذا يفيد عناية واحترام الإسلام لما حرم الله تعالى، ولكن لا بد من المدافعة التي تمنع شر المعتدي، حتى ولو كان اعتداؤهم في شهر حرام، وبالتالي حتى ولو كان في مكان له حرمة، أو متلبس بإحرام. وفي هذا من الفوائد ما يحقق الحق والأمن، حتى لا يَسْتَغِل الكافرُ ما جعل الإسلامُ له حرمة، فيعتدي ويبغي، أو على

مستوى الفرد ممن تلبس بإحرام في حج أو عمرة، فَيَبْغِي بِشَرٍ أو ظُلْمٍ، مما يستوجب عقابه وردعه. وهذه نزلت في عام الحديبية ولها تفاصيل ذكرها أهل التفسير[١]

ولما أن النفوس قد لا تقف على حدها إذا رُخِّص لها في المعاقبة، لتطلب التشفي، أَمَرَ اللهُ سبحانه وتعالى بلزوم التقوى التي هي الوقوف عند حدوده، وعدم تجاوزه[٢] قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فأمر بالتقوى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وأخبر أنه مع من يتقيه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ويجب عليكم أن تعلموا أن ربكم بمعيته مع المتقين. الذين يخافونه، ويلتزمون حدوده، ولا يبغون على أحد بظلم. وهذا يفيد أن من أراد أن يكون الله تعالى معه فيلزم التقوى. ليكون له عوناً ونصيرا ومؤيداً وظهيراً. ومعنى هذا بالمقابل أن من لم يتق الله تعالى فإن الله تعالى يتخلى عنه، وبالتالي يكون الخذلان والهزيمة معه في كل وقت وحين، وعلى كل حال من أحواله.

ثم يأمر الله تعالى عباده بالنفقة في سبيله ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فتصدقوا في طاعة الله تعالى يا أهل الْيُسْرِ. أي في أوجه الخير المتنوعة، إذ لم يحصرها تبارك وتعالى في جانب محدد، بل جعل التوجيه عاماً في جميع أوجه الخير ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لتكون قاعدة في الإنفاق في سبيل الله تعالى، ولَمَّا أنها في سياق الجهاد، فإنها تحث على النفقة خاصة في الجهاد في سبيل الله تعالى. ونهى عن الإمساك الذي يؤدي لهلكة الْمُمْسِكِ ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ولا تضعوا أنفسكم في المهالك بسبب الإمساك والطمع. وفي تصوير هذا المعنى بهذه الصورة ما يفيد أن إمساك الإنسان للمال عن النفقة في سبيل الله تعالى يؤدي إلى هلاك المال والنفس، فكأنه قاد نفسه وطرحها في الهلاك بهذا الإمساك. وبالمقابل فإن الهلاك يُدفع بالإنفاق، بمعنى أن الإنفاق يدفع الهلاك، كما جاء

---

(١) انظر، ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣/٣٠٤_٣٠٨) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٣٦ _ ٣٧)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٥٣)

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع عنه ميتة السوء)[١] لِمَا في النفقة من تقوية الميسور للمعسور، والقوي للضعيف، والغني للفقير، ولما للنفقة كذلك في الجهاد من المصلحة التي تدفع ما يُهلك الميسور وغيره. ولِمَا فيها من رفعة الإسلام ودفع شر البغاة.

ثم يأمر تبارك وتعالى بالإحسان ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهذا التوجيه يتضمن أوجه الإحسان جميعها، بالمال والجاه والكلمة وغيرها من أوجه الإحسان، كما أن المحسن يحصل على محبة الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وهي مكافأة عظيمة جليلة، أن يحصل الإنسان على محبة الله تعالى، التي تتضمن عنايته وتوفيقه وتسديده لمن أحبه الله تعالى، بل ويُنْزِلُ له محبة في قلوب الخلق.

وقوله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قوة يدفع بها المرء شح النفس، ويندفع بها للخير، فإن تردد في إحسان، عزم على نفسه بقوله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وإن رامه الشح استقوى عليه بقوله عَزَّ وجل ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وإن استكثر ما ينفق استقوى بقوله جَلَّ جلاله ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وإن تكاسل عن معروف، استنشط بقوله جَلَّ شأنه ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وإن استأثر بنفسه عاتبها بقوله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وإن رأى غيره قد شح بنفسه أو مما يستطيعه، وعظه بقوله جَلَّ شأنه ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فهي قوة للمؤمن يتقوى بها كلما تذكرها في مواطن الإحسان، وفي أوجهه المتعددة. ونسأل الله تعالى التوفيق والعون والسداد، وأن يجعلني وإخواني المسلمين من المحسنين.

---

(١) ابن ماجه، صحيح ابن ماجه (٥٢/٣) برقم (٦٦٤)

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

ينتقل بيان الله العليم الحكيم إلى فريضة الحج والعمرة. قال عَزَّ وجل ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فقد بدأ استهلال الآية الكريمة بالأمر ﴿ وَأَتِمُّواْ ﴾ الذي يقتضي وجوب إتمام الحج والعمرة لمن شرع فيها ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ مما يؤكد أهمية الأداء والإتمام، ويقتضي الإتمام إتقان الأداء بأحسن ما يكون في أركانه وواجباته ومستحباته، وكذلك من مقتضيات الإتمام قطع التردد وتقديم العزيمة في الأمر، مما يُكسب المسلم العزيمة والتوكل على الله تعالى في كل خير يقدم عليه، وأن يقطع دابر التردد الذي يؤدي بالإنسان إلى الفشل، وكذلك إتقان العمل الذي يقوم به، وإتمامه على أحسن ما يكون من جميع الأوجه. وقد قال صلى الله عليه وسلم (إذا عمل أحدكم عملاً فليتقنه)[١] كما تُؤكد الآية الكريمة أمراً مهماً، وهو الإخلاص لله تعالى ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ فلا يخالطها الرياء ولا السمعة، ولا لأي هدف آخر، غير الإخلاص لله تعالى وحده لا شريك له. وهذا يفيد أن الإسلام دين الإخلاص، وليس للتباهي والرياء بالعمل. وإذا اعتاد المؤمن على هذا المبدأ الحنيف، فإنه يعتادهُ ويربي فيه عدم الالتفات إلى دواعي التباهي بما يقوم به من أعمال دينية ودنيوية، وهذا يصرفه عن الكبر الذي يُوَلِّدُ البغضاء والشحناء بين أفراد المجتمع. فالأداء العبادي ينعكس على الأداء العام، وعلى الأخلاق والسلوك الذي يظهر في بقية نشاط وأعمال المسلم.

---

(١) الألباني السلسلة الضعيفة برقم (٢٦٤٧)

وتقرر الشريعة الإسلامية ما يمكن أن يحصل للمُحْرِم من موانع استكمال النسك في قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ فإن منعكم مانع من استكمال النسك، وهذا استدراك وتحوط لما قد يحدث من موانع الاستكمال. فتستبق وتستحوط شريعة الله تعالى لمن دخل في النسك، ثم أصابه ما يحبسه عن إتمامه، فاستثنت له ما يرفع عنه الحرج، من أي مانع وحابس يحبسه، حيث جاء لفظ الحصر هنا عاماً، ليستوعب كل سبب يمنع من إتمام الحج أو العمرة. فبين الله تعالى ما يقع فيه من الحصر دون أن يُقَيِّد نوعه، لتكون المساحة واسعة، لكثرة تنوعه وأسبابه، فتستوعب أنواعه وجميع مفردات الحصر. وهذا من دقة هذا التشريع الرباني. لأن الله عَزَّ وجل عَلِيمٌ خبيرٌ بما قد يطرأ على عباده. وهذا من الإعجازي التشريعي في استيعاب أحكامه لكل ما يمكن أن يدخل في الْحُكم. كما أن في ذلك إعجاز بلاغي، إذ استوفت واستوعبت لفظة واحدة ﴿ أُحْصِرْتُمْ ﴾ جميع أنواع الموانع. كما يفيد ذلك تعليمياً: اكتساب منهجية بناء صياغة الأنظمة والتعليمات الْمُنَظِّمة لشؤن أبواب الحياة المختلفة، فيما يتعلق بالمصالح المرسلة.

فعالج سبحانه وتعالى قضية الإحصار بأحسن وأسهل ما يكون، فقال عَزَّ وجل ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ بأن يذبح شاة، أو سُبع بدنه، أو سُبع بقرة. وقيل أنه شاة، قاله علي بن أبيطالب، وابن عباس والحسن، رضي الله عنهم، وقتاده والضحاك وغيرهم[1] ولم يشترط فيها شروطاً، وذلك تيسيراً من الحكيم الرحيم الذي يراعي فيه موقف الحال ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ فجعل مساحة التيسير هي التي تتحكم في الاختيار، ليرفع الحرج عن صاحب النسك. مما يفيد في التنظيم والتوجيه والتخطيط أهمية وضع الاحتمالات، وأخذها في الاعتبار، وأهمية وضع الحلول المناسبة، التي يمكن أن تكون بدائل ممكنة، يراعى فيها واقع الحال المحتملة.

ثم ينبه ويبين تبارك وتعالى الترتيب في التَّحَلُّل من الإحرام، بأن يكون بعد القيام بأداء عملية الهدي ﴿ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ﴾ فإن من محظورات الإحرام إزالة الشعر بحلق أوغيره،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨٦/١)

حتى يبلغ الهدي محله وهو يوم النحر، فيكون الحلق بعد النحر. وهذا يدل على أن العبادة في الشريعة الإسلامية وفق منهج منظم من الحكيم العليم العزيز، ويلزم الأخذ بها وفق ما شرع تبارك وتعالى، وبينه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين تبارك وتعالى موانع وطوارئ أخرى قد تطرأ على من تلبس بالحج أو العمرة ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ هذه معالجة وحلول من الله العزيز العليم الحكيم. لأن الله تبارك وتعالى عالم بما يمكن أن يطرأ على عباده من أسباب، قد توجب للعبد مخالفة منهج النسك، فعَلَّمه تبارك وتعالى ماذا يعمل تجاه ذلك. مما يفيد دقة منهج هذه الشريعة التي لا يمكن أن تكون إلا من عليم حكيم سبحانه وتعالى، ولا تزيد المؤمن إلا إيماناً وتصديقاً. فإذا استوجب مَنْ أصابه مرض أن يحلق شعر رأسه، فإن الله تعالى قد أباح له فعل ذلك، مع الكفارة التي خُيِّر في أنواعها، من صيام أو إطعام أو ذبح. وقد فصلت السنة المباركة ذلك، وبين الفقهاء مزيداً في تفاصيلها الفقهية من كتب الفقه.

ومن فوائد هذه المنهجية التشريعية الربانية: أن أخرجت علماءً أفذاذٍ، قد تفتقت عن عقولهم بفضل الله تعالى علوم عظيمة، فَحَرّرُوا وحَبَّروا علوماً مبتكرة ما سبق لأمة أن أتت بمثلها، كالقواعد الفقهية، وأصول الفقه، ومصطلح الحديث، وغيرها من المعارف والعلوم التي تولدت لديهم بفضل الله تعالى ثم بفضل منهجية التشريع الرباني.

ثم يبين تبارك وتعالى نسك التمتع، إذا حصل الأمن من العدو وغيره ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ وذلك إذا أحرم في أشهر الحج بالعمرة، ثم يتحلل منها، ويتمتع بما يتمتع به المقيم، ثم يُهِلُّ بالحج في وقت الحج، فهذا يلزمه الهدي. وأيضاً راعت الشريعة حال الإنسان والواقع الذي قد يواجهه ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ فراعت الشريعة واقع الحال الذي يمكن أن يواجه الحاج، فلا يجد ما يذبح أو لا يجد الثمن، فأوجدت له البديل بالصيام على جزئين، حتى لا تُثْقِل عليه ذلك البديل، فثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى بلاده. وهنا يظهر الإعجاز في توخي الاحتمالات، ومراعاة واقع الحال بما

يدفع كل عُسر. ولا يمكن أن يكون هذا إلا من رحيم بعباده في تشريعه، وحكيم في المعالجة والمواءمة بين المطلوب والواقع الذي يمكن أن يواجه مَنْ أُمِر بهذا التشريع.

مما يُعَلِّمُ الإنسان المسلم منهجية التنظيم والتخطيط، ووضع البدائل، والاحترازات التي تعالج طوارئ ما قد يحل بهم. ويرتقي بفكره، ويفتح ذهنه ويوسع مداركه، ليستوعب الحياة برمتها، ويعرف كيف يُدير ويعالج قضاياه وقضايا الأمة، وكيف يراعي الأحوال والمفاجآت التي قد تُفاجئ الفرد، أو المجتمع، أو البعض، أو الأمة في أمر من الأمور. فمنهج الإسلام يعلم المؤمنين الكثير والكثير من الخير العميم.

ثم يبين تبارك وتعالى أن هذا الْحُكْمُ لمن ليس من أهل الحرم ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فذلك الحكم لمن لم يكن من سكان مكة المكرمة. وللفقهاء تفصيل في ذلك، ينظره في كتب الفقه لمن أراد مزيد العلم.

ثم يأمر الله تعالى بالتقوى ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وأطيعوا وخافوا وراقبوا الله ربكم فيما أمركم به وشرعه لكم. وهذا البيان المتضمن للأمر بالتقوى، يفيد أنه يجب على الحاج والمعتمر أن يتقي الله تعالى في هذا النسك، ويراقب الله تعالى في أداء ما دخل فيه من نسك. لأنه ليس عليهم رقيب ولا محاسب إلا الله تعالى، فَيَلْزَم، بل يجب أن يؤدوا الفريضة كما أمر الله تعالى بها. وهذا يفيد أيضاً أهمية التذكير في المجال الدعوي والتعليمي والتربوي بتقوى الله تعالى في كل أمر. وأن تكرار الوصية بالخير أمر مهم، وله أثره وفوائده، حتى في أعمال المهنة، وفي العلاقات بين الناس، وتعاملاتهم، لتكون التوصية والوصية بالخير حاضرة عند الجميع.

ثم ينبه الله تعالى بالمقابل لمن لم يتقه، فيتلاعب ويتهاون في النسك بأن له العقاب الشديد.

فقال عَزَّ وجل ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فاعلموا أن مما تستوجبه التقوى، أن الله شديد في عقابه لمن عصاه. فَيُفْهَم من هذا، أنه في حال عدم لزوم التقوى، فإن لله تعالى عقاباً شديداً لمن يتهاون فيما أمر. وبالتالي على المسلم أن يأخذ أمر الله تعالى بجد، ولا يتهاون فيه. وفي هذا الوعيد تحذيرٌ وتخويفٌ من الله تعالى. لأن الخوف من الله تعالى يحقق التقوى بتوفيقه. كما أن التذكير والإعلام بأن الله شديد العقاب يوجب للعبد التقوى، وذلك لما جُبِلَت عليه النفوس من الخوف

ومحبة الأمن والسلامة. وهذا يفيد تربوياً أهمية الجمع بين الإرشاد وبيان العواقب والعقاب لمن لم يأخذ بما أُرْشِد به. كما أن في هذا تربية للفرد بأن يُربي نفسه على تقوى الله تعالى، إذ ليس هناك أحدٌ من فئة البشر يُحاسب الحاج على التقصير في عبادته، بل إن الرقيب والحسيب والْمُعَاقِبُ هو الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي
ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ
يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (١٩٧) لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ
فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ
وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ (١٩٨) ثُمَّ
أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٩٩)
فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ
ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ
خَلَٰقٖ (٢٠٠) وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ
وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (٢٠١) أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (٢٠٢)
وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ
فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (٢٠٣)﴾

ثم يبين الله تعالى المزيد عن هذه الشعيرة العظيمة، التي هي ركن من أركان الإسلام، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ فإن أشهر الحج معلومة عند الْمُخَاطَب. فهي معلومة منذ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي شهر شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة. ويفيد

هذا أن ما كان واضحاً معلوماً فلا يلزم إعادة ذكره بالتفنيد. وقد ذكر الإمام القرطبي[١] أن الله تبارك وتعالى لم يذكر العمرة هنا، باعتبار أنها طوال العام، أما الحج فلا يقع إلا في السنة مرة واحدة ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ فهو محدود المدة.

ثم يبين تبارك وتعالى أخلاقيات من دخل في هذا النسك ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ فمن دخل في النسك فقد فرض على نفسه الحج، وألزم نفسه استكمال جميع متعلقاته. فَمَثَلُه كمن دخل في عقد من العقود، فألزم نفسه بجميع بنوده. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أي ألزم نفسه بالشروع فيه بالنية باطناً، وبالإحرام فعلاً ظاهراً، وبالتلبية نطقاً مسموعاً. فمن دخل في نسك الحج استوجب عليه أن يلتزم بلوازمه التي منها ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي الجماع وما دونه. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أي جميع المعاصي. ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ وهو المماراة التي تحصل بين الناس في أمر من الأمور.[٢]

وهذه المنهيات في الحج تُرَبّي في الحاج القدرة على ضبط النفس، بالامتناع عما نَهَى عنه الشرع، وتُقَوِّي إرادتَه وعزيمتَه، وتكشف له قدرته على الامتناع والصبر، وتزيل عنه كل تعليل سابق من أنه لا يقدر على ترك شيء من ذلك، فيكتشف الحاج بهذا الانضباط قدراته على ضبط النفس والإرادة، فتزول أوهامه المحبطة له عما يجب أن يكون عليه، وهي من أهم مراحل تطوير النفس والارتقاء بها إلى مكارم الأخلاق. والحقيقة أنه لا تكاد تنتهي التفاصيل والتفصيل في فضائل الحج وعوائده وارتباطه بالفرد والحياة الاجتماعية والأسرية والمهنية.

ثم ينبه تبارك وتعالى ويُذكّر عباده المؤمنين بما يعرفون عنه من علمه بهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فإن أعمالكم التي تعملونها من الطاعة وأعمال الخير يعلمها ربكم تمام العلم، بما يعني ويفيد: أنه سيثبتها لكم، ويثيبكم عليها. وفي هذا الأسلوب التذكيري المرتبط بما نهى الله تعالى

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٦٩)

(٢) المرجع السابق (٢/٢٧٢)

عنه ما يحفز المسلم على فعل الخيرات والمسارعة فيها، وعدم التقصير عنوة فيها. وبالتالي فإن ما تمتنع عنه وتتركه أيها الحاج من المخالفات وتعمل بما يضادها من الخير فإن الله تعالى يعلمه، ويعلم سيرك فيها، ويعلم ضبطك لنفسك عما نهى عنه عَزَّ وجل، وانضباطك وتحليك بما أمرك به عَزَّ في علاه، فإنه سيكافئك عليه. لأن الله عليم كريم.

وكذلك يُستفاد من ذلك أن الله تعالى لم يُحدد نوعاً، أو أنواعاً من الخير، بل أطلقه ليشمل كل خير ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ مما يدفع الإنسان للسعي في جميع أنواع الخير بما يستطيع من أنواعه، وبحسب مقدوره. وهذه من دقائق القرآن الكريم وإعجازاته التوجيهية. فهناك المقتدر بماله، والمقتدر بجسمه، والمقتدر بعلمه، والمقتدر بالذكر، وأنواع لا تُحصى من مجالات الخير التي تتلاءم مع كل حال من أحوال الإنسان.

ثم ينبه الله تبارك وتعالى عباده من الحجيج بصيغة الأمر، أن يتزودوا مما يحتاجونه من الزاد في سفرهم، وأن خير ما يتزودون به هو تقوى الله عَزَّ في علاه، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ وفي هذا معالجة لشأن بعض الحجيج، حيث أنه كان يأتي بعض الحجيج للحج، وليس معهم شيء من الزاد، على أنه من التوكل على الله تعالى، فأمرهم الله تعالى بالتزود بما يَكُفُّ وجوههم عن الناس.[1] مع الحث على التزام تقواهم لربهم سبحانه وتعالى. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ذُكر أن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يحجون بغير زاد، وكان بعضهم إذا أحرم رمى بما معه من الزاد[2] فألزمهم الله تبارك وتعالى بالتزود بالزاد لأنه اشترط للحج الاستطاعة على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. وهذا دليل على أن منهج الإسلام منهج عملي، يأمر المسلم بأن يأخذ بالأسباب، لأن الله تعالى هو الذي خلق الأسباب ويسرها لخلقه. فيدلهم ويرشدهم تبارك وتعالى إلى أدق ما يحتاجه المسافر في سفره، وهو الزاد، وينبه على النوع الآخر من الزاد وهو ﴿ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ فذلك زاد الآخرة الذي يتزود به المسلم لدار معاده. فبعد أن نبه للزاد

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٦/١)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩٤/٣)

الحسي ﴿ وَتَزَوَّدُواْ ﴾ نبه تبارك وتعالى على الزاد المعنوي القلبي ﴿ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ المتضمن للخوف والخشوع والرغبة والرهبة والمحبة، وغيرها مما يدفع الحاج إلى التطبيق العملي لدين الله تعالى. وفيه بيان وتنبيه لزاد سفر الدنيا وزاد سفر الآخرة. وقد فهم الرعيل الأول الزاد وأهميته في حفظ الأبدان، ولمقاومة مشقة السفر، حتى أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول: إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر، وأنه كان يشترط على من صحبه الجودة.(١) أي الجودة في الزاد.

فبعد أن بين الله تبارك وتعالى الزاد، وأفضل وخَيْرَ نوعيه ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أمر بأن تُصْرَف التقوى له وحده لا شريك له ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ثم كان الخطاب موجه لأولي الألباب، وهم أولي الفهم والعقل. ولا شك أن من أسلم وآمن بالله تعالى فهو لبيب. لاختياره الحق على الباطل. وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والألباب جمع لُبّ. ولُبُّ كل شيء خالصه. ولذلك قيل للعقل لُبّ(٢) وفي وَصْفِهِم من قِبَل خالقهم بأولي الألباب مدحٌ في حقهم، إذ أمرهم وهو مادحٌ لهم، بصفة أولي الألباب ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فعليكم بالحرص على التقوى، لأنها ضابطة لتصرفات الإنسان القولية والفعلية. ويفيد هذا تربوياً ودعوياً أهمية وصف المدعو والمتربي بما هو من صفاته وخصائصه في الخير، لأنه أدعى وأشجع له على بذل المزيد من الخير.

ثم ينبه ويأذن سبحانه وتعالى عن مسألة التجارة في الحج، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: كانوا لا يتجرون في أيام الحج، فنزلت الآية(٣) وذلك أنه كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز، أسواقاً للعرب في الجاهلية، فتأثموا أن يَتْجُرُوا في الموسم، فنزل قوله تعالى(٤) ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٦/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٧٤/٢)

(٣) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٠٥/٣)

(٤) ا ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٧/١)

جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فبدأت الآية بنفي استشعار الإثم ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ ﴾ ليس عليكم حرج ولا إثم في ابتغاء فضل الله تعالى بالتجارة في الحج، بما يعني ويفيد الإباحة التامة للحاج في ابتغاء فضل الله تعالى من التجارة أثناء حجه، ليزول كل هم وتحسس من هذا الأمر. بل ربط الله تعالى ما يبتغونه به جَلَّ في علاه ﴿أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ ليدرك المؤمن أن الرزق والمرزوقات من المكاسب والمرابح هو فضل من فضل الله تعالى، وأن ما يبتغيه العبد من رزق هو طلب وبحث وابتغاء من فضل الله تعالى، وأن الرزق هو منحة من الله تعالى للناس، وبالتالي فمن ابتغى الفضل فليطلبه من الله تعالى بأمرين: الأول: ابتغاؤه بالطلب والسعي إليه ﴿أَن تَبۡتَغُواْ ﴾ والابتغاء هو الرغبة والطلب للشيء. والأمر الثاني: الدعاء: لأن الله عَزَّ وجل قد نسب هذا الفضل له تبارك وتعالى ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ فجمع هذا البيان الكريم أموراً وفوائدَ جمة، منها ما تقدم، ومنها الدعاء وأهميته وفضله، وكذلك السعي وأهميته في طلب الرزق، ومنها التوكل على من عنده الفضل سبحانه وتعالى، ومنها أن هذا الدين هو دين عمل، وكذلك أهمية تحقيق المنافع بين الناس بالتجارة، وإباحتها على الأصل، ما لم يكن فيها محرم في العين التجارية، أو في طريقة تداولها.

ثم يبين الله تعالى ما يلزم الحجيج من الذكر له جَلَّ شأنه، فقال تبارك وتعالى ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فإذا دفعتم من عرفات، وعرفة هي

موضع الوقوف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج[١] وقد جاء في الحديث (الحج عرفة)[٢] وكلمة ﴿أَفَضۡتُم﴾ بمعنى اندفعتم من عرفات. وهي من فاض الإناء بعد أن امتلأ، حتى يتصبب من نواحيه، ودلالة ﴿أَفَضۡتُم﴾ تصور عرفة وقد امتلأت بالناس من كثرة الحجيج، فبدأ الحجيج يخرجون منها، فكأنهم فاضوا منها امتلاءً، ليندفعوا إلى المشعر الحرام، ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ أي: المعلم الذي هو المزدلفة. حيث يأمرهم الله تعالى بذكره في هذا المشعر الحرام. ليكون ذكر الله تعالى متواصلاً مع الحجيج. بل يتكرر الأمر بالذكر مع بيان العلة الموجبة لذلك ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ فاذكروا ربكم لأنه هداكم، ووفقكم للحج كما وفقكم للإسلام. وهذا تذكير بنعمة الهداية والتوفيق لهذا الدين وشرائعه العظيمة.

وفي نسبة الهداية إليه تبارك وتعالى ﴿كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ ليعلم العبد أن الله تعالى هو الذي هدى قلبه لهذا الدين، وللحج، وأرسل إليهم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأنزل معه الكتاب والسنة. فما كان للعبد المهتدي أن يهتدي لو لا أن الله تعالى هداه ووفقه. وإذا أدرك العبد هذه النعمة العظيمة وجب عليه أن يحمد ويشكر الله تعالى على أعظم النعم، وهي الهداية لهذا الدين العظيم، الذي هو الطريق الوحيد الموصل لنعيم الآخرة. فوجب الذكر له تبارك وتعالى. فالحمد والشكر لله تبارك وتعالى.

بل وينوه الله تبارك وتعالى لحال المُهتدي قبل الهداية وبعدها، ليقارن العبد بين ما كان عليه من الضلال، وما هو عليه الآن من الهدى. فقال عَزَّ وجل ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقد كنتم قبل هذا الدين من التائهين عن الحق والهدى. ثم أصبحتم بفضل الله تعالى من المهتدين. وهذا يفيد أهمية المقارنة للفرد، بين وضعه قبل كل نعمة وبعدها، حتى يعرف فضل الله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٤٨/١)

(٢) النسائي، سنن النسائي (٢٥٦/٥) برقم (٣٠١٦)

تعالى عليه. ويُستفاد من هذا المنهج الرباني، أهمية استصحابه ليكون أسلوباً من أساليب الدعوة والتربية، حتى يعرف المدعو والمتربي كيف كان من قبل ومن بعد. ويمتد هذا الأسلوب في جميع عمليات الإصلاح والإدارة والمهنة، لأنه بالمقارنة تظهر النعم والفضل، والتنقل من حال إلى حال. ولكن لا يكون ذلك من باب التفضل والتقريع، بل من باب التذكير بنعم الله تعالى، وأن الله تعالى هو المتفضل.

ثم يأمر الله تعالى عباده من الحجيج بالمرحلة التالية من مناسك الحج ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ وهو الانتقال من مشعر مزدلفة إلى مشعر منى، لاستكمال الرمي، وذبح الهدي، بمنى، ثم الطواف والسعي في البيت الحرام.

وكذلك يأمر الله تعالى الحجيج بالاستغفار ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فمهما بلغت الطاعة لله تعالى فإنه يحصل النقص والخطأ، وبالتالي لا ينفك عنه الاستغفار، فيجب ألا يرى العابد في نفسه وفي عبادته الكمال، فالنقص والسهو والخطأ من المتعلقات بطبيعة الإنسان، فاحتاج للاستغفار في كل الأحوال. ويُستفاد من ذلك: أنَّ هذا الحاج في عبادة جليلة وشاقة، ومع هذا يأمره الله تبارك وتعالى بالاستغفار، فكيف حال الإنسان طوَالَ يومه وأسبوعه وشهره وعمره كله، فما أحوج العبد وأفقره للاستغفار. مما يفيد: أهمية لزوم الاستغفار، لِمَا يعترض الإنسان من الوقوع في النقص والسهو والخطأ والمعاصي، والاجتهاد الخاطئ، وما قد يدخله من الرياء والسمعة، وغير ذلك من مفسدات الأعمال والإخلاص فيها.

وقد نوه تبارك وتعالى لصفة من صفاته العظيمة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فإن ربكم متصف بالمغفرة والرحمة، فاطلبوها منه. وفي هذا تنويه وتنبيه بأن يستغفر المسلم وهو مُدْرِكٌ أن الله تعالى غفور رحيم، يغفر الذنب ويرحم المستغفر. فليطلب المستغفر المغفرة من الغفور الرحيم. ومن فوائد هذا أيضاً، توحيد الله تعالى، بأن يُطلب الاستغفار منه وحده سبحانه وتعالى؛ لا من غيره ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ﴾ وحده لا شريك له. فلا يُوجِّه أحدٌ الاستغفار لغيره عَزَّ في علاه.

ثم يأمر الله تعالى عباده من الحجيج بذكره بعد أداء مناسكهم. فقال جَلَّ جلاله ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ فيأمر الله عَزَّ وجل الحجيج بدوام ذكره بعد انقضاء حجهم، وفراغهم منه، كما يذكر الصبي أباه وأمه، فلا ينفك لسانه عن ذكرهما طوال يومه[١] وإن قُصِد به الكبار فهم كذلك أيضاً، جاء أبي وجاءت أمي، أين أبي، وأين أمي، وقال أبي، وقالت أمي، إلا أن الصبي أكثر ذكراً للأبوين. وفي هذا التشبيه ما يدل على أهمية الذكر، وأن يشتغل الإنسان بذكر الله تعالى، فالصبي منذ أن يستيقظ من نومه، يلهج لسانه بأمه وأبيه، وكلما احتاج طعاماً بكى وهو يلهج بأمه وأبيه، وكلما كان في شبع ولعب كان كذلك. فهكذا يكون المسلم قبل طعامه وشرابه يذكر الله عَزَّ وجل بالبسملة، فيكون في ذكر، وبعد فراغه من طعامه وشرابه يذكر الله تعالى بالحمد، فيكون في ذكر، وهكذا عند فراشه في ذكر، وعند استيقاظه في ذكر، وقبل وبعد صلاته في ذكر. وفي كل شأنه ذاكراً لله تعالى، قال صلى الله عليه وسلم (لا يزال لسانك رطب من ذكر الله)[٢] بل يلزم أن يكون المرء أشد ذكراً لله تعالى من ذكر ذلك الصبي لأبويه، لأن الله تعالى يقول ﴿ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ فنسأل الله تعالى أن يجعل أوقاتنا في ذكره وشكره تبارك وتعالى.

ومن وجه آخر يفيد هذا تعليمياً وتربوياً ودعوياً، وحتى مهنياً وإدارياً، أهمية استخدام التوضيح في البيان، كما هو التشبيه في هذه اللفتة القرآنية الكريمة، وأن التشبيه وسيلة جاذبة ومُقَرِبة للمعنى، كما تُعَمِّقُ درجة الفهم عند الإنسان. كما يفيد هذا أن التشبيه لا يعني المماثلة في المقام، وإنما في الحالة التي تُقَرِّب المعنى والصورة، فمقام ذكر ربنا أعظم وأكرم من ذكر الأبوين.

ثم يبين الله تعالى حال الناس في طلب الدنيا والآخرة، وأنهم على صنفين. فالأول في قوله تعالى ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ فهذا نوعٌ وصِنْفٌ من الناس، تأخذه الحياة الدنيا بزخرفها ومتطلباتها، وآمالها التي لا تنتهي،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٥٠)

(٢) الترمذي، صحيح الجامع (٥/٤٢٧ – ٤٢٨) برقم (٣٣٧٥)

فَيُكْثِرُ من الدعاء والرجاء لأمور الدنيا، ويترك ما يخصه في الآخرة، التي هي أبقى وأكمل، فليس للآخرة في الدعاء من نصيب. وفي هذا البيان الرباني لهذا النوع من الناس ما ينبه إلى أهمية التوازن والاعتدال، والاهتمام بأمور الآخرة، فَيُكثر من الدعاء والمسألة لله تعالى في أمور الآخرة، كونها خيرٌ وأبقى. كما بين تبارك وتعالى عن حال النوع الثاني من الناس، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ فهذا النوع الثاني من الناس مهتم في دعائه بأمور الدنيا والآخرة، واستشعر عذاب النار فاستعاذ بالله منها. أجارني الله تعالى والمسلمين منها. وفي هذا ما يدل على أن البعض هِمَّتُهُ قصيرةٌ، قد اقتصرت على الدنيا فأنسته طلب الآخرة، وهناك من هِمْتُه عالية، فلم يقتصر على طلب الدنيا، بل ارتقت همته للآخرة، فيطلبها من الله تعالى بالدعاء والتوفيق لها، وهذا يفيد أن الله تعالى يُحب من يطلب الدنيا والآخرة، وكذلك يفيد أن الدنيا والآخرة مُلْكٌ لله تعالى، وأن العبد لن يحصل عليها إلا مِنْ مالكها تبارك وتعالى، فليطلبها منه عَزَّ وجل.

وفي هذا الدعاء فوائد عظيمة، جامعة لخير الدنيا والآخرة ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ فمن الفوائد أنه جامع لكل أنواع الخير، لأن الحسنة جامعة لكل خير، ويقتضي طلبها صرف كل شر، فإذا طلبها المؤمن من الله تعالى في الدنيا والآخرة، فقد طلب خير الدنيا والآخرة. واستعاذ من كل شر يوصله إلى النار. فما أعظمه من دعاء. وقد كان هذا من أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال (كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[١] فعلى المؤمن أن يكثر من هذا الدعاء.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ جاء في التفسير: أن هذا يرجع للفريق الثاني، فريق الإسلام، أي لهم ثواب الحج وثواب الدعاء، فإن دعاء

(١) البخاري (١٦٩/٤) برقم (٦٣٨٩)

المؤمن عبادة. وقيل يرجع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى الفريقين، فللمؤمن ثواب عمله ودعائه. وللكافر عقاب شركه، وقصر نظره على الدنيا[١] وفي ذكر القولين ما يبين استيعاب بعض دلالات القرآن الكريم لأوجه متعددة، لتكثر الفائدة والنفع بدلالة النص. ثم بينت خاتمة الآية الكريمة سرعة حساب ربنا تبارك وتعالى لعباده ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ليدرك المؤمن أن حساب الله تعالى لا يقاس بحساب الناس، ولا بمقاييسهم. فإن الله عليم قدير.

ثم يؤكد ويُكرر الله تعالى أهمية ذكره عَزَّ وجل ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبة. وهي أيام منى، التي هي الثلاثة الأيام التي بعد يوم العيد، وتخصيصها بالذكر دليل على فضلها، مما يفيد أهمية أن يحرص المسلم على استثمار الذكر فيها. ومن وجه آخر يفيد هذا أهمية بيان التخصيص، وما يتطلبه أثناء التعليم والتوجيه والإرشاد.

ثم يظهر سماحة هذا الدين في الإذن لمن تعجل ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فرفع تبارك وتعالى الإثم عن المتعجل في استعجاله. وقال تعالى فيمن تأخر حتى يستكمل الثلاثة الأيام ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وفي هذا تشجيع للبقاء حتى اليوم الثالث بدلالة ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: لمن اتقى الله تعالى رهبة ورغبة في جميع أموره، والتي منها أعمال الحج.

ثم يأمر الله تعالى بالتقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وفي هذا أمر وتذكير بأمرين: الأول الأمر بالتقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ والثان: العلم والتذكير بالرجوع إليه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لأن في الرجوع إليه تبارك وتعالى ما يوجب للمؤمن التقوى الدافعة للطاعة وفعل الخير، واجتناب المعصة والشر. وهذا يفيد تعليمياً ودعوياً وتربوياً، أهمية

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٨٧)

البيان بالمآل والنتيجة الحتمية للشيء، مع التذكير بما يدفع إلى الإفادة والالتزام. لأن النفوس تحتاج إلى ذلك، بسبب ما قد يصيبها من الانفلات والتساهل والنسيان. واسأل الله تعالى التوفيق والسداد والثبات لي ولإخواني لمسلمين.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

لقد تبين من الآية التي قبل هذه، حال الناس في طلب الدنيا والآخرة. وفي هذه الآيات يبين تبارك وتعالى حال بعض الناس فيما يُخْفي من الكفر ويُعلن من الإسلام. فقال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾ فيُخبر اللهُ تعالى رسولَه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بحقيقة المنافقين. وهو عام في كل منافق، وإن نزلت في بعض المنافقين بعينهم. وهم صنفٌ ونوعٌ من الناس، يُظهر خلاف ما يُبطن، فَيُظهِر الجميل من الكلام، وأحسن ما يقول، ويُظهر التوافق في الدين والملة، وهو مخادع لمن يخاطبه، حيث يدعي الصدق وهو كذوب، ويؤكد ما يقول بأنه يُشهد الله على ما في قلبه من صحة القول، وهو كاذب منافق، بل هو أشد المخاصمين خصومة، فهو مجادل فاجر، فظاهر كلامه طلاوة، وباطنه السوء والباطل.

وهذا يفيد كشف حال المنافق، الذي يسلك في سلوكه هذا المسلك الخبيث، فَيُظهر الإسلام والمعية والنصرة بلسانه، وهو يحمل في قلبه البغضاء والكره للإسلام والمسلمين. مما يفيد عدم الاغترار بالأقوال دون الأفعال، فالتطبيق والعمل هو المحك الحقيقي، وهو الفصل والفيصل بين

المسلم والمنافق. وأن الأفعال قرائن للأحوال والأقوال. وهذا الكشف من الله تعالى، يفيد المؤمنين بحقيقة هؤلاء، بما يُوجِبُ الحذر منهم.

ومن صفات المنافق كذلك ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ فكما هو أعوج في المقال، فهو سيء في الفعال، لأنه إذا أدبر متولياً، كان سعيه وجهده فساداً في الأرض ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ ففساده عام ومتنوع، قولاً وفعلاً، بل قد عمم الله تبارك وتعالى فساده بأنه ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ إذا أدبر عنكم، فبمجرد خروجه من عندكم ﴿ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ﴾ أينما حل في الأرض. فمن دقة البيان ربط حلول فساده بالأرض، ليشمل فساده أينما حل من الأرض، فإنه يسعى بالفساد.

ومن ذلك الفساد ﴿ وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ ﴾ وهو محل نماء الزرع والثمار، وكذلك ﴿ وَٱلنَّسْلَ ﴾ نتاج الحيوان، والذي قوام الناس متعلق بهذين السببين، فهو يعمد متعمداً بإهلاك موارد الناس. وهذا مخالف لمراد الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ بيان وإعلام وإعلان بأن هذا الدين لا يرضى بالفساد، ولا يقره، ولا يأمر به، بل ينهى عنه ويعاقب من يفعله. فأي دين أكرم من هذا الدين العظيم. ومن دقائق البيان أن ورد الفساد عاماً، ليشمل جميع أنواعه ودرجاته ومفرداته.

ومن صفاته كذلك الانتصار بالإثم على الحق ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ فهو لا يقبل التوجيه الذي ينهاه عن فعله الخبيث، وسلوكه المشين، فإذا وُعِظَ، وقيل له: اتق الله تعالى فيما تعمل من أفعال قبيحة، وأقوال فاسدة، وارجع إلى الصواب والحق والإيمان، امتنع، وأبى، وأخذته الحمية والانتصار بالإثم على الحق، مما يفيد خطورة المنافقين على الأمة، وخطورة الكبر على المنصوح والنصيحة، وأهمية التواضع للناصح وللنصيحة، فهذا المنافق قد توعده الله تعالى

بجهنم ﴿ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ فإن جهنم هي كافيته عقوبة ومآلاً ﴿ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ وبئس المسكن والفراش والمآل والمستقر الذي أُعِدَّ له.

فقد كشف الله تعالى حقائق نفسية وفعلية لهذا الصنف من الناس، وكشف منهجية باطنية سيئة لهم، بحلاوة الكلام، وإبطان الشر والحقد، والكراهية للإسلام والمسلمين. وكذلك بين الله تعالى مسلكهم التطبيقي، من محبتهم للفساد العملي في الأرض عموماً، وفي مصادر أقوات الناس من الأرض خصوصاً، فهم يحملون الحقد الذي يدفعهم إلى هذا المسلك، الذي لا يصدر إلا من فاسد حاسد، خبيث الطوية، فكشف الله تبارك وتعالى ما يبين حقيقتهم، من أنهم لا يُذْعنون للحق، مهما بلغت الموعظة، فليس بعد الأمر بتقوى الله تعالى موعظة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ ﴾ فينتصر للإثم، وهو يعلم من نفسه ما هو عليه من خُبث الطوية، فهو عامد متعمد، فلذلك عاقبه الله تعالى بأن مصيره إلى النار. وفي هذا بيان للمؤمنين عن أحوال وصفات المنافقين، ليحذروا منهم، ويبتعدوا عن هذا المسلك، حتى يكون التواضع وقبول الحق صفة للمؤمنين وسمة لهم.

ثم يبين الله تعالى صفات النوع الثاني من الناس: فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ فهذا النوع من الناس، يدفع أثمن وأغلى ما عنده من أجل مرضات الله تعالى، فيشتري نفسه من الكفر، ويشتري نفسه من النفاق، حتى ولو خسر المال والجاه، مقابل مرضات الله تعالى، فكل ثمن يرخص مقابل مرضات الله تعالى وطاعته، بينما النوع الأول، يبيع نفسه بأبخس الأثمان من أجل أبخس الأنواع، فَيُهْلِك نفسه بالنفاق.

فهذه الآية مدرسة عظيمة، تُعَلِّم الإنسان بمنهجها، أن يدفع الثمن إذا تطلب الأمر أن يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى، وقد قدم صهيب الرومي الأنموذج في ذلك، وهي أن هذه الآية نزلت في صهيب رضي الله تعالى عنه: ذلك أنه لما أسلم صهيب بن سنان الرومي، رضي الله عنه، وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه، ويهاجر كان له ذلك. فأعطاهم ماله

وتخلص منهم. فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام (ربح صهيب ربح صهيب)[١] فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة، فقالوا له: ربح البيع.[٢]

وتنتهي الآية ببيان صفة من صفات الله تعالى العظيمة والجليلة ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ فمن رأفته تبارك وتعالى بالعباد هدايته وتوفيقه لهم، وحلمه على الكافر والمنافق والعاصي لعله يتوب، ويعود إلى رشده. ولولا ذلك لهلك الكافر والعاصي، وكثير من الناس، فالحمد لله تعالى على رأفته بنا، وبالناس أجمعين.

فالرؤوف يعني: الكثير العطف والإحسان، والمخفف عن عباده ما لا يطيقون، فَيُسَخِّر لهم ما يرفع عنهم المشقة، ولا يكلفهم بالتكاليف الشاقة، وهي: غزارة الرحمة. وأما الرحيم فهي من صيغ المبالغة، التي تفيد كثرة الرحمة، أي: أن الله تعالى ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء. ومن ذلك الإشفاق على الإنسان، وسواء من حيث عدم تكليفه بما يشق عليه من العبادات، أو من رفع المشقة عنهم بتسخير مخلوقاته لهم، من الأنعام وغيرها. والرأفة تحمل دلالة الإشفاق مع الرحمة، والرأفة أخص من الرحمة، والرحمة أعم من الرأفة، فتشمل جميع الخلائق. وقدم الأخص على الأعم للعناية والاهتمام، وتبيانا وتأكيداً لها.

وصفة الرؤف تحمل معاني مليئة بالدلالات العظيمة، منها ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: فالرؤف بمعنى الرحيم، والرأفة أبلغ الرحمة وأرقها. والرأفة أخص، والرحمة أعم.[٣] ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ فمن رحمته ورأفته بالناس أن أرسل الرُسُل وأنزل الكتب، وبسط لهم الأرض، ورزقهم من كل خير، ولم يعجل لهم عقوبة الذنوب، لعلهم يرجعون ولعلهم يرشدون، ولعلهم يتوبون، ولولا ذلك لما بقي عليها أحد من كثرة المعاصي والتقصير في الطاعة، وقلة الذكر والشكر له تبارك وتعالى، وهذا عام للناس، فكيف والأمر متعلق بالمؤمنين، إنه رؤف رحيم بهم. وبالتالي

---

(١) الطبقات الكبرى، (١٧١/٣) وصحيح ابن حبان، برقم (٧٠٨٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٤/١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٠/١)

كيف يُعصى وهو بالناس رؤف رحيم؟ وكيف يُشرك به وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُشكر وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُذكر ويُمَجَّد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يتذلل له العبد وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُدعى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُرجى وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُطمع فيه وهو الرؤف الرحيم؟ وكيف لا يُستحى منه وهو الرؤف الرحيم؟ فلو رحم عبدٌ عبداً لاستحى منه، فكيف بمن رحمته هي السبب في تراحم العباد بينهم. فإنها صفات تستوجب الشكر لله تعالى من العبد ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة من السبي، قد تَحْلُبُ ثديها تسقي .أي تُرضع. إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم (أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحُه؟ فقال (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[1] مما يستدعي محبة الله تعالى، ومجاهدة النفس في طاعته عَزَّ وجل.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

ثم يخاطب الله تعالى المؤمنين بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ فبدأت الآية الكريمة بمخاطبة المؤمنين بصيغة النداء، وكذلك خاطبهم عَزَّ وجل بصفة الإيمان، وهذا كرم من الله تعالى أن ينادي عباده المؤمنين بهذه المنزلة الرفيعة. وبهذا النداء وبهذه الصيغة الكريمة، بما يحفز المؤمن للانتباه والاستماع. فيوجههم بصيغة الأمر ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ أي: ادخلوا في جميع شرائع الدين، فإن الإسلام، شامل لمنهج طاعة ربكم سبحانه

(١) البخاري (٤/٩١) برقم (٥٩٩٩)

وتعالى، وقوموا بتطبيق شُعَبِ الإيمان وشرائع الإسلام من دون استثناء، فاعملوا بجميع الأعمال، ووجوه البر. وفي هذا ما يدل على أن الإسلام كُلٌ لا يتجزأ، ووجوب العمل بجميع شُعب الإيمان وبالشريعة الغراء، وأنها ليست بالخيار والتوزيع، المبني على الهوى، فيأخذ هذا ويترك هذا، أو يأخذ بهذا أحياناً، ويتوارى ويتغافل عن هذا أحياناً. بل الإسلام كل لا يتجزأ. ودلالة ﴿ كَآفَّةً ﴾ تدل أيضاً على جميعكم، أي اعملوا جميعكم بشعب الإيمان وشرائع الإسلام، فلا يتأخر أحد عن شيء منها(١)

ثم يأمر الله تعالى المؤمنين بعدم اتباع الشيطان في مسلكه وغوايته لهم. فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ فهو أمر نهي، يقتضي الوجوب والتحذير. وفي دلالة ﴿ خُطُوَٰتِ ﴾ ما يدل على أن الشيطان يجر الإنسان خطوة خطوة للمعصية، فكل خطوة تقوده إلى خطوة أخرى، فمسلك الشيطان مسلك متدرج في الغواية. فجاء تحذير المؤمنين من عدوهم الشيطان من خلال كشف أسلوبه الخفي، بأنه يأخذ الناس في ﴿ خُطُوَٰتِ ﴾ متتابعة ومتتالية، حتى يقعوا في الشر. لأنه يحملهم للمعاصي وعلى المعاصي بطريقة متدرجة.

ثم يؤكد ويبين الحق تبارك وتعالى قدر عداوة الشيطان للمؤمنين، فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ فإن عداوته لكم ظاهرة بينة. وفي هذا تنفير وتحذير، وكشف لحقيقة عداوته من أنها بائنة ظاهرة، فلا يريد بكم إلا غوايتكم لتكونوا من أصحاب الجحيم.

ثم يتوعد الله تعالى الْعُصَاة من عباده ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ ﴾ فالحذر من الزلل، بعد أن تم لكم العلم، واتضح وبان المطلوب والمنهي عنه. وكلمة ﴿زَلَلۡتُم ﴾ تفيد التنحي عن الاستقامة، والزلل عادة يكون بعد الثبوت، وذلك لما يحدث عند

---

(١) وقد ذكر ابن جرير (٣/٥٩٥) وكذلك ابن كثير تفاصيل الأقوال (١/٢٥٥). وكذلك ابن الجوزي في كتاب: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١/٢٠٥)

المخلوق من الزلل عن المطلوب، فينبهه الحكيم العليم تنبيهاً يتناسب مع عموم أنواع الزلل، من خلال لفة الانتباه إلى الزلل عن طاعته وأمره، بعد أن جاءت البينات الواضحات، ثم يزداد التحذير من العليم الحكيم ببيان عزته وحكمته ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهذا بيان لمقامه الكريم تبارك وتعالى، بأنه عزيز حكيم، والعلم بأنه عزيز حكيم يوجب عدم الزلل عن طاعته وإتيان معصيته، فالعزيز كل شيء ذليل له، والعزيز يَقْهَرُ ولا يُقهر، والعزيز قوي في انتقامه، والعزيز مقام كريم رفيع، يحمل الرفعة والقوة والعلو والقدرة المطلقة، وأنه حكيم في تشريعه، وأمره، ونهيه، وتدبيره. فلا عزيز إلا الله تعالى، ولا حكيم إلا الله تعالى. فهذا يوجب الحذر من الزلل في حق العزيز الكريم، الذي هذه صفته. وهذا أسلوب يستثير الحياء والخوف في وقت واحد، ويَشدّ عوامل الانتباه، والحيطة والحذر من الزلل. فما أعظم وأطيب وأجمل أساليبه تبارك وتعالى في كتابه الكريم. خاصة وأن الله تعالى بدأ الخطاب في الآية السابقة لها بقوله جَلَّ جلاله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما يفيد أن دلالة الخطاب فيه استثارة لمكامن الإيمان عند المؤمن، فأنتم المؤمنون الذين لا يليق بكم الزلل من بعد أن جاءتكم البينات الواضحات.

ثم يقول الله تعالى بصيغة الاستفهام الاستنكاري للمتأخرين عن الدخول في الإسلام ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ وذلك أن الله تعالى يطوي السماوات والأرض، وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام، فتحيط بالخلائق. وينزل الباري تبارك وتعالى ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل[1] فهؤلاء الذين قامت عليهم الحجة، وهم مستمرون في معصيتهم، وكفرهم ومتابعتهم لخطوات الشيطان، فيصدون عن الحق، فهل ينتظرون حتى فصل القضاء يوم القيامة، فَيُجْزَى كل عامل بعمله. ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أعِنْد

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٦٥)

ذلك يؤمنون، حين لا ينفع ذلك الإيمان، حيث ينقضي الأمر، ويتم الفصل بين الخلائق. فهل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله تعالى بما وعدهم من الحساب.

وفي هذا الأسلوب الخطابي من الله تعالى للمتقاعسين عن الدخول في الإسلام ما يستثير التأمل والتفكر والتدبر، إذ أن الله تبارك وتعالى استهل الخطاب بصيغة الاستفهام الاستنكاري، لتلك العقول الصادة والمنشغلة بالدنيا عن الآخرة، بما يستوجب ويحقق هذا الأسلوب الاستثارة الذهنية، للتأمل والتفكر والرجوع للحقيقة، التي تحث على المسارعة بالدخول في الإسلام، حيث وصف الله تبارك وتعالى شيئاً مما يكون في يوم فصل القضاء والحساب والجزاء، بصورة تستثير العقل والعاطفة بالخوف المهيب للموقف العظيم ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ ﴾ وقد اختتمت الآية الكريمة بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ فمرجع الأمور إلى الله تعالى، وكذلك رجوع الخلق إليه سبحانه وتعالى، فيحصل الحساب والجزاء. فسبحان الله الذي امتلأ كتابه العزيز بما يستثير العقول والنفوس نحو مصالح العباد، بالأمر والنهي والتوجيه والبيان، وتعليماً وتذكيراً، وبأساليب تنوعت فيها الاستثارات العقلية والعاطفية التي تستدعي الْمُخَاطَبين الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك.

﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢ ﴾

ويعود الخطاب البياني، والسياق القرآني إلى بني إسرائيل، فيبين الله تعالى نعمته على بني إسرائيل، الذين استبدلوا النعمة بالمعصية ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ فقد بدأت الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ والخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، وسؤال بني إسرائيل على

جهة التقريع والتوبيخ لهم.[١] وفيه التسلية عن صدود بني إسرائيل عن الإيمان به عليه الصلاة والسلام، من خلال بيان حالهم وخصالهم من التعنت والتبديل لنعمة الدين، بالرغم من الآيات البينات العظيمات التي جاءتهم. وقد أفادت دلالة ﴿كَمْ﴾ الكثرة للآيات البينات ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ فبالرغم من البراهين والآيات الكثيرة والعظيمة، مثل: عصى موسى وبياض اليد، وفلق البحر، وتظليل الغمام عليهم، والمن والسلوى، إلا أنهم بدلوا ما في كتبهم، وبالتالي بدلوا دينهم. وفي هذا التنويه ما يبين أن بني إسرائيل مع ما حصل لهم من الآيات إلا أنهم لم ينتفعوا بها، فكذلك أَمْرُهُم من رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وإن كان عددٌ معدود منهم دخل في الإسلام، ولكن الحكم على الغالب.

وفي هذا ما يفيد التنبيه والتحذير لكل من يبدّل نِعَمَ الله تعالى، ومنها نعمة الدين، فإن عذاب الله تعالى شديد. ومن الفوائد أن الدين نعمة عظيمة جليلة، تستوجب القيام بحقها، اعتقاداً وعملاً وشكراً لله تعالى عليها. كما أن في شدة العقاب لمن بدلها دليل على عظمتها، وخطورة تبديلها. مما يوجب المحافظة عليها، لأنها سبيل النجاة من عذاب الله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن حكمه فيمن بدل نعمته، فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فإن من يبدل نعمة الدين، ونعمة الكتاب، وأي نعمة أخرى ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ من بعد ما حلت به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فإن ربكم شديد العقوبة له. فهذا الوعيد شامل لأي نعمة كانت، وشامل لكل أحد من الناس. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: لفظ عام لجميع العامة، وإن كان المشار إليه بني إسرائيل، لكونهم بدلوا ما في كتبهم، وجحدوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم. فاللفظ منسحب على كل مُبدِّل نعمة الله تعالى. وقال أيضاً: النعمة هنا الإسلام. وهذا قريب من الأول. ويدخل في اللفظ أيضاً، كفار قريش، فإن بعث محمد صلى الله عليه وسلم فيهم نعمة عليهم، فبدلوا قبولها والشكر عليها كفراً.[٢] ومفهوم العلماء لمراد هذه

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠/٣)

(٢) المرجع السابق (٢٠/٣ _ ٢١)

الآية يدل على ما قَعَّدَهُ العلماء من أن القاعدة هي: أن دلالة النص بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأن الله تعالى أراد بما جاء في كتابه العمل بالعلم لا للاطلاع ومعرفة الخبر. وهذا يفيد أن الخبر في كتاب الله تعالى للعظة والعمل بالعلم.

ثم يبين سبحانه وتعالى جزاء من يتلاعب بالنعم ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فبين سبحانه وتعالى شدة عقابه لمن تجرأ عليه وعلى دينه ونعمه، وهذا العقاب مفتوح النوع والقوة والديمومة، ليستوعب ذلك جميعه، وفي هذا تهديد ووعيد وترهيب لعباده، عسى ان ينصلح شأنهم.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ يخبر الله تعالى أن الذين كفروا ورفضوا شَرّعَه زُيِّنَت الحياة الدنيا لهم، فتزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها، فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، واحتقروا المؤمنين واستهزأوا بهم.(١) وهذا يفيد أن من أنواع عقوبته تبارك وتعالى للكافر الجاحد للدين، بعد ما استبانت له شريعة الله تعالى، أن الدنيا تتزين في أعينهم وقلوبهم إلى درجة السخرية من عباد الله المؤمنين ﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وهذا يفيد الحذر من فتنة الدنيا بزينتها، ومن عقوبة الله تعالى. وكذلك تفيد الآية الكريمة، أن من استحسن الدنيا على الآخرة، فإنه يسخر من الذين استحسنوا الآخرة على الدنيا. وهذا يبين أن الاستهزاء منهجية الكافرين في كل وقت وحين، وقد نبه الله تعالى عليها.

وبالتالي يلزم المسلم ألا يلتفت إلى استهزاء الكافرين، أو يجاملهم من أجل استنقاص ما يستهزؤون منه. وكذلك يفيد هذا أن أساليب الاستهزاء أحد وسائل الكافرين للصد عن سبيل الله تعالى، فليحذر المؤمن من ذلك. حتى يكون في المنزلة التي قال الله تعالى فيها ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ فالمتقون في أعلى الدرجات يوم القيامة، متمتعين بالنعيم المقيم، والكفار في أسفل الدركات، معذبين بأنواع العذاب والشقاء. وهذا يُعزز صبر المؤمنين تجاه ما يُلاقونه من الكفار

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٦٧)

في دينهم، مما يفيد أن المال خير ما يشجع المؤمن على التزام التقوى، التي تمنحه أحسن الدرجات وأعلاها بتوفيق الله تعالى ورحمته.

ثم يبين الله تعالى أمراً مهماً، وهو مصدر الرزق ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ ففي هذا بيان لحقيقة الرزق ومصدره الأصلي، وفيه كذلك تشجيع وحث للمؤمن على طلب الرزق ممن يملكه ملكاً حقيقياً، فالرزق الدنيوي والأخروي بيد الله تعالى، مما يتطلب أن يسأل المؤمن ربه تبارك وتعالى الرزق الدنيوي والأخروي، والثبات على الدين، فإنه هو المعطي. كما تفيد الآية الكريمة أن الله تعالى يرزق من يشاء بغير حساب، أي: بغير مماثلة لعمل العبد، فهو كريم إذا أعطى سبحانه وتعالى، فعطاؤه كثير عظيم بلا حساب. فمهما عمل العبد من طاعة فهي قليلة في حق الله تعالى، وما أعطا الله تعالى العبد من خير فهو أكثر مما تعبد به العبد ربه وأطاعه، ولا وجه للمقارنة. فعطاء الله تعالى كثير في الدنيا والآخرة. فنسأل الله تعالى من فضله وكرمه ورحمته.

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم من الله تعالى إلى بيان حال الناس من بعد آدم عليه السلام حتى بعثه الرُسُل. فقال عَزَّ وجل ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ لقد كان الناس أمة واحدة على الهدى مجتمعين، ثم اختلفوا في دينهم. وهذا يفيد أن الأصل في حال الناس، أنهم جميعاً أمة واحدة، وعلى ملة آدم عليه السلام، فتكاثروا، فكثر الخلاف والاختلاف، وحصل الانحراف وعبادة الأصنام، فبعث الله تعالى نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله تعالى للناس. فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا. فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.[1].

ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله تعالى بين حال الناس في كلمتين ﴿ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ وبين كذلك عَزَّ وجل مضمون رسالة الرُسُل في كلمتين، بأنها تحمل مهمتين عظيمتين ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ وهذا من الإعجاز البلاغي والبياني العظيم للقرآن الكريم.

وهذا يدل على حاجة الناس إلى من يجدد لهم دينهم، لما يحصل منهم وبينهم من الاختلاف، وقد قال صلى الله عليه وسلم (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[2] وإذا كان هذا الاختلاف في دين الله تعالى، فإنه من باب أولى أن يختلفوا فيما

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٥٧/١)

(٢) أبو داود، سنن أبي داود (٤٨٠/٤) برقم (٤٢٩١)

هو دونه من أمور الحياة والعلاقات الاجتماعية، وفي المهنة والمصالح، وغيرها مما يختلف فيه الناس، وبالتالي يفيد هذا أهمية التعامل مع هذه الحقائق بما يدفع ويعيد المجموعة والجماعة إلى وحدتها، وأن الناس يحتاجون إلى ذلك بين الفينة والأخرى، وسواء على مستوى الأمة، أو مستوى المجتمع، أو الأسرة، أو المهنة، وجميع المصالح العامة.

ومن معطيات الآية الكريمة في قوله تعالى عن النبيين ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ ما يتبين به أن ما يقوم به الأنبياء هو بشارة المطيع بالجنة، وتحذير العاصي من النار، وما يتبع ذلك من بيان منهج الله تعالى. وهذا يبين أن مهمة العلماء والدعاة هي نفس مهمة الأنبياء من تعليم الناس، وأنهم لا يملكون الهداية التوفيقية للخلق، وإنما يقومون بهداية دلالة الناس على الحق، من خلال ما أنزل الله تعالى على أنبيائه من الكتب، حيث قال تعالى ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ وهي الكتب الإلهية التي أنزلها الله تعالى على رُسُلَه، وهذا يبين أن الأنبياء لا يجتهدون في الدين من عندهم، بل من خلال ما أُنْزِل عليهم من ربهم عَزَّ وجل، وكذلك يلزم العلماء الربانيون الاجتهاد من خلال ما أنزل الله تعالى. وهذا يفيد أن دين الله تعالى منضبط بما أنزل الله تعالى من الحق. قال تعالى.

ثم بين الله تعالى مهمة الأنبياء في الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، حتى يعودوا للوحدة التي كانوا عليها ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ ويفيد هذا أيضاً أن الناس لا يمكن أن يتوحدوا إلا بالرجوع لما يوحدهم، وهو كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهو رمز ومنهج وحدتهم. فالكتاب كله حق، وأنزله الله تعالى ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ ثم يبين الله تعالى أن الذين اختلفوا في الحق من بعد ما جاءتهم الكتب هو بسبب البغي ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ فالبغي دفع البعض للاختلاف على بعض، مما يدل على أن البغي هو من أخطر أسباب الاختلاف بين أفراد وجماعات الأمة، وأنه هو المُفتت والممزق لها. إذ أن البغي يحمل معاني الفجور ومجاوزة الحد، والظلم والتطاول.

ثم يبين الله تعالى امتنانه على هذه الأمة بهدايتهم لما اختلف فيه الذين من قبلهم من الأمم ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾ فأولاً: أن الهداية فضل من الله تعالى بما يبعث من الرسل، وينزل من الكتب ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وثانياً: هدايته تكون بعلمه وإرادته ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ وذلك لعلمه سبحانه وتعالى بهم وبحقائقهم، وبما هداهم له، وبتوفيقه وإرادته، فالحمد والشكر لله تعالى. وأن اختلاف من اختلف من الأمم كان في محور الحق ﴿ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ وهذا يدل على أن البغي يدفع الأنسان للاختلاف في الحق الواضح الْمُنَزّل من الله تعالى بسبب الحسد والظلم والكبر، وحب الرفعة والتطاول على الغير، فكيف بالتنازع في الحقوق التي بين الناس. مما يفيد أهمية التربية على الحق والتواضع، وتطهير النفس من البغي لما يحمله من الظلم والأشر والبطر.

ومن صور الاختلاف: أنهم اختلفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم ليوم الجمعة. واختلفوا في القبلة، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للقبلة، بالاتجاه إلى مكة المكرمة. واختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك. واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك. واختلفوا في إبراهيم عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً. وجعله اللهُ حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك. واختلفوا في عيسى عليه السلام، فكذبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك.[1] وكل اختلاف يحدث في هذه الأمة فهو استنان بسنة المغضوب عليهم والضالين.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٥٧ ــ ١٥٨)

ثم ختم الله تعالى هذا البيان بأنه هو الهادي والموفق ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فالله يهدي من يشاء من خلقه إلى الحق. مما يفيد عِظَمِ نعمة الهداية، وأن على الْمُهتَدِي أن يَنْسِبَ هدايته إلى الله تعالى، بل ويَنْسِبَ كُلَ نعمة لله تعالى، لا لقدرته وفهمه وذكائه وفطنته وجهده، بل لله تعالى، وأن يطلب الإنسان الهداية من الله تعالى، بل وكل حاجة ومطلوب يطلبه من الله تعالى، ويستجير به من كل مكروه. ولذلك مما ورد في الدعاء أن يقول المسلم (اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت. إنك تقضي ولا يُقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت. تباركت ربنا وتعاليت)[1]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

يبين الله تعالى سنته في الابتلاء والتمحيص ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ابتدأت هذه الآية الكريمة بسؤال تقريري، ليتقرر من خلاله ما يمكن أن يجهله المؤمن من الابتلاء والتمحيص. أفتظنون أن دخول الجنة بدون ابتلاء.﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ ليدرك المؤمن حقيقة سنن الله تعالى في عباده، حتى يعرفها ويتقبلها، بل ومن لطفه تبارك وتعالى ورحمته أن بين ما يُسَلِّي المؤمنين عن هذا الابتلاء، من أن هذا ليس خاص بكم أيها

---

(١) أبو داود، سنن أبي داود (٢/١٣٣/١٣٤) برقم (١٤٢٥)

المؤمنون، بل هي سنة الله تعالى حتى في الذين من قبلكم ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ ﴾ ليطمئن القلب ويصبر ويرضى بما يصيبه من الابتلاء بالفقر، وهو ﴿ ٱلۡبَأۡسَآءُ ﴾ وما يصيبه من الضر: كالأسقام والأمراض، وهو ﴿ وَٱلضَّرَّآءُ ﴾ وكالخوف من الأعداء ومن الشدائد، وهو ﴿ وَزُلۡزِلُواْ ﴾ وأن هذا الابتلاء تمحيص للمؤمن وزيادة في درجاته لدخول الجنة. مما يفيد أن الطريق إلى الجنة محفوف بالابتلاء، وبهذا العلم يستفيد المؤمن بأن عليه أن يصبر ويرضى، ويسأل الله تعالى العافية والنجاة من كل ابتلاء، وأن يجعل عاقبته خيراً. وإن أصابه شيء من الابتلاء فقد عَلِمَ هذا من كتاب ربه تبارك وتعالى.

وفي ذكر الابتلاء لمن كان من قبل، تسلية للمؤمنين، حتى لا يظنوا أنهم فقط هم الذين يتولاهم الله تعالى بالابتلاء، بل حتى الرُسُل عليهم الصلاة والسلام أصابهم الابتلاء ﴿ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾ فيستفتح الرسل على أعدائهم بالدعاء من شدة ما يجدون منهم، فيسألون الله تعالى الفرج والمخرج القريب من شدة ما يجدون. وفي دلالة ﴿ وَزُلۡزِلُواْ ﴾ ما يفيد الحركة الشديدة المخيفة، التي ترتجف وتتحرك بها القلوب من شدة الخوف والهلع، فيفزع الرسول ومن معه من المؤمنين إلى الدعاء بالخروج من الكرب، كما حصل للرسول صلى الله عليه وسلم وللصحابة رضي الله تعالى عنهم يوم الأحزاب، كما قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ ﴾ ثم يختتم الله تعالى الآية الكريمة بالبشارة، بقوله عَزَّ وجل ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ مما يفيد أن الابتلاء يعقبه فرج، فما على المؤمن إلا أن يصبر. ولذلك قال الصحابة لما رأوا كثرة الأحزاب، وبلغت القلوب الحناجر ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ

﴿ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾ فأرسل الله الرياح وجنوداً لم يروها، وانهزم الأحزاب. فكان نصر الله قريب منهم.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الإجابة على سؤال المؤمنين للنبي صلى الله عليه وسلم عن نفقة صدقة التطوع وأبوابها، فيقول تبارك وتعال ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ وفي هذا ما يفيد اهتمام الصحابة بمعرفة ما يقربهم إلى الله تعالى من أبواب الصدقة. ومن بلاغة القرآن الكريم أنه ذكر النوع العام ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ وهو عموم الخير، وإن كان الخير غالباً ما يُراد به المال، إلا كونه بهذا اللفظ، فإنه يدل على العموم، بل وجعله مفتوحاً لكل أحدٍ بما يستطيع نوعاً ومقداراً، مما أمده الله تعالى به من مال أو طعام، أو كسوة، وقليل أو كثير.

ثم يبين الله تعالى ترتيب المستحقين لنفقة الخير ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فأولى الناس بالنفقة وأحقهم بالتقديم هم أعظمهم حقاً، وهم الوالدان، فبدأ سبحانه وتعالى بهما ﴿فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ ثم عطف عليهم ﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ فمن بعدهم الأقربون، ويُفهم من ذلك أن الأقربين بالترتيب، لما تضمنته الآية من الترتيب، ويدخل في هذا رُتْبَة درجة القرابة والحاجة، فالقريب المحتاج ليس كالأقرب غير المحتاج، وكذلك نوع الاحتياج، ودرجة القريب التي تختلف من قريب إلى قريب. فاستوعبت ألفاظ القرآن الكريم الجميع.

ثم يأتي في الترتيب اليتيم ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ وهو من فقد والده، وهم الذين لا كسب لهم، ولا قدرة لهم في القيام بمصالحهم وتدبيرها على ما يجب، فكانت الوصية بهم، لأنهم مظنة الحاجة والعوز. ثم يأتي في الترتيب ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ وهم أهل الحاجات الذين لا يستطيعون سد حاجتهم

مما يحتاجون. ثم ﴿ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو من انقطعت به السُبُل من المسافرين، فاحتاج إلى من يعينه. وهذا كله يدل على عناية الله تعالى في منهجه بعباده ولطفه بهم، إذ أمرهم أن يُسخروا شيئاً وجزءً مما أنعم به عليهم في سد حاجات الناس، وكذلك يفيد هذا أن الإسلام قائم على النظام والتنظيم، إذ رتب مصارف نفقة التطوع ترتيباً لا يمكن أن يصدر إلا من حكيم عليم لطيف، بل واتسعت دائرة النفقة لتتجاوز القريب إلى البعيد مهما كان بُعده، من اليتامى والمساكين وابن السبيل.

ومن الفوائد أن يدرك المنفق أن الذي أغناه وأعطاه هو الذي أمره أن ينفق مما أعطاه، وأن الذي أحوج غيره له، هو الذي أغناه عن غيره، وهو القادر على أن يحوجه لغيره، ويغني غيره عنه. فسبحان من بيده ملكوت كل شيء.

ثم يبين الله تعالى ثواب المنفق ﴿ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ فنوه عن أمرين: الأول: متعلق بفعل العبد ﴿ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ ﴾ والثاني: متعلق بعلم الله تعالى ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ فإن ربكم عليم بما فعلتم من الخير، ويفهم من هذا التنويه البياني أن الله تعالى قد أحاط علماً واطلاعاً بفعل العبد، فعلم بما أنفق العبد من الخير، مما يفيد أنه تبارك وتعالى سوف يحفظه ويجازيه ويكافئه على هذا العمل. وقد حصل وتقرر هذا العلم عند المؤمنين.

ومما تضمنته الآية من بلاغة البيان، أن الله تعالى ذكر في مطلع الآية ﴿ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ ﴾ وفي ختامها ﴿ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ ﴾ ففي الأولى تنويه عن استجابة العبد في إنفاق الخير، وفي الثانية العلم والإحاطة بفعل الخير، دون ذكر الإثابة التي تقررت عند المؤمن. وإنما جاء الاكتفاء بالتنويه عن علم الله تعالى بما فعله المؤمن من خير ﴿ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ فجاء البيان بإعجاز بياني في كل لفظة من كتابه الكريم.

والمؤمن مُدْرِكٌ بأن دلالة قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ أنها متضمنة للمكافأة، لأن الإثابة والجزاء متحقق عند الله عَزَّ وجل، فَعِلْمُ الله تعالى محتوي ومنضوي على الجزاء. كما أن

من البلاغة القرآنية أنه لم يأت في الآية الجزاء بل اكتفى ببيان علم الله تعالى بفعل المؤمن، مما يفيد اشتمال العلم الرباني على الإثابة. فسبحان من أعجز ببلاغة كلامه عباده.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾

يخبر الله تعالى بفرضية الجهاد في سبيله، فقال عَزَّ وجل ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ أي فُرِضَ عليكم الجهاد. فابتدأت الآية الكريمة ببيان فرضية الجهاد في سبيل الله تعالى. ولم يؤذن للنبي صلى الله عليه وسلم في القتال مدة إقامته بمكة، فلما هاجر أُذن له في قتال من يقاتله من المشركين. فقال تعالى في سورة الحج ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ثم أُذن في قتال المشركين عامة، واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية. فقيل: أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، فكان القتال مع النبي صلى الله عليه وسلم فرض عين عليهم، فلما استقر الشرع صار على الكفاية، قاله عطاء والأوزاعي.[1] ويبين منهج التدرج في فرض القتال، الحكمة الربانية في مراعاة الأحوال، إذ أن الله تعالى وضع سُنَناً دعوية واجتماعية ودفاعية يلزم الأخذ بها، ليؤتي كل شيء ثمرته بإذن الله تعالى، إذ لم يأمر الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ومن معه ممن أسلم من الصحابة بالقتال في مكة، وذلك مراعاة لِسُنَّة القلة والكثرة، والقوة والضعف، فلم يأمرهم بالمخاطرة وهو قادر سبحانه وتعالى على نُصْرَتِهِم على قلتهم وكثرة عدوهم. ولكن اقتضت أوامره تبارك وتعالى أن تتوافق مع سنته الكونية في الكثرة والقلة والقوة والضعف. ولا يمنع هذا من حدوث المعجزات، كما في غزوة بدر. مما يفيد أن على الأمة أن تستفيد من هذه المنهجية الربانية، فتراعي سُنَن الله تعالى بدقة في كل أمر من أمور الجهاد ومقتضياته ومتطلباته، حتى تكون أمة حكيمة بما أوتيت من القرآن والحكمة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٧)

ثم بين تبارك وتعالى حقيقة النفس البشرية وطبيعتها النفسية، فقال تبارك وتعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ فأعطى القرآن الكريم الحقائق العملية التي يلزم فهمها والأخذ بها، إذ بين الحقائق دون تجاهلٍ لها، في أمر يتعلق بمخالفة الطبيعة الإنسانية، بل يقررها بوضوح ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ فُرض عليكم القتال وأنتم تكرهون خوضه، وتتجنبونه بالابتعاد عنه. مما يبين تربوياً ونفسيا ودعوياً أن المعالجة التوجيهية والإصلاحية، أو التنموية للفرد لا تنطلق من التغافل عن الحقائق النفسية، والطبيعية الإنسانية عند البناء أو التصحيح. بل يجب تقرير الطبيعة النفسية والجبلية التي جَبَلَ اللهُ تعالى عليها الإنسان، ثم بيان المطلوب، حتى وإن كان يقتضي هذا المطلوب مخالفة الطبيعة أو الجبلة. لأن هذا أدعى لصحيح المعالجة والقبول، وكذلك البُعد عن مخادعة النفس التي تأباها، أو ترفضها بعد اكتشافها، أو لا تصبر عليها، بسبب عدم المعالجة بالطريقة الصحيحة القويمة التي تتناسب وتتفاعل مع الحقائق.

والكره هنا ليس لما فرضه الله تعالى من الجهاد، بل يقع على ما يحدث للنفس، لأن في الخروج للجهاد مفارقة للأهل والوطن والمال، وتعريض الجسد لكل ما يمكن أن يحدث من الآلام أو الموت. فجاءت المعالجة الربانية للطبيعة النفسية والجبلية، بل وحتى للفكرية، من خلال إيراد الحقائق المقنعة للمؤمن بنعمة ما يفرضه ويقضيه سبحانه تعالى على عباده ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ فهذه معادلة إيمانية إذا فهمها وأدركها المؤمن جعلته يعيش سعيداً بفرائض الله تعالى، وسعيداً بأقدار الله تعالى، وشاكراً لكل وجه من أوجه القضاء والقدر، ومستسلماً لله تعالى في كل أمر وحال، وراضياً بتقلب الأحوال، وصابراً وعاملاً بكل سبب يحقق الخير ويقي من الشر، ومعتمداً في ذلك بالتوكل على الله تعالى، الذي يُحب المتوكلين، كما قال سبحانه في آية أخرى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ وتفيد الآية العظيمة أن كره الشيء قد يكون هو الخير، وحب الشيء قد يكون هو الشر بعينه، مما يدل ويُثبت عجز الإنسان عن إدراك مغبة ما يكره أو يُحب، مما يستوجب عليه حتمية الاعتصام بمن يملك الغيب الذي يحوي تفاصيل علم مغبة الأمور والأشياء ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فهو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم، فاستوجب له ذلك من خلقه تفويض الأمر له سبحانه

وتعالى، والاستجابة والرضا بقضائه وقدره وحكمه. خاصة وأن الآية الكريمة أثبتت علم الله تعالى وإحاطته، ونفت علم العبد وإحاطته بمغبة وخبايا ما يحب العبد ويكره. والأمثلة في حياة العباد من المحبوب والمكروه لا تنقطع في ذلك، لكثرتها وتنوعها.

وقد جاء مزيد من المعالجة القلبية والعملية للجهاد في سبيل الله تعالى في آيات أُخَر، كقوله عَزَّ وجل في سورة البقرة ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ وقوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فقد عالج الله تعالى هذا الأمر بما يتناسب مع ما فُطِرَ عليه الإنسان من محبته لِمُستقبل الخير، فوعد المجاهد في سبيله بعظيم الأجر الذي يسترخص المجاهد نفسه في سبيل الله تعالى. وبهذه الحقيقة والمعالجة الربانية ينتصر المجاهد على كرهه القتال الطبيعي والجبلي بالرغبة والمحبة للجهاد في سبيل الله تعالى. مع كرهه لما يحدث من الإصابات والإعاقات، فجمع الجهاد للمجاهد في سبيل الله تعالى بين مشقته ومحبة طاعة الله تعالى، فتتغلب محبة الطاعة على المشقة، فيندفع له المجاهد اندفاع الْمُحِب لربه عَزَّ وجل.

وقد ذكر ابن قيم الجوزية كلاماً نفيساً في فوائد قوله عَزَّ وجل ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ حيث قال: في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، وأن المحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد، فأوجب له ذلك أموراً: منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هوته نفسه ومالت إليه، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي

من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة. ومنها: أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرَّته وهلاكه فيه، وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئاً، بل يسأله حُسْن الاختيار له، وأن يُرْضِيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك. ومنها: أنه إذا فوّض أمره إلى ربه ورضي بما يختاره له، أمدَّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه.(١) فحكمة الله تعالى وعلمه بعواقب الأمور تدفع المؤمن للإمتثال عن حب وطواعية.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

في هذه الآية العظيمة ما يدل على أنه حصل سؤال، أو أسئلة للنبي صلى الله عليه وسلم عن القتال في الأشهر الحرم، والتي هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. يقول تبارك وتعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ سؤال استفهام، يدل على الرغبة في معرفة ما يزيل اللبس في معالجة هذا الشأن. فقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى بطن نخلة، بقيادة عبد الله بن جحش ومن معه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لمعرفة أحوال الأعداء. وقد شاء الله تعالى أن يلقوا عيراً لقريش، فتقاتلوا، فقتلوا منهم رجلاً، يُدعى عمروا بن الحضرمي، وأسروا اثنين وأخذوا عيرهم، ورجعوا للمدينة. وكان هذا في آخر يوم من جماد الثانية، وأول ليلة

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد (١٤٦ _ ١٤٧)

من رجب. فقال المشركون: قتلتم في الشهر الحرام، وقالت قريش استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم. وعنفهم إخوانهم المسلمين. فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، هل أخطأوا أم أصابوا فيما حصل من قتلهم عمروا بن الحضرمي في هذه السرية. فلم يدروا أذلك اليوم من رجب أو من جماد الآخرة، فقال المشركون: قتلتم في الشهر الحرام. فنزلت الآية[١] وهذا يدل على اهتمام الصحابة رضي الله تعالى عنهم بكل ما يحقق رضا الله تعالى، من أجل الْبُعْد عما يُسخطه جَلَّ وعلا. فلما عاد المسلمون من سريتهم أحزنهم وظنوا أنهم قد هُلِكُوا، مع تعنيف إخوانهم المسلمين لحرصهم على الطاعة، وكذلك قول قريش استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم.[٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، كُلُهنّ في القرآن ... ما كانوا يسألونك إلا عما ينفعهم.[٣] وهذا دليل على حرص الصحابة على الخير والصلاح ورضا الرحمن، فرضي الله تعالى عنهم أجمعين.

والآيات التي ابتدأت بالسؤال في كتاب الله تعالى هي ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾

وفي كلا الأمرين أكان النزول بسبب تساؤل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، أو بسبب استنكار المشركين. ففيه: أن من فوائد نزول القرآن منجماً وبحسب الوقائع والحلات والاحتياج،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٢١٤/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٦١/١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٨/٣)

معالجة لِمَا يحدث، وبيان الحق فيه، وكذا إجابات للسائلين، وتوجيه لما يجب أن يقوم به المسلمون في شؤن الدين والدنيا، وفيه التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، والتربية بالتدرج لهم. وغيرها من الفوائد التي تحتاج إلى دراسة مستفيضة مستقلة.

ويقول الله تعالى في الإجابة على السؤال عن القتال في الشهر الحرام ﴿ **قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ** ﴾ توضح وتبين الآية الكريمة حقيقة، يتغافل عنها المشركون، أو أنهم في غفلة عنها، ولكن الله تعالى عالم بها، وبحقيقتهم. فالقتال في الشهر الحرام إثم عظيم وذنب كبير ﴿ **قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** ﴾ ولكن الصد عن دين الله تعالى والكفر به تبارك وتعالى، وإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من البلد الحرام أعظم وزراً وإثماً من القتال في الشهر الحرام. وهذا تقبيح لهم ولحكمهم، إذ كيف تستنكرون القتل في الشهر الحرام وقد ارتكبتم ما هو أكبر إثماً وأعظم جُرْماً، بصد الناس عن الإيمان، والكفر بالله تعالى وما جاءكم من الحق، وإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذا المؤمنين من بلادهم المسجد الحرام. وفي هذا الأسلوب القرآني ما يستثير الذهن والفكر والتفكير في حقيقة الأمر، والمقارنة بين ما تستنكرون عليه المؤمنين وبين ما تفعلون من قُبْحِ الكفر وصد المؤمنين عن دينهم، بل وإخراجهم من بلادهم. كما ينبه هذا الأسلوب القرآني إلى جسامة الجرم بالمقارنة بين الأمرين. وهذا من الأساليب التربوية والدعوية التي تثير الفكر نحو التبصر في الحقائق والأفعال بطريقة صحيحة، وهو الأمر الذي يحتاج إليها الداعية والمربي والمدافع عن الحقوق، بأن يكون نقض الفكر الخاطئ بالفكر والحجة الدامغة الفاعلة التي لا يستطيع أن ينكرها العقل الحصيف.

فَتُبيُّن الآية أسلوب التعليم عن طريق استثارة الفكر والتفكير في الواقع الذي غالباً لا يرى الإنسان فيه إلا وجه الحقيقة التي تُقَوِّي حجته، ويتقوى بها، متغافلاً أو غافلاً عن الوجه الذي تقوم فيه الحجة عليه. فيأمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم بتلك الحقيقة ﴿ **قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ** ﴾

وفي الأسلوب القرآني الكريم تقرير وإثبات الحقائق وعدم التغافل عنها، أو الانحراف بها عن واقعها الصحيح بأي وجه كان. فقد أثبت الله تعالى حرمة الشُهُور الحُرُم، ولم ينفيها تبارك وتعالى دفاعاً عن الذي حصل، وإنما أثبت ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ وبين ما هو أعظم جرماً منه، وهو إخراج أهله منه. وهذا يفيد أهمية فهم مغالطات الخصم، لإثبات الحق، وفيه كذلك اسلوب إقامة الحجة بما يغفل عنه الخصم. وفيه كذلك أن الإنسان قد يرى الحق من الوجه الذي يتقوى به، ويتغافل أو يغفل عن الوجه الآخر الذي لا ينتفع به، والذي يجب أن يُضَّح ويُبَيَّن له عند إقامة الحجة.

ثم تزداد الحجة عليهم في فتنتهم ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ وسواء كانت هذه الفتنة هي الكفر أو فتنتهم للمسلمين عن دينهم، فذلك أشد جُرْماً من القتل في الشهر الحرام. وهذا تصحيح وتعزيز لفهم المفارقة والمفاضلة والمفاصلة بين قتل المؤمن للْمُفْتِن، وبين فَتْن المشرك للمؤمن عن دينه، فَفَتْنُ المشركِ للمؤمن عن دينه أعظم جُرماً من قتل المؤمن للمشرك الفاتن. مما يدل على أن الإثم يتفاوت عَظَمَةً وجُرْماً، فبعضها أكبر من بعض، ويُستفاد من ذلك ألا ينظر الإنسان للجرم ويتغافل عما هو أكثر جُرماً وحرمةً، فيتورع عن الصغائر وينسى ما يقع فيه من الكبائر. وهذا يفيد كذلك في تقييم المسلم لسلوكه اليومي، فيتورع عن صغير الزلات ويغفل عن الكبائر. بل يلزم أن يتفقد نفسه ويُحاسبها، لأن التمحيص مهم جداً ليسلك الإنسان المسلك المستقيم.

ويُستَفَادُ من فتنة المشركين للمسلمين، في محاولة ثنيهم عن دينهم، وإرجاعهم للشرك، أن الكفار في كل وقت وحين مجتهدون ويجتهدون في صد المسلمين عن دينهم ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ فهم يحاولون ولا يتوقفون من أجل فتنة المسلمين عن دينهم بجميع وسائل الفتن، ما استطاعوا لذلك سبيلا. مما يستوجب على المسلم الانتباه والحذر من جميع أنواع وأساليب الفتن، بالصورة والصوت والفكر، والشبهات والشهوات.

وقد جاء التحذير من الله تعالى للمؤمنين في هذه الآية الكريمة بأسلوب التحذير والتعليم ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى

﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فن يعود عن دينه بعد إيمانه، فيخرج من الدنيا كافراً فقد زال عنه ثواب جميع ما عمل سابقاً حال إسلامه، جزاء لمن فسق عن الحق بعد معرفته له. مما يفيد أن الكفر يُحبط العمل الصالح، وكأنه لم يعمل صالحاً قط. فنسأل الله تعالى السلامة والثبات. وبالتالي سيكون الجزاء هو ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فالنتيجة والمحصلة النهائية هي الخلود في النار لمن ارتد عن دينه ومات كافراً. وهذا تحذير للمؤمنين في كل وقت وحين من الارتداد عن دين الله تبارك وتعالى.

يقول ابن سعدي رحمه الله تعالى: قال بعض المفسرين إنه لم يُنسخ، لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة، لعموم الأمر بالقتال مطلقاً، ولأن جملة مزية الأشهر الحرم بل أكبر مزاياها تحريم القتال فيها، وهذه إنما هو في قتال الابتداء. وأما قتال الدفع فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز في البلد الحرام.(١) وقد نتج من الآية الكريمة ومن غيرها توجيه الفكر للتفكر والتأمل في أوجه متعددة، وأبرزها ما تَوَجَّه له العلماء والفقهاء والمفسرون من الجمع بين الآيات، لمعرفة ما فيها من فقه، والتي منها: مدى نسخ الأشهر الحُرم من عدمه، وإمعان الذهن في كيفية الجمع بين المطلق والمقيد، والعام والخاص، فنتج بهذا المنهج الإسلامي مدارس علمية في أبواب الفقه والتفسير. فأعظم به من دين، يفتق العقول، لتستخرج درر العلوم.

ولما نزل الإيضاح من الله تعالى في القرآن الكريم من أنه لا إثم على أصحاب السرية فيما وقع من قتل، طمع عبد الله بن جحش وأصحابه في الأجر. فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعطى فيها أجر المجاهدين. فأنزل الله عَزَّ وجل(٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فهذا كرم من الله تعالى، بأن أنزل هذا التطمين لأهل تلك السرية، من أنهم غير آثمين، ولهم المغفرة والرحمة من الله تبارك وتعالى.

---

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٧٢/١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٦٢/١)

فبينت الآية العظيمة منزلة الإيمان، ومكانة الهجرة والمهاجرين، وفضل الجهاد في سبيل الله تعالى، والتي وصف الله بها في هذه الآية عبد الله بن جحش وأصحابه رضي الله عنهم. ومن الفوائد كذلك بيان الله تعالى لمنزلة الإخلاص له عَزَّ وجل، إذ ربط العلي العظيم الجهاد بأن يكون في سبيله سبحانه وتعالى ﴿ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ثم بين تبارك وتعالى مزيداً من إيضاح الإخلاص ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ ﴾ فلم يكن الجهاد لغنيمة ولا لسمعة ولا لشيء غير رحمة الله تعالى التي هي الجنة. ثم اُخْتُتِمَت الآية الكريمة بتحقيق المراد لهم من الله تعالى، وذلك ببيان أن الله غفور للذنوب رحيم بهم وبالعباد ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فربكم تبارك وتعالى كثير المغفرة والرحمة لعباده، فأملوا خيراً عند ربكم الغفور الرحيم.

وقد امتدحهم الله تعالى بثلاث صفات عظيمة: الأولى: الإيمان ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فتحقق منهم ذلك بشهادة الله تعالى لهم. والصفة الثانية: الهجرة من مكة إلى المدينة ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ فتركوا أموالهم وديارهم. والثالثة: الجهاد في سبيل الله تعالى ﴿ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ولما أن الهجرة والجهاد من أقوى الأدلة على أداء العبادات، فإنه لم يقرن البيان الكريم بين الإيمان وعمل الصالحات، لأن الهجرة والجهاد يمثلان القمة في الطاعة والإنقياد، وعمل الصالحات. فأغنى غيره عن ذكره. مما يبين قوة السياق وبلاغة البيان، والاكتفاء بما يغني غيره عنه. ليظهر الإعجاز البياني بكل وضوح في القرآن العظيم، وأنه كتاب معجز من كل وجه.

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ

وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

ويتكرر السؤال من الصحابة عن أمر دينهم في شأن الخمر والميسر، مما يبين عناية الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأمر دينهم، وتأتي الإجابة من العليم الخبير رب العالمين بأسلوب في غاية الإقناع بتحريمها، وبما يدل على ميزة نزول القرآن العظيم في تدرج خلال ثلاث وعشرن سنة، التي هي مدة بعثته صلى الله عليه وسلم.

والخمر: هو الْمُسْكِر. وهو كل ما خامر العقل، فستره عما هو عليه من الوعي. والميسر هو القمار. وجاء في كُتُب التفسير أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ﴾ فدُعي عمر فقرئت عليه. فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في سورة المائدة[١] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وهذا يبين حكمة الله تعالى في الإجابة بتدرج، حتى يقلعوا عما اعتادوه. كما يبين فقه وحرص عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

وهذا يفيد بيان فطنة الصحابة لهذين الأمرين: الخمر والميسر من أنهما ليستا من الصالحات، لما في الخمر من غياب العقل، ولما في الميسر من أكل مال الآخر بالظلم. ويفيد التدرج في نزول تحريم الخمر على رحمة الله تعالى بالمؤمنين، في معالجة ما اعتادوا عليه في الجاهلية من الخمر والميسر، فكان عادة من عاداتهم، حتى أصبح الانفكاك منها ليس بالأمر اليسير على البعض، فجاء التحريم في تدرج. مما يفيد أيضاً مراعاة الله تبارك وتعالى للطبيعة الإنسانية وأحوالها، فيتعامل معها الملك

(١) المرجع السابق (٢٦٢/١)

القيوم وفق الْسُنَن التي جُبِلَت عليها النفس البشرية. فتبارك الله رب العالمين في كل حال. وهذا يُفيد أهمية مراعاة الخصائص والطبائع البشرية، عند التوجيه والإرشاد والدعوة والتعليم، وخاصة الجبلية، كصعوبة الانفكاك عن بعض الأشياء مرة واحدة، والتعامل معها من خلال مقتضيات ذلك، وعدم التغافل عن تلك الطبائع حتى يؤتي التوجيه ثماره. ومن تلك الطبائع: النسيان، والغفلة، وضعف النفس البشرية، فظهرت حاجتها للتذكير المستمر، وخاصة أن النفس البشرية إذا أَلِفَت شيئاً احتاجت للبديل أحياناً، واحتاجت إلى المجاهدة، التي تتطلب المغالبة على الشهوات. وكذلك يسري هذا في اكتساب الفضائل، فقد تحتاج لمثل ذلك من التدرج، وقد أشارت السنة النبوية إلى ذلك، كقوله صلى الله عليه وسلم (العلم بالتعلم والحلم بالتحلم)[١] ومثل (لا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب صديقا)[٢] مما يبين عناية المنهج الإسلامي بأدق أساليب المعالجة للطبائع البشرية.

وقد اشتملت الآية الكريمة على منهجية التعليم المتدرج، من خلال بيان حقيقة الخمر والميسر أولاً، ثم ما يرتبط بهما من الإثم، مع عدم إغفال ما يحصلون عليه من المنافع، ثم عملية المقارنة بين المنفعة وإثمها ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ فأثبت تبارك وتعالى أن الخمر والميسر متضمنان للإثم الذي ليس سهلاً، بل إثمٌ كبيرٌ، لما يصدر من المخمور من الفحش القولي والفعلي، فيرتكب به الآثام العظيمة، وكذلك تغييب العقل عن فعل الواجبات، كالصلوات وغيرها، وفي الميسر كسب الأموال غير المبرر، مع ما يحصل من الضغائن والشحناء، وذهاب المال بغير وجه حق. وهذه المضار داعية لتجنبها، بسبب ما فيهما من الإثم، ثم أثبت تبارك وتعالى أن في الخمر والميسر منافع للناس ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ سواء لما يحصل للمخمور من متعة، ومكاسب البيع والشراء، أو لما يحصل لصاحب الميسر من الحصول على المال والمتاع من غير مشقة.

ولكن بالمفاضلة يحصل كمال العلم والتعليم، ثم الاقتناع، فيبين الله تعالى التفاضل بين إثمها ومنافعها ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ فهذا بيان من الرحمن الرحيم لحكم الخمر

---

(١) الهيثمي، مجمع الزوائد (١٣٣/١)

(٢) أحمد، المسند (٦/ ٢٧٣) برقم (٣٧٢٧)

والميسر، بأسلوب ينير العقل، وتستطيب له النفس، مع قدرته تبارك وتعالى أن يحرمهما دون هذا التفصيل الكريم، ولكن حكمته اقتضت تعليم المسلمين وتفهيمهم بما ينير عقولهم، حتى يواجهوا فيما بعد أمور الدين والدنيا بمنهجية علمية، تنقلهم إلى أفضل الفكر، وأرحب النظر. وليتمكنوا أيضاً من نقل وتناقل هذا العلم بينهم، ولغيرهم، بمعرفة وفطنة، وفقه عظيم، ولذلك ارتقت عقولهم وتفكيرهم ومنطقهم، وأساليب معالجاتهم لما كانوا يواجهون من الأمور. وكل مسلم اهتم بذلك ارتقى عقله وفهمه بتوفيق الله عَزَّ وجل.

ويستفاد من منهجه تبارك وتعالى في تقرير هذا الحكم، أهمية تقرير الواقع وعدم مغالطة المنصوح بدفعه للمراد من خلال التجاهل عن بعض الحقائق. فلم يتجاهل القرآن الكريم حقيقة المنفعة التي تحصل للإنسان من الخمر والميسر حتى يدفعه إلى تركه، بل بين له الحقيقة والواقع الذي يعرفه عن الخمر والميسر، من أن فيهما منافع للناس ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ وليست منفعة واحدة، بل بصيغة الجمع ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ ثم بعد بيان الواقع، أوضح المفاضلة والمفاصلة بين إثمها ونفعها ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ بما يستلزم دفع الإثم والبعد عنه بتجنب المنفعة، وتقديم دفع الإثم على جلب المنفعة. وهذا الأسلوب تندفع إليه النفوس، لما فيه من الإعلام والتعريف بالحقائق، وأن الناصح والآمر يعرف تلك المنافع ولم يتغافل عن حقيقتها، بل أثبت الله تبارك وتعالى المنفعة الحاصلة من الخمر والميسر، ولم يتم التغافل عنها. وكذلك صحح وبين تبارك وتعالى أن الحقائق التي يعرفها الناس ناقصة، ويتحقق بها الإثم، لما تحمله من مخاطر تفوق المصالح ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ وهو أسلوب تربوي ودعوي يتحقق به الهدف بإذن الله تعالى، فهو لا يغافلها فيما تُحب وتكره، بل يُصحح ويوضح لها الأكمل والأفضل والأرجح، والْمَنْجَى والمخرج، لأن في ذلك احتراماً لمدركات العقل، الذي يغرس الثقة في الْمُوَجَّه، وفي مضمون التوجيه، وأدعى للاستماع بروية، وإمعان الفكر والعقل في الموازنة بين التحذير والترغيب، وبين الفاضل والمفضول، وبين الخطأ والصواب، والحلال والحرام. وفي بُعد عن المغالطة التي تأباها العقول. فالحمد لله على هذا البيان والتعليم من الرحمن الرحيم.

وهذا يفيد تربوياً ودعوياً، وفي الإرشاد والتوجيه والإصلاح أهمية أسلوب المقارنة والمفاضلة والترجيح، من أجل الوصول بالْمُخَاطَب إلى الحقيقة التي قد تكون غائبة عنه. وكذلك من الفوائد: عدم التغافل عن الحقائق وتَخَطِّيها، وكذلك أهمية العقل، وأهمية مخاطبته بما يعقل، فإن ذلك أدعى للقبول.

وتتضمن هذه الآية الكريمة مزيداً من سؤال المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ فالسؤال عن مقدار النفقة، فَسَهَّلَ وَيَسَّرَ لهم الرحمن الرحيم ذلك ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ فالمطلوب في النفقة هو العفو، الذي يتضمن ما سَهُلَ وتيسر، ولا يشق على الْمُنْفِق. فأنفقوا ما فَضُلَ من حوائجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم، فتكونون عالة.[1] ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ فهكذا بين ربكم لكم الدلالات الدالة على الحق والمنافع من العلم بما يحبه الله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما بين منافع ما بيناه لكم. بما يفيد أنكم إذا أمعنتم الفكر أدركتم كمال توجيه ربكم لكم. ثم أعقب ذلك بتوسعة الفكر فيما يتعلق بالدنيا وما يتعلق بالآخرة، حيث قال عَزَّ وجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وفي الآية لَفْتُ انتباه المؤمنين إلى التفكر في الدنيا والآخرة، وهو توجيه إجمالي لأمر واسع عظيم. فالتفكر في الدنيا يشمل البدء والمآل، والسعي والتوقف، والكسب والخسارة، والغنى والفقر، وتبدل الأحوال، وزوالها وفنائها، وغير ذلك من حال الدنيا وتقلباتها. وكذلك التفكر في الآخرة التي هي المآل، وحياتها التي لا تفنى ولا تزول، وما فيها من السعادة للمؤمنين، والتعاسة والشقاء والعذاب للكافرين، وغير ذلك مما في الآخرة من دواعي التفكير.

كما أن في التوجيه الرباني للتفكر في الدنيا والآخرة ما يُوجب المقارنة الدافعة للمفاضلة بينهما، والدافعة إلى تفضيل العاقبة الباقية على العاجلة الفانية. وجاء لفت الانتباه لهذا بأيسر الأساليب البلاغية المستثيرة للذهن، خاصة بعد سؤال السائلين عما يخص أمور دينهم ودنياهم من أجل آخرتهم. وكذلك فيه كرم الله تعالى في العلم والتعليم، إذ تأتي الإجابات عن الأسئلة بأوسع مما

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤٢/٣)

تتطلبه وتستوجبه الإجابة. مما يفيد أهمية الكرم في التعليم، وفي الإجابة على اسئلة السائلين، في أي مجال وخاصة في العلم، وأخص منه علم الدين الموصل للآخرة.

وتتناول الآية الكريمة ما شغل المسلمين وشق عليهم في أمر أموال اليتامى، حتى عزلوا طعامهم عن طعامهم، خوفاً على أنفسهم من تناولها. فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ فبين الله تعالى لعباده أمر اليتامى في كلمة واحدة ﴿ إِصْلَاحٌ ﴾ فجمعت جميع أنواع الصلاح، ودرجاته ومجالاته وأنواعه، مما يمكن ويكون من حفظ ورعاية وتنمية مال اليتامى. وإصلاح ذاته أيضاً. والإصلاح ضد الفساد ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ وهو القيام بإصلاح أموالهم من جميع الأوجه، وأن يكون الصلاح والإصلاح لهم ﴿ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ بما يفيد التخصيص، بأن يكن فيه خير لهم، وهذا الإصلاح هو أفضل من الفصل الذي يؤدي إلى عدم الإصلاح والنماء.

بل وزاد البيان الكريم على ذلك ما يمنع عن القائمين بالصلاح مشقة فصل إدارة أموال اليتامى عن أموالهم ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ فأباح مخالطة اليتامى في الطعام وفي الأموال، وفي غيرها مما تتحقق به مصلحتهم، وترتفع به المشقة. وعزا تبارك وتعالى ذلك الاجتهاد في الإصلاح إلى صفة وحال الأخوة ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ والأخوة كلمة تعبر عن الصلة القوية، ومحبة الخير، والحفظ والنماء، وتزول بها أضداد ذلك من الفساد بجميع أنواعه، مما يفيد أن العلاقة الأخوية يجب أن تكون مثالاً للمحبة في الخير، وفي الكره للشر. ثم أشار تبارك وتعالى إلى المقاصد الداخلية النفسية، التي لا يعلم بها من غير صاحبها إلا الله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ فإن ربكم الله يعلم مقاصدكم من المخالطة، ومما تقومون به في أموالهم. وهذا بلا شك يغرس الحرص والخوف، ويستصحب المراقبة من الله تعالى في كل ما يقوم به المرء، وخاصة في أموال اليتامى التي هي مدار الآية الكريمة.

وقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ ﴾ قاعدة سلوكية في كل أمر من أمور الحياة، التي قد لا يُجْزَمُ ولا يُعْرَفُ المقصدُ فيها بالسلوك أو القرائن، إلا بما في الصدور الذي لا يعلمه إلا اللهُ تعالى، عالمُ الغيب والشهادة. وهنا يُعَالِجُ المرءُ سُلُوكَهُ في كل لحظة بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ ﴾ فإن شك أحدٌ في إخلاصه، أصلح وطَيّبَ نفسه بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ ﴾ وإن شك أحدٌ في فعله وسلوكه، عالج نفسه بقوله ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ ﴾ وإن اجتهد في إصلاح شأن غيره، وحصل ما لا يريده، عالج نفسه بقوله ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ ﴾ وإن شك في نوايا غيره، قال لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ ﴾ وإن أراد خيراً لغيره، ولكن صار الأمر على خلاف ما يريد عالج نفسه بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ ﴾ فإنها علاج لما يلج ويتلجلج في النفس من خوف الوقوع فيما لا يريد. وهذا يبين أن للنوايا أكبر الحظ والنصيب في الحكم والحساب.

وبالقياس فإن هذا المنهج الرباني يفيد: أن هناك أموراً في الحياة يصعب حيازة أجزائها، خاصة فيما يخص الآخرين، مما يُوجِب التعامل معها على وجه الإصلاح أولاً، واعتبار الأخوة ثانياً، واليقين بعِلْمِ الله تعالى لأعمال العباد ثالثاً، وما تنضوي عليه نيته وأهدافه التي لا تخفى على الله تعالى. ويمتد نفع هذا المنهج السلوكي إلى قواعد الإدارة: كإدارة الأعمال، وفي العلاقات الإدارية والعامة، وفي العلاقات الاجتماعية والأسرية، بأن يسعى الإنسان إلى تحقيق مبدأ الإصلاح، المبني على مبدأ الأخوة، ومستظهراً ومستشعراً لرقابة الله تعالى، ومعرفته بالنيات والأهداف. فهي قاعدة ضابطة للسلوك، وعريضة في مساحة سلطانها، وعميقة للمتمعن في جوانب معطياتها وفوائدها. فالحمد لله رب العالمين على هذا الدين العظيم، وكتابه المبين الكريم.

ثم يبين الله تبارك وتعالى امتنانه على المؤمنين بهذا التوجيه الكريم والعظيم ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡ ﴾ فلو أراد الله تعالى المشقة عليكم، بعدم إعطاء وبيان هذه الرخصة لفعل، والتي

رفع الله تعالى بها الحرج والمشقة، بل وأوجد برفعها دوافعاً وسُبُلاً للخير وتحصيل المنافع لليتيم. وفي هذا التنويه من الله تعالى تعليمٌ للمؤمنين، بعظيم ما أعطى من التشريع، وما حقق به من الخير. وفي لفت الانتباه إلى رفع هذا الحرج ما يفيد أن البيان بالأضداد يعزز عامل الانتباه للنعمة. وهو أسلوب تربوي، بلفت الانتباه عند التوجيه إلى الأضداد التي تُعْرَف بها النعم. ثم ختم الله الآية العظيمة الكريمة بقوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فالعزة تتضمن القوة الكاملة، والقدرة القاهرة، فهو غالب على أمره سبحانه وتعالى. وحكيم في أمره ونهيه، وتشريعه، وتقديره وأقداره، وخلقه، وإحيائه وإماتته، فهو حكيم في كل شأن. وكذلك الْمُحْكِمِ للأشياء.

والحكمة تتضمن وضع الشيء موضعه، وهي ضد العبث. وفي الجمع بين هاتين الصفتين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أنه بالرغم من سلطانه وقوته الكاملة، وقدرته التامة القاهرة، إلا أنه حكيم فيها وبها، فهو حكيم في أمره وتدبيره سبحانه وتعالى، فيضعها مقتضى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، كالرحمة والرأفة والنصرة، والمكر للمظلوم ونصرته، والمكر بالظالم ومعاقبته. والحكمة صفة عظيمة جليلة، وقد امتدح الله تعالى في آية أخرى من آتاه الله الحكمة من عباده، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ولا شك أن حكمة العباد ليست كحكمة المانح والمعطي لها سبحانه تعالى، فحكمة الله كاملة، وحكمة المخلوق يعتريها ما يعتري الإنسان من النقص، ولكن من يؤت الحكمة فهو خير وأفضل وأحسن ممن لم يحصل عليها، فمن يؤت الحكمة من الناس، فإنه يغلب عليه وضع القوة والمعروف في مواضعها المناسبة. فالحمد لله الذي له هذه الصفات العليا والأسماء الحسنى. وهذا باعتبار أن الحكمة هي وضع الشيء موضعه.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

تتناول هذه الآية الكريمة أمر اختيار الزوج والزوجة من حيث الدين، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ النهي الذي يقتضي التحريم من أن يتزوج المسلم بمشركة من النساء حتى يؤمن، بما يفيد أنه إذا آمنت جاز الزواج بها، ورُفع التحريم.

ثم بين الله تبارك وتعالى علة النهي ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ فإن المؤمنة أفضل من المشركة لكم، وإن أعجبتكم المشركة، فمع شدة الإعجاب بها إلا أنها ليست بخير من المؤمنة أبداً. فقد أعطت وأفادت الآية الكريمة وأظهرت عملية المفاضلة أمام أمرين، وهما: الخيرية ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ﴾ وكذلك الإعجاب ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بجمالها وحسنها، أو بحسبها ونسبها، أو بأي مثيرات الإعجاب. وبالتالي فإن الإعجاب قد لا يكون هو الجوهر والخير والأفضل، مما يبين أن الجوهر في الزواج ليس هو الإعجاب فقط. فلا بد من النظر إلى المعيار الآخر، الذي هو الخيرية. وهذه قاعدة نفيسة، تُلهم المؤمن بسط فائدتها في كل أمر من الأمور. ومن الفوائد أن الآية الكريمة ذكرت الإعجاب الذي يفيد أجزاء متفرقة ومكونات مختلفة، نبه عليه النبي صلى الله عليه وسلم، حين قال (تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[١] فمكامن الإعجاب في المرأة يكون في تلك المقاييس الأربعة، فرجَّح ونصح وأرشد صلى الله عليه وسلم إلى خيرية الدين.

---

(١) البخاري (٣/٣٦٠) برقم (٥٠٩٠)

وبين الله تعالى إعمال المقياس الآخر، وهو خيرية الإيمان وأثره ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لأن خيريتها من خيرية مكونات وآثار الإيمان، الذي يضبط المرأة في تصرفاتها وعلاقاتها، ويحفظها في نفسها ومالها وولدها وزوجها، فاطلب صاحبة الإيمان لأن الله تعالى قد رضي عنها، وما يكون من برها لزوجها، وأثرها على أولادها فيما بعد. وهذا لا يكون في المشركة بموجب انتفاء الإيمان عنها. كما أن مقاصد الإيمان في قلب المؤمنة، يرتقي بها في الدنيا والآخرة.

وهذا ينطبق كذلك في اختيار الزوج، حيث قال الله تعالى ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ وهذه مماثلة في كلا الجانبين: من الإعجاب ومن الخيرية.

ثم بين الله تعالى وجهاً آخر من الخيرية والمفاضلة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فهؤلاء المشركين من الزوج والزوجة يدعون إلى النار. والمتأمل يجد أنهم يدعون إلى النار من كل باب: من أبواب الشرك، والمعاصي الأخلاقية، والأذى، وكراهية المسلم والإسلام، ودعوة غيرهم للكفر، وصدودهم وصدهم لغيرهم عن سبيل الله. وتأثيرهم على الأولاد بعد الإنجاب. وهذا كله مناقض لدعوة الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ فإن الله ربكم يدعو لضد ما يدعون إليه أهل الشرك. وهذه مفارقة كبيرة جداً، تستوجب الترك وعدم اختيار المشرك والمشركة مهما بلغت درجة الإعجاب. ومن الفوائد: أن الله تعالى قرر الطبيعة البشرية في قضية الإعجاب، ولم يجرد الإنسان من طبيعة الإعجاب وعوامل إثارته كالجمال والصورة، أو الأسلوب، أو المال والجاه، أو غير ذلك من مثيرات الإعجاب، مما يفيد في الجانب الدعوي والتربوي عدم تجريد المدعو والمتربي من طبيعته البشرية من أجل تحقيق المراد الدعوي أو التربوي، وإنما يلزم تصحيح وتحقيق المراد مع عدم مغالطته في طبيعته البشرية. وكذلك من الفوائد البيانية: أن الله تعالى أورد لفظة الإعجاب مطلقة، لتستوعب جميع مثيراته ودواعيه وأسبابه. وهذه من دقة الصياغة البيانية في اختيار اللفظة المستوعبة لجميع الدلالات المقصودة.

وفي الآية لفتة عظيمة، من أن الجنة والمغفرة هي بإذن الله تعالى وإرادته ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ مما يستوجب الدعاء وسؤال الله تعالى الثبات على الحق حتى يلقاه العبد. فلا حظ لأحد من أوجه الخير إلا بإذن الله تعالى. فأطيعوه واسألوه واطلبوه.

وتفيد دلالة ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾ إلى أن الله تبارك وتعالى يستحث عباده بمناداتهم ودعوتهم إلى الطريق الذي يوصلهم إلى الجنة. إذ أن معنى ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ في هذا السياق تفيد النداء لهم، وترغيبهم في الجنة، وهذا دليل رحمته سبحانه وتعالى، وأنه لا يريد لعباده الكفر ولا العذاب، إلا لمن أبى دعوته عَزَّ وجل.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إن ربكم تبارك وتعالى أنه يوضح أحكامه ومراده لعباده، ويعلمهم ما جهلوا مما يوجب لهم العمل بأحكامه، والامتثال لأمره ونهيه، والتذكر بهذا البيان إذا حصل النسيان. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعلهم يتعظون، فيعملون بما أمر ربهم به، ولعل أيضاً المشركين ينزجرون عما هم عليه من الشرك، نتيجة إقصائهم، وعدم مصاهرتهم. فينزجرون عما هم عليه من الكفر، ويتحفزون وينهضون عن كفرهم إلى الحق، فيتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ويطيعوه. فلعل المخاطبون بهذا البيان من الناس أن يهتدوا بما تم بيانه، ويتذكروا نعمة البيان الجليلة، فيصححوا أفكارهم، وينهضوا للحق، والتمسك به. ويقوموا بما فيه من الهدى والحق، ويشكروا ربهم على ما هداهم إليه بكتابه وبهدي رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

ثم يبين الله تعالى ما سأل عنه بعض المسلمين من شأن المرأة إذا حاضت. فقد كانت اليهود إذا حاضت المرأة منهن لم يؤاكلوها، ولم يُشاربوها، ولم يُجامعوها في البيوت، فَسُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فنزل قوله تعالى[١] ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ فكانت الإجابة من الله تعالى في غاية البلاغة البيانية ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ فوصفه العليم القدير بكلمة واحدة ﴿ أَذًى ﴾ وهي شاملة الدلالة، دون إمعان في تفاصيل الأذى. وفي هذا حفظ لمشاعر المرأة، وحفظ لحيائها الذي يدفعها بأن لا يظهر ولا يعرف أحدٌ غيرها جنسها من النساء عن خصوصياتها، فحفظ لها ربنا تبارك وتعالى ما تتأذى من تفاصيله على الملأ. وهذا يعلم الإنسان مكارم الأخلاق في القول والوصف، واستخدام التنويه المقتصر على البيان، دون التمعن والإسراف في تفاصيله.

فإن مقام حفظ الحياء والخصوصية كثير في كتاب الله تعالى، كمثل حال المطلقة ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ والمتوفى زوجها ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ والأذى كناية عما تتأذى المرأة به، من هذا الأمر، وسواء أذى نفسي أو حسي. مما يلزم الزوج الابتعاد عن هذا الأذى، ومراعاة مشاعرها زمن الحيض. لأن الْمُتَأذي من أي أذى يتأثر نفسياً من ذلك، فيلزم مراعاة ما قد يبدر منها.

ثم أمر تبارك وتعالى باعتزالهن ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ ثم فصل تبارك وتعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ فأمر باعتزال الوطء أي الجماع، وهو المحرم إجماعاً، وتخصيص الاعتزال في المحيض، يدل على أن المباشرة بغير الوطء جائزة فيما أباحه الله تعالى.[٢] ولقوله صلى الله عليه وسلم (اصنعوا كل شيء إلا النكاح)[٣] وهنا نلاحظ أيضاً التكنية عن الجماع

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/٢٢٣)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٧٨)

(٣) مسلم، صحيح مسلم (١/٢٤٦) برقم (٣٠٢)

بدلالة ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ لترسيخ الحياء، والترفع عن إظهار الأمر بالتصريح الظاهر. ومن فوائد المسائل الفقهية في هذا، أن السُنَّة فَصَّلَت في هذا، فأمعن الفقهاء والمفسرون النظر، والجمع بين دلالات الآية القرآنية الكريمة وهديه صلى الله عليه وسلم، ليخرجوا من ذلك بمسائل فقهية عظيمة جليلة في هذا الباب. فينظرها من أرادها في كتب الفقه.

ومن الفوائد كذلك الأسلوب القرآني في إيراد الإجابة المفعمة بالأدب الجم، كما سبق الإشارة إليه، وبما يعطي المقصود والمعنى بالحكم دون التفصيل الذي يمتعض منه الْمُخَاطب، وهذا يفيد أهمية الأخذ بهذا الأسلوب القرآني الكريم عند التوجيه والتعليم، وعند الحديث والتحدث مع الغير، بأن يكون الكلام مفعم بالحياء وبما يحفظ مشاعر الغير، واختيار محامد الألفاظ، والتعبير بالدلالات والكلمات التي تحمل الأدب. وكذا أهمية تعويد النشأ على ذلك.

ثم يبين الله تعالى الإباحة وإعادة الحال إلى طبيعتها، بعد انتهاء الحيض والاغتسال منه ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ وهذا يحمل جانبين: انتهاء الحيض، وهو ابتداء التطهر، وإتمامه بالغسل، الذي وضحت السنة المزيد عن ذلك. ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهذا مزيد من الإعلام الْمُفْعَم بالأدب العظيم. فإذا حصل الطهر فليأتي الرجل زوجته من الوجه الذي أباحه الله تعالى، ولا يأتي من الوجه الذي لم يُبِيحه الله تبارك وتعالى. وهذا الأسلوب الأخلاقي في التعليم عظيم، ومسارٌ أدبي وتربوي رفيع، للأخذ به في باب منهج آداب التعليم، بحسب نوع المتلقي، ويفيد كذلك أن الحياء سمة من سمات هذا الدين العظيم. فيجب الأخذ بها، والحث عليها.

ثم يبين الله تعالى ما يحبه من عباده في هذا الخصوص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فإن ربكم الله يُحب الذين يكثرون التوبة، لما يعتري الإنسان من التقصير والزلات والذنوب، فيُحب عَزَّ وجل هذا الصنف من المؤمنين. وكذلك يُحب المتنزهين عن الأذى الحسي، بالماء والاغتسال من الجنابة والحيض، والأوساخ وغيرها، مما يُوجب النظافة والاغتسال. فجمعت محبة الله تعالى للمتطهرين من الآثام ومن الأذى الحسي والمعنوي.

ومن الفوائد الفقهية، استنباط العلماء للدقائق من الدلالات التي فتقت العقول، وأنارتها بعمق التفكير والاستنباط، كقوله تعالى ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فقال بعض العلماء فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال، وذهب ابن حزم رحمه الله تعالى، للوجوب بعد كل حيضة، وهناك أقوال لعلماء الأصول أنه على الوجوب، ومنهم من قال للإباحة، ويجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له عن الوجوب. ثم ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى، بعد أن أورد تلك الأقوال: والذي ينهض عليه الدليل أنه يُرَدُّ عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً فواجب، كقوله ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أو مباحاً فمباح كقوله تعالى ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حكاه الغزالي وغيره، فاختاره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح.(١) وهذا يفيد من الناحية العلمية والفكرية والتربوية أثر القرآن الكريم في معطياته ودلالاته على ظهور الفقه والأصول، ومنهج الاستنباط المبني على قواعد استنبطها العلماء من النصوص الشرعية في الكتاب والسنة، وأن مدار اختلافهم على غور وعمق التأمل والجمع والاستنباط المتعمق، والذي ارتقت وارتفعت به عقولهم وفكرهم إلى هذا القدر من الفهم لدلالات النصوص، وهذا يفيد كذلك أن القرآن الكريم ينمي العقول ولا يجعلها أمام النص واقفة ثابتة، بل متحركة في رحابه.

وإضافة لما سبق من بيان الله تعالى للسائلين عن شأن المرأة إذا حاضت، يبين عَزَّ وجل المزيد من شأن الرجل مع زوجته، فيما كان يتساءل الناس عنه، مما يقوله أهل الكتاب، من اليهود في المدينة: من أن الرجل إذا أتى زوجته من خلفها في فرجها، كان الولد أحولاً.(٢) فقال تعالى ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٦٧/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦١/٣)

أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فأبطل الله تبارك تعالى هذا الاعتقاد بهذه الآية، فتمت معالجة ما انتشر بين الناس من اعتقاد خاطئ وغير صحيح، وهذا أيضاً من فوائد نزول القرآن الكريم منجماً، لمعالجة قضايا الناس المتنوعة. وذكر المفسرون، ومنهم ابن كثير رحمهم الله تعالى: أي كيف شئتم، مقبلة ومدبرة، في صمام واحد. أي فرجها فقط، كما ثبتت بذلك الأحاديث[١] وكذلك أجاب ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لرجل سأله، فقال: قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة في أقبالهن، لا تعدوا ذلك إلى غيره.[٢] ومعناه عند الجمهور من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى: من أي جهة شئتم، مقبلة ومدبرة، في أقبالهن.[٣]

وهذا يفيد عناية الإسلام بدقائق ما يحتاجه المسلم من بيان، وأنه يأتي بأسلوب بياني واضح، متكامل، ومُتَّسِماً بالأدب الجم الرفيع، مع الوضوح التام، وامتلاء النص بما يغرس ويعلم منهجية الحياء في الخطاب والبيان التعليمي، فلا يشعر القارئ بأدنى حرج في تلاوة ذلك على الصغير والكبير والمرأة، وهذه من الإعجاز البياني للقرآن الكريم. فعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله ﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ ﴾ والحرث هو مكان الغرس والزرع، وكذلك رحم المرأة ينبت ويتخلق فيه الجنين. ثم يقول الله تعالى في جماع الرجل لأهله ﴿ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ ﴾ فيتجلى فيه الأسلوب البياني المفعم بالأدب، الذي يحفظ للمرأة والرجل ما يشعر به من الحياء. وهذا مقتضى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، فقد جاء في الحديث (إن الله حيي ستير)[٤] وفي نفس الوقت، قال الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ فالله لا يستحي أن يبين الحق ويُظهره ويأمر به. مما يفيد أن الحياء لا يمنع من إظهار الحق وبيانه، ولكن بيانه بالأسلوب المتشبع بالحياء، الذي هو صفة من صفات الله تعالى. مما يُفيد أهمية التربية على الحياء، في الكلام واختيار الألفاظ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٢٧٠)

(٢) المرجع السابق (١/٢٧٠)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٦٢)

(٤) أحمد (٤/٢٢٤) وأبو داود، برقم (٤٠١٣)

المناسبة، والبعد عما لا يجمل التلفظ به، على أي وجه كان، ولْيُرَاعَ فيه الحال والمقام والمقال، والأدب الجم الرفيع، الذي هو من سمت الصالحين من العباد، وعلى رأسهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فلا يجد القارئ في كلامهم فواحش الألفاظ، أو ما لا يليق. وإنما ينتقون الألفاظ انتقاء الحريص، كقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لمن جاءه يسأل، كما سبق بيانه، حيث قال: قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة في أقبالهن، لا تعدوا ذلك إلى غيره. وامتد هذا الأدب الرفيع في كلام العلماء، فكان بيانهم للحق واضح من كتبهم، بأجمل الألفاظ، من غير حاجة لما دُونَهَا من العبارات والكلمات. اللهم علمنا وارزقنا الأدب بما تحب وترضى.

ومن الفوائد السياقية، اختيار لفظ ﴿ **أَنَّىٰ** ﴾ من جملة ﴿ **أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ** ﴾ فأنى تأتي سؤالاً، وإخباراً عن أمرٍ له جهات، فهو أعم في اللغة من **(كيف)** ومن **(أين)** ومن **(متى)**[1]

ثم يقول الله تبارك وتعالى ﴿ **وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ** ﴾ وهذا تنويه لما ينبغي أن يتقدم به المسلم مع زوجته، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: تقول بسم الله. التسمية عند الجماع.[2] وكذلك قدموا ما ينفعكم غداً، وقدموا لأنفسكم الطاعة والعمل الصالح. وقيل ابتغاء الولد والنسل.[3] وليس ثمة ما يمنع من اشتمال الدلالة على جميع ما ذُكِر، وهي الخاصية البلاغية التي تميز بها القرآن الكريم، من أن بعض دلالاته تتسع لتستوعب مقاصد مطلوبة متعددة. ومن الفوائد: ربط ما يبتغيه الزوجان بالهدف الدنيوي والأخروي، مع ذكر الله تعالى بالتسمية، لأهميتها وفضلها، ولما فيها من التعبد بما أمر الله تعالى به، وبما يحصل بها من البركة، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا. فرزقا ولداً، لم يضره الشيطان)[4]

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٣)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٧٣/١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٤/٣)

(٤) البخاري (٤٣٨/٢) برقم (٣٢٧١)

ثم كان خاتمة الآية الكريمة هو الأمر بالتقوى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ وهو الوصية التي تتكرر من الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم. ليتنبه المؤمن لهذه الوصية، ويتأكد لديه أهميتها، وليتذكرها في كل وقت وحين، لأن في ملازمة التقوى تحصيل الخير العظيم، ويندفع به الشر. فالتقوى تُوجِبُ الانتهاء عما نهى الله تعالى عنه، والامتثال لما أمر به سبحانه وتعالى، والخوف عند التقصير والزلل. مما يدفع المؤمن بالفرار عن المعاصي، والفرار إلى التوبة والاستغفار عند الخطأ والزلل.

ثم يُذَكِّرُ اللهُ تعالى عباده بالرجوع إليه ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ فتأكدوا أنكم ستلقون ربكم يوم القيامة، ويحاسبكم ويجازيكم على ما كان منكم. فيدرك المؤمن بهذا اللقاء، أنه مُحاسب ومجازى على ما يكون منه. ثم يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يتم ذكر الْمُبَشَّر به، ليستوعب كل خير من الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهي من أساليب التشويق في عظائم الخير. فإذا كانت بشارة المخلوق للمخلوق بما يتوقع ويُحِب، تثير في النفس الشوق والتطلع. فكيف ببشارة الخالق الكريم. مما يفيد تربوياً ودعوياً أهمية البشارة، كأسلوب فاعل ومؤثر، وكذلك أهمية التذكير بالتقوى، وتكرارها على مسامع الْمُخَاطَب، من أجل أن يتذكر، ولتقرع أذنه ببذل الخير ولزومه، والبعد عن المعصية.

﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

تبين هاتين الآياتين ما يجب أن يتأدب به الإنسان مع خالقه تبارك وتعالى، وكذلك تبين مدار الأيمان والحلف بالله تعالى، وما يتعلق بذلك، من المناهي والآداب. يقول الله تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فلما أن الإنسان يحتاج أن يؤكد بالْحَلْفِ والأيمان بعض صدق أقواله، أو ما رآه،

أو سمعه، أو ما علمه، أو ما بما سيفعله أو يمتنع عنه، أو لنفي تهمة أو أمرٍ من الأمور، فيؤكد ذلك لغيره بالحلف بالله تعالى، فإنه قد يحصل منه التجاوز، والتعدي بحلفه وأيمانه. فأوضح الله تبارك وتعالى هذا الأمر، بما يشمل جميع أوجه ومتعلقات الحلف، من حيث المعاني والمفاهيم الدالة والمستوعبة لذلك. ففهم علماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وغيرهم من العلماء هذا النص من أوجه متعددة، يحتملها التوجيه الرباني. وهذا من الإعجاز البياني أن يحتوي النص القليل المقتضب على جميع الأوجه التي يُراد بيانها. لأن الوجه البياني الإعجازي ليس في اللفظ واستيعابه لمعاني كثيرة فقط، بل أيضاً في تراكيب الكلام، الذي يستوعب ويشمل مجموعة من الدلالات المقصودة والمرادة. فأورد الإمام القرطبي رحمه الله تعالى ما ملخصه من الأقوال التفسيرية: أي لا تمتنعوا عن شيء من المكارم، تَعَلُّلاً بأنا حلفنا ألا نفعل كذا، قال معناه ابن عباس والنخعي ومجاهد والربيع وغيرهم. وقال سعيد بن جبير: هو الرجل يحلف ألا يبر، ولا يصل، ولا يُصلح بين الناس، فَيُقال له: بِرّ. فيقول: قد حلفت. وقال بعض المتأولين: المعنى، ولا تحلفوا بالله كاذبين، إذا أردتم البر والتقوى، والإصلاح.

ومن الدلالات كذلك: أَقِلُّوا الأيمان، لما فيه من البر والتقوى. فإن الإكثار يكون معه الحِنْثُ، وعدم المراعاة لحق الله تعالى. وكذلك لا تجعلوا اليمين مبتذلة في كل حق وباطل. وكذلك أنه إذا طُلِب من الرجل فِعل خيرٍ، اعتل واعتذر بالله، فقال: عليَّ يمين، وهو لم يحلف. وكذلك من المعاني: إذا حلفتم ألا تَصِلُوا أرحامكم، ولا تتصدقوا، ولا تُصلحوا، وما شابه ذلك من أبواب الخير والبر، فكفروا اليمين.[1]

واشتملت الآية الكريمة على أمهات أنواع الخير، التي يجب أن لا تمنع اليمين من حصولها، وهي البر والتقوى والإصلاح بين الناس ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فالبر والتقوى والإصلاح بين الناس، أهم وأولى بكفارة اليمين من الوفاء بالحلف. وهذا يفيد أهمية إدراك عامل المفاضلة بين الأمور، ورفع مستوى التفكير والاستنتاج والاستنباط، وترتيب الأولويات عند المسلم، والارتقاء بفكره وعلمه إلى درجات عالية من الفهم، والقدرة على الاستنتاج والاستنباط، والتفكير الْمُنْتِج، والمُحَقق لتماسك

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٦٤ _ ٦٥)

البناء الاجتماعي والأخلاقي، وإيثار الآخرة على الدنيا. فهذه المعاني في فهم فوائد القرآن، ترتقي بعقلية المتلقي نحو التفكير والعمل المحقق لمصالح ومقاصد الشريعة الغراء، والتي تحتاجها المناهج التعليمية، والأساليب التربوية، والدعوية، وكذلك منظومة الإدارة العملية.

وفي الآية من الفوائد ألا تجعلوا اليمينُ مانعة للبِر، بل يكفر عن يمينه ويعمل الخير، وأن منزلة البر والصلة وأوجه الخير عظيمة المكانة عند الله تعالى، إذ وجه البيانُ الكريم الحالفَ أن يكفر عن يمينه. وفيه كذلك ما يدل على أهمية التعاون واللُّحْمَة والترابط، وتقديمها بالتكفير عن اليمين، وفيها حرص الشريعة الغراء على كل ما يجلب الخير للمؤمنين ولمجتمعهم، حيث وجَّهَت ودَلَّت المؤمنين على أبواب الخير، التي أغلقها العبد باليمين. ثم انتهى التوجيه الرباني في الآية العظيمة بقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بأن الله يسمع ما تقولون، ويعلم ما تُسرون وتُعلنون. فإن ربكم يعلم ما يكون منكم في أوجُه الحلف، بأن يحلف الحالف على أمر لا يعلمه ولا يعرفه الْمَحْلُوف له، وأن الذي يعلمه ويعرفه هو الحالف، فبين الله تعالى أنه يسمع ويعلم ما لا يعرفه ويعلمه الْمَحْلُوف له. ففيه التنبيه على عظيم علم الله تعالى بالنوايا والخفايا، فراقوا الله تعالى في جميع أموركم: فإن كان المحلوف له لا يستطيع أن يعرف ويعلم، فإن الله ربكم يسمع ويعلم. وإذا استصحب المسلم صفات الله تعالى في ذهنه عند كل أمر، أوقفته على ما يحبه الله تعالى، واندفع إليه، وامتنع عما نهى الله تعالى عنه وابتعد عنه. ومن الآداب كذلك ألّا يجعل المسلم ربه عُرضة ونصباً ومانعاً لأيمانه.

ثم يبين الله تعالى المزيد من التعليم فيما يخص الإيمان، إذ قال عَزَّ وجل ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ لا يؤاخذكم ربكم بما يجري عادة على ألسنة الناس من الأيمان اللاغية. فرفع الله تعالى برحمته الحرج عما اعتاد عليه اللسان، مما يجري على ألسنة الناس من الأيمان اللاغية، وقد اتفق العلماء على أن لغو الأيمان: كأن يقول الإنسان في عرض كلامه: لا والله. بلى والله. غير معتقد لليمين ولا مريد لها.[١] فهو لا يقصد اليمين البتة. وهذا فضل من الله عظيم، إذ رفع الحرج والإثم عن هذا النوع، الذي كثيراً ما يَبْدُرُ من الإنسان، دون إرادته اليمين والقطع بها. ولكن المؤاخذة

---

(١) المرجع السابق (٦٦/٣)

تكون كما بين تبارك وتعالى ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بأن يحلف على الشي وهو يعلم أنه كاذب، فيخرج منه أن يحلف على الشيء وهو لا يريد إلا الصدق، فيكون على غير ما حلف عليه.

ثم تُختم تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله جَلَّ جلاله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ غفور لعباده حليم عليهم. وهذا من عظيم نعم الله تعالى ورحمته أنه يغفر لعباده ويحلم عليهم، ولا يُعَجّل لهم العقوبة. ويغفر لمن استغفر وتاب. فالحمد لله تعالى على هذه النعمة العظيمة. وهذه الصفات الحميدة لله ربنا تبارك وتعالى.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى قضايا الافتراق بين الزوجين، فيقول تبارك وتعالى ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعالج هذه الآية الكريمة وما بعدها ما يمكن أن يقع من الزوج من الأيمان على ألا يطأ زوجته، فمن آلى من زوجته دون أربعة أشهر، فهذا مِثْلُ سائر الأيمان. إما أن يُكفر ويجامع زوجته، أو يمضي في يمينه. وليس لزوجته سبيل عليه، لأنه دون أربعة أشهر ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ وإن كانت المدة أكثر من أربعة أشهر، انتظرت الزوجة أربعة أشهر ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي فإن رجعوا عن الأيمان، فالله يغفر لهم ما سلف، وقد رحمهم عَزَّ وجل بما جعل لهم من كفارة اليمين، وإن لم يفء، وانتهت الأشهر الأربعة، فلها أن تطلب الجماع، فهو حق لها. بعد الأربعة أشهر. فإن جامع عليه كفارة اليمين، وإن امتنع فلها أن تصبر، أو تطلب الطلاق، وإن امتنع يُجبر على الطلاق.[1]

(١) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٨٠)

وهنا يُظهر البيان القرآني المتضمن لمجموعة عظيمة من الفوائد، التي منها أدب العبارة التي احتفظت للزوجين بما يحصل بينهما في ستر بياني لفظي، فيقرء الصغير الآية دون أن يفطن له، ويقرء الكبير فيفطن له دون أذى لحيائه، لما جُبِلَ عليه الإنسان من الحياء. مما يؤكد ارتقاء أسلوب القرآن الكريم بالعقل والذوق البشري إلى درجات عالية من الأخلاق والآداب والبلاغة الأسلوبية الرائعة، وكذا أهمية تربية الحياء في كل جانب، ومنها جانب اختيار الألفاظ المعبرة دون إيذاء لفضيلة الحياء.

ومن الفوائد كذلك تعظيم الحقوق بين الزوجين، وفق القدرات والخصائص التي تحكم العلاقة بينهما، فحدد تبارك وتعالى ذلك في أربعة أشهر، مما يفيد ويبين للرجل ألا ينقطع عن زوجته فوق أربعة أشهر في سفر ونحوه، كحد أعلى. وأن للمرأة حقٌّ واجبٌ في هذا الأمر، وإذا امتنع الزوج فلها أن تطالب بحقها، ولها أن تطلب الفراق بالطلاق إذا تجاوز الحد. وفيه من الفوائد منع الأذى الحسي والنفسي، ووجوب أداء الحقوق بين الزوجين، وأن مساحة الخيار مساحةٌ محدودةٌ، ومضبوطةٌ شرعاً. وكذلك عناية الشريعة بأدق أمور العلاقة بين الزوجين.

كما أن في تحديدها بأربعة أشهر، دليلٌ على أنه بيان عظيم دقيق من عظيم عليم خبير بما جُبِلَت عليه المرأة، فلا يمكن لأحدٍ أن يُحَدِّد مدة في هذا الأمر، ويحكم به إلا من السميع العليم، بل حتى تأديب الزوجة بالهجر لا يكون في أكثر من أربعة أشهر، قال تعالى في سورة النساء ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ وقد استدعى عمر رضي الله تعالى مجموعة من النساءً، وسألهن. فذكرن أربعة أشهر، فجعل عمر رضي الله عنه مدة غزو الرجل أربعة أشهر، فإذا مضت المدة، رد الغازين ووجه بغيرهم.[١] فليتأمل المسلم وقوف الصحابة رضي الله تعالى عنهم عند حدود الله تعالى، ومراعاتهم لأحوال الناس، بما يحقق حفظهم في أنفسهم وأعراضهم، وكذلك يُلاحظ منهجية التنظيم وطريقة الاستدلال لها.

ثم تنتهي الآية الكريمة بما يتناسب مع الحال ﴿ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وإن أرادوا الطلاق، وعزموا على ذلك، فإن الله تعالى يسمعكم، ويعلم حالكم ونواياكم ومرادكم من

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٢/٣)

هذا الأمر، إضراراً ومشاقة، وإلحاق الأذى بالطرف الآخر، أو غير ذلك. مما يُوجب ويستجيش في النفس مراقبة العليم السميع الخبير. وهذا يدفع إلى عدم المضارة بين الزوجين، وإن حصلت المضارة فأبواب الحقوق مضبوطة بما يمنعها. فالحمد والشكر لله تعالى، أن أنعم على عباده بهذا التشريع العظيم.

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق العظيم إلى وجه آخر، مما يخص المطلقة ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ فالمطلقة تكون عدتها ثلاثة أطهار من الحيض، فينتظرن هذه المدة، التي هي قوله تعالى ﴿يَتَرَبَّصْنَ ﴾ أي: ينتظرن بأنفسهن. وقد استوعبت كلمة ﴿ قُرُوٓءٍ ﴾ دلالة الطُهْر والحيض، وهذا من الإعجاز البياني، أن تأتي اللفظة الواحدة، لتستوعب حالتين. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ أي ثلاث أدوار، أو ثلاث انتقالات، والمطلقة متصفة بحالتين فقط، فتارة تنتقل من طهر إلى حيض، وتارة من حيض إلى طُهر، فيستقيم معنى الكلام ودلالته على الطهر والحيض جميعاً، فيصير الاسم مشتركاً.[1]

وللعدل وحفظ الحقوق، كان انتظار المطلقة هذه المدة، لأجل التأكد من عدم وجود الحمل، وذلك لمنع تتداخل الأنساب، وليُحفظ حق الزوج الْمُطلِّق إن كان له ولد. وحفظاً لحق الزوج الآخر من ألا يَدْخُل في نسبه ما ليس منه. وهذا دليل على أهمية طهارة المطلقة في حفظ الأنساب والنسل، وعدالة الشريعة، ودقتها في أحكامها العظيمة الرفيعة الجليلة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٧٦)

بل يجب عليها أن تُفْصِح عن حملها، إن كان حمل في الرحم من الزوج الْمُطَلِّق ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ فيحرم عليها كتمان حملها إن كانت حامل. والنهي يقتضي تحريم كتمان ما في بطنها من جنين. لما فيه من حق الزوج الْمُطَلِّق، من الأبوة للولد. وكذلك حق الولد في النسب، بأن يُنسب لأبيه، وحق الزوج الثاني من ألا يدخل في نسبه ما ليس منه. ومن الفوائد تأكيد الله تعالى لتوحيد الربوبية، بأنه هو الخالق لهذا الجنين، فأكد الله تعالى ما يخصه من الخلق ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ بأنه هو الذي خلق ما في رحم المرأة، حتى لا يُنسب الخلق للزوج والزوجة. فهو الخلّاق العليم، وأن ما يخصها هو البيان، أو الكتمان لذلك. ثم حذر الله تعالى من كتمان ذلك الحمل، مستثمراً إيمانها إن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ مما يفيد أهمية استثمار هذا الاختصاص الإيماني تربوياً ودعوياً، وفي التقاضي وفي غيره، لِمَا يُثير في النفس من التقوى والخوف من الله تعالى، والاندفاع والانتصار لتحقيق الإيمان، الذي يدفع بصاحبه لأداء أمانة الحقيقة، خوفاً من الله تعالى، الذي حَمَّلَه ومنحه هذا الوصف، الذي يُوجِبُ الصدق منه، حتى على ما تكره النفس. وفي نفس الوقت يحمل الوعيد من عدم بيان الحقيقة، إن كان يؤمن بالله تعالى وباليوم الآخر الذي فيه الحساب والجزاء ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ وفي تعليق وربط الإفصاح بالإيمان ما يدل على أثر اُيمان في إعلان الحقائق وإن كانت مخالفة للهوى. فسبيل إيمان المؤمنات يجعلهن يأبين الكتمان، وقد آمَنَّ بالله تعالى، وبما يترتب على الإيمان بالله تعالى من المعرفة التي تجعلهن يبتعدن عن كتمان الحق، وكذلك إيمانهن باليوم الآخر، الذي قد عرفن أنه يوم حساب وجزاء. ومن الفوائد: أهمية استثمار الأوصاف والخصائص المشجعة نحو فعل الخير وترك الشر.

ثم يبين تبارك وتعالى ما يمكن أن يقوم به الزوج من رد زوجته إلى نكاحها ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ فمن يُسر الشريعة الغراء، ورحمة الله الرحمن الرحيم، أن أتاح الله تبارك

وتعالى للزوج أن يرد زوجته إلى نكاحها، ما دامت في تلك العدة، وأن من مقاصد الشريعة جمع الشمل، والسعي لتحقيق ذلك.

ومن الفوائد أن سمى الله تعالى الزوج هنا بعلاً ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ وسُمّي بعلاً لعلوه على الزوجة، بما قد مَلَّكَهُ اللهُ تعالى من زواجه بها. ومن ذلك قوله تعالى ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي رباً، لعلوه.[1] و تفيد الآية الكريمة أن النية في المراجعة والإعادة، مبنية على الإصلاح، وليس من أجل المضارة لها ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ مما يبين أن منهج الإسلام قائم على النوايا الصالحة، قاطعاً للنوايا الخبيثة، للإضرار بالطرف الآخر. وبالتالي لا يجوز له أن يراجعها من أجل الإضرار بها. وهذا من خلال نيته التي لا يعرفها أحدٌ من الناس إلا هو من نفسه، وقبل ذلك العليم الحكيم سبحانه وتعالى. وهذا لا يمكن أن يكون في غير منهج يؤمن أصحابُه بالله تعالى واليوم الآخر. ليعرف المؤمن نعمة التشريع، مع نعمة الإيمان، التي يظهر أثر نعمتها على السلوك والعلاقات، وحفظها بالمنهجية التي لا يمكن لها أن تتحقق بغير ذلك. فالحمد والشكر لله تعالى. ومن فوائد دلالات الآيات: ما زَخُرَ به الفقه الإسلامي في هذا الباب أو في غيره من دقائق الأحكام، حيث استنبط العلماء أحكاماً فقهية عظيمة الأثر في حياة الزوجين، وذلك من خلال هذه الآيات وغيرها، فينظرها من أرادها في كُتُب الفقه والتفسير.

ثم تأتي المعادلة في الحقوق بين الزوجين، في قوله تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ فكما أن للزوج حقوقاً، فكذلك للزوجة حقوقاً على زوجها، وبالتالي كل أحدٍ منهما له حقوق وعليه مسؤوليات تجاه الآخر، فليؤد كل واحد منهما ما عليه من الحقوق للآخر بالمعروف. وكلمة ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ شملت واستوعبت كل ممدوح ومحمود من الأقوال والأفعال التي أثنى الشرع عليها وعلى القائمين بها. وبالتالي حوت هذه الكلمة ما يستدفع كل من الزوجين أن يبذل وسعه تجاه الاخر فيما هو محمود.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٩/٣)

ثم بين سبحانه وتعالى أن للزوج درجة زائدة ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ فالرجل يزيد على المرأة بدرجة، لما في ذلك من الإنفاق المالي، ولما في الرجل من خصيصة القوامة. فلا بد لأحد منهما على الآخر إمرة وقيادة من غير إنقاص لحقوق الآخر، ومنح الله تعالى هذه الولاية للرجل، لأن الطبيعة البشرية تقتضي ذلك، فلا تصح أمور الناس إلا بولاية. كما قال تعالى في سورة النساء ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ وهذا التفضيل والحكم بزيادة الدرجة نعمة من الله تعالى، لتستقيم أمور المنزل، ومكونات الأسرة، التي ستؤول إلى ذرية، ورعاية وتوجيه ومسؤولية.

ثم ختم الله تعالى هذه الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فهذا بيان وتأكيد على أن الله عزيز، له القوة والقدرة الكاملة، مما يوجب الخوف من انتقامه لمن عصاه وخالف أمره، وحكيم في تشريعه وفي أمره. وأن معرفة هذه الصفات الآلهة، وعلاقتها بمضمون الآية الكريمة، ما يُوجب الحذر من مخالفة أمره عَزَّ في علاه، أو الاعتراض على شيء منها، فهو حكيم فيما شرع، يعرف عن مخلوقه الإنسان ما لا يعرفه الإنسان عن نفسه، فهو الذي خلقه، وهو أقرب إليه من نفسه.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق إلى بيان الطلاق وآدابه. فقال جَلَّ جلاله ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ شرع ربكم عَزَّ وجل أن يكون الطلاق مرتان. بما يعني ويفيد أن الرجعة في المرة والمرتين، ما دامت في العدة. وأبانها في الثالثة، التي هي ﴿ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ وهذا ضابط العودة والرجعة، أو المفارقة النهائية، ومن فوائد ذلك، أنها أتاحت الفرصة للتفكر والتأمل بعد حدوث الطلقة الأولى، ثم أتاحت الفرصة الثانية، حتى لا يُقدِمُ على الثالثة إلا وقد مَرَّ بتجربتين في أمر الطلاق، وكذلك أتاحت الفرصة لمن لم يتفقان على أن تنتهي تلك العلاقة بأحسن ما يجب من لزوم حُسن التعامل في الافتراق، والْمُحَمَّلة بالأدب الرفيع، والرحمة الجمة، المفروضة من فوق سبع سماوات على الزوج، ليحفظ حق طليقته. فإما يمسك عليه زوجه بالمعروف، فَيُحسِن صحبتها وعشرتها، بما يُعرف من الحق، وكريم العشرة، أو يسرحها بإحسان.

ودلالة كلمة ﴿ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ تحمل كل جميل يتجاوز بها عن الظلم، فيحبس ظلمه عنها، بل يتجاوز بذلك إلى درجة الإحسان، والإحسان أبلغ من المعروف والواجب في دلالته. حيث اشتملت دلالة ﴿ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ على ثلاث مكونات من المعاني والدلالات الأخلاقية الرفيعة، وهي: منع الظلم لأنه منافي للإحسان، وإعطائها كامل حقوقها المادية والمعنوية، لأنه جزء من الإحسان، والتفضل عليها بالزيادة من الحقوق المادية والمعنوية، وهو كمال الإحسان. وهذا يفيد أن شريعة الله تعالى قائمة على الإحسان والرحمة، وعلى ما يُعرف من الحق وعدم الإضرار. وهذا يُوجب أن يتحلى الزوج والزوجة بما يحقق ذلك، لما ينعكس أثره على الاستقرار النفسي والسلوكي والأخلاقي

للأولاد، الذين هم امتداد للأسرة، بل ينشؤون ويتربون على هذه المنهجية، التي ستنعكس على مكوناتهم الأسرية فيما بعد، حيث ستخرج من هذه الأسرة أُسَرٌ متعددة، قد تفرعت من تلك الأسرة الأساسية.

ومن الدلالات البيانية، أن الله تعالى جمع جميع خصال الخير في إمساك الزوجة بدلالة كلمة واحدة، وهي ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وكذلك جمع جميع خصال الخير في تسريح الزوجة، بكلمة واحدة، وهي ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ فاستوعبت واستوفت اللفظتان كامل المراد الأخلاقي، بمساحته ومكوناته الواسعة العظيمة. وهذا من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ومضامينه الأخلاقية الرفيعة.

ثم يأمر الله تعالى الزوج بأن لا يتعدى على حقوقها ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ فيحرم أن يأخذ من مهرها شيئاً. وكلمة ﴿وَلَا يَحِلُّ﴾ تعني أنه أصبح ملكاً لها، فلا يجوز التعدي عليه. وأن أخذه فيكون من الجور والبغي والتعدي، وأنه محرم. وهذا من حفظ الشريعة للحقوق في أدق قضاياها. ثم استثنى لهما تبارك وتعالى ما يحقق لهما الفراق بلا ضرر ولا ضِرار ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ وهذا خطاب من الله تعالى للزوج والزوجة. بإنه إذا خاف الزوج والزوجة وغلب على ظنهما ألا يؤدي كل واحد منهما ما لصاحبه ما عليه من الحقوق، فإن علاج ذلك في قوله تبارك ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ وهذا الخطاب للحكام والمصلحين والوسطاء بخير، فبين الله تعالى لهم، أن للزوجة أن تفتدي أمرها بإعطاء زوجها ما تتخلص به منه، وأذن له أن يأخذ منها. وهو الْخُلْع.

مما يفيد أهمية إقامة حدود الله تعالى، وأن العلاقة بين الزوجين مبنية على إقامة هذه الحدود، وأن إقامتها هي الضابطة لاستمرار العلاقة، أو توقفها بإنهاء العلاقة بأحسن ما يكون، فلا تجعلوا استمرارها لأي سبب وعلة أخرى خلاف إقامة حدود الله تعالى، فطالما فقد الزوجان القدرة على إقامة حدود الله تعالى فلهما الإنفصال. وأما حدود الله تعالى فهي ما يجب أن ينتهي إليه العبد من العلاقة الكريمة المبنية على ضوابطها من الأوامر والنواهي، والفروض، والحقوق، والواجبات،

والمسؤوليات. ولا ينقصها ولا يتجاوزها إلى أضدادها. مما يفيد أن إقامة الأسرة محفوفة بدقة الرعاية الربانية، في تفاصيل موجبات تكوينها واستمرارها، أو توقفها، مما يلزم المسلم أن يحترم تكوين هذا الكيان العظيم الأسري.

ومن فوائد المعاني اللفظية، أن الخطاب متعلق بالزوجين ﴿ **إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ** ﴾ فهو خاص بهما في أدق الخصوصيات التي لا يعرفها إلا هما ﴿ **أَن يَخَافَآ** ﴾ أي: الزوج والزوجة. فالقضية مشتركة بينهما. وأما محورها فهو إقامة ﴿ **حُدُودَ ٱللَّهِ** ﴾ التي حدها وبينها. مما يفيد، إذا غلب على ظنهما، بالعلم من حالهما فيما مضى من حياتهما، أنهما لا يستطيعان القيام بحدود الله تعالى، وأشفقا من وقوع ما يُكره بينهما، فلهما أن ينفصلا عن بعضهما البعض.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى الزوجين، بصيغة النهي عن تعدي حدوده ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا** ﴾ فأشارت الآية الكريمة أولا: إلى أن الله تعالى حَدَّ حدوداً، وقد أوضح وبين تلك الحدود ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ** ﴾ ثم النهي عن تعديها ﴿ **فَلَا تَعْتَدُوهَا** ﴾ فاشتملت على الترتيب البياني للصياغة، وكذا الإشارة إلى بيان تلك الحدود، ثم التحذير من مجاوزتها.

وحدود الله تعالى هي: شرعه الكريم، بما تضمنه من أوامر، ونواهي، وواجبات، وحقوق، ومسؤوليات. فبعد أن بين تبارك وتعالى حدوده، وجه الزوجين بما يجب عليهما تجاه حدوده، بأن يلزموها، ويمتثلوا بها، ولا يتجاوزوها بالمخالفة، والتقصير والتعدي. فإن من يتجاوزها ظالم لنفسه، وظالم للطرف الآخر ﴿ **وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ فمن تجاوز الحلال للحرام، وقَصُرَ عن أداء ما يجب عليه، وتجاوز المعروف إلى المنكر فهو ظالم. استحق العقاب. وهذا دليل على تحريم الظلم، لأن الله تعالى سمى من اتصف بمجاوزة حدوده ظالم. ونسأل الله تعالى السلامة والتوفيق.

ثم يبين الله تعالى الحالة التي يمكن أن تعود المطلقة في الطلاق البائن للزوج الْمُطَلِّق، فقال سبحانه وتعالى ﴿ **فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ** ﴾ فإذا حصل الطلاق البائن، تصبح

محرمة، غير حلال له، إلا بما قاله سبحانه وتعالى ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ ﴾ فإذا حصل نكاح غيره لها، ثم طلقها الزوج الثاني، أو مات عنها، جاز لهما النكاح من جديد ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ فأفادت الآية الكريمة: إن طلقها الزوج الثاني، فلا حرج أن يتراجع الطرفان، وهما الزوج الأول والمطلقة من زوجها الثاني.

وفي دلالة ﴿ أَن يَتَرَاجَعَآ ﴾ تعبير عن اشتراك رغبة الطرفين معاً، واشترط لذلك شرطاً، يحسمانه بمعرفتهما، وهو إقامة حدود الله تعالى ﴿ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ فرفع جَلَّ شأنه الحرج عن التراجع في هذه الحالة ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أي إن غلب على ظنهما العلم بإقامة حدود الله تعالى. مما يبين أهمية إقامة حدود الله تعالى. وفي هذا الشرط ما يفيد أن العلاقة ليست مبنية على الرغبة فقط، بل أيضاً مبنية على القدرة في إقامة حدود الله تعالى، المتضمنة للحقوق الزوجية، لأن أداء الحقوق الزوجية سَبِيلُ للحياة الكريمة، ودعامة قوية لأسرة قوية، قادرة على رعاية ما يرزقهما الله تعالى من الذرية.

وهذا يفيد كذلك أهمية تعظيم الحقوق الزوجية، باعتبار أنهما مأمورين بها، وليس تفضلاً من أحدهما على الآخر، أو مجالاً لامتنان بعضهما على بعض، بل المنة لله تعالى الذي أوجد هذه الأحكام، والحدود الشرعية للعلاقة الزوجية. ويفهم بالمقابل إذا غلب على ظنهما، أنهما لا يستطيعان إقامة حدود الله تعالى، فلا يحل لهما الإقدام على التراجع. حتى لا تعود ولا تُعاد العشرة السيئة بينهما، لما قد يترتب على ذلك من المفاسد.

ومن فوائد قوله تعالى ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ الحسم في الأمور بما يغلب عليه الظن. فإذا تردد الإنسان في أمر، وليس هناك مجال غير الظن، فيأخذ بما غلب عليه ظنه. لتكون العزيمة والتوكل على الله تعالى. لأن منهج الإسلام يحارب الشك لما له من الوسوسة المؤلمة للمسلم، والجالبة للشر. ومن أمثلة ذلك: أن يتوضأ المسلم، فيشك في انتقاض الوضوء، فإنه يقطع الشك بالأصل. ليقطع دابر الشك.

ثم تنتهي الآية بقوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فهذه شريعة الله تعالى في قضايا الزواج، والعشرة، والطلاق، قد بينها ربكم تبارك وتعالى لكم، مما يؤكد أهمية العلم بها، وأهمية تطبيقها والقيام بها، وعدم الاعتداء عليها، لأنه تبارك وتعالى قد بينها واضحة جلية ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: عندهم من مقومات التعلم والمعرفة بما تقوم بها الحجة عليهم.

فلما منح اللهُ تعالى الإنسانَ من القدرة على الفهم والعلم، الذي ينتفي به الجهل عما فرض وأوضح سبحانه وتعالى للزوجين. فقد أصبحا ليسا بها بجاهلين، وبالتالي أوجب عليهما ذلك العمل بها. وهذا يفيد أن على الزوجين معرفة الواجبات والحقوق الزوجية، لأنه لا يمكن إقامتها إلا بمعرفتها، بل يجب عليهما معرفتها حتى يقوما بأدائها كما فرضها الله تعالى. وهذا يفيد علمياً وجوب معرفة الزوجين لما يتعلق بهما من حقوق وواجبات، وما يجب عليهما تجاهها من التزام وأداء، حتى لا يكونا من الظالمين. لأن الله سبحانه وتعالى بين في تمام الآية السابقة، أن من يتعدى حدوه فهو من الظالمين، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ما يفيد فريضة العلم بتلك الحدود مِن قِبل الزوجين.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ﴾

بعد أن أوضح جَلَّ جلاله ما يتعلق بمنهج المفارقة الزوجية من خلال الطلاق. يبين بعدها عَزَّ وجل منهجية وآداب الطلاق، حيث يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي: إذا طلقتم طلاقاً رجعياً بطلقة واحدة، أو بطلقتين ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي: قارين أجلهن. ففي جملة ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ ما يدل ويفيد على أن هناك مدة زمنية للمطلقة، وهذا

في الطلاق الرجعي، للمرة الأولى، والثانية، لأن لهما أجل، وهي العدة. فيكون هنا خياران، إما إرجاع المطلقة، وإما تركها، وهذان الخياران لهما آداب واجبة، وليست خيارية، حيث قال الله تعالى ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فهناك خياران، وكل خيار مشروط ومقرون أن يكون ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وهذا أمر من الله تعالى، بأن يكون الإرجاع بهدف ونية إقامة العلاقة الزوجية وفق الحقوق والواجبات، وهو الإمساك بمعروف ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أو تركها دون إلحاق أي ضرر بها، وهو التسريح لها بمعروف ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وليس بالتعنيف والإضرار في كلا الحالتين.

ففي حالة الإرجاع، لا يكون الهدف هو إلحاق الضرر بها ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ فلا يراجعها بنية الاعتداء والإيذاء، كإطالة الْعُدّة بمراجعتها مثلاً، أو بأي قصد سيء آخر. ثم بين تبارك وتعالى لمن يفعل ذلك الإضرار، بأنه ظالم لنفسه ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: أن فاعل هذا الاعتداء على فرائض الله تعالى هو زوج ظالم لنفسه، إذ وقع في ظُلْمين، ظُلْمُه لزوجته أولاً، وظلمه لنفسه ثانياً، فظلمه لزوجته أوقعه في ظلم نفسه، وذلك لما يقع عليه من الجزاء من الله تعالى. وفي الإشارة إلى ظلمه لنفسه، لأنه مُتحقق عليه، وذلك بظلم طليقته. ولكنه مُتناسي أو ناسي أن هذا الظلم لزوجته هو أيضاً ظلم لذاته، بل هو أشد عليه لما أوقع نفسه فيه من عذاب الله تعالى.

والمتأمل في مخاطبة الآيات الكريمة في هذا المقام يجد أنها مخاطبة للزوج، باعتبار ما له من القوامة، وتَحَمّل المسؤولية، ولكون النية خفية لا يعرفها أحدٌ غيره، سواء في إمساكه، أو في تسريحه، والله تعالى قبل ذلك مُطَّلِعٌ على نيته، فكان الخطاب والتحذير متوجهاً له، وكذلك كانت العقوبة موجهة له. فعالج تبارك تعالى هذا الأمر من خلال مخاطبة مَنْ أُوكِلَ له حق القوامة. ولو تأملها المرء لاستحى ممن خاطبه وعَلِمَ نيته، وسخر له هذه الزوجة، سكناً له. فلا يجب عليه تجاه هذه النعمة، وهذه المنزلة إلا الامتثال، لمن أكرمه سبحانه وتعالى.

وكذلك من الفوائد الإيجاز البلاغي في جملتين: الأولى ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ والثانية ﴿أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ فهما جملتان متضادتان: إمساك أو تسريح، لكنهما اجتمعتا على فضيلة المعروف، وجمعتا معروفاً واحداً، وهو الإحسان في كلا الوجهين، من الإمساك أو التسريح. كما أن لفظة ﴿بِمَعۡرُوفٖ﴾ جمعت جميع خصال الخير، الواجبة والمستحبة، وزيادة الفضل عما يجب. وكذلك من الجوانب البلاغية، لفظة ﴿ضِرَارٗا﴾ التي استوعبت جميع مفرداته، وأنواعه، ودرجاته. إذ لم تُعَيّن درجته وتحددها، ولا نوعه، لتستوعب دلالتها جميع أنواع ودرجات الإضرار، حتى يتقي الزوج ربه سبحانه وتعالى في أي نية سيئة، وأقل درجات وأنواع الإضرار. فسبحان من استوعب كلامه جميع مراده. فكما حفظ الله تعالى للرجل حقه في القوامة، حفظ حقوق المرأة في جميع أحوال معيشتها في بيت زوجها، حتى عند المفارقة.

وفي جانب الإمساك أو التسريح، فإنه يكون بمعروف في كلا الحالتين، ولكن في الآية ما قبل السابقة خص التسريح بإن يكون بإحسان ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ فالإحسان كان مرتبطاً بالطلاق مباشرة ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ والمعروف في الموقف الثاني مرتبط ببلوغ أجل العدة ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ لأن الذي تلى الطلاق هو النهي عن الإضرار ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْ﴾ فحث الزوج على التسريح بمعروف، وذلك على أقل تقدير لاحتمال الاضرار بها. لأن احتمال الاضرار بها وارد، وذلك بأن يراجعها للإضرار بها، فأرشده العزيز الحكيم إلى ما هو أخف من الإحسان وهو المعروف.

ثم ينهى الله تعالى عن التلاعب بآياته ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ وهذا النهي يقتضي الوجوب، والبعد والحذر، من أن يتجرأ الإنسان على آيات الله تعالى، بعدم الامتثال لها،

ولِمَا تضمنته من تشريع وترتيب، فإن مَن لم يعمل بمقتضاها، فهو بمثابة المستهزئ والمتلاعب بها، وكأنها لا تعني له شيئاً. وهذا نهي تحذيري، يفيد أن من يتخذ آيات الله تعالى هزواً فقد ضاد النهي، فعصى الله تبارك وتعالى، فاستحق العقوبة. ولفظة الاستهزاء في الآية ﴿ هُزُوًا ﴾ تُشعر المسلم بقبح صنيع من لا يتقيد بآيات الله تعالى، ومنهجه وأوامره ونهيه، مما يوجب تعظيمها في القلب، وفي الانقياد والتطبيق لها.

ثم بعد ذلك التحذير، يأتي التنويه ولفت الانتباه إلى قيمة ومنزلة النعمة ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ سواء نعمة الإسلام، أو نعمة تسخير الزوجات. أو نعمة الأحكام، وما فيها من الرفق والرحمة. وفي الآية تذكيرٌ، وأمرٌ بتذكر النعم التي تستوجب الشكر. والشكر يستوجب الحمد والطاعة، والحفظ للنعمة بما يحقق رضا الله تعالى عن الذاكر الشاكر لها.

وفي قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ شاملة لجميع النعم وعمومها. ثم خص بعضها بما يناسب الحال ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ وهما نعمة القرآن الكريم، التي هي ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ والنعمة الثانية: ﴿ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ وهي سنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، لما فيها من التشريع والبيان المنظم لحياة الإنسان: عبادة، وعقيدة، وأحكاماً: في مجال الأهل والمال والولد والمجتمع، وفي غيرها مما يحتاج إليه الفرد والمجتمع، والحاكم والمحكوم، وكل ما يتوصل به الإنسان لآخرته. فكانت موعظة يتعظ بها المُخَاطب ﴿ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ لما فيها من المواعظ بالترغيب والترهيب، والقصص، والأحكام، والأمر والنهي، والحث، وبيان الحكمة، وغيرها مما يتعظ به المُخَاطَب. وهذا يفيد تربوياً ودعوياً أهمية الموعظة بعد البيان والتعليم، لينتهي الموقف التعليمي والدعوي، بموعظة تخاطب القلوب، وتستجيش الأفئدة، وأن خير ما يتعظ به الناس، كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لما فيها من المواعظ الكافية البينة. وكذلك يفيد هذا أهمية الترغيب والترهيب في ضبط السلوك، وكذلك التذكير بنعم المنعم، لأنها تكسر النفوس المتعالية، أمام ما يتنعم به المرء من النعم، التي يغفل عنها، لاعتياده عليها، فاحتاج لمن يذكره بها.

ثم يختم الله تعالى الآية الكريمة، بالأمر بالتقوى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي: الزموا الخوف من الله ربكم تبارك وتعالى، واستحضروا مراقبته ومحاسبته لكم عَزَّ وجل في إنفاذ ما شرع لكم من أحكام الطلاق. بما يفيد: وجوب الالتزام بشرعه وأحكامه، ولا تعصوه فيما شرع وأمر. لأن من تمسك بها، عصمه الله تعالى، وأعانه.

وفي حث المؤمنين على التقوى ما يبين أثرها في التصرفات، غيباً ومشهداً. لأن حقيقة التقوى تتطلب الامتثال لأمر الله تعالى ونهيه. فبذلك يحثهم سبحانه وتعالى على استيفاء الأحكام التي يتحقق بها العدل والوفاء، وعدم الجور في تعاملهم مع زوجاتهم المطلقات. ليخرجوا بأخلاق الإسلام وهديه، وليس بأخلاق الجاهلية والظلم لهن.

وهذا الإيعاز بلزوم التقوى، ما يبين عظيم شأنها، إذ أنها الضابط لسلوك المؤمن في كل أحواله، وتصرفاته. وهو الشأن والأمر الذي يجمع فيه بين الخوف من الله تعالى وبين رجاء رحمته. وهو الأمر الذي يَشعر فيه المؤمن بأن الله تعالى مُطَّلِعٌ عليه، وسيحاسبه على ما يكون منه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فإن التقوى أعظم القواعد لسلوك الاستقامة في الانضباط بأحكام الدين، وفي التعامل، وفي الأخذ والعطاء، وفي المفاوضات لأنها تستوعب جميع تصرفات المؤمن مع الغير.

ثم ينبه ويذكر المولى سبحانه وتعالى بعلمه، الذي أحاط بكل شيء ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم هو لا غيره بكل شيء عليم، فيعلم بتفاصيل حقائق العباد، وما يكون من ظاهر أعمالهم، وما يخفونه، ويسرون به. بما يفيد التحذير من المكائد، ومن خفايا المعاصي. ووجوب الإيمان بذلك. كما أن اليقين بعلم الله تعالى يربي في المؤمن الحذر، واستشعار معية الله تعالى له في كل حال، ومع كل خطاب، وفي كل مناجاة، ولا تمنعه الظلمات، ولا الحواجز، ولا الستور. فكل شيء مكشوف لله تعالى. بل يعلم ما تخفيه الصدور، فكيف بظواهر الأقوال والأعمال. فمن كان بكل شيء عليم، فلن يخفى عليه ما تحمله النيات، من الإضرار أو الإصلاح، فضلا عن الأعمال الظاهرة. وهذا يُوجب الخوف والهيبة منه سبحانه وتعالى، التي تقتضي طاعته، وعدم معصيته.

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

وما زال السياق في أمر الطلاق والتراجع، إذ يقول الله تعالى ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** ﴾ ففي ذلك بيان أنه إذا تم تطليق المرأة، طلقة أو طلقتين، التي هي المرة الأولى أو الثانية، وبلغت منتهى العدة ﴿ **فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** ﴾ فقد نهى تبارك وتعالى أولياء المرأة أن يتسببوا في إعضال الزوجة عن زوجها.

وجاء التوجيه البياني مخاطباً الزوج وأولياء أمور الزوجة في سياق واحد بديع، إذ تضمن المقطع الأول مخاطبة الزوج ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ** ﴾ والمقطع الثاني مخاطباً أولياء أمور الزوجة ﴿ **فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ وكذلك متضمناً علة التراجع، وهي تراضي الزوجان. فنهى الله تبارك وتعالى الأهل أن يعضلوهن، فيضيقوا عليهن، ويمنعوهن، بحبسهن عن أزواجهن، إن أرادا وتوافقا على التراجع بالمعروف، المتضمن للقيام بالحقوق. وهذا يفيد أن منهج الإسلام، منهج بنائي للأسرة في تأسيسها وتعايشها، كما أنه علاجي عند حصول ما يعطبها، وأن من مقاصد الدين الأسرية الاستمرار والحفاظ على كيانها، وأنه يستوجب على الأولياء أن يكونوا عوناً للبناء، كما يُحب ربنا ويرضى.

كما أن هذا الخطاب والبيان، موعظة من الله تعالى لأولياء أمور النساء، مما يجب الالتزام به ﴿ **ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ** ﴾ وجعل الالتزام بوعظه سبحانه وتعالى، دليل الإيمان ﴿ **ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ** ﴾ فالإيمان به يوجب الطاعة، وتخصيص اليوم الآخر، لما فيه من المآل، المتضمن للحساب والجزاء. فكانت الموعظة ببيان الأحكام، ومنهج التراجع، الْمُعَزَّز بالتذكير بالإيمان والمآل، مما يفيد ويبين أن منهجية الإصلاح والتربية والتعليم والدعوة، يجب

ألا ينتهي فيها البيان المعرفي، دون عامل التحفيز الإيماني، الذي يدفع ويستثير المتعلم نحو التطبيق العملي لمقتضى النص التعليمي والبياني. وهذا مثل ما حصل في قضية طليقة أبي البداح رضي الله تعالى عنهما، التي ذُكِرَت في أسباب النزول، من أن أخت معقل بن يسار، كانت تحت أبي البداح، فطلقها حتى انتهت عدتها، ثم ندم فخطبها، فرضيت، وأبى أخوها أن يزوجها. وقال: وجهي من وجهك حرام إن تزوجتيه. فنزلت الآية الكريمة. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم معقلاً. فقال له (إن كنت مؤمناً فلا تمنع أختك عن أبي البداح) فقال آمنت بالله، وزوجها منه.[1]

ثم يبين الله تعالى فائدة ما أمر به ووجَّهَ إليه، وأوجب الالتزام به، فقال تعالى ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ فهذا الذي وجهكم وأمركم به ربكم تبارك وتعالى، أصلح وأنقى لكم، فهو الأفضل، ولم يتم ذكر المفضول في نص الآية، فَحُذِف المستهدف بالمقارنة، أي: وهو الأفضل والأزكى فيما تجتهدون فيه لمصلحة الزوجة، من عدم رجعتها لزوجها، ولما قد يغلب أحياناً من الحنق والمكابرة والاقتصاص، فيكون الاجتهاد في غير مكانه، فهذا التشريع هو الأصلح والأطهر والأنقى لكم مما تجتهدون فيه وبه.

وفي هذا التوجيه الكريم معالجة لما يعتري الاجتهاد البشري من الخوارم. ثم أيضاً في دلالة جملة ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ما يفيد تزكية منهج الله تعالى وحكمه من العيب والنقص، الذي قد يحدث فيما تقررون في حق الزوجة، وأيضاً تزكية ومطهرة لأنفسكم، من الإثم الذي يلحق بكم، من منع عودة الزوجة لزوجها، وكذلك فيه تزكية لأمر الزوجين، باختيار أحسن الأوجه لحياتهما، طالما التزما بإقامة الحياة بالمعروف. والانتهاء عن أسباب ما حصل من الفرقة. وأزكى للذرية بتواجد الأبوين في كنف البيت، ويكون أطهر وأنقى للأسرة جمعاً، من كل عيب ونقص قد يحدث لهم من قطع أمر المراجعة. مما يتبين أن في عدم ذكر المفضول هو ليعم نفع النص باحتواء أبواب متعددة، كما ظهر ذلك آنفاً بفضل الله تعالى وجوده وكرمه وإحسانه.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨٧/٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٤/٣)

ثم بين الله تعالى العلة العظيمة في وجوب تقديم ما أمر به وبين على ما تجتهد فيه العقول، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فإن ربكم يعلم الأصلح لكم، وأنتم تجهلون ذلك. مما يفيد أهمية تقديم النص الشرعي على اجتهاد العقل. لأن النص الشرعي صادر عن العالم العليم سبحانه وتعالى، الذي أحاط بكل شيء علماً، بينما العقل البشري يقصر علمه عما غاب عنه، وعن مغبة الكثير من الأشياء، وينعدم عن معرفة ما في النوايا، التي تحملها الصدور، في حين لا يغيب من ذلك شيءٌ عن علام الغيوب، سبحانه وتعالى. فأوجب هذا تقديم النقل على العقل، والإذعان له، بقول المؤمن ﴿ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ﴾

ومن الفوائد العامة، عناية نصوص القرآن الكريم من رب العالمين بأساس الأسرة، وتنظيم حلول مشكلاتها، وأن الفراق قد يأتي بعده لقاء أعمق مما كان عليه قبل الفراق، لأن الرغبة في عودة المتطلقين، دليلٌ على أسف وحسرة لما حصل، ورغبة أكيدة في القيام بالمعروف. ولَمَّا أن الإنسان معرض للخطأ والتسرع، وما قد ينتابه من التغيرات النفسية والقلبية، أتاح له الشارع الحكيم المعالجة حتى المرة الثانية. ومن وجه آخر، أتاح الفرصة للمتزوجين، في حال اكتشاف عدم تجانسهما، وعدم تقبل كلُ واحدٍ منهما للآخر، أن يفترقا بمعروف وإحسان. احتراماً للعشرة وإن قصرت مُدَّتُها.

وهناك فوائد عظيمة جليلة، لمن تأمل شريعة الله تعالى. ومن أبرزها، ما ظهرت على عقلية العلماء، المشتغلين بالفقه والتفسير والحديث والعقيدة، حيث تفتقت عن عقولهم معارف عظيمة جليلة، بمدارستهم آيات القرآن الكريم وسُنَّة وحديث النبي الكريم محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم.

﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا

جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني للمولود، الذي هو ثمرة الزواج، والْمُتَعَلِّق حُبُّهُ بالفؤاد، فَفَصَّل ذلك الرحمن الرحيم، عالم الغيب والشهادة، في كتابه العزيز، فقال تعالى ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ فجاء الخطاب بالأمر في صيغة الخبر، أو الاخبار، بما يفيد الوجوب. وصيغة الأمر في الخطاب يفيد الوجوب، فيتضمن وجوب أن تعتني الأم بإرضع وليدها، فترضعه حولين كاملين، ووجوب أن يمكنها الزوج من ذلك، ووجوب أن يُمَكِّن أولياء الزوجة ابنتهم من ارضاع ابنها، إن كانت مطلقة. فتضمن الخطاب القرآني في بلاغة إعجازية بيانية عظيمة، إذ شَمِلَ واستوعب الخطاب جميع مقاصده مع كثرة مضامينه وتعاليمه وقلة ألفاظه. ليكون قولاً فصلاً في هذا الأمر، بل شمل كل طرفٍ له علاقة في أمر الإرضاع وفي جميع الأحوال التي يمكن أن يُصار إليها، فسبحان من أعجز بكلامه ودقة أحكامه عباده، فأصبح آية من آياته في الإعجاز من كل وجه.

ثم حدد وحسم مدة الرضاع، ليقطع أمر الاختلاف والإضرار ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ ودلالة ﴿كَامِلَيْنِ ﴾ يقطع بها تأويل كل متأول، أو بما يُسَارُ إليه من المفاهيم. إذ أن الحول قد يُطلق على أغلبه. وفي هذا حفظ لحق الطفل من التفريط والإضرار به، نتيجة المنازعة أو الطلاق، أو لما يستوعبه مفهوم الحولين من نقص التمام. أو لأي سبب كان. كما ألزم الأم بالإرضاع، لأنها أكثر به شفقة، وعناية، وقدرة لشأنه. ويُفْهَم من هذا التحديد الزمني، أنه لا اعتبار لما بعد الحولين، وأن الطفل لا يحتاج للرضاعة بعدها.

ثم قال تعالى ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ مما يفيد أن الحولين هما تمام الرضاعة، وهو الأصل لمن أراد إنفاذ ما أمر الله تعالى به، على وجه الكمال. وقد أشار أهل العلم من علماء التفسير، عند تفسيرهم لقوله تعالى ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ أن إرضاع الحولين ليس حتماً، فإنه يجوز الفطام قبل الحولين. ومن الفوائد أن العلماء استنبطوا أن الرضاع بعد الحولين لا

تثبت به الأخوة بالرضاع. ولكن الحولين حق للطفل، وحق للأم، ولا ينازعها فيه منازع، بهذا النص الرباني. لأي تأويل كان.

ومن باب الفائدة: يمكن القول: عن قوله تعالى ﴿لِمَنْ أَرَادَ﴾ هل هو تأكيد أو تخيير؟ فلما قضى الله تبارك وتعالى الرضاعة بالحولين، ونص على كمالها، يكون هذا للتأكيد. فرضاعة المولود سنتين كاملتين، إن أردتم كمال الرضاعة، التي أمر الله تعالى بها. ولا يمنع أن يكون متضمناً للوجهين، فيكون للتأكيد على الأصل، وللتخيير إذا وجدت العلة الداعية والمانعة من إتمام الحولين لأجل رفع الحرج. ويُعزز هذا ما تضمنته الآية الكريمة على ما سيأتي بيانه، وهو قوله تعالى ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي فطام الرضيع. وهذا كله من إعجاز كلامه تبارك وتعالى، إذ استوعبت ألفاظ الآية الكريمة جميع الأوجه التي يمكن أن يُصار إليها، مع حفظ سلطان الحكم.

ثم بين الله تعالى ما يجب على الأب، فقال عَزَّ وجل ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وعلى الأب رزقها ونفقتها وكسوتها، وهي بمثابة أجرة الرضاع. ومن فوائد المعاني اللغوية أن قوله تعالى ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي: وعلى الأب. والمعنى: وعلى الذي وُلِدَ له(١) بمعنى: وعلى من ولد له مولود فعليه النفقة والكسوة للمرضعة ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ على قدر وسعه. وفي هذا من الفوائد، أن على الأب بحكم قدرته على المشقة والعمل، أن يتكلف بذلك للمرضعة، وقد ارتبط بهذا التوجيه الكريم أحكاماً فقهية ودلالات عظيمة، استوعبت بها قضايا مهمة، في شأن المولود والمرضعة، وفي حالاتها المختلفة: كأن تكون مطلقة، أو متوفى زوجها عنها، وكذلك ما يتعلق بأجرة المرضعة. وفي دلالة قوله تعالى ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أنها استوعبت بها الفوارق بين الآباء في الرزق، فمن مبسوط له في الرزق، ومن عيشه كفاف، ومن رزقه درجات متفاوتة بين ذلك،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠٨/٣)

فاستوعبت ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ جميع مستويات الرزق للعباد، وهذا من بلاغة البيان الإعجازي، الذي استوعبت ألفاظه حالات مختلفة متعددة، وبلفظة واحدة، وكذا انتفت بها المشقة عن الوالد، الذي هو الأب. وهذا من رحمته تبارك وتعالى. الذي أكدها بقوله عَزَّ وجل ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ فالوسع هو الاستطاعة المتفاوتة بين الناس، فالوسع هو الحكم في قدر وصفة النفقة. فسبحان من استوعبت آياته مراده وأحكامه، ورحمته، وبيانه لدقائق الأحكام في إيجاز لا تبلغه بلاغة البلغاء، ولو اجتمعوا على آية واحدة فقط.

ثم تناول سياق الآية الكريمة جانب منع الإضرار ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ فلما أن الضرر أنواع ودرجات، نهى الشارع الحكيم عن جميعه، بدرجاته، وأنواعه المتفاوته والمختلفة، وذلك في لفظة واحدة ﴿ تُضَآرَّ ﴾ فلا تضار الأم بولدها، وكذلك الأب بولده، والإضرار من أي طرف لأي طرف. وإذا انتفى الإضرار بين الأبوين، سَلِمَ حال الرضيع، فلم تكن الحاجة موجبة لذكر وقوع الضرر عليه في نص الآية الكريمة، وهذا غاية البيان البلاغي، الذي يَسْلَمُ السياق فيه من زيادة اللفظ الْمُستغنَى عنه. فلا تجد في كتاب الله تعالى كلمة زائدة، يغني غيرها عنها. وكلمة ﴿ تُضَآرَّ ﴾ مبني، لم يُذكر فاعله، ليستوعب كل من له يد في الإضرار، سواء الأب، أو الأم، أو أولياء الزوجة، أو أولياء الزوج المتوفى، أو من يُصلح، أو يقضي بينهم.

ومن حالات الضرر، أن تُمْنَع الوالدة من إرضاع ولدها، بأي عائق من العوائق، أو لا تُعْطَى ما يجب لها من النفقة والكسوة، أو أن يكون الضرر من الوالدة بالأب، كأن تمتنع عن ارضاع الرضيع، للمضارة بأبيه، أو تُبَالِغ في الزيادة عن الواجب من الأجرة، أو النفقة، أو الكسوة، أو نحو ذلك، من أنواع صور الإضرار المختلفة.

ثم بين الله تعالى ما يمكن أن يكون من الاحتمالات، التي قد تحصل للأسرة، كموت الأب، فعالج ذلك بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ أي على وارث الطفل،

إذا عُدم الأب، وليس للطفل مالٌ، فعلى الوارث مثل ما على الأب، من الحقوق للمرضع. فحفظ الله تعالى حق المرضع، ورتب المسؤولية، بحفظ الرضيع، بهذه الأحكام العظيمة، الجليلة القدر والفائدة. وهذا دليل على استيعاب هذه الشريعة الغراء لدقائق القضايا، والتي منها حق الطفل، وحق المرضع، وحق الأب.

ثم يَرِد المزيد من البيان القرآني الكريم، عن متعلقات الرضيع بالأبوين، فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا ﴾ ومعنى الفصال من الفصل، وهو التفريق بين الصبي والثدي[١] فإن أراد الوالدان فطاماً للرضيع عن الرضاعة قبل تمام الحولين، اشترط له تبارك وتعالى اتفاق ورضى الوالدين ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ ﴾ فاشترط لهذا الفطام ألا ينفرد أحد الأبوين بقرار عن الآخر، بل لا بد أن يشمل أمرين مهمين، الأول: ﴿ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا ﴾ والأمر الثاني: ﴿ وَتَشَاوُرٍ ﴾ لأن في اجتماع أمر التراض والتشاور ما يحقق مصلحة الأبوين والرضيع معاً، ويمتنع بهما المفسدة التي يمكن أن تقع وتلحق بالرضيع. وأفاد هذا التوجيه الرباني بيان وتحقيق منهجية إدارة مسألة عظيمة من مسائل شؤن الأسرة، التي يمكن للمتفحص لها أن يُمنْهِج منهجية علمية دقيقة للكثير من المعضلات والمشكلات، التي تواجه الفرد أو المجموعات وفق هذه المعطيات المبنية على تحقيق المقاصد، وبمعنى: أن انطلاق الْمُنَظِّم والْمُؤَطِّر من المقاصد الصحيحة، يحقق له النجاح في اختيار وتقرير المنهجية الإدارية والنظامية الناجحة، للكثير من أمور الحياة: في البيت والمهنة، وفي العلاقات الاجتماعية، وغيرها من دوائر الحياة المختلفة والمترابطة.

وقال تعالى في حسم وإفساح هذا الأمر، فيما يخص فطام الصبي إذا تحقق فيه الشرطان السابقان ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ فنفى تبارك وتعالى الإثم عن الوالدين، فيما اتفقا وتشاورا عليه، وبهذا المفهوم دل النص القرآني الكريم على أنه في حالة انفراد أحد الأبوين عن الآخر بالقرار فلا يجوز فطامه، لأنهما شركاء في هذا الطفل، وشركاء في تحقيق مصلحته، ولمنع المضارة من أحد الطرفين للآخر، وللرضيع كذلك. وفي هذا التشريع إيقاع الاحتياط لمصلحة الطفل، وعناية الله

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٣/٣)

ورحمته به في تشريعه وتدبيره، وترتيب الإثم على من أضر به، فقد ظهرت عناية الله تعالى بالفرد في جميع أطواره، ومنها طور الطفولة، التي لا يعي فيها الطفل مصلحته، ولا يستطيع تحقيقها، فحفظ الله تبارك وتعالى العناية به تشريعاً وتنظيماً.

وهذا يؤكد أيضاً أن الأصل في إرضاع الرضيع حولين كاملين، ولم يتم الاستثناء من ذلك إلا بتلك الشروط التي ذُكرت آنفاً، وذلك مراعاة لما قد يحدث من أمور متعلقة بكل حالة، فينظر فيها الأبوان، بما يحقق مصلحة الرضيع، ومن فوائد ذلك استيعاب الشريعة للأحوال والمستجدات التي قد تطرأ في كيان الأسرة، وكذلك التحوط لها بالتشريع الحكيم من العزيز الحكيم. وكذلك تشريع ما هو متعلق بالرضيع وحفظه، ومدى قدرته على الفطام، والاستعاضة بغير اللبن من الطعام. وأيضاً لما قد يحدث من مستجدات الأزمان، التي قد تتحقق بها المصالح. وهذا كله دليل على أن هذا نهج رباني، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. وأنه تنزيل من عزيز حكيم رحيم.

وقد بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم ما كنوا عليه وقت نزول القرآن الكريم في عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم، فيقول قتادة: كان الرضاع واجباً في الحولين، وكان يحرم الفطام قبله، ثم خُفِّف، وأبيح الرضاع أقل من الحولين بقوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا ﴾[1]

وهذا يفيد في الأمور العامة، ألا ينفرد الشركاء في أمر من الأمور التي تخصهم بمنفعة أو إلحاق ضررٍ إلا بالتشاور، الذي يدفع البغضاء والتجافي، ويجلب التواد، لأن من مقاصد الشريعة اجتماع والتفاف الأفراد والمجموعات والأسر والمجتمع ببعضهم البعض، وأنه مقصد عظيم من مقاصد هذا الدين العظيم. ويمتد هذا المنهج تربوياً بأن يتعلم الأولاد هذه المقاصد عملياً في حياتهم الأسرية، وأن تعي الجهات التربوية والتعليمية ذلك، لتحقيقه في مجتمعها التعليمي.

وكذلك من الفوائد ما يتعلق بالاجتهاد، حيث يقول الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: وفي هذا دليل على جواز الاجتهاد في الأحكام، بإباحة اللهُ تعالى للوالدين التشاور فيما يؤدي إلى صلاح الصغير، وذلك موقوف على غالب ظنونهما، لا على الحقيقة واليقين.[2]

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١٣/٣)

(2) المرجع السابق (١١٣/٣)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى حالة أخرى من حالات الإرضاع ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذا نوع ثاني، أو مجال ثاني من الإرضاع، وهو: إن أردتم أن تتخذوا مُرضعة للرضيع. والتقدير في العربية: أن تسترضعوا أجنبية لأولادكم. فنفى الإثم ببيان الإباحة في هذا الأمر، مع بيان المعاوضة ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ واشتمل لفظ ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم ﴾ دلالتين، هما: أي سلمتم الأجرة للمرضعة الأجنبية. والدلالة الثانية: سلمتم ما آتيتم من إرادة الاسترضاع، أي سلم كل واحد من الأبوين ورضي، وكان ذلك على اتفاق منهما، وقصد خير، وإرادة معروف من الأمر.[١] والمتأمل يجد أن كلا المعنيين مقصودين، فاستوعبت الجملة دلالتين في صياغة واحدة، لهما أهمية كبيرة. وهذا من البيان الإعجازي للقرآن الكريم.

ثم انتهت الآية بما يعظ به الْمُخَاطَب ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وهي الموعظة الجامعة بكل خير، بأن تتقوا الله في جميع أحوالكم، بالخوف منه عَزَّ وجل، واستشعار مراقبته وعلمه بما يكون منكم، مع الخوف من عقوبته، وابتغاء مرضاته وثوابه وتوفيقه تبارك وتعالى. ثم الإخبار والتذكير بما يعرفه المؤمنون، من أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء من الأحوال والأقوال ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فإن الله تعالى بكل مخلوقاته عليم بما يصلح لهم، وينفعهم. وبما يفيد استيفاء علمه وقدرته وتدبيره جلَّ جلاله لجميع مخلوقاته، بحيث لا يدخل على تدبيره وأحكامه سبحانه وتعالى نقص ولا خلل.

مما يستوجب استحضار ذلك في جميع الأحوال. وهذا يفيد أهمية الموعظة في ختام التعليم والتدريس، والنصح والإرشاد والبيان. لأن الموعظة تُعيد المؤمن إلى الحق، وتُذكره بما غفل عنه، وتستثير عواطفه، وتنتهي بها إلى الامتثال والتطبيق.

---

(١) المرجع السابق. مُستفاد من بيان القرطبي وشرحه. رحمة الله تعالى عليه وعلينا وعلى جميع المسلمين.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤ ﴾

وينتقل السياق القرآني لقضية أسرية أخرى، متعلقة بوفاة الزوج ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا ﴾ فقد بين الله تعالى حال الزوجة التي يموت عنها زوجها، بأن تكون عدتها غير عدة المطلقة، فعدتها أربعة أشهر وعشرا. وذلك حتى يتبين الحمل ويتضح إن كانت حاملاً. وقد أجمل اللهُ تعالى انتظار ومكوث المرأة عن النكاح وما يتعلق به بكلمة واحدة ﴿ يَتَرَبَّصۡنَ ﴾ وهي التأني والتوقف عن النكاح برجل آخر، حتى تنتهي العدة المحدودة. وفي هذا السياق حفظ لمشاعر المرأة المسلمة، التي يبلغ الحياء منها مبلغاً لا تتحمل فيه التفصيل من الكلام. بحيث يقرأ القارئ دون أن تتأثر المرأة بما تسمع، مما يخص شأنها. وفي هذه المدة حفظ لحق الزوج الْمُتَوَفَّى، وللحمل والنسب، إن كان بها حملٌ، وكذا حَفِظَ لها الشرع من أن تخلط بين نسبين، وحفظاً للناكح من أن يدخل في نسبه ما ليس منه وله. فحفظ الله تعالى بهذا الحكم حقوق الجميع.

وهناك أحكام تفصيلية تخص الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، استوعبت تفاصيلها السُنَّة النبوية، ليدرك المسلم أن منهج الإسلام كل متكامل بين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ومن الفوائد ما جمعه وحرره العلماء من الأحكام الفقهية، التي استنبطوها من تحرير العام والخاص، والمقيد والمطلق، وما تضمنته السُنَّة النبوية المباركة في هذا الشأن وفي غيره، كعدة الحامل وغير الحامل والأمة. فانبجس عن العقول علم عظيم من المصدرين: الكتاب والسنة، وارتقت به الأفهام والألباب.

ثم يبين الله تعالى حال الْمُتَوَفَّى عنها زوجها بعد انقضاء العدة ﴿ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي انقضت العدة ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ وهذا خطاب لجميع من له علاقة بالْمُتَوَفَّى عنها زوجها، من أولياء الأمور، ولمن له شأن في ذلك، كالقاضي وأولياء

أمور الْمُتَوَفَّى، فيما إذا أرادت الزواج وما دونه من الزينة، وضبط حكم الله تعالى ذلك بدلالة ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ والمعروف في هذا متعلق بأحكام الشريعة، فيصبح فيما أذن فيه الشرع. لا محرم ولا مكروه. وبالمفهوم من التوجيه القرآني، أن الولي يمنع وليته من تجاوز ما لا يجوز شرعاً، لأن النهي له في قوله تعالى ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ وبالتالي فإن من تجاوزن ذلك المعروف، وجب على الولي أن يمنع وليته عن المجاوزة للمعروف. وبالتالي فإن هذا واجب عليه، ومطالب بإقامته وحفظه في حق وليته. مما يفيد أن منهج الإسلام يعطي وأعطى الحرية للمرأة في هذا الشأن، وفق دائرة الحماية الشخصية لها، بحفظها مما قد يضرها، أو تضر هي به غيرها. وهذه من نِعَمِ تشريع الإسلام الحكيم، في دقة توجيهه، وإحاطته وعنايته وحفظه لشأن المرأة.

وأن في الاهتمام بها دليل على مكانتها ومنزلتها في الإسلام، ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة الجميع ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فإن الله ربكم عالم بأعمالكم، مما يوجب الحذر من العمل والنوايا التي تخالف أحكام الله تعالى. ويفيد هذا كذلك أهمية التذكير بالمواعظ في ختام النصح والتوجيه والتعليم. وأن للموعظة أثر في النفس عظيم. وأنه لا بأس بتكرارها، كما تتكرر في آيات القرآن الكريم.

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾

ويستمر البيان القرآني الكريم، في إيضاح ما يتعلق بأمر الْمُعْتَدَّةِ من وفاة الزوج ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ فبهذا التوجيه الرباني، يتولى تبارك وتعالى الأمر في أدق شؤون المرأة المعتدة لوفاة زوجها، وذلك بمخاطبة جميع من يمكن أن تكون لهم رغبة

في الزواج من الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، بأنه لا إثم على الرجل الذي له رغبة في الزواج منها بالتعريض الذي لا تصريح فيه من الرغبة في الزواج بها، أثناء عدة الوفاة. وفي هذا التوجيه الكريم من الفوائد: تربية الحياء والخشية في المجتمع، واحترام مشاعر الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، وكذلك احترام الاعتداد لأمر الزوج الْمُتَوَفَّى، مع مراعاة رغبة الراغب بإيصالها تعريضاً لا تصريحاً، بحيث يُفهم منها الرغبة المحتملة دون التصريح المؤكد. وفي لفظة ﴿عَرَّضۡتُم﴾ ما يعني الإفهام بالشيء ومقصده رمزاً لا تصريحاً، وبالتالي فإن لفظة ﴿عَرَّضۡتُم﴾ تعني الإفهام بالرغبة رمزاً وتلميحاً. كما يفيد هذا أنه لا يجوز التصريح للمعتدة، إذ أباح الشارع الحكيم التعريض فقط، فيفهم منه منع التصريح للمعتدة بالرغبة. وهذا يفيد أن من قواعد منهج الإسلام اللطف في العبارات الحاملة للمعاني والدلالات السامية، والترفع عن العبارات التي لا تراع واقع الحال، ولا جوانب الحياء المختلفة، وأن الإسلام دين الحياء والأدب والأخلاق.

ومن الفوائد مراعاة المنهج الإسلامي للجوانب النفسية، فأباح التعريض للراغب من الرجال، واحترام مشاعر الزوجة الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، وكذلك مشاعر أهل الْمُتَوَفَّى، ومشاعر أولادها، إن كان لها ولد، وكذلك مشاعر الناس الذين يُحيطون بها، واحترام الْمُتَوَفَّى في عدة زوجته. فراعت أحكام الله تعالى جوانب شؤون الإنسان في أحلك الأمور. وفَنَّدَ العلماء ما يتعلق بالتعريض للمطلقة الرجعية، ما خلاصته: أنه لا يجوز. لأنها لا زال مقامها هو مقام الزوجة.

وكذلك نفي الإثم عما يدور في النفس من الرغبة المضمورة والمستورة في النفس، ولم تُكشف، ولم يكشفها من الرغبة بالتزوج من الْمُعتدة، فستر تلك الرغبة، فقال الله تبارك وتعالى ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ فنفى الله تعالى الإثم، عمن أراد الزواج من الْمُتَوَفَّى عنها زوجها، سواء بالتعريض، أو الإكنان. وهو إخفاء الرغبة في النفس.

ثم بين الله تعالى للرجال ممن لهم شأن في هذا الشأن، بعلمه سبحانه وتعالى لسرهم وجهرهم ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ فرخص الله تعالى ذلك مراعاة للطبيعة النفسية، من أنكم ستذكرون الْمُعْتَدة، إما سراً في نفوسكم، أو جهرا بألسنتكم، من رغبتكم في الزواج، فأباح

لكم التعريض رحمة بكم. لأن مفهوم النص يفيد أن من رحمته بكم رفع عنكم الإثم لما يعلمه من حالكم الطبيعي، وأباح لكم التعريض والإكنان. وهذا يفيد أهمية تقوية الإيمان عند الإنسان، من أن الله عالم بخلجات النفوس، وأن شريعته الغراء راعت هذه الجوانب، ووازنت بينها وبين جميع المصالح، وأدبتها بكمال الأدب الجم الرفيع.

ثم تُستكمل جوانب التنظيم، والأدب في شريعة الله تعالى، بأنه سبحانه عَزَّ وجل نهى عن الوعد سراً ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ فلا يعدها ويُسِرُّ لها بالزواج، وهو الأمر المتجاوز للتعريض بالتصريح، أو يأخذ عليها العهد والميثاق ألا تتزوج بغيره ونحو ذلك، فهو محرمٌ. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عن بعض الصحابة والأئمة العلماء: أي لا يقل الرجل لهذه المعتدة: تزوجيني، بل يُعَرِّض إن أراد، ولا يأخذ ميثاقها وعهدها ألا تنكح غيره في استسرار وخُفية.(١) وقال: كذلك أجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة للمرأة في نفسها. وللأب في ابنته البكر، وللسيد في أمته.(٢) واستثنى من ذلك ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو ما أبيح من التعريض.

وفي هذه التنبيهات والأحكام من العزيز الحكيم، ما ينضبط وينصلح به حال أمر المجتمع، وخاصة في مقام أمر الْمُتَوَفَّى عنها زوجها. حتى بين وأكد في أمر عقد النكاح، بقوله عَزَّ وجل ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ فلا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة. وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة.(٣) ومعنى ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي تمام العدة، والكتاب هو الحد، والقدر الذي جُعِل للعدة. وسماه الله تعالى

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٥/٣)
(٢) المرجع السابق (١٢٦/٣)
(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٩٤/١)

كتاباً باعتبار أن الذي حدّه وفرضه كتاب الله تعالى. كقوله سبحانه وتعالى في سورة النساء ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾ أي حتى يبلغ الفرض أجله.[١]

ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة المخاطبين بها ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ ﴾ فَيُذَكِّرِ اللهُ تعالى المؤمنين بما يعلمون من علمه عَزَّ وجل بما في ضمائرهم، وتكنه القلوب وتحتفظ به فلا تظهره وتكشفه، وبالتالي فإن من يعلم ما في نفوسهم، فإنه يعلم أعمالهم الظاهرة، مما يوجب الحذر ﴿ فَٱحۡذَرُوهُۚ ﴾ فاحذروا عقابه، الذي يوجب الوقوف عند حدوده، فلا تتجاوزوها. وفي هذه الآية وعظ بما هو أخص، وهو علمه تبارك وتعالى بما في النفس، لِيُفْهَم به ما هو أعم، الذي هو علمه بالظاهر من العمل. وفي دلالة ﴿ فَٱحۡذَرُوهُۚ ﴾ ما يوجب التوقي من عقابه، بدرجاته وأنواعه. مما يبعث في النفس الخوف من أن يتجرأ أحدٌ على حدوده.

ثم تنتهي الموعظة بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ فجمع تبارك وتعالى بين البيان والتحذير، وبين عدم اليأس من مغفرته وحلمه الذي لا يُعَجِّل به العقوبة، حتى يستغفر ويتوب العبد من الأخطاء والآثام، ولا ييأس من عفوه ومغفرته تبارك وتعالى. وأن عدم مسارعته عَزَّ وجل بالعقوبة لحلمه العظيم سبحانه وتعالى. وهذه والله من رحمته بعباده، إذ يعلمهم، ويُحذرهم، ويخوفهم مِنْ تجاوز حدوده، ومع هذا يمنع عنهم اليأس والقنوط من مغفرته، فلا أبلغ من الطمع في مغفرته ورحمته، واستثمار حلمه من هذا البيان وأمثاله. فالحمد لله رب العالمين. وهذا يُفيد تربوياً أهمية الموازنة بين الترغيب والترهيب، وأهمية ألا يُقَنِّط الداعية والمربي غيره من رحمة الله تعالى ومغفرته، وأن حلمه منحة للمذنب والعاصي والمقصر، ليستغفر ويتوب من ذنبه.

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦ ﴾

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٧/٣)

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم لواقع آخر، وحالة أخرى من الطلاق ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ فنفى الله تبارك وتعالى الإثم عمن طلق زوجته بعد العقد، وقبل الدخول بها والجماع. وفي هذا من الفوائد إتاحة الفرصة لمن تغيرت خواطرهم عن استمرار النكاح قبل البناء والجماع، وهو معنى ﴿ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ فيكون هذا الامتناع عن استمرار النكاح لأسباب لا حصر لها، وربما أن هذه الحالة أفضل وأصلح للطرفين من الطلاق بعد الجماع. ولما أن في هذا انكسار لقلب الْمُطَلّقة، أمر الله الرحمن الرحيم بإمتاعها إن لم يكن قد أعطيت مهراً ﴿ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ وهو تعويضها بشيء تُعْطَاه من زوجها، بحسب حاله، فيكون على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾[١] وهنا يظهر لطف الله تعالى بجبر الخواطر، عما يصيب الإنسان من هذا الموقف وأمثاله.

فلم تهمل الشريعة الغراء الجوانب النفسية في أحكامها، فتناولت هذا الجانب تناولاً لطيفاً حكيماً، كما يتضح من كل موقف في مكانه. وكما يظهر أيضاً لطف الله تعالى بأن أوكل مقدار التعويض لقدرة الزوج المالية، بحيث يُعطي على قدر ما وَسَّع اللهُ تعالى به عليه. وهما صنفان رئيسان: أحدهما: ﴿ ٱلْمُوسِعِ ﴾ والثاني: ﴿ ٱلْمُقْتِرِ ﴾ فالأول هو الذي اتسعت حاله، والثاني: هو الْمُقِل، أي قليل المال. وبينهما درجات متفاوتة من الاتساع والضيق في القدرة التي هي ﴿ قَدَرُهُۥ ﴾ وهذه من دقائق الإحكام والأحكام في التوجيه، إذ تم إحكام مساحة النفقة المختلفة من شخص لآخر بمعاني وألفاظ محددة، استوعبت تلك الدرجات المتفاوته والمختلفة بين الناس في القدرات المالية. وهذا من عظيم البيان البلاغي في القرآني الكريم. الذي يتعلم منه الإنسان كيف يضبط ألفاظ مراده وتنظيم بيانه.

---

(١) للمزيد يُنظر، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٩٥/١)

ثم قال تعالى تأكيداً وبياناً ﴿مَتَـٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بقدر الإمكان، وبقدر الحق الواجب.[١] ودلالة كلمة ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ صفة وقياس، يجمع جميع مفردات ومكونات أخلاق البذل والسخاء، ويجمع بها مقدار التفاوت بين الناس فيها، وكذا تباين مقدار ودرجات الوسع والسعة بينهم، فكلٌ بحسبه.

ثم قال تعالى ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي واجباً على المحسن. وهذا التوجيه يحمل أيضاً التشجيع والتحفيز، لما يُفهم منه: بأنه واجب على من هو متصف بالإحسان، وكل أحد من المسلمين يريد أن يكون متصفاً بالإحسان، ولا أحد منهم يريد أن يتجرد أو يجرده أحدٌ من هذه الصفة. فهي صفة مشجعة على الاتصاف بها، ودافعة لفعل الخير والرغبة فيه. وبالتالي ينتفي أن يعمل به من لم يتصف بالإحسان، وهي التقتير، والبخل. والتي هي الصفة التي ينفر منها كل إنسان. مما يفيد تربوياً ودعوياً وإدارياً، وفي كل جانب من جوانب العمل والأداء البشري، أهمية الْتّمَثُّل بمنهج القرآن الكريم في أساليبه المحفزة للخير بتنوعه المنفرد، والجاذب لفعل الخير، حتى يتحقق النجاح من خلال العمل بتوجيهاته.

وقد تزوج جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه امرأة من بني نصر، فطلقها قبل أن يدخل بها، فأرسل إليها الصداق كاملاً، وقال: أنا أحق بالعفو منها.[٢] فليتأمل المسلم أثر هذه الآية الكريمة على سلوك الصحابي الجليل جبير بن مطعم رضي الله عنه. وكذلك في قوله: أنا أحق بالعفو منها، بما يدل على أن المبادرة قد تكون من الزوجة المطلقة، بعفوها عن حقها. وأيضاً من كريم أخلاقها أنه نعتها بأنها ستعفوا عنه.

ومن الفوائد الكناية عن الجماع بلفظة ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ وهي اللفظة التي تؤدي المعنى المقصود، مع حفظ جانب حياء المرأة من أن يُصرح في هذا الأمر بما يحرجها ويُخْجلها. وهذا يفيد أهمية التربية اللفظية والعناية بها، واختيار الألفاظ المناسبة لواقع الحال وللمُخَاطب. والحذر من

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير(٢٤٧/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣٦/٣)

الألفاظ المثيرة، والألفاظ التي لا تحمل القدر الكافي من الحياء، ومن حفظ مشاعر الآخرين في التخاطب، وفي كل أمر من أمور التعامل والتفاعل الاجتماعي.

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) ﴾

ثم ينتقل السياق إلى بيان نوعٍ آخر من الحالات الأخرى التي يتم فيها الطلاق، قال تعالى ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ فإذا طلقها الزوج بعد العقد، وقبل الدخول بها، أي قبل الجماع، وقد فرض لها المهر، وأراد أن يطلقها أوجب لها نصف المهر. وللعلماء تفصيل واجتهادات فقهية في ذلك. وهنا يُستفاد الدقة في تقنين وتفصيل وتفنيد الأمر بين هذه الآية والتي قبلها، ففي التي قبلها لم يتم تحديد المهر، فَفُرِض لها ما يطيب به خاطرها ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ وفي هذه الآية تم تحديد المهر، فَفُرِض لها نصف المهر تطيباً لخاطرها. إلا أن تعفوا عن ذلك وتتنازل ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ فأتاح للزوجة أن تتكرم على زوجها بما هو حق لها. وهذا من اتاحة فرص المرحمة بين الزوجين، فلربما واقع حال الزوج يحتاج ذلك، فمنحها الحكم الشرعي حق التنازل عن حقها ﴿ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾ وهو الزوج، وللفقهاء تفصيل في ذلك، ولكن يُستفاد أيضاً من ذلك أن للزوج أن يعفو أيضاً عن النصف الآخر للزوجة، فيعطيها المهر كاملاً، ولها أن تعفوا عن النصف الذي لها.

ثم رجح رَبُنا تبارك وتعالى للزوجين العفو ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ وفي هذا تشجيع لكل واحد منهما أن يُبادر ويأخذ بالعفو عَمَّا له عند الطرف الآخر، فيبادر بالتنازل. وفي هذا تحقيق لمكاسب ثواب الأخلاق في الافتراق بإحسان، وتقوية للنفس على الخير والكرم، والتفضل عما هو حق لها إلى الآخر، ولتسود الأخلاق بينهما حتى في افتراقهما، والتي ستظهر على

الآخرين بالتقليد والمحاكاة لصنيعها. وهذا التشجيع ارتبط بميزة مؤثرة وفاعلة وقوية، وهي ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ فقال تعالى ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ واقتراب التصرف من فعل المتقين منزلة رفيعة نحو تحقيق التقوى، التي يطمع لها كل أحد من المؤمنين. مما يفيد تربوياً، أهمية التحفيز المعنوي، وأهمية التربية الخلقية، وأهمية العفو، والتنازل عن الحق للغير، لتحقيق التقوى، التي يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى.

ثم يزداد التشجيع والتحفيز في الآية الكريمة، بقوله تعالى ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ فلا تنسوا تحقيق الفضل بإتمام الرجل الصداق كله، أو ترك المرأة للنصف الذي لها. فما أجمل وأعمق منهج ربنا تبارك وتعالى. وكذلك من الفوائد: أن في التوجيه الرباني إلى عدم نسيان الفضل، إشارة إلى أهمية تذكر ما سبق من الخير، فإنه من دواعي التغاضي عن محل الخلاف، ومن دواعي المبادرة إلى التفضل بنفس طيبة كريمة.

ثم تنتهي الآية الكريمة بما يحفز على تسابق الزوجين للفضل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فإن ربكم يعلم ويبصر سبحانه وتعالى ما تعملون من عمل، بما يفيد ويعني أن ثوابه ثابت لكل عامل بما عمل. فاستغني بالإخبار عن علمه تبارك وتعالى ببيان إثبات الثواب، وذلك لدلالة علمه عليه عزَّ وجل، وهذا من بليغ الكلام، الذي يتجاوز فيه الكلام عما يغني عنه غيره. فإن الله تعالى بكل مخلوقاته عليم بما يصلح لهم، وينفعهم. ومما يفيد استيفاء علمه وقدرته وتدبيره جلَّ جلاله لجميع مخلوقاته، بحيث لا يدخل على تدبيره وأحكامه سبحانه وتعالى نقص ولا خلل.

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى أمر الصلاة، ليستأنف بعدها أمر الْمُتَوَفَّى عنها زوجها.

فيأمر الله تعالى الأمة في هذه الآية الكريمة بالمحافظة على الصلوات ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ وجاء الحث على الصلاة من خلال التوقف عن موضوع العلاقة الزوجية، ليستأنفه بعد الأمر بالمحافظة على الصلاة، ليتأكد بهذا الانقطاع أمر أهمية الحفاظ على أداء الصلاة، الذي استوجب أمرها انقطاع السياق البياني في أمر العلاقة الزوجية. مما يبين ويظهر مقام الصلاة التي انقطع البيان عن شأن العلاقة الزوجية بسبب التنبيه على وجوب المحافظة على الصلوات.

كما جاء الحث على المحافظة عليها بصيغة الأمر ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ ﴾ والمحافظة تعني المداومة عليها، مما يفيد وجوب المحافظة بالمداومة على أداء الصلاة، وعدم التهاون فيها. وهذا دليل على مكانتها العظيمة، ومنزلة المداومة والمحافظة عليها، وكذلك منزلة المحافظ لها. لأن من امتثل ما أُمِرَ به، فلا شك أن له ميزة ومنزلة شريفة، بفضله وكرمه سبحانه وتعالى.

ثم خص الصلاة الوسطى، وأفردها من بين جنسها بالذكر، بالرغم من دخولها في عموم الصلاة تشريفاً لها. وقيل هي صلاة العصر. لقوله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم الأحزاب (ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس)[1] وهو قول جماهير العلماء. وقيل غيرها، وقيل في تعيينها عشرة أقوال، وقيل هي مبهمة مثل ليلة القدر، ليجتهد المؤمن في ذلك. ورجح الإمام القرطبي رحمه الله تعالى إبهامها، وقال: وهو الصحيح إن شاء الله تعالى، لتعارض الأدلة وعدم الترجيح، فلم يبق إلا المحافظة على جميعها، وأدائها في أوقاتها، والله تعالى أعلم.[2] وفي هذا ما يحفز المسلم على أن يحافظ عليها جميعاً، لأمره تبارك وتعالى بذلك، ولتكون الوسطى من بين الصلوات التي حافظ عليها. وفي هذا دليل على أن في إحدى تلك الصلوات ميزة

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢٩٣١) وأبو داود (٤٠٩) وابن ماجه (٦٨٤) واللفظ لهما.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٠/٣)

وتشريف من الله تعالى لها، مما يلزم المؤمن الاجتهاد في الجميع لالتماسها، والحصول على ما فيها من زيادة خير.

ثم بين الله تعالى صفة القيام للصلاة ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ فأمر أن يقوم المصلي في صلاته طائعاً، خاشعاً ذليلاً مستكيناً بين يدي الله تعالى، مما يستلزم ترك الكلام في الصلاة.

قال زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه: كنا نتكلم في الصلاة. يكلم الرجل صاحبه، وهو إلى جنبه في الصلاة، حتى نزلت ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ فأُمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام.[١] وهذه الدلالات والمعاني المتعددة عن مفهوم ﴿ قَـٰنِتِينَ ﴾ هي من متطلبات الصلاة، فمعانيها مستوعبة لما يكون عليه المصلي في صلاته. وهذا من عظيم بلاغة القرآن الكريم إذ استوفت دلالة ﴿ قَـٰنِتِينَ ﴾ الطاعة والخشوع والتذلل والاستكانة، وعدم الكلام.

ولَمَّا أمر الله تعالى القيام في الصلاة بخشوع وسكينة، وذلك في الحالة الغالبة للمصلين، بين تبارك وتعالى في الآية التالية حال ما ينوب المصلي من الخوف. فقال تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ والخوف هو الفزع، لأي أمر من الأمور المفزعة، وجاء الخوف عاماً محذوف المتعلق به، ليستوعب كل أنواع الخوف. فأوضحت وبينت أن هذه العبادة لا تسقط عن العبد حتى في حال الخوف، ورخص للخائف في حال أدائها، بأن يؤديها على الأقدام مشياً، أو راكباً على ظهور الدواب وغيرها مثل السيارة والدراجة وغيرها، فيكون على قدر ما يستطيع، وعلى أي جهة استطاع من التوجه. وهذا يفيد أهمية أداء الصلاة في وقتها، وألا يؤخرها عن وقتها حتى في حالة الخوف والفزع.

وبالتالي يجب على المسلم أن يحذر من تأخيرها عن وقتها من غير عذر قاهر، فإذا لم يُرخص للخائف، فكيف بالآمن، ولذلك أكد تبارك وتعالى هذا بقوله عَزَّ وجل في تمام الآية

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٤٠/٣)

﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ فأمر في حال رجوع الأمن أن تُؤَدَّى الصلاة بكمالها، كما عَلّمَكُمُ كيفية أدائها وأنتم آمنون، بإتمام ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها، وذلك في أوقاتها المحددة. وفي قوله عَزَّ وجل ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ امتنان من الله تعالى لعباده بالعلم الذي علمهم من الإيمان والعبادة والأخلاق، وكل ما تعلموه من هذا الدين، الذي كانوا به من قبل جاهلين.

وفي قوله تعالى ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ وهذا لِيَعِمَّ الصلاة، وعموم الذكر، من الشكر والتسبيح والتهليل والتكبير والحمد. وهما قولان[١] فكما علمكم ما كنتم تجهلون من خير الدين فاذكروه بعموم الذكر وأنواعه.

وفي قوله تعالى ﴿ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ حصر هذا الذكر وفق تعليم وتعاليم الله تعالى. بأن يكون ذكره وعموم عبادته وفق ما نص عليه الشرع الحكيم في الكتاب والسنة المطهرة. مما يبين أنه توقيفي، وفق ما أحاطت به الشريعة في نصوصها وتطبيقاتها العملية من رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما أثبتت النص القرآني الكريم جهل الْمُخَاطب بتلك الأذكار وتلك العبادة ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ بما يفيد أن الجهل السابق لا يبيح التغيير بالإحداث والإضافة أو الحذف، فالعبادة وقف بما بين تبارك وتعالى، وعمل به الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز الإحداث في الدين.

ومن فوائد الآية الكريمة أخلوا أحكام هذا الدين من التعنت والتعجيز، بل إن الله تعالى يقبل الإجزاء من العبادة، بسبب دواعي عدم القدرة على أداء كمالها وفق ما شرع، كالمريض وحالاته، والمسافر، وأثناء الحرب، وغير ذلك. فأرشد تبارك وتعالى إلى الطريقة المجزية أثناء الخوف، فَعَلَّم عباده المؤمنين ما كانوا يجهلون من كيفية أدائها أثناء الخوف، فلزم الشكر لله تعالى، وذكره بكل أنواع الذكر. وهذا يفيد كذلك أن الصلاة لا تسقط عن الخائف، وبالتالي لا تسقط في الأحوال

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير من علم التفسير (٢٥١/١)

الأخرى، بل يؤديها بما يجزي. كما أرشد الله تعالى لذلك، وأرشد وبين رسولنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في سُنَّته المُطهرة. وهذا دليل عظيم وقوي على منزلة الصلاة، ومكانتها، وشرفها، التي تُوجب على العبد ألا يتهاون فيها، بل يُجِلَّها ويُقدر منزلتها، بالمحافظة عليها، والاجتهاد في خشوعها، وأداء كمالها.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

وبعد أن انقطع السياق عن أمر المطلقة والْمُتَوَفَّى عنها زوجها، بسبب بيان وجوب المحافظة على الصلاة وأدائها، يعود السياق إلى الْمُتَوَفَّى عنها زوجها. ولعل هذا الأسلوب من باب شد الانتباه لأمر مهم، قد انقطع به إتمام السياق لأهميته، حتى يلتفت الذهن والانتباه إليه، وذلك أن الْمُتَحَدِّثُ في قضية لا يقطعها إلا لأمر مهم، قد استوجب الانقطاع والبيان له، ثم يستأنف البيان فيما كان يبينه.

يقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ يبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة منهجية التعامل مع من توفي عنها زوجها، بوصية الله تبارك وتعالى لها، أن تَبْقَى وتُبْقَى حولاً كاملاً من الامتاع والاكرام والنفقة، وما تحتاج إليه، وذلك إكراماً لها، وبراً بزوجها، فجمع الله تعالى لها بين عدتها أربعة أشهر وعشر، وبين استكمال الحول امتاعاً. مما يبين حرص المنهج الإسلامي على الجوانب المعنوية والأخلاقية، وحفظ المودة والبر، من خلال بر الميت، بإكرام من مات عنها، وجبراً لخاطرها، المتأثر بحادث الوفاة. وهذا يقود إلى استصحاب هذا التوجيه إلى أهمية مراعاة الجوانب الأخلاقية والنفسية، وألا ينحصر الأمر والشأن في انقطاع العلاقة فقط، بل يُنظر إلى المعروف الذي كان، حتى ينتهي بمعروف.

واستثنى سبحانه وتعالى من ذلك حال رغبتها في عدم إكمال الحول ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ فإن رغبت الخروج بعد عدتها فلها الحرية المطلقة في ذلك، ولا إثم ولا حرج على أولياء الْمُتَوَفَّى مما فعلته بنفسها، من الزينة والتجمل في حدود ما هو معروف من الشرع ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ ويبين هذا منهجية الإسلام في تقرير دائرة الحرية، بأن لا تتجاوز حدود الشريعة الغراء، إذ تنتهي حرية الفرد عند حدود الله تعالى. وهذا من حفظ الإسلام لحقوق الفرد، وحقوق الآخرين، لما قد يصل إليهم من أذى، ومن تبعات غيرهم عليهم، وأيضاً تبعات تجاوز الحدود الشرعية على الآخرين من المجتمع، بأي صورة كانت. فحفظ الله تبارك وتعالى الحقوق الخاصة للفرد، وكذلك الحقوق التي بين الأفراد ومجتمعهم، على اختلاف علاقاتهم، واختلاف درجات التأثير.

ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة للمُخَاطَبِين خاصة، وللجميع عامة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيعلمهم ويذكرهم بأنه جَلَّ جلاله ﴿عَزِيزٌ﴾ فله العزة كلها، المتضمنة للقدرة الكاملة، والهيمنة الشاملة، وأنه عَزَّ وجل الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. وأنه ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التدبير والأحكام، والتصرف والتقدير. بما يفيد ويدل على أن جميع ما حكم به، وبينه، وشرعه، وما خلق الله تعالى من الخلق هو وفق حكمته، وحكمة تدبيره جَلَّ شأنه، ومن ذلك القرآن الكريم، فإنه كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى.

كما يفيد أنه عَزَّ وجل ﴿حَكِيمٌ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد

العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

وفي استحضار المؤمن لعزته وحكمته تبارك وتعالى ما يعزز لدى المسلم الخوف من عزته والرضى بحكمه وأقداره وذلك لحكمته البالغة فيما يُقَدِّر ويحكم، لأنه حكيم بهذه الأحكام الدالة على عظيم حكمته، التي وُضِعَت في مواضعها.

وأنه عَزَّ وجل هو الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل وعلى كتابه القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، وعلى عباده المؤمنين فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة.

كما يفيد هذا الإعلام من الله تعالى بهاتين الصفتين: التحذير لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه ولأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى امتاع المتوفى عنها زوجها، ذكر امتاع المطلقة ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ فكل مطلقة لها على زوجها أن يمتعها بالعطاء، الذي يُنَاسِب حاله وحالها، ثم بين الله تعالى حكم ذلك، بقوله تبارك وتعالى ﴿ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فهو حق واجب على كل من يتقي الله جَلَّ جلاله، وكلمة ﴿ حَقًّا ﴾ تعني الوجوب، فهو حق واجب، يقوم به المتقون. مما يفيد أن من يتقي الله تعالى يقوم بما هو حق عليه، وأن القيام بالحق، دليلٌ على التقوى. ثم يقول تبارك وتعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيمتن الله تعالى على عباده المؤمنين، بما بين لهم من الآيات الكريمات، الحاملات

للأحكام التي يدخل فيها الواجب والمستحب والمحرم والمكروه، وما يلتحق بها من آداب وأخلاق. لعلكم تصلون بها إلى كمال التعقل بأدائها.

مما يفيد أن تأدية أحكام الله تعالى تحقق لمن يؤديها كمال التعقل البشري، حيث يثبت لمن قام بها وصف العقلاء، وأما من تهاون بها فلا يثبت له وصف وصفة العقلاء، وهو عقل الرشد، وليس عقل الإدراك. إذ أن عقل الإدراك هو العقل الْمُكلّف به المخاطب، وهو ضد الجنون وصغر السن، الذي لا يعقل به الصغير حقائق الأشياء، ومرفوع عنه به القلم. وعقل الرشد هو العقل الذي تجاوز عقل الإدراك، الذي يدرك به الأشياء وأنواعها وأحجامها وخيرها وشرها، ليدرك الحق ويتبعه، ويدرك به الباطل فيجتنبه. فمن أدرك الحق ولم يتبعه، وأدرك الباطل واتبعه، فهذا لا يسمى عاقلاً، عقل رشد. لأن ثمرة العقل هي استعمال الأشياء النافعة المستقيمة، ووضع الشيء موضعه الصحيح، بلزوم الحق وترك وهجر الباطل. ولذلك يقول الناس مجازاً وليس حقيقة لمن استبان الخير أمامه ولم يأخذ به، أنت مجنون، أو هذا مجنون، فيصفونه بذلك، أو يستنكرون عليه ذلك مجازاً وليس حقيقة، لأن تصرفه خلاف ما يجب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

يخاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، مبيناً حالاً من أحول بني إسرائيل ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ ألم ينته إلى علمك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم خبر أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم أعداد كبيرة بالآلاق، وذلك مخافة الموت مما أصابهم من الطاعون. والخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَمْ

تَـرَ ﴾ وكذا مُخَاطب به المؤمنون، وكل من يسمع كلامه تبارك وتعالى من غيرهم. فإذا خُوطب النبي صلى الله عليه وسلم شمل الخطاب من معه ما لم يكن مخصوصاً به دون غيره. وخاطب الله تعالى بالقرآن الكريم الثقلين: الإنس والجن.

وجملة ﴿ أَلَمۡ تَـرَ ﴾ سؤال تقريري لخبر من الله تبارك وتعالى، يُقرر فيه أمر القوم الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت، بعلة الوباء الذي أصاب بعضهم، وانتشر بينهم، أو بسبب مداهمة عدوهم لهم. ومن الفوائد أن ﴿ أَلَمۡ تَـرَ ﴾ تأتي بمعنى ألم ينته إلى علمك خبر أولئك.

وتأتي كذلك ﴿ أَلَمۡ تَـرَ ﴾ بمعنى ألم تعلم بخبر أولئك، وعندما يقول الحق تبارك وتعالى لعبده أو لعباده ﴿ أَلَمۡ تَـرَ ﴾ فإخباره سبحانه وتعالى يقع من الصدق كأن الْمُخَاطب به رآه رأي العين. وقوله تعالى ﴿ وَهُمۡ أُلُوفٌ ﴾ يعني عدد متكرر من مضاعفات الألف، فهم عدد كبير بالآلاف.

فهم قوم من بني إسرائيل خرجوا من ديارهم التي انتشر فيها وباءٌ قاتلٌ، وذلك خوفاً من أن يدركهم الموت[1] كما قال تعالى ﴿ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ أي توقياً من الموت، فأدركهم الله تعالى بما أراد من الموت. ليتأكد للإنسان أن الحذر لا يغني عن القدر، ومهما هرب من قدر الله تعالى وأمره، فإن قدر الله تعالى مُدْرِك من أراد الله تعالى إنفاذه فيه. وإذا تمعن المؤمن هذا، أحدث لديه سكينة وطمأنينة عظيمة، أمام مُدْلَهِمّات الأمور التي يواجهها في حياته، من أن الله مُمْضِي قدره وإرادته، وأن الأسباب لا تغني من الله شيئاً إذا أراد الله تعالى أمراً بعبده. وبالتالي فإن المؤمن عندما يأخذ بالأسباب، يكون موقناً أن هذا السبب لا يعمل بنفسه، وإنما بقدر الله تعالى وإرادته. وهذا في جميع أحواله وتقلباته، كمرضه وعلاجه، وفقره وغناه، فغناه لا يمنع فقره، وفقره لا يمنع غناه إذا ما أراد الله تعالى. وهكذا في كل حال وأمر من أمور الإنسان. حيث أن الله تعالى أماتهم

---

(١) ذكرت كتب التفسير أن خوف الموت من الوباء هو الذي أخرجهم، كتفسير القرآن العظيم لابن كثير، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي. في موضع الآية الكريمة.

بقدرته، بعد أن خرجوا من ديارهم الموبوءة، فلم يغنيهم خروجهم عن قدر الموت الذي أراده الله تعالى لهم ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ فماتوا جميعاً بأمره تبارك وتعالى. وعندما أراد إحياءهم، أحياهم كما قال تعالى ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ فالأمر كله لله تعالى. وهذا يعطي المؤمن قدراً عظيماً من السكينة والاطمئنان والتوكل على الله تعالى.

وهذا لا يعني ترك الأسباب الواقية من كل شر بحسبه، لأن منهج الله تعالى يأمر بالتحرز من الضرر والشر، وذلك بأخذ الأسباب الدافعة للشر والجالبة للخير، كالجهاد الذي هو أخذ بالأسباب، ولكن هذا الْحَدَث الذي أخبر الله تعالى به، ليتيقن المؤمن أن الله تعالى إذا أراد شيئاً، فلا تقي الأسبابُ ولا تُغني عنه شيئاً. ليطمئن المؤمن أمام ما يعترضه من الأسباب المخيفة، ويأخذ بالأسباب في طمأنينة، فَتُحْفَظ عقيدته في ربه، وتُحْفَظ سلامة إيمانه وسكينته وطمأنينته.

والقتال في سبيل الله تعالى هو من الأخذ بالأسباب في جهاد الطلب أو جهاد الدفع. ولا يتحقق النصر بالسبب نفسه فقط، بل بقدرة الله تعالى وقضائه ونصرته ومراده، فمهما كانت الأسباب فإنها لا تغني عما أراد الله شيئاً.

ثم بين الله تعالى فضله على أولئك، وعلى غيرهم من خلقه، فقال تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إن ربكم أيها الناس لذو فضل عظيم عليكم، فتأملوه وتدبروه في تقديره وتدبيره. إذ تفضل الله تعالى عليهم بالإحياء بعد الموت، ليبين لهم كيف هو فضله عليهم، بدفع المكروه عنهم. ولو تأمل المسلم في مسيرة حياته، لوجد أن الله تعالىلقد صرف عنه كثيراً مما يكره من غير أن يتخذ سبباً لجهله بما هو واقع به، أو لِفُجَأتِهِ لَهُ، أو لعلمه بعد زواله، من غير أن يشعر به. وكم من مصيبة تجاوزت صاحبها أو تجاوزها دون أن تمر به، أو يمر بها، وهو في غفلة عنها. وكم خالطه أو خالط من عليلٍ مُعْدٍ بعلته وهو لا يعلم، ولم يُصِبْهُ شيءٌ من ذلك، وكم سقط أمامه أو بعده شيء قاتل أو مؤذٍ، فأنجاه الله تعالى من غير احترازٍ منه، ولو تقدم أو تأخر طرفة عين لأصابه ذلك الهالك. مما يوجب الشكر والثناء، ولكن غفلة العبد عن الشكر كثيرة، كما قال تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ مما يفيد أن القليل هم الشاكرون لربهم.

وهذا يدفع المؤمن للشكر والثناء على ما يعلم من نعم الله تعالى، وعلى ما لا يعلم مما خفي عليه من النعم الظاهرة والباطنة.

ومن فوائد هذا الحدث ما يزرع في المؤمن من الشجاعة القلبية أمام الفواجع والأحداث، فيتعامل معها بلا هلعٍ يَخْذِلُ قوتَه وشجاعتَه ورباطةَ جأشِه، ولا جزع يُغْضِبُهُ فَيَخْرُجُ به إلى ما لا يُرضي الله تبارك وتعالى. فالصحابي سيف الله المسلول، خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، خاض الحروب في مقدمة الصفوف، وما مات من طعنة رمح، ولا من ضربة سيف رضي الله تعالى عنه، وكان يقول: لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبراً إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء.(١)

كما أن في عرض هذا الموقف ما يشجع المؤمن ويزيده ثباتاً وإيماناً في مواقع القتال، التي يَصُدُ فيها وبها كل شر عن الإسلام والمسلمين. وفي هذا تشجيع للجهاد في سبيل الله تعالى، ولذلك جاء في الآية التالية لهذه الآية الكريمة، الأمر بالقتال في سبيل الله تعالى، فقال جَلَّ من قائل ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأمر فيها بالقتال في سبيله تبارك وتعالى، ليغرس بذلك مبدأ الشجاعة، وليفهم منها المؤمن ألا يهرب عن القتال والجهاد في سبيله، درءً للموت وخوفاً منه، كما حصل للذين أدركهم الموت، وهم فارّين من أسبابه، كما سبق من القصة الماضية. التي بينتها الآية الكريمة.

وفي قوله تعالى ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بيانٌ لجانب التوحيد والإخلاص لله تعالى وحده لا شريك له، فلا يكن القتال لأي وجه آخر غير سبيل الله تعالى. ويقول مالك رحمه الله تعالى عن سُبُل الله تعالى: أن سُبُل الله تعالى كثيرة، وما من سبيل إلا يُقاتل عليها أو فيها أو لها. وأعظمها دين الإسلام.(٢) وفي قوله تعالى ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: هي الطريق المحقق والموصل إلى رضا الله تعالى، والتي منها الجهاد في سبيله عَزَّ جل.

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٣٨٢/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٥٤/٣)

ثم تنتهي الآية بتوجيه كريم، وبيان عظيم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ فأمر الله تعالى عباده أن يعلموا علم اليقين بأن الله ربهم تبارك وتعالى يسمع ويعلم مراد كل أحد، وما يقول من قول في شأن القتال أو في غيره إلا وهو يسمعه ويعلمه.

وفي هذا السياق القرآني الكريم تحذير من الغفلة عن إحاطته سبحانه وتعالى بعباده سمعاً وعلماً وقدرة. وكذلك فيه أمرٌ بالعمل وفق ومقتضى ما عَلَّمَهُم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ وفي هذا ما يفيد الأمر بالعلم بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى، وشرف العلم بها، وما تُفْضِي إليه من خير للعالم بها، في دينه ودنياه، مما يلزم الاهتمام بها علماً وتعليماً.

ولما أن القتال في سبيل الله تعالى يلزمه المال لتوفير العتاد، وما يحتاجه الجُنْدُ من طعام وشراب ولباس وغيره مما لا غنى عنه للجهاد، حث الله تبارك وتعالى بأسلوب التشجيع على الإنفاق، فقال تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ وجاء الحث والتشجيع بصيغة السؤال للاستحثاث والتشجيع، فمن هو هذا الذي يُقرض الله، أي يُنفق في سبيل الله تعالى. فالذي يُقْرِض هو العبد، والمكافئ لهذا القرض هو الرب تبارك وتعالى. وهذا الإنفاق من العبد على صيغة الإقراض الْمُعاد، ولكن الإعادة هنا مختلفة عن إعادة البشر لبعضهم البعض، لأنها إعادة من مالك الملك. فإن المفاضلة فيها عظيمة في تباعدها وتماثلها، فإنها مُربحة بلا حدود للمقرض.

واشترط سبحانه وتعالى لهذا الأمر صفة الإحسان ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ والقرض الحسن عن طيب نفس. ودلالة ﴿حَسَنٗا﴾ تجمع كل جوامع الحسن في النية والإخلاص، وفي المقدار والنوع، وكذا طيبة النفس الممتلئة بالإيمان، والأدب والأخلاق في الإنفاق. ومنافية لكل ما هو ضد الإحسان وصفاته ودلالاته.

ثم يبين الله تعالى مقدار المكافأة للمنفق ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ فلم يحدده بضعف، ولا بضعفين ولا بثلاثة، بل بأضعاف متكررة، لا يُحصيها إلا الله تبارك وتعالى. ويُستفاد من ذلك أهمية الكرم وسخاء النفس في العطاء، وأن يُحسن المقرض مع من أقرضه، ويحسن

من استقرض مع من أقرضه، وقتاً ومقداراً وشكراً وثناءً وإحساناً. لأنه منهج الله تعالى الكريم الرحمن.

ثم يبين الله تعالى في تمام الآية الكريمة أموراً عظيمة في الاعتقاد، وأثرها في السلوك والاطمئنان. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فالرزق بيد الله تعالى يقبضه بقدر ما يشاء عمن يشاء، ابتلاء واختباراً، ويوسعه لمن يشاء امتحاناً واختباراً له فيما وسعه ويوسعه عليه. وهذا المفهوم يُعطي المؤمن قوة في اعتقاده، واعتماداً على ربه، والاستعانة به في طلب بسط الرزق وسعته وبركته، وفي تسهيل أمر الحصول عليه، وسؤاله أن تستطيب نفسه بما أعطاه، من سعة أو قبض، لعلمه أن الله يحكم ما يريد، وأن الخير فيما يقضيه الله تعالى. فيزداد طمأنينة ورضا بما أعطى وبقدر ما يعطي تبارك وتعالى. وأن يظهر هذا على أخلاقه من التواضع، وفي الإنفاق إن بَسَطَ ربُّه له الرزق، والصبر وعدم الضجر إن ضَيَّقَ عليه الرزق.

ثم ينتهي نص الآية الكريمة، ولا تنتهي فوائدها بموعظة مؤثرة ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ بيان وتأكيد بنهاية الختام لكل أحد من الناس، وبنهاية الختام الدنيوي، وذلك بالرجوع إليه سبحانه وتعالى. فالرجوع بعد الموت إلى الله تعالى، فيحاسب ويجازي كلاً بعمله، مما يدفع المؤمن من خلال هذه الموعظة إلى الاندفاع نحو الخير والطاعة لله تعالى، والانقباض عن الشر، والحذر منه.

وهذا يُفيد أهمية أن يتناول الداعية والمربي والناصح الدلالات القرآنية الكريمة، التي تدفع الإنسان للخير وتُبعده عن الشر، وتربي وتغرس فيه خصال الخير، ومكارم الأخلاق. والحمد لله رب العالمين.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

وهذا قَصَصٌ آخر، يشحذ همم المؤمنين لمواجهة عدوهم، قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فيقص الله تبارك وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وعلى من يبلغه القرآن الكريم ويسمعه، قصة جماعة من بني إسرائيل، في زمن ما بعد موسى عليه الصلاة والسلام. مما يفيد بأن هناك أنبياء أرسلهم الله تعالى بين موسى وعيسى عليهم السلام. وطلبت هذه الجماعة من نبيهم أن يعين لهم أميراً وقائداً لهم، حتى يأتمروا به في قيادة دفة الجيش، بهدف القتال في سبيل الله تعالى. وقد جاء البيان القرآني الكريم بأسلوب لفت وشد الانتباه، بصيغة السؤال التقريري عما حدث من أمر قوم من بني إسرائيل، الذي جاءكم توصيفه كأنكم رأيتموه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ لأن الذي أخبر به هو خالق كل شيء ومليكِه، فَخَبَرُه حقيقة ماثلة لا شك ولا ريب فيه، فهو بمنزلة من شاهد وعاين بنفسه، ومن الفوائد أنها تأتي بمعنى ألم ينته إلى علمك.

وفي قولهم ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بيان للمطلوب، وللهدف من الطلب. فالمطلوب تعيين أميرٍ لهم، بهدف القتال في سبيل الله تعالى، مما يفيد أهمية القائد والأمير في الحرب، وذلك لأهمية القيادة، التي يتبعها الْمُنْقَادون من المرؤسين. وأهمية وحدة الاصطفاف حول قائد واحد، وأن يكون خبيراً في هذا الأمر، ليتم ويتحقق الهدف. وأن هذه من أولويات إدارة الأمر في القتال، وفي غيره من التجمعات المهنية، والاجتماعية، والإدارية.

ثم أيضاً عينوا الهدف والمسلك الذي يجتمعون عليه وهو ﴿ نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فتحديد الهدف في غاية الأهمية، إذ هو الذي يلتف عليه فريق العمل، وسواء كان الهدف كبيراً أو صغيراً، وسواء كانت لمجموعة صغيرة أو كبيرة. ولكن نبيهم عليه السلام أراد أن يستوثق منهم لهذا الطلب، حتى لا يقرر شيئاً ثم ينكصوا عنه ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ﴾ وهذا يفيد ويدل على أهمية الاستيثاق من الأمر، ووضع الاحتمال أمام

المجموعة الْمُطَالِبة بالأمر، حتى يتخذ القرار وفق معطيات صحيحة، وجملة ﴿ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ ﴾ سؤال تَوقع، يستوثق به حال إن فُرِض عليهم القتال من الله تعالى، وهي تحمل معنى الإشفاق عليهم من احتمال عدم امتثالهم للقتال إذا فُرِضَ عليهم ﴿ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ﴾ فقد يحصل منهم العدول عن أمر الله تعالى ﴿ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ﴾ وفي قول نبيهم لهم ﴿ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ ﴾ دليل على أنه لا يأذن لهم بالقتال من عند نفسه، بل يأخذ الإذن لهم بالجهاد من عند الله تعالى ﴿ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ ﴾ فالذي يفرضه هو الله تعالى، لأن معنى ﴿ كُتِبَ ﴾ أي فُرِضَ. فأجابوه بنفي علة الامتناع عن القتال، ووجود علة الرغبة في القتال ﴿ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ما الذي يمنعنا من القتال في سبيل الله عَزَّ وجل؟ فَنَفَوا علة الامتناع عن القتال في سبيل الله تعالى،

ثم أثبتوا وجود العلة القوية الداعية للقتال، وهي ﴿ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا ﴾ فقد تم تهجيرهم عن ديارهم وعن أبنائهم، مما يدل على أنها علل قوية للقتال. مما يزيل المانع من تعيين مَلِكاً يُقاتلون تحت إمرته، وتجتمع تحته كلمتهم ومشورتهم. مما يفيد أهمية الاستيثاق والنظر في العلل التي يُبنى عليها القرار، حتى يكون فاعلاً ووجيهاً. وأهمية وحدة مصدر جمع الكلمة التي تقررت في وجود القائد، الذي ينقادون له، ويلتفون حوله.

ومن الفوائد كذلك: أسلوب ترتيب الكلام، بنفي الامتناع من خلال نفي وجود موانعه ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ثم بيان علل أو العلة الموجبة له ﴿ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا ﴾ وهذه الدقة غاية في تحرير وترتيب الكلام، وبلاغته في أوجز ما يكون.

ثم كُتِبَ عليهم القتال ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ فكانت النتيجة مخالفتهم لما استوثق منهم نبيهم عليه الصلاة والسلام. فأعرض الكثيرُ وبقي القليلُ

الذين عَبَرُوا النهر على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى. ولعل في هذا تصفية للمُخَذِّلين والمرجفين، فلربما في الخلاص منهم قوة للقلة، بذهاب الضعيف الكثير من المخذلين. وفي هذا درس للمؤمنين بأن لا يكونوا مثل هؤلاء الذين تولوا، بل ليكونوا مثل الذين ثبتوا، فيقتدوا بهم، ولا يغتروا بالكثرة والكثير. وليعرفوا أن هناك مخذلين ربما يواجهونهم في مسيرتهم، وبالفعل كان المنافقون أهل تخذيل وإرجاف. كما حصل في غزوة الأحزاب.

وفيه من الفوائد أن موازين الحق ليست بالكثرة من الناس، بل باتباع الحق ولو كانوا قِلَّة. ثم تنتهي الآية الكريمة بقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهوا عالم بالظالم الذي يصدر عنه الظلم، مما يُفيد الوعيد له، كما أن في هذا تعليم لهذه الأمة، بأن يكونوا مع نبيهم صفاً واحداً، ولا يكونوا مثل الظالمين الذين تولوا عن القتال بعد أن طلبوه ورَغِبُوا فيه. كما يفيد هذا أن مسلك الذين تولوا عن القتال هو مسلك الظلم الآثم، وأن من يقرر ويمتنع عما فرض الله تعالى عليه فهو ظالم، يستحق العقوبة من الله تعالى.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٤٧﴾

ثم يأتي مشهدٌ آخر من مشاهد التعنت ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أي أن الله أجابكم على ما سألتم، فَعُيِّن طالوتُ ملكاً عليكم. وهنا يأتي التعنت الآخر، بتقديم العقل على النقل، والفهم القاصر على الحكم العادل، مع التعليل بغير علم ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ وهذا صيغة الاعتراض، الذي يحمل اندهاشاً من هذا التعيين والاختيار لطالوت. فأوردوا اعتراضهم بسؤال استنكار، وفق تحليلهم ورؤيتهم القاصرة.

ثم تأتي علل الاعتراض منهم ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ فالاعتراض الأول: ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ فهو متعلق بالأحقية، من أن المُلك لا يخرج عن فئتهم، ومعنى ﴿ أَحَقُّ ﴾ تجمع دلالات كثيرة فيما يعنون من الأحقية، لتشمل اصطفاءهم بالملك، والنسب والمال والجاه، وكل ما يمكن أن يشعر به المرء من أنه أحق من غيره به. وهذه قد تعمي الإنسان عن قَدَر الله تعالى، وحكم الله عَزَّ وجل، واختيار الله جَلَّ جلاله، وإرادة الله العزيز الحكيم، بل تعمي الإنسان عما عند غيره من الصلاح والقدرة، فهي قاتلة للقدرات، ومدمرة للإرادات، ومُشعلة ومُوقدت للكبر.

ثم تأتي العلة الأخرى، التي احتجوا بها على رفض تمليكه عليهم ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ مما يفيد أن طالوت كان قليل المال، وأن علة الغنى أساس ومقياس للرئاسة في حكمهم، وهذا يفيد بأن المقاييس البشرية تقوم على معطيات يعتريها الخطأ، لكونها قد تنظر للأمر من جهة المظهر، وتهمله من جهة الكمال والتمام، كما أن لفظ الأحقية الجائرة يجر إلى استعلاء النفس بما لديها، وبما تظن أنه هو الحق، وأنه المبرر للحق الذي تتصوره وإن كان مخالفاً للحقيقة. كما أن لفظ الأحقية الجائرة، يُهَمّشُ ويَئِدُ بها الظالمون أصحابَ الاستحقاق، من الموهوبين والقادرين والْمُفَضَّلين بما فضلهم الله تعالى به من المهارات والقدرات، التي تُعطيهم حق الأولوية على غيرهم. ويمتد بساط هذا في كافة مستويات الأعمال الإدارية والقيادية وغيرها.

ومن الفوائد البيانية اختيار لفظة ﴿ أَنَّىٰ ﴾ بدلاً من لفظة: كيف، أو أين أو متى. لأن لفظة ﴿ أَنَّىٰ) كما قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: تأتي سؤالاً، وإخباراً عن أمرٍ له جهات، فهو أعم في اللغة من **(كيف)** ومن **(أين)** ومن **(متى)**[١] فاختيارها ليتضمن السياق أوجه دلالاتها: كيف يكون له الملك، وهذا اعتراض من حيث الأسباب، وكذلك: متى استحق الملك، وهو اعتراض

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٢/٣)

من حيث الزمن وعلل الاستحقاق. وكذلك: أين، من أين استحق الملك، ما هو مصدر تحققه له. وكذلك إخباراً منهم بأنه لا يستحق الملك، لأننا نحن الأحق بالملك منه.

ولكن على لسان نبيهم يَرُدُّ الله تعالى عليهم، بقوله عَزَّ وجل ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ فأول أُسس التفضيل لطالوت الذي كان فقيراً هو الاصطفاء، بأن الله تبارك وتعالى اصطفاه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ ﴾ فقد اختاره من بينكم، ولفظة الاصطفاء تَدُلُّ على انتقاء الْمُصْطَفَى من بين أفراده، فيكون اختياره لعلل قد لا يعرفها أو يتنبه لها أحد من المخلوقين، بسبب ما غشى عقولهم من سلطان الأحقية الخاطئة والعمياء غير الصائبة. وكفى باصطفاء الله تعالى حجة بالغة، قاطعة فاصلة لهذا الأمر، ولكن الله تبارك وتعالى يبين مزيداً من أسس الاصطفاء، فقال عَزَّ وجل ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ وهو الأساس الثاني: مما يدل على أن العلم كان هو المؤهل الثاني لمن يتم اختياره وتقديمه على غيره، وأنها قضية مهمة وكبيرة، وبما يفيد أن يُقَدَّم صاحب العلم، العالم بالعلم المخصوص بالشيء الْمُكَلَّف به على غيره. وأنه ركيزة لنجاح الأعمال في جميع مجالاتها.

ولما أن السلامة والقوة الجسمية ركيزة مهمة في القتال، بَيَّنَ الله تعالى هذا السبب ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ وهي الأساس الثالث، وهي متعلقة بالكمال الجسمي وقوته وسلامته، لأنها القوة التي يُنَفّذ بها الحق، ولأن كماله الجسمي يمنع ما يحول بينه وبين أداء ما هو مُكَلَّفٌ به.

ثم يحسم الله تعالى الأمر في اختيار طالوت وغيره، بقوله عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ كما في قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ فقطع بهذا كل رأي، وكل تطاول. مما يفيد ألا يُنَازِع أحدٌ أحداً ممن يؤتيه الله تعالى الملك. وأن أهمية الطاعة ولزوم الأمر واجبٌ لمن كان

والياً فيما يُرضي الله تعالى، وكذا في الجوانب الإدارية والقيادية على مختلف درجاتها، وعدم منازعة مَن أوكل إليه أمراً من الأمور، بل يلزم تسديده وإعانته على ما يتحقق به الخير للجميع. وأنه يلزم عدم النظر للنسب والمال في مثل هذا، بل لكل ولاية ما يناسبها من نوع العلم، والكمال النفسي والجسمي. وأن الجاهل لا تقوم به قيادة ولا إدارة، ولا زمام أمر من أمور المجتمع. كما أن مطلب الكمال الجسمي وتمامه وقوته وبسطته في الأمور العسكرية أمرٌ متعينٌ في الأحقية.

ثم انتهت الآية الكريمة بموعظة عظيمة ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فتبارك وتعالى واسع في علمه وعطائه وفضله وقدرته، وهو العليم بأحوال العباد، وتفيد كذلك بأن الله تعالى هو الذي وسَّع وبسط عليكم رزقه، وهو العليم بطالوت فأعطاه الملك من بينكم. وأنه عليم بما يختار ويصطفي، وبالتالي ليس لأحد حق الاعتراض على أمر الله تعالى، الذي كَمُلَت صفاته وتعالت بالكمال في الْوِسْعِ والتوسعة على من يشاء من عباده، وأنه عَزَّ وجل هو العليم بما يختار ويعطي. فسبحان الله الواسع العليم.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾

ثم بين لهم نبيهم علامات ملكه، قال الله تعالى ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ مما يفيد أهمية البرهان لتأكيد الحقائق وإقامة الحجة، خاصة للمتعنتين، وذلك من أجل إخضاعهم للحجة، التي هي ركيزة ووسيلة لتقوية الثبات. وكذلك وسيلة في اجتماع الكلمة وتحقيق البناء الاجتماعي الْمُتَماسك، وكذلك في التأثير التربوي والدعوي، أثناء وعند تنفيذ المهام الإدارية والقيادية التي قد تستدعي البرهان على صحة الأمر، أو في تعيين أفضل البدائل الْمُرَاد الأخذ بها.

وقد تَضَمَّنَ السياق القرآني الكريم، تلك الحجة والعلامة الدالة على الصدق والحقيقة، قال تعالى ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فالعلامة الأولى: أن يُعَاد ويُرَدَّ عليكم التابوت الذي أُخِذَ منكم ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ والثانية: أن فيه سكينة من الطمأنينة والرحمة ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ومن فضائل نعمة السكينة، ما تُحدثه في القلب من القوة والرضا والسعادة الباعثة على رباطة الجأش، وزيادة الإيمان وعدم الجزع، وقد امتن الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بما أنزل عليهم من السكينة، كما في سورة الفتح ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ وقال تعالى ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فهي نعمة عظيمة. وفي دلالة جملة ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يفيد التفضل ابتداءً من الله تعالى بهذه السكينة عليهم. وأما الآية الثالثة: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ وهي عصا موسى وعصا هارون، والتوراة، وثياب موسى وثياب هارون. والرابعة: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا طالوت.(١)

وهذا يُفيد ويبين عظمة قدرة الله عَزَّ وجل، وكذلك عظمة آياته وحججه الباهرة والظاهرة في كل وقت وحين، فيوجههم نبيهم إلى هذه الآية الباهرة، التي توجب إيمانهم به، وبطالوت ملكاً عليهم. قال تعالى ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن في هذه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٠٩/١)

الحجج والآيات الباهرات ما يستوجب منكم الطاعة والامتثال إن كنتم حقاً مؤمنين. ومما يفيد فإن كنتم لستم من أهل الإيمان إذا ظهرت الحجج والبراهين فكونوا كما أنتم. والذي يعني المتاركة لهم، فإما أن تؤمنوا فتنالوا الخير، وحسن العاقبة، وإما أن تكفروا وتنالوا ما تستحقون من العذاب. مما يفيد أن الآيات توجب الإيمان، وأن من يُعرض عن الإيمان بعد الآيات فهو الجاحد المكابر المعاند. فالتصديق بالايات علامة الإيمان، وأن التكذيب بها علامة الكفر والجحود.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾

ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى مشهد آخر من مشاهد طالوت وجنوده، قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ فلما خرج طالوت لمقاتلة عدوهم أخبرهم بأن الله ربكم ممتحنكم ومختبر طاعتكم وامتثالك له بنهر أمامكم لتعبرونه، ليتميز المؤمن الصادق من الكاذب. فبينت هذه الآية الكريمة أول مسار الجيش وانفصاله عن ديارهم، وهم في اتجاههم للعدو، بقيادة ملكهم طالوت، وأخبرهم بما سوف يواجهم ويقابلهم من الابتلاء والاختبار، مِنْ أنَّ الله تعالى مبتليهم بنهر ماء، وبين لهم ما ينبغي عليهم حيال ذلك، فقال الله عَزَّ وجل ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وهذا يفيد بأن هذا القرار هو اختبار وتمحيص لقوة الإرادة والصبر والتحمل، فمن يشرب من الماء يكون قد ضَعُفَت إرادته أمام الماء، فهو للعصيان عند الشدائد أقرب. ومن يترك شُرب الماء فهو أقدر على ضبط النفس وعلى الصبر والتحمل للشدائد. مما يفيد أهمية التمحيص والاختبار. فإن لله تعالى الحكمة البالغة في الابتلاء والاختبار بما يشاء، كابتلائه عَزَّ وجل للمؤمنين في الصيد وهم حُرُم.

وجملة ﴿ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ تفيد أن الصحبة تُشكل كُلاً واحداً للرفقة، وكأنهم جسدٌ واحدٌ، فمن افترق عن الرفقة، فكأنما انقطع عن هذا الجسد الذي تُمثله كتلة الرفقة. والذي يتمثل في القائد، كما أن السياق اللفظي يعطي فائدة بأن القائد يمثل الكل، وأن من معه يمثلون جسد الكل بأجزائه المختلفة، حيث قال ﴿ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ مع أنهم جماعة كبيرة، ولكن عَبَّر بذلك عن قيادته وعن وجوب طاعته واتباع أوامره وإن خالفت طبيعتهم وحاجاتهم وأهواءهم، وهذا يعطي فائدة عظيمة من أن القائد يمثل الكل والجميع ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ ﴾ ومن لم يطعمه، فإنه قد امتثل للأمر، وبالتالي فإنه من أصحابي، فكان جزءٌ من هذه الرفقة.

ودلالة كلمة ﴿ يَطْعَمْهُ ﴾ أي يذقه. واستثنى مَنْ أخذ بالمقدار الذي استثناه الله تبارك وتعالى ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ﴾ والاغتراف هو الأخذ من الشيء باليد وبآلة، ومنه الْمِغْرَفَة.(١) ومن فوائد ذلك أن لله يحكم ما يريد، وأن على المؤمن طاعة الله تعالى. وكذلك أهمية العناية بالاختبار. فإن أهميته للأمور والمهات تُقَدَّر بحسبها، لأن في التمحيص ما يبين الصالح وغير الصالح، ويبين التفاوت في القدرات التي يتأهل بها البعض دون البعض الآخر. وأن على القائد أن يُمحص ويُتابع الأمر في الاختبار، وفي التطبيق والتمحيص والتفنيد. وأن هذا من الأمور التي تتقوى بها الإدارة في كل مرفق، وفي كل مستوى، بل وتتقوى به المصالح العامة والخاصة، وأن كل فئة من الناس يتمثل فيها تفاوت القلوب والعقول والإيمان. وكذا الطاعة والاستجابة للأوامر والنواهي.

وفي قوله ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ ﴾ ما يفيد أمر الحسم والإخبار بالمطلوب، وما ينبني عليه من القرارات، وكذا التشجيع بما يناسب الحال والموقف، فدلالة ﴿ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ وكذا لفظة ﴿ مِنِّي ﴾ فيها التشجيع للاستباق نحو معية الصالحين، والتحذير من الانقطاع عنهم، بسبب ما يواجه المرء من الشهوات. وفيها كذلك التشجيع على الصبر

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/١٦٥)

والتصبر عن الشهوات، وأن الإيمان ضابط للسلوك البشري، وموجهٌ له نحو الصلاح في أحلك الأمور، ومنها مواجهة الشهوات. مما يدل على أهمية التربية الإيمانية، لتحقيق قوة الأمة وقوة الدولة والمجتمع، والأداء المنضبط بحفظ الحقوق.

ويفيد هذا أن جانب الابتلاء والتمحيص متعلق بهذا الإنسان، وأن الله تعالى يبتليه، حتى وإن كان سائراً في الطاعة. فبالرغم من أنهم هم القليل الذين قَبِلُوا بالقتال، ومع هذا كانت أول الخطوات هي الابتلاء، حتى يُدرك المسلم أن الابتلاء لا يعني عدم رضى الله تعالى عن العبد، بل إنه سُنّة من سُنن الله تعالى للناس في هذه الحياة الدنيا. وألا يُنْظَر للمُبْتَلى أنه معاقب، أو مَبْغُوض من الله تعالى، وليوطن المؤمن نفسه من أن الله تعالى قد يبتليه وهو في مسار الطاعة، فيسأل الله تعالى العافية.

ثم بعد أن وصلوا النهر جاء موقف الفرز، قال تعالى ﴿ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ فالكثير همُ الذين شربوا، مما يدل ويفيد: أن الكثرة قد لا تكون هي الصائبة، فالحق مع من اتبع الهدى وإن كانوا قليلاً. فالقليل هم الذين لم يشربوا.

ثم يُخبر الله تعالى بمجاوزتهم ومغادرتهم النهر، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ ثم يأتي الموقف الآخر الذي يظهر فيه مزيد من التمحيص والفحص والاختبار لمكونات الجيش الإيمانية، وهو مشاهدة عدوهم جالوت، قال الله تعالى عنهم ﴿ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ مما يفيد أن عدد عدوهم كان كثيراً جداً، مما أذهل جنود طالوت. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: جاز معه النهر أربعة الاف رجل، فيهم من شرب. فلما نظروا إلى جالوت وجنوده، وكانوا مائة ألف. فرجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون.[١] وأمام هذا الموقف انقسم الجند إلى قسمين: القسم الأول قالوا ﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/١٦٦)

وَجُنُودِهِۦ ﴾ والقسم الثاني ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ فالقسم الثاني بلغوا من الإيمان ما جعلهم يوقنون بأن النصر من عند الله تعالى، وإن قُتِلُوا سيلقون الله تعالى شهداء. لأن الظن هنا بمعنى اليقين، أي يتيقنون.[١] مما يفيد أن الإيمان هو مصدر الثبات، وأن ضعف الإيمان مصدر الشك الذي يؤدي إلى الخوف نتيجة الرهبة من الكثرة، والخوف من الموت، والخوف من الفشل، والخوف من الإقدام، وأما الإيمان فهو قوة للثبات وقوة للشجاعة، وقوة لفعل الخير، وقوة للإنفاق، وقوة للإقدام. وفي جملة ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾ ما يفيد إيمانهم بالحياة الآخرة بعد الموت، وإيمانهم بأنهم سيلقون الله تعالى، وإيمانهم بأن الله تعالى سوف يأجُرُهُم على قتالهم في سبيله سبحانه وتعالى. وهذا يفيد عسكرياً وتربويا ودعوياً ومهنياً وإدارياً، أهمية التربية الإيمانية التي تجعل من المؤمن قوة لا تنحط ولا تنكسر ولا تنثني، بل قوة قائمة صامدة أمام المخاوف وأمام المغريات.

ومن جميل فهمهم وقوة معتقدهم الإيماني أنهم لم يجعلوا النصر بالكثرة، بل أيقنوا أن النصر بتأييد الله تعالى للمنصور، قال تعالى عنهم ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ فاعتصموا بالله تعالى واستيقنوا بِنُصْرَة القوي العزيز كما هي عقيدة المؤمن، بأن الغلبة والنصر هي بتأييد الله تعالى. وفي جملة ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ ﴾ ما يفيد كثرة انتصارات الفئة القليلة، أي ليس مرة ولا مرتين، بل مرات كثيرة، انتصرت فيها الفئةُ القليلة على الفئةِ الكثيرة، وذلك ﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ وهنا ربطوا النصر ﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ مما يؤكد صحيح الفهم والاعتقاد، من أن كل شيء بإذن الله تعالى.

وجملة ﴿ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ قوة اعتقادية وعملية عظيمة للمؤمن، إذ بها يتوكل على الله تعالى، وبها يَرضى بنتيجة أمر الله تعالى. فإذا أخذ بالأسباب اعتقد أنه سيتمكن بإذن الله تعالى، وإن

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٦٥/١)

حصل ما لا يريد أيقن وقال: لم يأذن به الله تعالى، وإن تردد في شيء استقوى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وإن أخافه شيء انتصر على خوفه ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وإن استشعر خذلان غيره له اطمأن بقوله كل شيء ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وإن رأى بريق ما يحب قال ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وإن تحقق ما يحب، قال: الحمد لله، وقد حصل ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فتكون ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هي القوة التي يمتلئ القلب بها في كل وقت وحين، وفي كل شأن من شؤون الحياة. ثم قالوا ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وهذا تقرير بما تعلموا بأن الله تعالى مُعِين ومساند للصابرين. فهو معهم بتأييده ونصره وتوفيقه ومؤازرته. مما يدل ويفيد، أن الصبر وسيلة من الوسائل التي يستعين بها المؤمن على معية الله تعالى له في قضاء حاجاته وتفريج كرباته، والانتصار بها على ما يواجهه في الحياة.

مما يفيد أن دلالة ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قاعدة يستقوي به المؤمن على قضاء حوائجه، وما ينوبه من ضرر وكربات. فحينما تواجهه صعوبةٌ يستعين عليها بتطبيق قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وإن شرع في عمل استعان في قضائه بقوله ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لأن كل عمل يحتاج إلى الصبر، وإن تقاعست نفسه عن طاعة، تذكر قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وإن واجهته شهوة خاطئة استعان في التوقف عنها بتطبيق قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وإن رأى غيره متقاعس عن خير، أو مندفع لمعصية، وعظه بقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فهي قوة لمن تذكرها وعمل بمقتضاها، حتى يكون الله تبارك وتعالى معه فيما هو فيه من دفع شر أو جلب خير، أو تفريج هم، أو إجلاء حُزن، أو دفع كسل أو رفع عجز.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾

ثم ينتقل المشهد القرآني إلى بيان المواجهة بين طالوت وجالوت. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ وهذا هو أول بَدْء اللقاء، فحين ظهر جنود طالوت في أرض المعركة لجالوت قائد العمالقة، ومعه جنوده استعانوا بالله تعالى، الذي وفقهم بفضله تبارك وتعالى إلى ذكره أمام الحشد الهائل لجالوت وجنوده، فبادروا بالدعاء ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فأول دعاؤهم ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ لأن لقاء العدو يحتاج إلى الصبر، وكذا كل أمر يواجه المرء يحتاج إلى صبر. ثم في هذا الدعاء ما يفيد أن المؤمن يطلب الصبر من الله تعالى. فقد طلبوه من الله تعالى. مما يفيد أن المؤمن يصبر ويطلب من الله تعالى أن يصبره، فلا يعتمد على جهده وظنه بنفسه، بل يلجأ إلى الله تعالى فيما يقصده.

ثم طلبوا من الله تعالى التثبيت ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ فتثبيت الأقدام أمام الفواجع عزيز وصعب المنال، إلا بتوفيق الله تعالى، والثبات وعدم الفرار من العدو في الحرب وفي غيره أمرٌ يحتاج إلى قوة إرادة يمنحها الله تعالى للعبد، إذ لا ثبات لمن لم يعينه الله تبارك وتعالى حتى يثبت قلبه وقدمه أمام صليل السيوف. ثم سألوا الله تعالى النصر ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فسألوا الله تعالى النصر على هؤلاء الكفار، مما يُعَلِّم المؤمنَ أن النصر في كل باب هو من الله تعالى، ومنها باب الانتصار على الكفار في ميدان المعركة، مما يلزم المؤمن أن يطلبه من الله تعالى، ولا يعتمد على قوته وقدرته، حتى لا تخذله ظنونه في الميدان، بل يعتمد على قوة الله تعالى ونصرته.

وهذا يفيد أهمية الدعاء في كل وجه، وفي كل باب، وفي كل حال وحين. فلا نصر إلا بالله تعالى، ولا ثبات إلا بالله تعالى، ولا صبر لأحدٍ إلا بالله تعالى، ولا يُستجلب خيرٌ إلا بالله تعالى، ولا يندفع شر إلا بالله تعالى.

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾

ثم ينتقل المشهد إلى نتيجة المعركة، بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فكانت المبادرة في القرآن الكريم إلى إعلان النتيجة، بهزيمة الكفر، ولكن هزيمتهم لم تكن بسبب قوة جيش طالوت، لأن قوتهم لم تكن متكافئة مع قوة جيش جالوت، لا من حيث العدد، ولا من حيث العتاد، ولكن كانت الهزيمة ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ كما قال تعالى ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ لأنهم اعتمدوا في هزيمة عدوهم على الله تعالى، بإذن الله القوي العزيز، كما قالوا في الآية السابقة ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فالذي أنزل النصر هو الله القوي العزيز. مما يفيد أهمية الاعتماد على القوي العزيز، وأهمية التوكل على الله تعالى رب العالمين.

ثم يكشف ويبين الله تعالى الرجل الفارس الذي قتل جالوت، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ حيث خرج داود عليه السلام من جيش طالوت، فقتل جالوت، ثم يقول الله تبارك وتعالى ممتناً على داود عليه السلام ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ فقد تفضل الله تعالى على داود عليه السلام بأن آتاه الْمُلْك بعد طالوت، وكذلك ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وهي النبوة بعد النبي شمويل.[١] فجمع الله تعالى له بين الملك والنبوة. بل وتفضل الله تعالى عليه

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١/٣١٠)

بقوله جَلَّ جلاله ﴿ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ أي: علمه ربنا من العلم الذي اخْتَصَه به تبارك وتعالى. وهذا يؤكد ويبين أن الله تعالى هو الذي يُؤتي العلم، وهو الذي يُؤتي الملك لمن يشاء من عباده، إذ كيف هيء الْمُلْكَ والرسالة، لداود عليه الصلاة والسلام. وزاده بفضله من العلم الذي اختصه به.

ثم يبين الله تعالى حكمته في الدفع ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ فلولا دفع الله تعالى عن قومٍ بقومٍ آخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لَهَلكُوا.[1] مما يفيد أن لله تعالى الحكمة البالغة في تسليط قوم على قوم، لدفع الشر به عن قوم آخرين. قد يعلمون بذلك ويشعرون بهذه النعمة، وقد لا يتنبهون لها، مما يلزم المسلم التفكير فيما يمر به وبحال المسلمين من أحداث، وما يرى فيها من صراع، ليدفع الله تعالى به عن قوم آخرين شراً عظيماً.

واشتملت الآية الكريمة على الحكمة من هذا الدفع، في قوله جَلَّ جلاله ﴿ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ فلولا هذا الدفع من ربكم لفسدت الأرض بما يحدث فيها من الظلم، الذي يصرفه ويصده ويدفعه ويُبعده ربكم بهذ التدافع. فإن هذا التدافع لبقاء الصالح، وحفظه من فساد وشر الفاسد الظالم ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ فلا ينحصر النظر لهذا التدافع، من باب ووجه هلاك المقتولين فقط، بل يُنظر للوجه الآخر أيضاً، حتى تكتمل حقيقة الحكمة والنعمة، وهو بقاء الصلاح والصالحين فيها، من أجل إصلاحها بالخير، والحفاظ على وجود الصالحين المصلحين، وكذلك لدفع الفساد عن الأرض، ببقاء الصالحين وهلاك الفاسدين، وكذلك يفيد هذا أن فساد الأرض هو بسبب من عليها، لما يحصل منهم، من الجور والظلم، وأن صلاحها بصلاح الصالحين. كما يُستفاد من هذه الآية الكريمة أن الصراع بين الحق

---

(١) المرجع السابق (٣١٠/١)

والباطل مستمر إلى يوم القيامة، حتى لا يهلك الصالح بقوة وفساد الفاسد. فالحمد والشكر لله تعالى، الذي يدفع عن الصالحين بمنهج التدافع.

ولو استصحب الإنسان هذه الحكمة الربانية في عموم الحياة، لوجد صورها وأحداثها وحقائقها أمامه، في جميع عموم مضارب الحياة المختلفة، بما يحقق المنافع، ويدفع المضار والمصائب في مجالات الحياة المتعددة والمختلفة: كالتجارة والتداوي والشفاء، وفي الأرزاق وغيرها. فيأتي هذا ليدفع به عن آخر، ويجيء هذا ليحصل له من هذا خير لم يتوقعه، وتتهيأ لهذا أمورٌ لم تخطر بباله، فيحصل له ما لم يحتسبه من فضل الله تعالى، فمن الذي دفع بهذا لهذا حتى يحصل لطرف ثالث أو أكثر من فضل الله تعالى ما لم يتوقعه؟ وربما يأتي هذا ليدفع الله تعالى به شراً عن آخر. فسبحان الله تعالى، له الحكمة البالغة في تدبيره واختياره. وهذا كله من فضل الله تعالى ورحمته، كما جاء في ختام الآية الكريمة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإن فضل الله تعالى على العالمين كبير وعظيم لو تأمله الإنسان. وهذا يتطلب أموراً: فمنها: طاعته جَلَّ جلاله، والتوكل عليه عَزَّ في علاه، والاستعانة به في كل أمر، فهو الذي يدفع بحكمته البالغة، وإرادته النافذة، وسلطانه العظيم، وقدرته القاهرة. كما يتطلب هذا من المؤمن، التفكر في شأنه وشأن المجتمعات، وكيف يدبر الله تعالى أمور العالمين، بدفعه الناس بعضهم ببعض، حتى لا تفسد الأرض، بقوة وكثرة فساد الفاسد، وهلاك القليل الصالح.

ومن الفوائد: أن الآية الكريمة قد قررت أنَّ فضل الله تعالى عام على خلقه أجمعين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ليشمل الإنس والجن، وجميع المخلوقات. فإن فضل ربكم عليكم واسع وعظيم.

ثم يبين الله تعالى مغزى وغاية وهدف بيان تلك الآيات من الحجج والبراهين، فيقول تبارك وتعالى ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فهذه الآيات التي ذكرناها وبيناها لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم هي حجج الله جَلَّ جلاله وبراهينه ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ نتلوها عليك بالصدق الذي لا باطل فيه أبداً. بما يفيد صدق هذا القرآن

العظيم، بما اشتمل عليه من الأدلة والبراهين. وبالتالي فإن فيها ما يُثْبِتُ نبوتك. فتلك آيات الله التي أنزلناها إليك نتلوها عليك بما ينزل به جبريل على الرسول صلى الله عليه وسلم، بأنها تأتيك ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: بالصدق الذي لا شك ولا مراء فيه. بما يثبت ويُظهر به نبوتك.

ومن غزارة البيان الكريم وقوة بلاغته البيانية أن بدأت الآية باسم الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ لتفيد الاستقصاء لجميع الآيات السابقة، مع التعظيم لشأنها ومنزلتها. ثم أضاف سبحانه وتعالى الآيات إليه عَزَّ وجل ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ لتعظيمها، مع بيان حقيقتها، بأنها حجج الله سبحانه وتعالى التي تُلِيت عليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم أسند التلاوة منه مباشرة سبحانه وتعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ وذلك على الأصل من أنها من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن جبريل ما هو إلا رسول الله من السماء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام. كما أفاد هذا الإسناد تعظيم منزلة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتعظيم السند، وقوة التزكية لجبريل عليه السلام، بأنه تلاه على الرسول صلى الله عليه وسلم كما تلاه الله سبحانه وتعالى عليه. كما أفاد ذلك العناية والشرف العظيم والمنزلة الكريمة لآيات الله تعالى، التي هي آيات القرآن الكريم. وزاد تعظيمها بتزكيتها أنها ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: أنها لا باطل فيها، وبالتالي فإنها محفوظة من أن يدخلها الباطل. فهذه دقائق تبين قوة وعظمة نَظْم القرآن الكريم، وغزارة دلالته وبلاغة معانيه، ودقته التي بلغت كمال الغاية.

ثم يبين الله تعالى مغزى بيان هذه الأحداث. بأن فيها ما يُثْبِتُ نبوتك ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ليرد على كل من يقول للنبي محمد صلى الله عليه وسلم: لست مرسلا. فهذه أحداث ماضية لا يعلمها إلا أهلها بعد الله تعالى، فَيُخْبِرُ بها النبي الأمي، الذي لا يقرأ ولا يكتب صلى الله عليه وسلم.

ويتبين من هذا القصص أنه وسيلة دعوية وتربوية، وهداية وإعجاز في ألفاظه ومحتواه، وفيه دروسٌ وعِبَرٌ، وبيانٌ لحكمة الله تعالى وقدرته العظيمة، وسُننه سبحانه وتعالى في تدبير خلقه،

وأنه هو القاهر فوق عباده، مما يتطلب من المؤمنين توظيف محتوى القرآن الكريم في منهج تربوي ودعوي، وأيضاً تنظيمي وتخطيطي وتشريعي، لما فيه من المضامين العظيمة التي تهدي للتي هي أقوم في كل باب وجانب من جوانب الحياة المختلفة.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان تفاضل الرُّسُل ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ فَرُسُلُ الله تعالى مُتَفَاضلون بينهم، بما فضل الله بعضهم على بعض. فالتفضيل ليس منهم، بل هو من الله تبارك وتعالى ﴿فَضَّلْنَا﴾ حيث نسب التفضيل له جلَّ جلاله ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ مما يفيد أن الله تبارك وتعالى هو الْمُفَضِّل وهو المتفضل بما يَخُصُّ به الرسولَ من رُسِلِه، بخصائص وقدرات ومعجزات، فيفضله عن غيره من الرُّسُل.

كما يفيد هذا أن مقام التفضيل من الله تعالى للأنبياء، وليس لأحد من خلقه، بل يجب الانقياد والإيمان والتسليم بذلك. كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم (لا تُخَيِّروا بين الأنبياء)[١] (لا تفضلوا بين أنبياء الله)[٢] وهو سبحانه وتعالى الذي فضل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء والمرسلين. كما قال صلى الله عليه وسلم (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشَفَّع)[٣] فلم يأمر اللهُ تبارك وتعالى عبادَه بأن يتعبدوه بالمفاضلة بين أنبيائه، بل يؤمنون بهم جميعاً، وأن الله تعالى هو الذي فاضل بينهم بحكمته، وأن مقام التفضيل والتفاضل له وحده سبحانه وتعالى.

---

(١) البخاري (٤/٢٧٧) برقم (٦٩١٦)

(٢) مسلم (٤/١٨٤٣ – ١٨٤٤) يرقم (٢٣٧٣)

(٣) مسلم، يرقم (٢٢٧٨)

ومن ذلك التفضيل، قوله تعالى ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ فتكليم الله تبارك وتعالى فضل مزية للنبي، كموسى عليه الصلاة والسلام، فهو كليم الله تعالى. وقال تعالى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ كما جاء في حديث الإسراء، حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم في كل سماء أنبياء بحسب منازلهم[1] وقال الله تعالى عن عيسى عليه السلام ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ فقد أيد الله تبارك وتعالى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بالمعجزات الدالة على صدق نبوته. فقال عزَّ وجل ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وكذلك ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام.

ومن بعض تلك الفضائل أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليل الله، وموسى كليم الله تعالى، وداود عليه الصلاة والسلام آتاه الله الملك والحكمة، وعلمه صنعة الدروع، وعلم سليمان عليه الصلاة والسلام منطق الطير، وسخر له الجن، وعيسى عليه الصلاة والسلام يُبرئ الأكمه والأبرص، وينبؤهم بما يأكلون وما يدخرون، وغير ذلك من الفضائل والآيات. ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أُسري به، وأُرْسِل إلى الثقلين: الإنس والجن، وفضل الله تعالى أمته، وجعله خاتم الأنبياء، وتكثير الطعام، ونبع الماء من تحت اصبعيه، ونصره بالرعب. وغيرها من الفضائل. فجميعها من الله تعالى.

وهذا التنويه والبيان من الله تبارك وتعالى يفيد في فهم منهج التفاضل بين العباد، من أن الأفراد من الناس، عندما يُفَضِّلُ اللهُ تعالى بعضَهم على بعضٍ بفضل مزية، فإنه هو المتفضل، وليس الشخص تفاضل على غيره بما لَهُ من خصائص، لأن الذي منحه تلك الخصائص هو الله الغني الكريم، فلا يفخر بها على غيره، أو يتكبر بها على غيره. لأنه لم يتفضل بها على نفسه، ولا يستطيع ذلك، بل الله تعالى هو المتفضل عليه بما أنعم وخصه من كريم عطائه سبحانه وتعالى. وهذا يفيد أن تُنسب النعم كلها لله تعالى.

---

(١) البخاري (١٣٢/١) برقم (٣٤٩)

وكلما بعث الله تعالى رسولاً من رُسُلِهِ على قومٍ، استوجب ذلك الإيمان به وطاعته، وذلك لِمَا أظهر الله تعالى على أنبيائه من البينات والمعجزات، ولكن أكثر أقوامهم كفروا وانحرفوا، ونتيجة لهذا الانحراف حصل الاختلاف، وأصبح هناك المؤمن والكافر، فنتج عن ذلك الاقتتال بينهم. قال تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ فلو شاء وأراد الله تعالى أن لا يقتتلوا من بعد ما اتضحت لهم البينات، التي جاء بها الرُسُل الكرام، لكان ذلك، لما له من كمال الإرادة والسلطة والقدرة والقهر، فليس ذلك الكفر خروجاً عن سلطانه وقهره. فنفى سبحانه وتعالى عن ذاته الكريمة كل نقص، بإثبات كمال القدرة والمشيئة له عَزَّ في علاه ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ ولكن بسبب الاختلاف على النبي الْمُرْسَل، حصل هذا الاقتتال ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ مما يفيد أن الاختلاف في الملة شرٌ مُوجب للعداوة والاقتتال. وكذلك يفيد هذا خطورة الاختلاف في تجزئة الملة، التي ينتج عنها التصنيف التكفيري.

ثم يقول تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ وكذلك لو أراد الله تعالى ألا يقتتلوا، لكان ذلك، فأثبت سبحانه وتعالى مشيئته فيما لو أراد ألا يحصل بينهم الاقتتال، لكان ذلك، وبهذا نفى سبحانه وتعالى عن ذاته الكريمة كل نقص، بإثبات القدرة والمشيئة له تبارك وتعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ فإن هذا كله لأن الله تعالى يفعل ما يريد، وبالتالي نفى عَزَّ وجَلَّ كل شيء يحصل بغير إرادته، فإرادته كاملة سبحانه وتعالى. ولا شيء يحصل من غير مشيئته، ولو شاء الله تعالى ألا يكون الشيء الحاصل على ما هو عليه لما حصل، ولكان الشيء والأمر كما شاء الله سبحانه وتعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الحث على الإنفاق ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ فيستهل الخطاب في الآية القرآنية الكريمة، بأسلوب النداء، الذي يفيد شد الانتباه، لما يُلْقَى إليهم، لإثارة همتهم المتعلقة بآخرتهم.

وفي مخاطبتهم ومناداتهم بالإيمان رتبة عظيمة من الله تعالى لهم، وتقرير إيمانهم به، منه تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأي نعمة أجل من هذه النعمة الكريمة، بهذا النداء، وبهذه التزكية لهم بالإيمان، وهذا كله ليلفت انتباههم، وليعلمهم ما ينفعهم. ويفيد هذا تربوياً أهمية مناداة المتعلم والمدعو، بأفضل ما يمكن أن يُنَادَى به، فإذا كان هذا هو الله تعالى ينادي عباده بهذه الرتبة العظيمة، فكيف العبد مع عبد مثله.

وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] وهذا النداء يحمل في دلالته التكريم للمُخَاطَبين، مع شد الانتباه لهم بما يجب عليهم من إنفاذ توجيهات ربهم سبحانه وتعالى.

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم عليه من التصديق والإيمان، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، والتشجيع والترغيب لهم في متابعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في كل

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

أمر وشأن. إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به، وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو سيدهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم يُحثهم الله تعالى على الإنفاق، بأسلوب قد اشتمل على ثلاثة محفزات: الأول: التحفيز التشجيعي، بمناداته سبحانه وتعالى لهم بالمؤمنين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ والتحفيز الثاني: بصغة الأمر، بقوله تعالى ﴿أَنفِقُواْ﴾ لأن في الأمر تقوية لإرادة المؤمن تجاه ما يُحب، بأن يُنفق منه، مما يفيد أن بعض المطالب تحتاج أن يكون فيها السياق بالأمر، مع ما كان قبلها من التشجيع والتكريم، أي جمعت الآية الكريمة بين عوامل التحفيز بالتشجيع ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وبين الأمر ﴿أَنفِقُواْ﴾ ثم التحفيز الثالث: ببيان العلة الْمُرَغِبَة في الإنفاق ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾ وهذا الأمر بالإنفاق ليس هو بجميع ما عند المؤمن، بل بجزء مما عنده من الرزق ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ وهذا من لطفه سبحانه وتعالى وعظيم منهجه، وكريم حكمته عَزَّ وجل. وفيه كذلك من الفوائد: إثبات أن ما عند العبد من رزق، فهو من الله تعالى تفضلاً منه وكرماً، حيث يقول تبارك وتعالى ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾ فنسب الرزق الذي عند

العباد له سبحانه وتعالى ﴿ مِمَّا رَزَقْنَكُم ﴾ وبما يفيد كما رزقناكم نزيدكم من الرزق، فكلما أطعتم ربكم رضي عنكم فزادكم من فضله.

وفي دلالة ﴿ مِمَّا رَزَقْنَكُم ﴾ ما يفيد التبعيض، أي ليس كل ما رزقناكم تُنفقونه، بل بشيء منه، كما أن من لطفه تبارك وتعالى أنه لم يحدد الكمية والمقدار، بل جعلها بحسب تقدير الْمُنْفِق وسخائه وكرمه، وحاجته وتقديره للموقف. وشملت دلالة ﴿ مِمَّا رَزَقْنَكُم ﴾ جميع أصناف الرزق، ولم يُحصر في نوع معين، لتستوعب جميع عطاء الله تعالى ورزقه، من عِلم ومال وطعام، وكسوة، وأنعام، أو جهد بدني، أو جاه، فجميعها وغيرها، هي أرزاق من فضل الله تعالى.

فسبحان من استوعب كلامه مراده في أبلغ بيان، إذ كيف استوعبت ﴿ مِمَّا رَزَقْنَكُم ﴾ العديد من الفوائد والدلالات، في التنوع والمقدار، وفي تقدير حال الْمُنْفِق والْمُنْفَق فيه وعليه. فسبحان من جمع كلامه فصل الخطاب، وجمال البيان، وعظيم الأساليب البلاغية، والدعوية، والتربوية.

وتستثير الآية الكريمة عند المؤمن، جانب الإنفاق بسخاء، من خلال تذكيره بيوم الحساب ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ ﴾ هذا اليوم الذي تنتفي فيه القدرة على بيع شيء مما رزق اللهُ تعالى العبدَ في الدنيا حتى يشتري به ما يحتاجه في الآخرة من الحسنات والدرجات والجنات، ودفع العذاب، والابعاد عن النار، فلا مجال للبيع البتة ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ وكذلك ﴿ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ وهي الصداقة التي تنفع، فإنها تنتهي. وكذلك ﴿ وَلَا شَفَعَةٌ ﴾ فلا أحدٌ يشفع لأحدٍ إلا بإذنه سبحانه وتعالى. فإن أسباب الاستفادة في الآخرة من أمور الدنيا تنتهي يوم الحساب، إلا بما قدم المؤمن في دنياه لآخرته. ففيها الاستحثاث على اغتنام الفرصة، بأسلوب التذكير والتحذير مع التشجيع، الدافع لاغتنام فرصة الحياة، وفرصة قبول البيع والمعاوضة في الدنيا. ثم إن المستفيد من هذا هو المؤمن المنفق، فإنه يستفيد من إنفاقه في الدنيا، ليجده أمامه في الآخرة، فيرفع الله تعالى به درجاته، ويمحو به سيئاته. كما أن في هذه الأمر من الله العزيز الحكيم،

ما يدل على أهمية النفقة، وفضلها على المنفق في الآخرة. وكذا عناية منهج الإسلام بالتواصل الاجتماعي من خلال النفقة، وأن يَتَفَقَّد أحوال الآخرين، ومواصلتهم بالنفقة في كل باب يستطيعه المؤمن.

ثم تنتهي الآية الكريمة ببيان حال الكافر، قال تعالى ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهذا حصر للظلم الكامل بأنه واقع في الكافرين، فليس هناك أظلم ممن يلقى الله تعالى وهو كافر. لما حصل منهم من الظلم بما أنعم الله تعالى عليهم. فظلموا أنفسهم ببغيهم وكفرهم. وظلموا غيرهم بما يكون منهم من الاعتداء والجور، وظلمهم للحق الذي جاءهم من الله تعالى بإنكاره، وظلمهم للمرسلين عليهم الصلاة والسلام بتكذيبهم ومحاربتهم لهم، وظلمهم لكتب الله تعالى بإنكارهم لها. مما يفيد التحذير للمؤمن من أن يسلك مسلك الكافرين الضالين، الظالمين.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾

ثم تأتي آية الكرسي، التي هي أعظم آية في كتاب الله تعالى، كما ورد في الحديث، أن النبي صلى الله عليه وسلم، سأل أُبي بن كعب (أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: الله ورسوله أعلم. فرددها مراراً. ثم قال: آية الكرسي، قال (والله! لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر)[١]

وقد افتتح الله سبحانه وتعالى آية الكرسي العظيمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ فكان مطلعها لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ثم بيان وحدانيته عَزَّ وجل، بأن الله هو الاله الذي لا إله غيره، فدلالة ﴿ لَآ إِلَٰهَ ﴾ تفيد نفي ألوهية غيره سبحانه وتعالى، فلا معبود بحق غيره عَزَّ وجل، وأن غيره دونه، فلا يُعبد إلا هو سبحانه وتعالى، مما يفيد أن من عبد غير الله تعالى، فقد كفر بربه وخالقه عَزَّ وجل. وجملة ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ حصرٌ للعبودية فيه عَزَّ وجل، فلا إله يُعبد في الأرض ولا في السماء غيره تبارك وتعالى. وأنه ﴿ ٱلۡحَيُّ ﴾ فغيره يموت، فانحصرت ديمومة الحياة الكاملة له تبارك وتعالى، وبالتالي كل معبود يُعبد من دون الله تعالى سيموت، إن كان من الأحياء، ويندثر ويهلك إن كان من الجمادات. فلا حياة من دون موت، ولا وجود لشيء من غير زوال، إلا الله تبارك وتعالى.

وأنه تبارك وتعالى ﴿ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ الذي قام بنفسه، واستغنى عن غيره، مما يفيد أن غيره غير قائم بنفسه، بل مُفْتَقِرٌ إليه في وجوده، ابتداء ونمواً وحركة وحياة، وموتاً وانعداماً، وإعادة

---

(١) مسلم، صحيح مسلم (٥٥٦/١) برقم (٨١٠)

ورزقاً، وعافية وصحة، وفي كل أمرٍ من أمرِه، ظاهراً وباطناً. وبالتالي فهو الْمُوجِدُ الخالقُ لكل مخلوق، والْمُمِد له بما يحتاجه لقوامه. وأنه تبارك وتعالى ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ فلا ينعس، ولا ينام، وهذه من صفات القوة والعظمة، والكمال، لأن الذي ينام ويسهو يعتريه الضعف والتعب والإجهاد. وهي صفة النقص التي في مخلوقاته سبحانه وتعالى، مما يفيد حاجة المخلوق للخالق الذي من عظمته وجلاله لا ينعس ولا ينام، فسبحان الله العظيم، فكيف يتوجه المخلوقُ لمخلوقٍ مثله، ناقص الإرادة، وتعتريه تلك النواقص، ويترك عبادة كامل الإرادة.

ثم بينت هذه الآية العظيمة مُلكه عَزَّ وجل العظيم، فقال جَلَّ جلاله ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فكل ما في الكون ملكه. بما يفيد أنهم عبيده، والعبيد يلزمهم طاعة سيدهم، فلا يحق لأحد منهم أن يتصرف على غير ما يريد مالك الملك سبحانه وتعالى. وبالتالي هو صاحب السلطان في ملكه، فَيُصَرِّفُهُ كيف يشاء، بما يفيد أن المملوك مُفْتَقِرٌ لمالكه في كل شيء، من إيجاده وطعامه وشرابه وصحته ورزقه، وسيره ومراحل حياته، ابتداء من وجوده إلى مماته، ثم بعثه ونُشُوره، وحسابه وثوابه.

ثم تبين الآية الكريمة العظيمة عظمة الله تعالى في قوة سلطانه على عباده ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ فبين هذا المقطع الكريم بصيغة السؤال الاستنكاري الذي يتضمن في صياغته كبرياء الله تعالى وجلالته، أنه مَنْ هذا الذي يمكن أن يتجرأ، فيشفع لأحد عنده، من غير أن يأذن له الملك القدوس. بما يفيد: أنه لا أحد يجرؤ أن يتقدم إليه سبحانه وتعالى في شفاعة لأحد، دون أن يأذن له تبارك وتعالى، وذلك لجلالته وكبريائه، وعظيم سلطانه، وقهره وقوته، وهيبته سبحانه وتعالى. مما يفيد تساقط وجاهة الوجهاء، وشفاعة الشفعاء، عند مقامه سبحانه وتعالى، مهما بلغت رتبته ومكانته في الدنيا، حتى يأذن لمن يشاء سبحانه وتعالى. ويفيد هذا أن مكانة عبيده لا تغني عنهم ولا عن غيرهم شيئاً، إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

ثم بينت الآية العظيمة سعة علمه عَزَّ وجل الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فقد أحاط علمُه جَلَّ جلاله بما سيكون قبل أن يكون من شأن مُسْتَقْبَل أمور خلقه، وماكان منهم بإحصائه عليهم، فلا يفوت عليه عَزَّ وجل شيئ مما كان منهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فالمخلوق لا يعرف شيئاً عن مجريات مستقبله، مما هو قادم بين يديه، والله تبارك وتعالى يعلم كل ما سيكون من مستقبل هذا المخلوق. كما أحاط علمه بجميع ما مضى من أموره الماضية ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ في حين أن المخلوق ينسى الكثير مما مضى من أموره الخاصة به. ولا يعلمون من علم الله تبارك وتعالى إلا بما يشاء، مما يُعطيهم ويهديهم إليه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ فما يعرفه الخلائق من المعارف، ما هي إلا جزء صغير مما شاء الله تعالى أن يعرفوه.

مما يفيد افتقار العبد لعلم الله تعالى، في حفظه وفهمه وتفكيره وتَعَلُّمِه وتعليمه، مما يستوجب على العبد أن يطلب مراده من الباري سبحانه وتعالى، وأن يلتجئ إليه في طلب العلم والفهم، وفي كل شأن من شؤون حياته، سواء كان في جلب خير أو دفع ضر، وإذا تعلم شيئاً فعليه أن ينسب التوفيق والتعليم لله تعالى، بأن يقول وفقني الله تعالى لفهم هذا، وتفسير هذا، وحفظ هذا، واستنباط هذا. فلولا عطاء الله تعالى وكرمه لما حصل له معرفة ما علم من علم في شريعة الله تعالى، أو في مهنة أو تجارة، أو غيرها من أصناف ومجالات العلوم والحياة. وكذلك إذا أدرك نفعاً من مال أو صحة أو جاه، أو ولد أو غير ذلك فلينسب هذا التوفيق لربه جَلَّ في علاه.

ويدل النص من الآية الكريمة، أن علم الإنسان محدود، بما علمه الله تعالى، كما قالت الملائكة في أوائل هذه السورة ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وفي قوله تعالى ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ مما يفيد تفاوت قدر العلم عند عباده، فيشاء الله تعالى لهذا قدراً ونوعاً، ويشاء لغيره ما يشاء قدْراً ونوعاً، ولهذا تفاوت الناس، حتى احتاج بعضهم لبعض، واحتاجوا للاستشارة، وللمشاورة بينهم، فتسمع من هذا خلاف هذا، ومن هذا ما يفوق هذا، والأمر واحدٌ ، وقد تجد عند الصغير ما لا تجده عند الكبير أحياناً، وتجد عند المبتدئ ما لا

تجد عند من بلغ شأواً، حتى قالوا: قد تجد في النهر ما لا تجده في البحر. وقد شاور صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله تعالى عنهم، وشاور الصحابة بعضهم بعضا. وأخذ صلى الله عليه وسلم بمشورة بعض أصحابه، مثل يوم أحد، في الخروج للعدو أو مقاتلتهم في المدينة، وكذلك في موقع غزوة بدر، فيما كان من شأن الماء الذي أشار به الصحابي الجليل: الحباب بن المنذر رضي الله عنه.

ثم بينت الآية العظيمة، عظمة كرسيه سبحانه وتعالى، الدالة على عظمته جَلَّ جلاله ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فقد وسع كرسيه عَزَّ في علاه الكون كله، وأنه عَزَّ وجل قد حفظ خلقه كله، وأورد سبحانه وتعالى حفظه للسماوات والأرض بصيغة نفي العجز، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ ليفيد كمال القدرة. فإنه لا يعجزه ولا يُثقله حفظهما، لكماله وكمال قوته وقدرته وعظمته وإحكامه لما خلق، الذي جعل لكل شيء نظاماً دقيقاً، لا يتقدم ولا يتأخر إلا بأمره عَزَّ وجل. فإن الذي حفظ عظيم ما خلق، فإنه لا يعجزه حفظ غيره مهما صغر، وهذا يفيد افتقار المخلوق لحفظ الله تعالى، مما يستوجب على المسلم، أن يسأل الله تعالى أن يحفظه في كل وقت وحين، من الهوام، وشرور الجن والإنس، في نفسه وماله ودينه وعقله وأهله، وفي كل أمر وشأن، وفي كل لحظة هو فيها، ولذلك جاءت السنة المباركة، بأدعية وأوراد، للحفظ عند النوم، وفي الصباح والمساء. فما أحوج العبد لحفظ ربه تبارك وتعالى.

ثم تكتمل الآية العظيمة الكريمة بقوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ فتبين أنه هو العلي على مخلوقاته كلها، فإنه سبحانه وتعالى هو المرتفع عليها مكاناً وقدرة وإحاطة، وسلطاناً وقهراً وتدبيراً، وبالتالي فكل شيء تحته سبحانه وتعالى، فإنه هو العلي مكانا ومكانة، وبأسمائه وصفاته وقدرته وإحاطته، وأن كل شيء قد دان وخضع له عَزَّ وجل، وكل شيء تحت قدرته وسلطانه.

وأن من صفاته كذلك أنه ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الجامع لجميع صفات العظمة والقوة والقدرة. مما يفيد افتقار العباد لعظمته وقدرته، ليلجأ إليه العبد في كل أمر وشأن، وألا ينازع الله تعالى في عظمته وكبريائه، فهو مخلوق ضعيف، لخالق عظيم سبحانه وتعالى.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى بيان حقيقة المنهج الرباني الدعوي، في قَبُولِ الإسلام والدخول فيه، والذي يجب أن يعرفه المؤمنون، قال تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ فابتدأت الآية الكريمة، بالتوجيه المتضمن للنهي عن الإكراه لأي أحدٍ، على الدخول في الإسلام واعتناقه. وذلك لوجود الأسباب المانعة من ذلك الإكراه، والموجبة لكل أحد أن يدخل في الإسلام طواعية، لأنه ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ قال الراغب الأصفهاني: والرشد خلاف الغي، وهو الهداية.[١] والغي هو جهلٌ من اعتقاد فاسد.[٢] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: لا تُكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على الدخول فيه[٣] فبينت الآية الكريمة أنه قد انتهى الجهل المانع من الدخول في لإسلام، إذ أن دين الله تعالى أصبح واضحاً جلياً لكل أحدٍ، بأنه هو الدين الْمُنَزَّل من الله تعالى، لما تضمنه من الدلائل والبراهين المانعة من الشك فيه والجهل به وبما هو ضده من الشرك والكفر، فاستبان الرشد من الغي ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾

وفي قوله تعالى ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ ما يفيد أن الصالح إذا ظهر أبان فساد الفاسد. واستنار للآخرين الحق، وهذا يفيد أيضاً أن القدوة الصالحة المتمسكة بمسلك ومنهج

---

(١) الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن (١٩٦)

(٢) المرجع السابق (٣٦٩)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣١٨/١)

الإسلام، توضح وتبين للفاسدين فساد فسادهم، فيكون واقع الحال أبلغ من واقع المقال. والسياق في قوله تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ يفيد أنها قاعدة دعوية، مما يجب على المسلم بيان حقيقة الإسلام قولاً وعملاً، دون إلزام لأحد، فجوهر الإسلام، بكامل منهجه وأدلته، دالٌ على أنه دين الله تعالى، لما تضمنه من الأدلة والحجج والبراهين، وكذا منهجه الأخلاقي والاجتماعي، وتشريعه في العبادة والعقيدة والمعاملات، وفي جميع محتواه ومضمونه. فأصبحت الدعوة إلى هذا الدين بالبيان والإيضاح، كافية للدخول فيه طواعية ورغبة ومحبة له وفيه.

ثم يبين الله تعالى طريق النجاة ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فأول الطريق هو الكفر بكل ما يُعْبَد من دون الله تعالى ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ ﴾ وكل معبود غيره سبحانه وتعالى هو طاغوت.

والثاني: الإيمان بالله تعالى ﴿ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ ﴾ والإيمان به سبحانه وتعالى عروة عظيمة، إذ توجب له الانقياد لشرعه، وبالتالي فإن النتيجة التي يحصلُ عليها المؤمن، أنه استمسك بالعروة الوثقى ﴿ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة الوثقى، التي لا تنفصم في نفسها، مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قوية. وربْطُها قوي شديد. وقال مجاهد: العروة الوثقى، يعني الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني، لا إله إلا الله. وعن أنس بن مالك: العروة الوثقى، القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد، قال: هو الحبُ في الله، والبغض في الله. وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافي بينها[1] وهذا يدل على عظمة كلام الله تعالى، إذ كيف استوعب كلامه سبحانه وتعالى دلالات المعاني، وجميع مراده، فاستوعبت جملة ﴿ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ جميع هذه المعاني والدلالات. فسبحان من استوعب كلامُه مراده بأبلغ بيان، وفي أعظم الألفاظ، فتعاظمت الألفاظ بما استوعبت من كلام رب العباد، فالشكر والحمد لله رب العالمين.

---

(١) المرجع السابق (٣١٩/١)

ثم تُخْتَم الآية الكريمة، ببيانٍ وعلمٍ وتعليمٍ وموعظةٍ عظيمةٍ، وهو قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو يسمع أقوال العباد، وعليم بأعمالهم، مما يجعل العبد الْمُتَفَهِّم لها، يُدْرِك حقيقة صفات الله تعالى، الموجبة لمراقبته، والحذر من معصيته، والعمل بطاعته، لأنه يسمعه أينما كان، وعلى أي حال كان، ويعلم ما يُحْدِثُه من شر أو خير، مما يوجب له الاستقامة على الطريق الصحيح، الموجب لرحمته، وكريم عطائه وبره وإحسانه تبارك وتعالى.

ثم يبين الله تعالى منهجه وعنايته بأوليائه المؤمنين، وكذلك منهج الطواغيت مع أوليائهم الكافرين، ليدرك الإنسانُ مَفَارِق الطرق، واتجاه كل طريق ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فبين الله تعالى أنه ولي للمؤمنين، بهدايته وتأييده وتوفيقه لهم، حتى يُخرجهم من كل ظلمة من ظلمات الكفر، والشرك، والجهل، والشر، إلى نور الإسلام في هديه وعقيدته وأخلاقه وتشريعه، ليصل بهم إلى جنات النعيم.

وأما من أعرض وكفر فتتولاهم معبوداتهم من غير الله تبارك وتعالى، كما قال عَزَّ وجل ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ فبالمقارنة أوضح تبارك وتعالى أمر الكافرين، وأوليائهم مما عُبِدَ من دون الله تعالى، مِن أنهم على النقيض من أمر المؤمنين بالله تعالى، ذلك أن طواغيتهم تُبْعِدُهم عن نور الإسلام وهديه وطمأنينته، إلى ظلمات الكفر والشقاء الموصلة للمزيد من الشقاء والعذاب يوم القيامة، فإن مصيرهم إلى النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهذا يفيد أن مصير الكافر هو الخلود في النار. وأنه لا دين يُنجي إلا دين الله تبارك وتعالى. فأولئك محكوم عليهم بالعذاب في النار، ومصاحبتهم لها مصاحبة دائمة، وأنهم ماكثون فيها بالخلد الدائم المؤبد، الذي لا ينقطع، فلا يخرجون منها أبداً. اللهم أجرنا من النار. وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

ويفيد هذا أن دين الله تعالى نورٌ بكامل تشريعه، وأنه يُفضي إلى نور الآخرة ونعيمها، وأن الكفر ظلمة ويُفضي إلى ظلمة وعذاب أليم. وأن المؤمنين في نور عظيم، وأن الكافرين في ظلمة

كأبية في الفكر والنفس والحياة، وإن ظهرت ملذات الدنيا بينهم وعليهم، فإن معاناة نفوسهم تعاسة وكآبة.

كما يفيد سياق الآية الكريمة، ومنهجها ودلالاتها، أهمية التعليم، والإقناع، والدعوة، والتوجيه، بالمقارنة بين المتضادات، لما فيها من وضوح البيان الْمُقَارَن، الذي يوضح حقيقة الأمرين بجلاء، ويضع الأمور أمام ناظرِها كما هي. وفي المقارنة استثارة العقل، نحو التفكير، والتمحيص، والتأمل، وذلك لما في المقارنة من أخذ الْمُخَاطَب بالعلم الجلي، إلى واقع الحقائق، التي تنفي عنه الجهل، وتحقق له العلم بالأمر الْمُزِيل لكل لَبْس.

وفي جملة ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ترغيب وتحفيز لحقيقة يتولاها الله تعالى بفضله، ومنزلة كريمة عظيمة، وهي أن يكون الله تعالى ولي المؤمن، بقوته وحفظه، وهدايته وسلطانه ورحمته وكريم عطائه، وهذا يفيد تطبيقياً، أهمية التأييد بالمناصرة، وشد الأزر، لأن المعونة من المحفزات التي تُحَفِّز الإنسانَ نحو الأداء، والبعد عن التخاذل والانكسار، وسواء كان هذا في مجال دفع الشر، أو جلب النفع، وسواء كان في إدارة الأفراد والجهات، أو في غيرها، لأن المعاونة وسيلة يتحقق بها الخير بإذن الله تعالى.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم، إلى قصة من قَصَص ما وقع لإبراهيم، خليل الله تعالى، وذلك في موقفه مع ملك جبار عنيد، قال الله تعالى عنه ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ فقد جاء النص القرآني الكريم بأسلوب لفت وشد الانتباه، وذلك بصيغة السؤال التقريري عما حدث من أمر إبراهيم، الذي حاجه ذلك الملك في وجود الله تبارك وتعالى، ذلك أن الملك أنكر أن يكون هناك ربٌ غيره. فجاء توصيف هذه الواقعة، كأنكم

رأيتموها ﴿ أَلَمْ تَـرَ ﴾ فَخَبَرُه تبارك وتعالى حقيقة ماثلة، لا شك ولا ريب فيها، فإن خبر الله سبحانه وتعالى بمنزلة من شاهد وعاين بنفسه ما أُخْبِرَ به، وتأتي ﴿ أَلَمْ تَـرَ ﴾ بمعنى ألم ينته إلى علمك. ولفت الانتباه هنا ليعلم ويتعلم كل من يسمع القرآن الكريم بعظيم أخباره، حتى تقوم عليه الحجة، بهذه البراهين الحوارية، التي قامت بين خليل الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا الملك المتجبر.

ومن الفوائد أن في استهلال البيان بسؤال استفهامي تقريري، يشتد به الانتباه ﴿ أَلَمْ تَـرَ ﴾ وكذلك رفع مقام السؤال بتوجيهه إلى لنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلَمْ تَـرَ ﴾ أيها النبي صلى الله عليه وسلم. فيخاطب عباده في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، رفعة لمقامه عليه الصلاة والسلام، بأنه هو الْمُخَاطَب الذي يُخاطبكم بما أنزله عليه ربكم من الوحي. ألم يصل إلى علمك أيها النبي صلى الله عليه وسلم وأيها الْمُخَاطَب بهذه المحاجة بين هذا الملك الطاغية الذي تكرم الله تعالى عليه بالملك وبين رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وهو سؤال استنكار على من لا يتدبر ويستدل بهذا البيان على عظمة الخالق ودقة تدبيره، وعظيم سلطانه. وكذلك هو سؤال تعجب ممن لم يتدبر ويتعظ ويستدل به على وحدانية الله تعالى.

وكذلك من الفوائد: أن الله تعالى نسب إعطاء الْمُلْك له سبحانه وتعالى ﴿أَنْ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ وبالتالي فإن الحصول على ما يملك الإنسان من قليل أو كثير، هو عطاء من الله تعالى، بحكمته، ولحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، فإنه عليم حكيم. ويفيد كذلك أن الله تعالى يعطي من يشاء، حتى العاصي والكافر، فإن الله يعطي بحكمته وقدرته ومن الفوائد ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: أن هذه الآية تدل على جواز تسمية الكافر ملكاً، إذ آتاه الملك والعز والرفعة في الدنيا، وتدل على إثبات المناظرة، والمجادلة، وإقامة الحجة[1] وكذلك يفيد هذا أن العطاء من الله

---

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨٦/٣)

تعالى لا يعني رضاه عن الْمُعْطَى، وبالتالي فإن منع العطاء، لا يعني السخط، ولكنه تعالى يُعطي ويمنع بحكمته.

فالله تبارك وتعالى يلفت الانتباه إلى هذا الرجل الذي أعطاه الله عَزَّ وجل الْمُلْكَ، وهو كما ورد في كُتُبِ التفسير، أنه ملك بابل، نمرود بن كنعان. وقال مجاهد: مَلَكَ الدنيا، مشارقها ومغاربها، أربعة: مؤمنان، وكافران. فالمؤمنان سليمان بن داود، وذو القرنين، والكافران: نمرود وبختنصر. والله تعالى أعلم.[١] وهذا الملك أنكر أن يكون هناك ربٌّ غيره.

فصفة هذا الملك، أنه ليس فقط كافراً بالله تعالى، بل تطاول به الكبر والأشر وعظمة ما هو فيه من مُلك، إلى أن ادعى: أنه هو الرب، ولا رب سواه. مما يفيد خُطُورة التمادي والغرور بما يُعطي الله تعالى عبده من كريم عطائه، فيأخذه ذلك إلى الغرور، الذي يقود إلى التعالي، والادعاء لنفسه بما ليس له حقيقة، والتي أبطلها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فأنكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربوبية هذا النمرود، وأثبت أنه ثابت على أن ربَّهُ هو الخالق المنفرد بخلقه، الذي يحي ويميت. فرد هذا الملك ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾ ويقصد أنه يقتل من يُريد، ويُبقي من يُريد. وهذا من دهائه الذي حاد به عن حقيقة الجواب المقصود والمطلوب، وقد يقصد بذلك المكابرة والمعاندة. وهذا يُفيد أن البعض لديه من الدهاء والتمويه، ما يموه به على ضعفاء العقول والتفكير، مما يجب الحيطة للمناظر في مناظرته، والاستعانة بالله تعالى، فأعان الله تبارك وتعالى خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أن ينتقل إلى محاجة أخرى، وبأسلوب لا يستطيع أن يفوت منه وأن يموه عنه، فقال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ فهذا محكٌ وموقفٌ ومطلبٌ لا يستطيع أن يموه عنه. ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٢٠)

فانقطعت حجة هذا الكافر، ولم يستطع أن يرد بشيء. لأنه لا يستطيع أن يغير مكان شروق وغروب الشمس، الظاهرة للناس جميعاً.

ثم تنتهي الآية ببيان النتيجة لكل ظالم ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فلا يُوفق ولا يُلهم اللهُ تبارك وتعالى الحجة والبرهان للظالم، لأنه يفقدها أصلاً، فلا يُعان بالهداية والتوفيق لما غاب عنه. بينما وفق الله تعالى رسوله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وسدده في محاجته لهذا الملك الكافر.

والظالم هو الذي أدرك الحق وعرفه ثم انصرف عنه وأنكره. ولذلك فإن الله تعالى لا يوفقه عقوبة لاستكباره على الحق. وفي دلالة قوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ما يتضمن التحذير من الظلم بجميع أنواعه، حتى ولو انتصر بظلمه وجبروته، فإن الله تبارك وتعالى لا يهديه، ويخذله في مواطن أشد مضاضة من مواطن حلاوة الانتصار، لتكون عليه أقوى وأعنف، والمتأمل في أحداث الظالمين بجميع مستوياتهم، يجدها ماثلة أمامه. فنسأل الله تعالى برحمته أن يُبعدنا عن الظلم ويُبعد الظلم عنا.

﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾ ﴾

ثم هذا مثلٌ آخر معطوف على المثل السابق، الذي بهت الله تعالى فيه ذلك الملك الجبار، وأيَّدَ خليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، بالحجج والبراهين القاطعة، فيقول الله تبارك وتعالى في هذا المثل ﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ فهل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه، وهذا الرجل الذي مر بقرية، قد خلت من أهلها، وأصبحت خَرِبَةٌ

﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ أي خالية، متهالكة على ﴿ عُرُوشِهَا ﴾ أي أسقفها. فقد سقطت سُقُوفُهَا وجدرانها. فوقف الرجل متحيراً، متأملاً في حال أهلها، ودمارها، وصعوبة عودة نشأتها، بعد أن كانت شامخة، يَدُبُّ الناس فيها، عمارة، وبناءً، وتطويراً، وبيعاً وشراءً، ثم أصبحت هشيم متهالكة، فقاده تفكيره للشك في الإحياء ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فأسند الإحياء لله تعالى، ولكنه استنكر الإحياء، واستصعبه على حد تفكيره. فقول الرجل ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ ﴾ دليل على أنه مؤمن بالله تعالى، وليس مثل النمرود، غير أنه شاك في القدرة على البعث بعد الموت.

فقول هذا الرجل على وجه الشك والاستبعاد ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ ﴾ وهو سؤال استبعاد. والسبب أنه لم يفكر في آيات الله تعالى الكونية، ويستفيد منها، كإحياء الأرض بعد موتها، وعظيم قدرة الله تعالى في تعاقب الليل والنهار، وخلق السماوات والأرض، واستيقاظه بعد نومه، وغير ذلك من تدبير الله تعالى العظيم.

وهنا أظهر له عَزَّ وجل ذلك. فقال تبارك وتعالى ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾

فلما استقل وقام مستوياً سوياً، قال الله تعالى له بواسطة الْمَلَك ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ﴾ وفي هذا السؤال ما يجعله يفكر، ويستعيد ماضيه وواقعه، إذ لم يُبادره الله تعالى بالإخبار ابتداء، بل بادره بالسؤال، ففي السؤال فوائد: تنبيه، وشد انتباه، وبيان عجز المسؤول عن الإجابة، وبيان فقر علمه عن نفسه، وعجز قدرته عن حاله. وليعلم بقدرة الله تعالى على البعث، وسهولة الأمر عليه سبحانه وتعالى. وأن عجز المخلوق لا يُقاس على قدرة الخالق، فإن الخالق تبارك وتعالى عظيم قدير، وأن المخلوق ضعيف عاجز في كل أمر، وعلى كل وجه، إلا بتوفيق الله تعالى، وعونه ولطفه. ولذلك جاءت إجابته لِلمَلَكِ على حسب علمه القاصر، فقال في الإجابة على السؤال ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ فغيابه في موته على حد تقديره القاصر أنه لم يتجاوز في ظنه، يوماً، أو حتى جُزْء من يوم، وهذا في تقديره القاصر، الذي يدل على عظيم قدرة الله تعالى، وسعة علمه

الكامل، سبحانه وتعالى. وهنا تأتي الإجابة من الله تعالى، ليكون وقعها في قلبه وحاله عظيم. فقال تبارك وتعالى ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ فحتماً سيكون أثر هذا الخبر عليه عظيم.

ثم يستمر البيان من الله تعالى له، حتى يتعظ، وكذلك ليتعظ غيره به من بعده، ويعلم هو وغيره بكمال قدرة الله تعالى على البعث والجزاء، فقال تعالى ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ فلفت الله تعالى انتباهه إلى المحسوس من الطعام، الذي لم يتغير مع طول زمن ما مر عليه. ليعلم أن سُنن التغيير بيد الله تعالى، فلو أراد الله تعالى للشيء ألا يتغير مع طول الزمن لكان كذلك، كما يشاء ربنا تبارك وتعالى، وله أن يغير غيره، فيصبح رمياً، كما يشاء الخالق العزيز الكريم.

ثم لفت انتباهه إلى حماره ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ الذي أرِم، وهَلَكَ، ولم يبق منه إلا العظام المتفرقة، فدل ذلك على مدة الموت والفناء التي مر بها، وأنه كان زمناً طويلاً ميتاً، بدليل قاطع ماثل أمامه، لينظر بعد ذلك، كيف يحيه الله تعالى، وهو ينظر إليه، فَتَدُبُ الحياة في حماره وهو ينظر إليه ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فالطعام لم يتغير، وهو الذي يتعفن مع الزمن وينعدم، ويتلاشى مع الوقت والحرارة، وحَرْقُ الشمس له، وأما الحمار فهو الذي يمكن أن يعيش مائة سنة، فكان تقدير الله تعالى فيهما، على نقيض ما يمكن أن يحسبه، ويتصوره الإنسان، ليعلم ويستعظم قدرة الله تعالى، حتى في تغيير النواميس والقوانين، وسُنن التدبير التي سَنَّها الله تعالى لحركة وخَلْقِ الكون.

ثم بين الله تعالى أن ما حصل له وفيه وما معه من الطعام والشراب والحمار، ليكون عبرة وآية لمن بعدك ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ ليكون آية للناس في قدرة الله تعالى على الإحياء والبعث والنشور بعد الموت.

ثم لفت الله تبارك وتعالى نظر وانتباه هذا السائل الذي أحياه بعد الموت، إلى كيف تتم عملية الإحياء في حماره، بعد أن رآه وقد أَرِمَ وتهالك، فلم يبق إلا عظامه ﴿وَٱنظُرْ إِلَى

ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أي كيف نحييها، وذلك بوصل ورفع بعضها ببعض في التركيب للإحياء. فَيُرْفَعُ بعضها إلى بعض، ويُوصَل بعضها ببعض، بعد تفرقها واختلافها عن أماكنها، فَيُعَاد ترتيبها، كما كانت ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ ثم يبني اللحم على تلك العظام، بعد أن تم نَشْزُهَا. لِيُعِيد الله تعالى الحياة فيها ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فلما حصلت معاينته لحالة الموت، وعملية الإحياء بعد الموت، أيقن بذلك الأمر، الذي لا ريب، ولا شك فيه، حقيقة الموت والبعث ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فاعترف حينها مباشرة بعظيم قدرة الله تعالى على كل شيء، ولم يقل ذلك الرجل: أعلم بقدرة الله تعالى على الإحياء، وإنما امتد يقين علمه وإيمانه بقدرة الله تعالى على كل شيء. مما يفيد أن معرفة القدرة في أمر من الأمور، يمتد سلطانها على غيرها، فمعرفة قدرة الله تعالى على إحياء الأرض بالمطر والماء بعد موتها، يبين قدرة الله تعالى على الإحياء والبعث والنشور، وأنه سبحانه وتعالى، على كل شيء قدير. وكذلك الاستيقاظ بعد النوم دليل على كمال قدرة الله تعالى في البعث بعد الموت، فإن الإنسان يغيب في نومه ساعات، وهو لا يعلم بمقدارها إلا بعلامات التوقيت.

وهذا يفيد في المجال التربوي التعليمي، وكذا الدعوي، أهمية لفت الانتباه إلى آيات الله تعالى في خلقه، التي قد يغفل عنها البعض، لأنها مُوصلة للعبد إلى اليقين بأن الله تعالى خالق كل شيء ومدبره ومالكه، وأن كل شيء من آياته الكونية مُتَّسِقٌ مع آياته القرآنية. وأنه على كل شيء قدير، وألا يقيس قدرة ربه الذي خلق السماوات والأرض على قدراته الضعيفة، فيعلم أن الله تعالى هو الخالق وأنه مخلوق مما خلق اللهُ سبحانه وتعالى

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق الكريم إلى عملية إحياء أخرى، مع إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فقد طلب إبراهيم صلى الله عليه وسلم من الله تبارك وتعالى أن يُريه كيف يُحي الموتى، فقال الله تعالى له ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ وهذا سؤال من الله تبارك وتعالى لإبراهيم الخليل، لإظهار وبيان إيمانه عليه الصلاة والسلام، وأن سؤاله لم يكن عن غير إيمان. ولذلك أجاب الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مباشرة بقوله ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي: إنني مؤمن. ليفيد أن السؤال ليس نابع من عدم الإيمان ﴿ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ فإنني مؤمن. وقد زال بهذا الجزء من جواب إبراهيم الخليل على هذا السؤال أي شبهة تَرِدُ من أحدٍ على خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم، إذ لو أن الله تعالى بين لخليله عملية الإحياء، دون تحقيق سؤال إبراهيم عليه السلام، وبيان إيمانه، لربما اختلفت المفاهيم عن علة السؤال، وعن قوة إيمان إبراهيم عليه الصلاة والسلام. مما يبين عظمة السياق والبيان من العزيز الحكيم، وأنه كتاب الله تعالى العظيم، الذي قد تكامل فيه الإعجاز من كل وجه.

فإن في قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي علمت وآمنت بأنك قادر على ذلك ﴿ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ ولكن سألتُ ليطمئنُ قلبي، باجتماع دليل العيان إلى دلائل الإيمان.(١) فاستجاب الله تعالى طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ ﴾ وهنا لم يحدد له تبارك وتعالى نوعاً محدداً ومعيناً من الطيور، بل من أي نوع متوفر

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٨١/١)

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي ضُمَّهُنَّ، واذبحهنَّ، ومزقهُنَّ ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فيظهر في التوجيه الإلهي غاية الإعجاز، والترتيب فيما يقوم به إبراهيم الخليل، من الذبح والتقطيع، الذي تنتفي به اجتماع الأجزاء، ثم توزيعها على الجبال، التي تُحيط به، ليبتعد المكان بأجزائها ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ثم اطلب تلك الطيور بالنداء عليها يا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فإنها ستأتيك مسرعات. وفي سرعتهن زيادة في القدرة البالغة، إذ ليس عملية الإحياء في جمع الأجزاء وإعادة الحياة فقط، بل كذلك في السرعة البالغة، التي لا تتجاوز عملية النداء الصوتي من إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. بل جاء في التفسير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أنه قال: وأخذ رؤوسُهُن بيديه ـ أي إبراهيم أخذهن ـ ثم أمره الله تعالى، أن يدعوهنَّ، فَدعاهُنَّ كما أمره اللهُ عَزَّ وجل. فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم. والأجزاء من كل طائر فيتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على جِدَّتِه. وأتينه يمشين سعياً، ليكون أبلغ في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام.[١] مما يبين عظيم قدرة الله تعالى التي يراها الإنسان في إحياء الأرض بعد موتها، وكيف نزول المطر بمقدار، وجريان السيول في مجاريها من الأودية التي سلكها لها الله تعالى في الأرض، وغير ذلك من الخلق والتدبير.

ثم تنتهي الآية الكريمة ببيان ما لله تعالى من صفة العزة والحكمة ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفي دلالة كلمة ﴿وَٱعْلَمْ﴾ ما يفيد الأمر بمعرفة هذا العلم. والذي يفيد أهمية أن يعرف المسلم أن الله تبارك وتعالى عزيز حكيم، وهذا يفيد فضل معرفة أسماء الله تعالى وصفاته. ففي معرفتها تقوية للإيمان، الباعث لكل خير، والْمُبْعِد عن كل شر. ويفيد ذلك أهمية بل وجوب أن يتعلم المرء ما يعلم به أن الله عزيز حكيم، وهذا يحصل بالنظر والتأمل في آيات الله تعالى الكونية والشرعية.

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٣/١)

وفي معنى ودلالة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: أنه جَلَّ جلاله لا يغلبه شيء، ولا يمتنع عليه شيء، فكل شيء طواعية له. وما شاء كان بلا ممانع، وما لم يشأ لن يكون أبداً، لأنه تبارك وتعالى هو القاهر فوق عباده. والعزة تتضمن القوة الكاملة، والقدرة القاهرة، فهو غالب على أمره سبحانه وتعالى.

كما أفادت دلالة معنى أن الله عَزَّ وجل ﴿حَكِيمٌ﴾ أي أنه تبارك وتعالى: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. وأنه الْمُحْكِمِ للأشياء. ليعطي عبده وغيره بذلك البيان أدب البدء، وأخلاق الخطاب، ومنهج التعريف. فربكم حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. والحكمة تتضمن وضع الشيء موضعه، فهو حكيم في شرعه وأمره سبحانه وتعالى. وهذا يتطلب من المؤمن استشعار هذه المعاني، من صفاته جَلَّ جَلاله، لأنها تبعث في النفس التوقير، والخوف، والامتثال، والاهتداء، الذي يحقق الطاعة لله تعالى.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

ينتقل السياق القرآني الكريم إلى الحث على الإنفاق في سبيل الله تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ابتدأ الله تعالى هذه الآية الكريمة بضرب المثل، الذي يُقَرِّب المعنى للمُتَلَقِّي، من المخاطبين بالقرآن الكريم. وهذا السياق للمؤمنين، لأنه لا يُقْبَلُ عملٌ من الإنفاق إلا بإيمان. فشبه الله تبارك وتعالى الذي يُنفقُ ماله في سبيله بالسنبلة، الْمُتكاثرة العطاء فيها. قال ابن كثير حمه الله تعالى: وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد

السبعمائة. فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة، ينميها الله تعالى لأصحابها، كما يُنمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف.[١]

وتضمنت الآية وجوب الإخلاص، ليتحقق الانتفاع بالنفقة، إذ قال تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فحصرها البيان الكريم بأن تكون في سبيل الله تعالى، لتشمل الوجهين معاً، الأول: أن تكون مخارجها في طاعة الله تعالى، والثاني: أن تكون لله تعالى قصداً وغاية، لأن الذي في سبيل الله تعالى، لن يكون كذلك ما لم يكن خالصاً، لا رياء فيه، ولا لجلب مصلحة خاصة. كما تضمنت الآية العظيمة مجال النفقة بأن يكون ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى: فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تَجَهُّز المجاهدين، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين، ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين.[٢] وهذا يدل على فضل النفقة في سبيل الله تعالى، وأهميتها وثوابها العظيم. فإن من فَضْلِهَا: المضاعفة لصاحبها بالأجر العظيم الذي لا يحصيه ولا يحد معرفته أحد من المخلوقين، كما قال الله عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فلم يُحدد المضاعفة، لتزيد عن السبعمائة ضعف، مما يدل على كرم الله تعالى. قالت طائفة من العلماء: بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف.[٣] فأفادت الآية الكريمة: كرم الله تعالى غير المحدود لمن يشاء.

وفي هذا تشجيع ومدح للمنفق في سبيله عَزَّ وجل، إذ أن المكافأة ومضاعفتها للمنفق تعتبر مدحاً وثناء له بما عمل، وتشجيعاً له على فعل الخير، والإكثار منه. ثم عزز تبارك وتعالى ذلك ببيان ما يناسب المقام من صفاته المجيدة سبحانه وتعالى ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو واسع في

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٤/١)

(٢) ابن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢٠٩/١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٨/٣)

هباته وعطائه وعلمه وقدرته، فلا يُحصي سعته أحدٌ من خلقه، ولا يعرف كنه عظيم وسعه سبحانه وتعالى إلا هو.

وهذا يُفيد تربوياً وإدارياً، أهمية التشجيع لفعل الخيرات، والاجتهاد وبذل الوسع في أوجه الخير، وكذا أهمية التشجيع في مجال العمل المهني والإداري، فإن التشجيع من أنجع الأساليب في دفع كوامن الخير عند الناس، لأن النفوس مجبولة على حب المكافأة والمدح والتشجيع.

وفي ضرب المثل بالسنبلة ما يفيد فضل الزراعة، لما فيها من الخير لمخلوقات الله تعالى، وسد حاجتهم مما يحتاجونه من الطعام. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: في هذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحرف التي يتخذها الناس، والمكاسب التي يشتغل بها العمال، ولذلك ضرب الله به المثل.(١) وقد قال صلى الله عليه وسلم (ما من مسلمٍ يغرسُ غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة)(٢)

وفي صورة ضرب المثل بالسنبلة، ما يُفيدُ ويعلمُ كيف يتم تقريب المعنى والصورة المراد نقلها للمتعلم، وكيف ينتقي المثل الذي يتناسب مع الْمُمَثَّل به، من حيث الصورة والنوع والقدر، والتشابه في الدلالة. وبما يوسع الأفق والخيال الصادق، ليستوعب المراد، ويثير التفكر نحو الخير والفلاح.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾

ثم تأتي الآية التالية، فتُبَيّن آداب الانفاق، قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ ففي الآية الكريمة تأكيد الإنفاق في سبيله سبحانه

(١)القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٨/٣)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١٥٢/٢) برقم (٢٣٢٠)

وتعالى، من خلال تكرار إيرادها مرة أخرى وبأسلوب آخر، ومتبوعة ببيان أدب الإنفاق، بأن لا يتبع، ولا يُرْدِف ذلك الإنفاق بما يجرح مشاعر الْمُعْطَى ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا ﴾ وهو ذكر ما أنفق على الْمُنْفَق عليه، بالتعداد والتفاخر وإشعاره بالتفضُّل عليه. لما في ذلك من الأذى النفسي والحسي على الْمُتَصَدَّق عليه، من التعيير وكسر نفسه، وإشعاره بحرارة الفقر والفاقة والحاجة، مما يدل على أن نهج هذا الدين الأخلاقي، هو منهج الأدب والرحمة، وستر الغير.

بل ومن شدة أثر الْمَنّ ومقته من الله تعالى، أن جاء في الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يُزكيهم ولهم عذابٌ أليم. قلنا: من هم يا رسول الله! فقد خابوا وخسروا. فقال: المنان والْمُسْبِل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)[١] فهذا تَوَعُّد بالعذاب. مما يفيد: أن حبس الأذى، مع منع النفقة، أفضل من الصدقة مع الأذى. وهذه المعادلة فيها من الفوائد الكثير والكثير لمن تأملها.

ثم ذكر الله تبارك وتعالى الأدب الثاني: وهو أعم من المن، لاشتماله عليه وعلى غيره، وهو الأذى ﴿ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ فالأذى يجمع كل ما يتأذى به الْمُنْفَقُ عليهم، أو عليه، بأي وجه كان، ويدخل في ذلك المن، باعتباره جزء من الأذى، وإفراده بالذكر من بين عموم الأذى، لقوة أذاه وضرره وشَرُّه. وهذا يفيد من حيث الأسلوب البياني، أن هناك علة ظاهرة، بائنة، تستدعي بيان وإظهار الخاص من العام لأهميته، مع أنه داخل ضمن اللفظ والمعنى العام، مما يُعطي دلالةً مُلْفِتَةً للفظ الخاص ولمراده ولدلالته كذلك. فيكون التنبيه للأهمية، أو للخطورة، أو لأي غرض يحمله مُراد الكلام وصياغته. كما أن في دلالة ﴿ وَلَآ أَذًى ﴾ رحابة وسعة الاستيعاب لجميع أنواعه ومفرداته التي لا تحصى.

فَمَنْ تمثل بهذه الأخلاق، والآداب الإسلامية في الإنفاق، على الوجه الذي أراده الله تعالى، فلهم بشارة من الله تعالى، وهي قوله عَزَّ وجل ﴿ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وهو الثواب الذي لا يُقَدِّرُ حجمه، ومقداره أحدٌ غير الله عَزَّ وجل، لأن ثواب الله تعالى عظيم، خاصة وأنه قيده سبحانه

---

(١) الترمذي (٥١٦/٣) برقم (١٢١١)

وتعالى بدلالة ﴿ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ فهو المتكفل به، وهو ضمان عظيم من ربٍ كريم سبحانه وتعالى. وأيضاً لهم منه عَزَّ وجل البُشْرَى بالأمن، حيث قال تعالى ﴿ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فنفى تبارك وتعالى الخوف عليهم، فيما هو قادم من أمرهم. لأن الخوف مُتَعَلِّقٌ بقادم، ثم البشارة الثالثة الأخرى ﴿ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ ونفى عنهم الحزن والأسى على ما مضى. لأن الحزن متعلق بماضٍ يتأسى عليه المرء. وبهذا تكون قد حلَّت عليهم السعادة، بانتفاء الهم والحزن، مع وجود وحلول عظيم الثواب من الله تعالى عليهم. مما يفيد أن الهم والحزن، هما السببان الرئيسان لشقاء الإنسان. فنسأل الله تعالى أن يجيرنا والمسلمين منهما.

ثم يبين الله تبارك وتعالى المفاضلة الصحيحة، بين أمر القول بالمعروف بلا نفقة، وبين النفقة مع وجود الأذى ﴿ قَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتۡبَعُهَآ أَذًى ﴾ فإن كلمة طيبة، ودعوة لمسلم، وعفو عن ظلم، أفضل وأحسن من صدقة يُتْبِعُها أذى من المُتَصَدِّق على المُتَصَدّق عليه أو عليهم. وهذه مقارنة تفيد الْمُخَاطَب بالمنهجية الأخلاقية الصحيحة، لتوجيه وتربية النفس بأخلاق الإسلام مع الغير، وذلك أن يقول كلمة طيبة دون عطاء، خيرٌ من أن يُعْطِي عطاءً مصحوباً بأذى، مهما كان حجم ذلك العطاء. مما يبين أثر الكلمة، وقوتها على مشاعر الإنسان.

وفي هذه المقارنة تَعْلِيمٌ للمسلم بمنهجية التفاضل في الأعمال، ومنزلة الأدب والأخلاق في رفع مكانة الأعمال، وكذلك منزلة الكلمة الطيبة، ومنزلة العفو ﴿ وَمَغۡفِرَةٌ ﴾ الذي هو المسامحة والتنازل. وخطورة الأذى حتى في حالة اقترانه بالإنفاق، الذي يستقطعه المسلم مما يملك، مع ما فيه من المغالبة النفسية، إذ أن الاستقطاع مما يملك الإنسان، فيه مشقة شاقة على النفس، إلا من عافاه الله تعالى من ذلك، بأن جعل السخاء والكرم له سجية.

ثم تُخْتَم الآية الكريمة بموعظة، مبينة لصفتين من صفات الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم غني عن خلقه، لا يحتاج لأحد من خلقه، وكذلك غني بفضله وقدرته المطلقة. وكذلك فإنه سبحانه وتعالى حليم على عباده، فلا يُعَجِّل لهم العقوبة، بل يغفر، ويصفح، ويتجاوز

عنهم، وذلك لمغفرته وحلمه الواسع الكريم. وهذه الصفات الربانية إذا تأملها المؤمن، فإنها تَعِظُ قَلْبَهُ بالانقياد لربه عَزَّ وجل، وِفْقَ ما عَلِمَ من صفاته العظيمة، وأسمائه الكريمة سبحانه وتعالى. فَتُوجِبُ له تلك المعرفة الإنفاق بسخاء، لأن من يُنْفِق في سبيله غني كريم، ويعطي للمنفق بسخاء سبحانه وتعالى، وتوجب له هذه المعرفة الأمل فيما أنفق، لأن من أنفق في سبيله غني، ومُغني، وحليم، وتوجب له تلك المعرفة عدم التردد، لأن من أنفق في سبيله غني كريم، وتوجب له المسارعة في الإنفاق، لأن من أنفق في سبيله غني حليم كريم. وتوجب له عدم الخوف من القلة والفقر، لأن من أنفق في سبيله غني كريم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦ ﴾

ثم يستمر السياق القرآني الكريم في بيان آداب وفضل الصدقة، والإنفاق في سبيل الله تعالى، وثوابها العظيم، وتأكيد ما يُفْسِدُهَا ويُبْطِلُهَا. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ فأول مطلع الآية العظيمة نداء من الله تعالى للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وفي مخاطبتهم ومناداتهم بالإيمان من الخالق تبارك وتعالى رتبة عظيمة للمؤمنين، وتقرير إيمانهم به منه تبارك وتعالى، فأي نعمة أجل من هذه النعمة الكريمة، وهذه المناداة لها تأثيرها في قلب من استشعر معناها ودلالتها. وهذا كله ليلفت انتباههم، وليعلمهم ما ينفعهم. كما يُفيد هذا تربوياً: أهمية مناداة المتعلم والمدعو بأفضل ما يمكن أن يُنادى به، فإذا كان هذا هو الله تعالى ينادي عباده بهذه الرتبة العظيمة، فكيف العبد مع عبد مثله.

ثم يَنْهَى اللهُ عَزَّ وجل المؤمنين للمرة الثالثة عن إبطال صدقاتهم بما يُفْسِدُهَا، حتى لا يُبْطِلُوا جُهْدَهُم بما يضرهم ولا ينفعهم، فَيُحْرَمُون ثوابها العظيم. وفي تكرار النهي ثلاث مرات، دليلٌ

على خطورته الشديدة على المؤمن ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ فكان هذا تحذيراً شديداً وتعليماً لكل مؤمن، وهذا من رحمته تبارك وتعالى بعباده المؤمنين، سواء كان للمُعْطِي أو للْمُعْطَى. فلا يُحْرَم المُعْطِي ثواب ما أعطى، ولا يحصل للمُعْطَى أذى فيما أخذ من عطاء. وإبقاءً للمودة بينهم، وحفظاً لأخوة الإسلام بين المسلمين.

وشَبَّه سبحانه وتعالى من أَتْبَعَ صدقته بالمن والأذى بالمرائي ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فمن أَتْبَعَ صدقته بالمن والأذى، كالذي جمع بين قُبْح الرياء، وقُبح عدم الإيمان باليوم الآخر. فأحدهما متعلق بالدنيا، وهو الرياء، والآخر متعلق بالآخرة، وهو عدم الإيمان باليوم الآخر. فَيُفْهَم من ذلك أن من اجتمعت فيه هاتين الخصلتين، فقد أحبط عمله بمماثلة فعله بالمرائي، الذي انعدم عنده الإخلاص لله تعالى، وكذلك مِثْلُ الذي انعدم إيمانه باليوم الآخر، فجعله لا يُبالي بالنفقة إلا من أجل السمعة والمباهاة بين الناس، دون أن يعير اهتماماً لليوم الآخر. في حين أن الإيمان باليوم الآخر يوجب الخوف من الله تعالى، الذي يجعل عمل الإنسان لله عَزَّ وجل، تأهباً لذلك اليوم.

وهذا يُفيد تعليمياً وتربوياً ودعوياً، وإرشاداً وتوجيهاً أهمية ميزة التشبيه، وأهميته في توضيح المراد، وإيصال المقصود للمُتَلَقي، بأيسر الأساليب التوضيحية.

ثم أكد سبحانه وتعالى خطورة المن والأذى في الصدقة بمثل آخر، تبياناً وتأكيداً لما نهى عنه عَزَّ وجل ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ فشبه الله تعالى هذه الصدقة التي اقترنت بالأذى كمثل ﴿صَفْوَانٍ﴾ أي صخرة ملساء، عليها تُراب، ثم أصاب هذا التراب ﴿وَابِلٌ﴾ أي مطرٌ شديدٌ، فترك هذا المطرُ تلك الصخرةَ صلدة ملساء، كأن لم يكن عليها تراب. فكذلك تلك الأعمال من الصدقة، تزول وتفسد وتضمحل عند الله تعالى، بسبب المن، وما يلتحق به من الرياء، والتعالي، والتكبر، ومُخْتَلَف أنواع الأذى، فتصبح كأنها لا شيء عند الله تعالى. فلا ثواب ولا

أجر عليها، فلا ينتفع بها المتصدق والمنفق. ثم بين الله تعالى النتيجة للمُتصدق ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ أي مما تصدقوا به، فانتهى أمرهم، فلا يستطيعون الاستفادة مما تصدقوا به ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فإن الله تعالى لا يهدي الكافرين ولا يوفقهم لما يحقق لهم الخير، بسبب كفرهم بالله تعالى. وفي هذا تحذير من الكفر وسُبُلِه.

ثم بين الله تبارك وتعالى الصنف والنوع الثاني، الذي أخلص لله تعالى، وتمسك بآداب الإنفاق، ابتغاء طاعة الله تعالى ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ فاستهلت الآية الكريمة بيانها بكلمة ودلالة الْمَثَل، الذي يشد انتباه المُخَاطَب لهذا الْمَثَل، وللمقصود منه، ولمضمونه ومحتواه. فهذا المثل يبين مراد الله تعالى بمضمونه ومحتواه، الذي يصور ويقرب المعنى للمُخَاطَب. فالذين يُنْفِقُون أموالهم طلباً لرضى الله تعالى ﴿ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ وأيضاً ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي مُتَثَبِّتُون ومُتَحَقِّقُون من أن الله تعالى سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء[١] فكانت حيثياتهم ودوافعهم للإنفاق في أوجه الإنفاق محصورة في ذلك، بما يؤكد أنها قد خَلَت من كل رياء، أو أذى، لأن تلك الحيثيات يمتنع بها المؤمن عن المن والأذى والرياء، فهؤلاء المؤمنون في نفقاتهم بهذه الخصائص المتضمنة للإخلاص والثقة في الجزاء ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ أي: كمثل بستان بربوة، وهو المكان المرتفع من الأرض ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ فهذه الجنة أو البستان أصابها المطر فأرواها ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ فأثمرت ثمارها بضعفي ما يُثمر غيرها من البساتين والأشجار. وإن لم يُصبها المطر، فسيصيبها الطل، وهو رذاذ الندى ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ وهذا الطل أو الندى، سيكفيها حاجتها من السقيا التي تمكنها من

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٦/١)

الإثمار والإنتاج. وكذلك عمل المؤمن، لا يبور أبداً، بل يتقبله الله تعالى ويُكَثِّره ويُنَمِّيه لكل عامل بحسبه، ولهذا قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي لا يخفى عليه عَزَّ وجل من أعمال عباده شيئاً مهما كان ذلك الشيء، فيجازيهم ويثيبهم عليه بأحسن الجزاء.

وفي قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ ﴾ ما يبين أن هذا العمل من الإنفاق، يُشبه في علوه وارتفاع منزلته ومكانته على غيره بالحديقة الغناء التي تربعت على ربوة قد ارتفعت على غيرها من الأرض. والمقام المرتفع بسلوكه ومقاصده وإيمانه لا ينزل إلى مقام الأذى بأنواعه. مما يدل على عظيم وفضل النفقة الخالية من الْمَنّ والأذى. وكذلك لما أن في الجنة جمال المنظر، وجمال الروائح وجمال الخضرة، فكذلك يكون جمال النفقة، كجمال هذه الجنة. ولما أن الجنة معطاءة بالخيرات: من الثمار والأطعمة المتنوعة، فكذلك أوجه النفقة متنوعة في أوجه عطائها، ومتنوعة في أوجه ثوابها، من دفع ضُر عن المنفق، وغفران ذنب، ورفع درجات وعظيم أجر وثواب. ولما أن الجنة تُعطي غيرها، فكذلك المنفق يعطي غيره من الناس والدواب، وفي جميع سُبُل الخير.

وفي ضرب المثل ما يفيد عناية نهج الإسلام بالأساليب الْمُوصِلة للمُتلقي ما يحتاجه من العلم في أحسن وأدق الأساليب التعليمية والتربوية، بل وتُعَلِّم المؤمنين منهجية استخدام هذا الأسلوب في طريقته، ونهجه، ومقاصده، وانتقائه للمُمَثَّلِ به، في محتواه وصورته، وما يتضمنه من مقاصد وصور تُرَسِّخ معانيها السامية في ذهن المتلقي، وأيضاً ما تضمنه المثل من أخلاقيات وآداب، وصور ذهنية يتسع بها خيال المتعلم. فالقرآن الكريم مدرسة متكاملة في جميع مجالات وأحوال بناء الإنسان.

ثم لا يزال السياق القرآني يعلم ويوجه المؤمنين بما يُرَسِّخ هذه المفاهيم الإيمانية في قلوبهم، بشتى وسائل التعليم والتقريب للمعنى، حرصاً على سلامة أعمالهم، حتى تكون في مسارها ووجهها الصحيح، وعلى منهجه تبارك وتعالى القويم. فيقول الله تبارك وتعالى مخاطباً عباده المؤمنين ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ

﴿فَٱحۡتَرَقَتۡ﴾ ففي هذا توجيه وتعليم رباني لكل مُنفق من المؤمنين بما تضمنته هذه الآية الكريمة من دلالات عظيمة.

فابتدأ الخطاب التعليمي بسؤال استنكاري، يستثير ويستحث العقل والتفكير فيما يستبعده العقل السليم من أن يكون حال المُنْفِق كحال هذا المثل. واسْتُهِل المثل بسؤال. أيُحِبُ ﴿أَيَوَدُّ﴾ أحدُكم أن تكون له مثل هذه الجنة التي احتوت على أحسن الثمار من النخيل والأعناب، بل ومن كل أنواع الثمار، وتجري المياه بين أشجارها، ولكن مع كل فضائل هذه الجنة الطيبة يعيش صاحبها حالة الهرم، وكِبَر السن، مع ذُرّية ضعفاء ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ فقد جمع حالُهُ بين عجز الكبير، وضعف الذرية، مع هذا الخير الذي أصابه فيه إعصارٌ مُحْرِقٌ، فاحترقت ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحۡتَرَقَتۡ﴾ فإن تَحَسُّرَهُ في غاية الشدة والألم. قال الإمام الشوكاني: وهذا تمثيل من يعمل خيراً ويضم إليه ما يُحْبِطُهُ. فيجده لا يُسمن ولا يُغني من جوع يوم القيامة، عند شدة حاجته إليه، بحال من له هذه الجنة الموصوفة وهو مُتَّصِف بتلك الصفة.(١)

وهذا يُفيد أن العمل ليس بكثرته، ولكن باستيفائه لمنهج ومراد الله عَزَّ وجل. وأن من لم يتصف في إنفاقه بما أمر الله تعالى به، فإنه سيكون عَمَلُهُ حسرة عليه، يوم تشدد الحاجة لأصغر عمل مقبول عند الله تبارك وتعالى. مما يؤكد أهمية الإخلاص لله تعالى، والبعد عن الرياء والمن والأذى، الذي يُحبط العمل.

وفي دلالة لفظة ﴿أَيَوَدُّ﴾ استثارة للجانب العاطفي الذي يحمل الحب ويكره الشر والبغض، وهي كلمة تستجيش القلب والعواطف نحو التعقل والتبصر في حقيقة هذا المثل المضروب من الله الكريم لعباده المؤمنين.

وتكرار التوجيه والبيان، مع تعداد الأمثلة من الله تعالى يُفيد أهمية هذا الجانب، وأن على المسلم أن يعتني به أشد الاعتناء، فليس هناك تحسراً كالتحسر في هذا المثل، الذي اجتمعت

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٨٨/١)

فيه أوجه متعددة: جنة فارهة، وغناء بما فيها من كل الثمار، مع عجز صاحبها، وضعف ذريته عن أن يقوموا بأمر إصلاحها، ثم تهب رياحٌ بنار فتحرقها. فكيف ستكون درجة التحسر والألم، والخوف على ذريته من الهلاك، والخوف على نفسه مما هو فيه، وصعوبة استعادة ما بذله، وما أنفق فيها من جهد ومال. فهكذا هو الإنفاق الذي لا يكون المنفق فيه على منهج الله تعالى، فإنفاقه حسرة عليه يوم القيامة، لأنه قد أحرقه بالرياء والمن والأذى، أو شيئاً من ذلك.

ثم يمتن الله تعالى على عباده بالبيان الكامل ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ فهكذا تبينت لكم آيات الله تعالى ومراده ومنهجه الذي يريده من عباده، ثم يعقبه التوجيه بالمطلوب منهم، وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ وفي هذا توجيه للتفكر فيما أمر ونهى وبَيَّنَ سبحانه وتعالى، حتى يعمل الإنسان وفق مراد الله تعالى كما في شرعه الحكيم. وهذا يُفيد أهمية التفكر والتَّمَعُّن في آيات الله تعالى، التي تهدي إلى تطبيق شريعة الله تعالى، على الوجه الذي شرع وأراد تبارك وتعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾

ولا يزال السياق القرآني العظيم في تعليم المؤمنين متعلقات الإنفاق، ومنهجه وأخلاقه، ليزكو بهم وبأعمالهم إلى ما يُحقق لهم خير الدنيا والآخرة، فيقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ فينطلق التوجيه الرباني بمناداة المؤمنين بخصيصة الإيمان، رفيعة المعاني والدلالات، وما تحمله من تشجيع، وما تحمله من مقاصد جليلة، فالرتبة العالية لا يليق بصاحبها إلا المعالي من الأمور. فالذي يليق بمقام المؤمنين أن يكون إنفاقهم على مقتضى ما تضمنه هذا النداء التوجيهي للمُخَاطَبين به من رب العالمين، وهم المؤمنون.

فيوجه الله تعالى عباده المؤمنين إلى النفقة باختيار الطيب منها، والبُعد عن الرديء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾ وجاء التوجيه الكريم بصيغة الأمر ﴿ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾ مما يُفيد وجوب اختيار الطيب. كما أن جملة ﴿ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾ تشمل العموم من الطيب جُمْلَةً وتفصيلاً، وكذلك العموم من الكسب. ولتشمل أيضاً طيبات النوع، وطيبات المقدار، بل وكل طيب من الكسب ونوعه، ويخرج من ذلك غير الطيب من الكسب. كما تشمل نفقة الخارج من الأرض، والذي هو مضمون قوله تعالى ﴿ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ليشمل التوجيه جميع مصدري الكسب، الخارج من الأرض كالزروع والمعادن وغيرها، وكذلك ما يكسبه الإنسان من التجارة أو الإنتاج والتصنيع.

ومن الفوائد العظيمة: دقة التوجيه في الاستيعاب والشمولية الجامعة للمكاسب التجارية المتنوعة، وكذلك ما يخرج من الأرض بجهد وبغير جهد، مثل ما ينبته الله تعالى بالمطر. وأن من فضله سبحانه وتعالى على عباده أن جعل مقدار النفقة بما تطيب به النفس، حيث وردت ﴿ مِن ﴾ مُتقدِّمَةٌ على ﴿ طَيِّبَٰتِ ﴾ بما يفيد التبعيض ﴿ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾ إلا الزكاة فقد حددتها نصوص الشريعة الغراء.

وفي قوله تعالى ﴿ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ قد نسب الله تعالى إخراج وإنبات الزرع له وحده عَزَّ وجل، لأن الزارع يحرث ويبذر البذور، وينتظر، والله تعالى هو الذي يجعل هذه البذرة تتحول بقدرته وكمال صنعه إلى مراحل من النمو، حتى تخرج من باطن الأرض، ثم تنمو فوق الأرض، ثم تكبر وتُثْمِر. وفي ذلك لفت الانتباه بأنه سبحانه وتعالى هو خالق النبات والزروع، ومخرجها من الأرض نعمة وفضلا وتفضلاً. فالفضل لله تعالى فيما هو عند المخلوق، كما بين ذلك الخلاق العليم في سورة الواقعة ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ بينما نسب الله تعالى الكسب للعباد ﴿ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ ﴾

ونسب ما يخرج من الأرض له سبحانه وتعالى ﴿ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ ليفيد تفضله المحض، وليفيد عجزهم عن إخراجه وتكوينه من الزروع وغيرها، وهذا من دقة البيان، وتعاظم كلام رب الأنام، فسبحان الله العظيم وبحمده.

ثم يبين الله تعالى أدب وأخلاق الاختيار من النفقة ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ فلا تتحروا وتتخيروا وتتقصدوا الخبيث من الكسب. ولتشمل كلمة ﴿ تَيَمَّمُواْ ﴾ عملية التحري والانتقاء والتَّقَصُّد المتعلق بالنية والتَّخَيُّر والانتقاء، وكذلك كلمة ﴿ ٱلْخَبِيثَ ﴾ لتشمل كل دلالةٍ على السيء من الاختيار. فنهت هذه اللفظة البيانية العظيمة عن كل حال ونوع ودرجة من رديء الكسب والإنتاج، فجمعت معاني ومقاصد عديدة في لفظة واحدة، لتكون بياناً عظيماً من رب عظيم. وهذا يفيد أهمية ووجوب إخراج الكمال في النفقة، وعدم إخراج الرديء. الذي لو أُعطي للمُنْفِق لَمَا أخذه إلا بغض الطرف عما فيه من رداءة، حيث قال تعالى ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ وفي هذا التوجيه الكريم أسلوب عميق في تصحيح لمقاصد والفكر بإعادة وَرَدَّ الإنسان الْمُنْفِق لنفسه، في استشعار وتصور الموقف، فيما لو أُعْطِيَ هو مِثل ما أعْطَى من الرديء فإنه لا يقبله إلا أن يغض الطرف عما فيه من الرداءة. فأعاد الله تعالى المنفق إلى حوزة النفس، حتى يكون ذلك دافعاً لفهم موقف النفقة من جميع أوجهها، وليستشعر أهمية وأثر الاختيار من النفقة، فإن كنت لا ترضى بذلك لنفسك، فلا ترضى به لغيرك. ويفيد هذا تعليمياً وتربوياً أن يُعيد المعلم والموجه والداعية والمربي والْمُخَاطب عموماً إلى الحقيقة، من خلال وضعه في موضع الحالة التي يُراد توجيهه ونصحه فيها. حتى تتضح له الصورة كاملة من جميع أبعادها وزواياها. وهذا مِثْلُ قوله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدُكم حتى يُحب لأخيه ما يُحبه لنفسه)[١]

وفي هذا التوجيه الكريم، باختيار الأحسن والأنفس والأجود والأطيب من النفقة، ما يتوافق مع صفة الله عَزَّ وجله بأنه جَلَّ جلاله طيب ولا يقبل إلا طيباً، وليتعلم المؤمن كرم النفس،

---

(١) البخاري (٢١/١) برقم (١٣) مجمع الزوائد (١٠٠/١)

والسخاء، ومغالبة الدوافع النفسية، والتغلب عليها، بتقديم وإيثار ما يُحبه الله تعالى ويرضاه على شُح النفس. فإذا اعتادت وتَرَبَّت النفس على ذلك، أصبح لها ذلك الْخُلُق سجية. وكذلك من الفوائد: أن في هذا الأدب حال الإنفاق ما يُدْخِلُ السُرُورَ على الْمُنْفَق عليه، بالعطاء الطيب الجميل، الذي ينشرح له صدره، ويُقبل عليه بالرضا وكمال الدعاء للمُعْطِي. ولتزداد اللحمة الاجتماعية والأخوية بين المتعاطين للصدقة في أوجهها المختلفة، وسواء أكانت زكاة، أم كانت صدقة عامة، فيكون انبعاثها رحمة وبراً وصلةً، ورغبة في طاعة الله تعالى.

وفي الآية الكريمة أمر بالمطلوب ونهي عن الممنوع. فالأمر بالمطلوب هو قوله تعالى ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ والنهي عن الممنوع هو قوله تعالى ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ﴾ وهذا الإفصاح دليلٌ على أهمية تحقيق البيان، وليفهم الْمُخَاطَب أهمية التطبيق والاجتهاد فيه.

ثم تنتهي الآية العظيمة بتوجيه كريم من رب العالمين ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فابتدأ التوجيه الرباني بصيغة الأمر بالعلم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أن ربكم ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ سبحانه وتعالى. فهو غني عن عباده، وعما يكسبون، وعما ينفقون ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ أي: غِناً تاماً، بما يُفهم منه: أن هذا الإنفاق لكم ثوابه من الله تعالى، وإلا فإن الله تعالى غني عنكم، وقادرٌ على أن يُغني الفقير والمسكين والمحتاج، ولكن قضت كمال حكمته سبحانه وتعالى، أن يكون المجتمع فيه الأصناف والدرجات المختلفة في الرزق، وأن يتعاطى الناس فيما بينهم الخير، حتى يظهر التراحم والخلال الحميدة في علاقاتهم الاجتماعية.

كما أنه تبارك وتعالى متصف بأنه ﴿حَمِيدٌ﴾ فهو المحمود في الأرض وفي السماء، وفي الأولى والآخرة، والمحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه، وفيما يُقَدِّره سبحانه وتعالى، وهو حميد في توجيهه، وحميد في أوصافه، وحميد في كل شيء سبحانه وتعالى. فإذا أدرك العبد صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، أوجبت له الطاعة والتوكل والاعتماد عليه تبارك وتعالى. ومن فوائد قوله تعالى

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ ما يفيد وجوب العلم بأسمائه وصفاته تبارك وتعالى، والتي منها ما ورد في هذه الآية العظيمة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾

ثم ينتقل التوجيه القرآني الكريم إلى بيان دوافع الطمع والجشع، وخوف الفقر من النفقة عند الإنسان، حتى يعرف المؤمن أسباب ما يدفعه ويحرضه على الطمع والتقتير في النفقة، فيعالجه تبارك وتعالى بما بينه من الدوافع التي تدفع المؤمن إلى الإنفاق بأحسن وأنفس وأجود ما عنده في طمأنينة عظيمة. فقال الله عَزَّ وجل ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ فاستهلت الآية بدوافع الخوف المانعة من الإنفاق والعطاء، وذلك بما يوسوس به الشيطان للإنسان ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم﴾ فإن الشيطان الرجيم يُخَوِّف جنس الإنسان بالفقر، من خلال ما يوسوس به للناس، حتى يمتنعوا عن النفقة في طاعة لله تعالى. فيتردد في النفقة، ويتردد في اختيار الأجود والأطيب، وقد يمتنع عن النفقة، خشية أن يقل وينقص الخير، وإذا أخرج، اجتهد في إخراج الأردأ مما عنده، مُؤملاً الخير والربح في الجيد الطيب، فَيُبْقِيه لذلك. ثم يدفع بالرديء للصدقة، خشية من الفقر، مع أمل الغنى فيما استأثر به من الأجود والأنفس. فكان الشيطان سبباً في ذلك بما يعد من الفقر.

وفيما يتعلق بالفواحش فإن الشيطان يأمر بها ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ فيدعو إلى ارتكابها بتزيينها، وتقوية الدوافع لإتيانها، ومن تلك الفواحش: البخل والشُّح، مع ما يُزَيّن من عوامل دفع النفس والمال في الفواحش والباطل. وفي وصفه بأنه ﴿وَيَأۡمُرُكُم

﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ما يدل على أنه يتسلط إلى درجة الأمر بها. وفي هذا تنبيه وتحذير للمسلم من درجة تأثير الشيطان، وكذلك درجة العداء للإنسان، مما يوجب الاستعاذة منه في كل وقت وحين، وخاصة عند المواطن التي يظهر فيها. والحذر منه بعد هذا البيان الكريم، وعدم مطاوعته.

ومن دقائق البيان الكريم أن قال سبحانه وتعالى عن أداء الشيطان مع الإنسان فيما يتعلق بالفقر، بأنه ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ بينما في الفحشاء قال عَزَّ وجل ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ لأن الوعد يجلب الخوف، ويتحقق به الامتناع، فناسب له الوعد ﴿يَعِدُكُمُ﴾ بينما الفحشاء أداء مباشر لها قبل أن تفوت، فاستخدم معه فعل الأمر ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهذا من دقائق السياق الدَّال على الإعجاز البياني في دقته المتناهية، والتي تُثبت وتبين أن القرآن كلام الله رب العالمين.

وأما الله تعالى فإنه يعد بالمغفرة والفضل ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ فإن ربكم الله تبارك وتعالى يَعِد ووعده حق، بالمغفرة منه سبحانه وتعالى ﴿يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ فيمحوا ذنوبكم ويسترها بسبب ما أنفقتم من الطيبات. وكذلك يُوعدكم ويعكم بالرزق ﴿وَفَضْلًا﴾ وهي زيادة عن الاقتصار والاقتصاد في الاستحقاق، بل التجاوز من عَزَّ وجل في الإكرام العطاء.

ودلالة الفضل ﴿وَفَضْلًا﴾ كما يقول الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: أن يخلف عليهم أفضل مما أنفقوا، فيوسع لهم في أرزاقهم، ويُنعِم عليهم في الآخرة بما هو أفضل وأكثر وأجل وأجمل.(١)
وأما كون الوعد مباشرة من الله تعالى فإنه يدفع المؤمن للخير والإنفاق والعطاء بسخاء، لأنه لا يخشى الفقر، بل يأمل الغنى والفضل من الله تعالى، وكذلك يختار لنفقته الطيبات من الرزق، لأنه يريد ثوابها من الكريم الرحمن.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٨٩/١)

ثم يتم اختتام الآية الكريمة بما يناسب المقام ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فربكم واسع في هباته وعطائه وعلمه وقدرته، لا يُحصي سعته أحدٌ من خلقه، ولا يعرف كنه عظيم وسّعِهِ سبحانه وتعالى إلا هو. وهو عليم بما يفعل المؤمن، وبما يعطي، وكيف يعطي، ومما يعطي، ولما يعطي، ومما أعطى، فلا يخفى على علمه شيء، مما يُوجب أن يعمل المؤمن بما يليق بمقام الله تعالى، ومقام كريم عطائه الواسع العليم. وهذه المعاني تفيد أهمية الموعظة في نهاية كل توجيه، بما يناسب أسمائه وصفاته تبارك وتعالى، لأن العلم بها يدفع المسلم نحو كل خير، ويجعله يقبض عن كل شر.

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾

ثم يبين الله تعالى فضل الحكمة، وميزة من يحصل عليها، وأنه وحده المعطي لها، فقال جَلَّ شأنه ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ فابتدأت الآية الكريمة، ببيان أن الله تعالى هو الذي يمنح ويعطي الحكمة، ولا يستطيع أحدٌ من خلقه أن يمنحها لنفسه أو لأحد من العباد، فإن الذي يُعطيها هو الله تعالى ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ فانحصر المنح والعطاء لها منه سبحانه وتعالى، فلا أحد يستطيع أن يأخذها لنفسه، أو يمنحها أو يورثها لغيره. ولكن الذي يمنحها هو الله تعالى وحده بمشيئته ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ وهذا يفيد أن من رغب فيها، فليلتمسها ويطلبها من الله تعالى أولاً بالدعاء ولزوم الطاعة، ثم يأخذ بأسبابها.

ومعنى الحكمة ودلالتها: أنها شاملة لمعاني عديد، هي: النبوة، والفهم في القرآن، والعلم والفقه، والإصابة في القول، والورع في دين الله تعالى، والخشية من الله تعالى، والعقل في الدين، والفهم، والعلم والعمل.[١] والسنة: وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: والصحيح أن الحكمة كما

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٨٠/١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٩/١)

قاله الجمهور لا تختص بالنبوة، بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة.[١] ومن فوائد هذا البيان المتنوع لدلالة الحكمة، أن استوعب لفظ الحكمة أنواعاً عظيمة من الفضائل والخصائص والمعاني، فليتأمل الإنسان البيان البلاغي في القرآن الكريم، بما استوعبت دلالة لفظة الحكمة لجميع أوجه الخير الكثير والمتنوع.

ثم بين الله تعالى منزلة من يُؤتَى الحكمة، بقوله عَزَّ وجل ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وفي هذا بيان لمنزلة الحكمة، وأن من يحصل عليها فقد حصل على خيرٍ كثير، لأن الحكمة توصل إلى طاعة الله تعالى، والعمل بمراد الله تعالى. وأنه يضع الأمور مواضعها. فيكون صاحبها من أهل الجنان، وبالحكمة تستنير الأفهام، وتتفتح بها العقول، وتنهض بها الهمم، وتُصان بها الذمم، وتعلوا بها المنازل، ويُزال بها الجهل، ويُرفع بها الخطأ، ويُوضع بها الحق موضعه، وترتقي بها الناس، وتظهر بها الآداب والأخلاق، ويكون صاحبها محبوباً مطلوباً من الناس، ومقدماً على كثيرٍ من غيره، لأنه يحمل الخير الكثير ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ونسأل الله تعالى أن يمنحنا الحكمة منه تفضلاً، والمسلمين أجمعين. إنه هو الجواد الكريم.

وهذا يتطلب من العباد البحث عن الحكمة والسعي للحصول عليها، من خلال سؤال الله تعالى، والاجتهاد في طاعته عَزَّ وجل، والاجتهاد في تحصيلها بالأسباب الموصلة لها، وعلى رأسها علم الكتاب والسنة، ثم الاجتهاد في العمل بمقتضاها.

ثم تُخْتَمُ الآية الكريمة بموعظة تحمل غنيمة من الله تعالى لمن يتدبر ويتذكر ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فما ينتفع بالموعظة والتذكير إلا من له عقل يعي ويعقل به ما يُقال له. فمن عرف ووعى وعمل بما قال الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فإنه من أولي الألباب، ومن علم ولم يعمل فإنه ليس من الممدوحين بصفة أولي الألباب.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٢٩/١)

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

ثم تلي تلك الآيات السابقات، هذه الآية التي تبين للمخاطبين علم الله تعالى الواسع والشامل لما يقومون به من نفقة ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فتفيد الآية الكريمة علم الله تعالى الشامل بما يُنفق العبد من نفقة، قليلة أو كثيرة، وصغيرة أو كبيرة، وحقيرة أو نفيسة، وطيبة أو خبيثة، فإن الله تعالى أحاط بها علماً. ومن فوائد إدراك المرء لإحاطة الله تعالى بما أنفق من نفقة، أنها تربي فيه، متابعته لنفسه، في نفقته من كل وجه، وفي كل حال.

كما بينت الآية كذلك علم الله تعالى بما ألزم أو يُلْزِمُ المرء نفسه من طاعة لم تكن واجبة ولا لازمة عليه كالنذور ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ فالنذر كما قال القرطبي رحمه الله تعالى: هو ما أوجبه الْمُكَلَّف على نفسه من العبادات، مما لو لم يُوجبه لم يلزمه[1] فلا يخفى على الله تعالى شيء من ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فربكم عليم بما كان منكم، مما يوجب على المؤمن الابتعاد والحذر مما نهى الله تعالى عنه، كالنفقة غير الطيبة، فيظلم نفسه بما أنفق، لأنها على غير ما أراد الله تعالى. وأن يُوفي بالنذر إذا نذر من عمل الطاعات.

وأما في إخراج الطيب مع الإخلاص لله تعالى، من غير أذى ولا مَنٍّ ولا رياء فإنه خيرٌ عظيم للمنفق، وذلك بقبوله من الله تعالى، وبمضاعفة الأجر له، وبمحبة الناس له، ومحبة من أنفق عليهم، وذلك لما حصل لهم من تطيب خواطرهم، وإكرامهم، ودعائهم له، ومحبتهم لمن أحسن إليهم، ومن زيادة اللحمة الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٢١٥)

ثم بين الله تعالى محذراً من الظلم ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ فما لهؤلاء الظالمين من أنصار يمنعون عنهم عذاب الله تعالى. وفي هذا وعيد شديد للظالمين. كما يفيد هذا البيان الكريم أن من امتنع عن الإنفاق، أو أنفق مع الأذى لغيره، أو للرياء والسمعة، ولم يكن وافياً فيما أوجب على نفسه من النذور، فإنه أوقع نفسه في الظلم، فاستوجب العقاب من الله العزيز الحكيم. فاليحذر المؤمن من أن يضع نفسه مع الظالمين.

ثم يبين الله تعالى حُكْمَ ما يتعلق بالصدقة من إظهارٍ، أو إخفاءٍ لها، وما يترتب على ذلك من الأجر، فقال عَزَّ وجل ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ وهذا مدح لها ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ وهو ثناء زائد للإخفاء. ويقول السعدي رحمه الله تعالى: قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيراً، لحصول الأسوة والاقتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.[١] فإن الله تعالى مدح الوجهين، الإبداء والإخفاء، كما أنه سبحانه وتعالى أعلم بنية من أظهرها، فقد يزيد بها خيراً، إن أراد بذلك دفع الناس للاقتداء به. وعليه أن يحذر الرياء والسمعة. بأن يطلب بذلك الإنفاق أقوال الناس عنه، ويسمعون به.

ومن الفوائد أنه اجتمع في الصدقة الثناء من الله تعالى ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ وكذلك حصول الخير للمتصدق ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ وكذلك تكفير السيئات ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ ثم تنتهي الآية بموعظة عظيمة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فهو خبير بما أنفقتم، وبنوعه، وكميته، وعدده، وجودته، وطيبه من رديئه، بل وعليم حتى بنية الإنفاق ودواعيه. فلا يخفى عليه شيء من أعمال العبد. وإذا أدرك الإنسان هذا، واستصحب يقينه بعلم الله تعالى له أثناء الإنفاق، قاده وأخذه ذلك للكمال الذي يريده الله تعالى. وأيقن أن الله تعالى سيتفضل عليه بخير مما أعطى وأنفق.

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٢١٥/١)

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني لمعالجة النفقة على غير المسلمين، وابتدأت الآية الكريمة بتقرير أمر الهداية، من أن الهداية ليست بيد أحد من خلقه ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ فهذا الخطاب مُتوجّه للرسول صلى الله عليه وسلم، من أن الهداية التوفيقية ليست لك، فليست بواجبة عليك، وإنما مهمتك أيها النبي هداية الإرشاد والبيان والتوجيه، وأما هداية التوفيق، فهي بيد الله تعالى. فلا يجب عليك هدايتهم. وفي هذا ما يُزيل عن النبي صلى الله عليه وسلم هم المسؤولية والرغبة في هداية الناس، لأنه حريص على ذلك، كما قال تعالى في سورة التوبة ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ مما يفيد أنه من باب أولى أن لن يكون لأحد من خلقه هداية الغير بالإلحاح والأمر، وإنما بالدعاء والتوجيه والقدوة الصالحة التي تدفع غير المسلم للدخول في الإسلام.

وهذه فائدة في مجال الدعوة عظيمة لكل داعية لله تعالى. وهذا يفيد أهمية دعاء وسؤال الله تعالى هداية الغير، مع الأخذ بأسباب هداية دلالة الناس على دين الله تعالى، وذلك ببيان منهج الإسلام ومحاسنه ومقاصده. وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم (اللهم أعز الإسلام بأبي جهل بن هشام، أو بعمر. فأصبح فغدا عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلم)[١] وقوله صلى الله عليه وسلم (اللهم اهدِ دوساً وَائتِ بهم)[٢]

(١) الترمذي، صحيح الجامع (٥/٥٧٧) برقم (٣٦٣٨) وبرقم (٣٦٨١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٣٤١) برقم (٢٩٣٧)

وجاء في التفسير: أنه لما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم التَّصَدُّق على المشركين من أجل أن يُسلموا نزلت هذه الآية.(١) فكان صلى الله عليه وسلم يأمر أن لا يُتَصَدَّق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين.(٢) وهذا يفيد أن منهج الإسلام هو منهج رباني من الله تعالى، إذ لم يوافق اللهُ تعالى رسولَه صلى الله عليه وسلم فيما اجتهد فيه عليه الصلاة والسلام، وأن هذا الدين رحمة على المسلم والكافر، وأن منهجه يدفع غير المسلم لابتغائه، لما يرى من سماحة هدي الإسلام وصدقه، ولن يكون هذا إلا من خالق الكون ومالكه، الذي يسوس الناس بالتي هي أحسن.

ثم تتولى الآية العظيمة معالجة العديد مما قد يرد على النفس البشرية عن مردود هذا الإنفاق والبذل، فَتُعَلِّم المؤمن أن ما يُنفقه على غيره فهو له ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡ ﴾ أي مردود ثوابه وأجره عليك أيها الْمُنْفِق، فما يقدمه الْمُنْفِق لغيره من نفقة في الدنيا، فإن ثوابه ومردوده عليه في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا بالبركة ودفع الشرور وتكثير الرزق، وفي الآخرة بالمغفرة ورفيع الدرجات، وفضله وكرمه واسع لا حدود له سبحانه وتعالى.

ثم حصرت الآية الإنفاق في الخير ﴿مِنۡ خَيۡرٖ ﴾ ليستبعد منه كل رديء، لأنه ليس بخير. وفي هذا تشجيع للمؤمن على النفقة من أفضل ما عنده. ثم بين تبارك وتعالى نية الإنفاق ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا توجيه بياني، من أن ما تنفقون من الخير هو ابتغاء وجه لله تعالى، وليس لغير ذلك، لينتفي معه الرياء والسمعة، وغيرها مما يُظَنُّ به منفعة، وكذلك يزول معه وجهٌ آخر، مثل: ما قد يرد على النفس، من أنه بعد أن أعطى تبين له أن نفقته لم تكن في المكان واليد التي أحب أن تكون. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إذا أعطيت لوجه الله تعالى، فلا عليك ما كان عمله. فالمتصدق إذا تصدق لوجه الله تعالى، فقد وقع أجره على الله تعالى، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب الْبَرَّ أو الفاجر، أو مستحق أو غيره، وهو مُثاب على

---

(١) تفسير الجلالين، ص (٤٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣١/١)

قصده.[١] وهذا من لطف شريعة الله تعالى، وعنايتها بدقائق النفس البشرية، وما قد يعتريها، بما يؤكد أنها شريعة الله تبارك وتعالى.

ثم يؤكد عَزَّ وجل محل ثواب النفقة، بأنه محل محفوظ عند الله تعالى، وبعيد عن أي مظلمة للمُنْفِق ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ فإن ما تفقونه لوجه ربكم من الخير عائد إليكم ثوابه من ربكم، ولن يُظلم أحد فيما قدم من الخير. فلا يُظلم الْمُنْفِق في نفقته عند الله تعالى، وهذا زيادة تأكيد على حفظ الله تعالى لنفقة الْمُنْفِق من أي ضياع. فالوفاء حاصل ومؤكد بدلالة ﴿ يُوَفَّ ﴾ ثم التعيين لهم ﴿ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ أي: أنتم أيها المنفقون لوجه الله تعالى. ثم المزيد من تأكيد الوفاء بخُلوه من النقص والبخس، فقال تعالى ﴿ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ وفي هذا الوعد من العزيز الكريم زيادة تأكيد على التأكيد.

---

(١) المرجع السابق (٣٣١/١)

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾

ثم يبين الله تعالى صورة التعفف عند المؤمنين من رعيل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لتكون منهجاً في كل زمان، وفي كل مجتمع، فقال تبارك وتعالى ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فتضمنت الآية العظيمة في صياغتها لفت الانتباه إلى العناية بأولئك الفقراء الذين حَبَسُوا أنفسهم في سبيل الله تعالى، ولم يتمكنوا من التكسب الذي يغنيهم، ويسد حاجتهم. وهم في ذلك الوقت المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأعمالهم إلى المدينة في سبيل الله تعالى، لنصرة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا الانتقال في سبيل الله تعالى وما عليهم من نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم، جعل منهم عدم الاستطاعة على التكسب، وجمع المال، حيث قال تبارك وتعالى عنهم ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فنفى عنهم القدرة على الضرب في الأرض، فلا يستطيعون سفراً ليتكسبوا بتجارة أو عمل. لحبسهم أنفسهم في سبيل الله تعالى، وهذا يفيد حاجة الإنسان للتذكير، ولفت الانتباه إلى المتعففين المحتاجين، الذين لا يستطيعون أو لا يُحسنون التكسب. كما يفيد هذا أن هناك صنفاً من الفقراء والمحتاجين لا ينتبه لهم أحد، ولا يلتفت لحالهم الجاهل بحالهم. وأيضاً يفيد هذا أن الفقير لا يُلام على فقره، فقد يعجز عجزاً نفسياً أو عجزاً فكرياً أو أنه حبس نفسه على طاعة؛ فلا يتمكن بها من التكسب، مثل هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله تعالى، ومنهم أهل الصفة. أو قد يكون سبب الحاجة هو العجز المعرفي عن أن يهتدي ويتوفق لعمل يسد حاجته، فيتنبه الغني لذلك، ولا يُظن به، ولا يُعاتبه عتاب المتكاسل الرافض للعمل، بل يرشده ويعينه إن أراد نقله مما هو عليه إلى حالة العمل والتكسب. وكذلك أهمية تنبيه الأغنياء للفقراء، ونعتهم وتنبيههم لهم.

ويُستفاد أيضاً أن الناس متباينون فيما يُحسنون ويُجِيدُون من العمل، فالبعض يجد نفسه في سبيل الله تعالى، كالعلم مثلاً، فلا يُشغل وقته إلا به، ولا يُحسن غيره، وقد لا يجد به ما يعينه على متطلبات الحياة، التي يستغني بها عن غيره. فالذي هدى الغني ووفقه للتكسب، ويسر له الرزق وأسبابه، هو الذي وفق هذا لتكون حياته في باب من أبوب سُبُل الله تعالى. ويكف عن غيره ثغرة من ثغور الإسلام.

ومن دقائق البيان الكريم أن ورد السياق عاماً للآية، لتشمل الرعيل الأول ومن يشابههم فيمن أوقف نفسه على الأعمال التي هي في سبيل الله تعالى. كطلب العلم، أو التعليم، أو خدمة المساجد، وغير ذلك من سُبل الحياة المختلفة، ولتشمل فقراء المسلمين عموماً.

ثم بين الله تعالى صفة أولئك الذين تضمنت الآيةُ الكريمةُ حالهم، ولفتت نظر المنفقين إليهم، من أنهم ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ فالجاهل بحالهم الحقيقي، يعتقد أنهم ميسورين مستغنين عن نفقات غيرهم لهم، وذلك بسبب عفتهم وانقباض نفوسهم عن السؤال، أو حتى إظهار ما يدل على حاجتهم وفقرهم. فإنها صورة عالية لهم في كل شيء، فلا يفطن لهم إلا من يعرف حقيقتهم بدقة.

وهذه الصورة تُعَلِّم الفقير والمسكين صورة من صور حال المسلمين الأوائل، لتكون منهجاً للتعلم. ومن صفاتهم التي بينها الله تبارك وتعالى لمعرفتهم من بين الناس، قوله عَزَّ وجل ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ فالعلامات الدالة على الفقر هي أوصاف الحاجة الظاهرة عليهم. فيا أيها الْمُخَاطَب والْمُطَالب بالنفقة، تعرف على هؤلاء بسيماهم، بتلك العلامات الدالة على فقرهم، كالجهد الجسدي، الذي يكشف الفقير والغني والمريض والسليم، وكذا التواضع الذي يظهر على أبدانهم وتعاملهم، وأما نفوسهم فلا تُوحي بالحاجة، كما سبق وصفهم ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ فصورتان عظيمتان لهم. صورة لا يفطن لهم بها أحد، غير العالم بحالهم، وهي ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾ وصورة يفطن لها العارفون ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ فهذا تحليل عميق من رب العالمين، لتلك القامات والشخصيات التي نذرت نفسها في سبيل الله تعالى.

ودلالة ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾ تفيد الامتناع والتنزه والابتعاد عن السؤال ومواطنه ومضانه، وتفيد تكلف التعفف بالتصبر على واقع الحال، والمبالغة في ذلك، وكذلك يفيد تَصَنُّع الكفاف وعدم وجود الحاجة، وهي عملية نفسية تتطلب المجاهدة القلبية والتحلي بالصبر، ومكابدة الحاجة. فإن ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾ كلمةٌ استوعبت دلالات نفسية وأخلاقية متعددة، ليتأكد بها الغزارة التعبيرية في البيان القرآني الكريم. وتصوير المشهد بأبلغ الألفاظ الدالة عليه بأكمل وأوجه صورة.

ثم يقول الله تبارك وتعالى عن حالهم ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ فلا يقع منهم سؤال الناس البتة، فلا يقع الإلحاح منهم. لأنهم متعففون، لا يمدون أيديهم لأحد، ولا يُشْعِرُونَ غيرهم بفقرهم وحاجتهم، فهي صفات يقف المرء عندها إكباراً وثناء. ومن الفوائد اللفظية أن الإلحاف هو الإلحاح. فمهما بلغت الحاجة بهم، فإنه لا يظهر منهم السؤال أبداً. فرضي الله تعالى عنهم.

ومن الفوائد جمال تراكيب الألفاظ في كتاب الله تعالى، ومنها ما تضمنته هذه الآية الكريمة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بل كل كلمة في موضعها بيانٌ يهز الألباب، وكل جملة تقف عندها العقول حائرة مذهولة من جمال تراكيبها، ودقة احتوائها لمراد الله تعالى، ثم كل آية تحتار ولا تجرؤ في تحبير مثلها الأقلام، وفي كل معنى يقف عند دلالتها الفقهاء والعلماء، فيغترفون منها مزيداً بعد مزيد، ويقرأ ويسمع نصوص الآيات كلُ إنسان من غير العلماء، فيعرفون منها عموم مراد العزيز الرحمن. فسبحان من خص كتابه بكل المعجزات.

ثم تنتهي الآية الكريمة بما يزيد من طمأنينة المنفق. فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فخص الله تعالى نفقة الخير لتنتفي بها كل نفقة على غير مراد الله تعالى ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ وبالتالي ينتفي بها كل نفقة ليست مشمولة بالخير. فالله تبارك وتعالى عالم بكل نفقة، صغيرة وكبيرة، وأُخِذَت من قليل أو كثير، ونسبتها مما أُعطيت منه، وإن كانت لله تعالى أو للرياء والسمعة. وبالتالي فإن مَن أحاط بها علماً عَزَّ وجل سوف يُجازي

المنفق على ما أنفق وقدم. وفي هذا بيان تشريعي على النفقة، وعلى عظيم المكافأة من الأجر والثواب التي لا يعلم قدرها إلا الله عَزَّ وجل. وهي دعوة للمسابقة في الخيرات من الغني الْمُغْنِي جَلَّ شأنه وعَظُم قدره.

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

ثم يؤكد الله تعالى مُجازاته ومكافأته وثوابه للمنفقين، بالأجر العظيم، وبنفي الخوف والحزن عنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ فهذا مدح وثناء منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته. من جميع أنواع الخير، وفي جميع الأوقات، وفي جميع مختلف الأحوال. لتشمل حتى النفقة على الأهل، فهي داخلة في ذلك،كما قال صلى الله عليه وسلم (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرْتَ عليه، حتى ما تجعل في في امرأتك)[١]

وفي قوله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ كناية عن كثرة تدفقه عليهم، وتعدد الإنفاق، وتنوع أوقاته، وتواليه على المستحقين ليلاً ونهاراً.

ثم يذكر تبارك وتعالى أحوال الإنفاق من حيث السر والعلانية، فيقول عَزَّ وجل في وصفه لهذا الإنفاق ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾ بيانٌ لأوجه وأحوال الإنفاق من حيث السرية والعلانية، بأن بعضها خُفية، وبعضها علانية، مما يفيد أن الإنفاق علانية مباح وليس بمذموم، لأنه قد يكون دافعاً للغير بالاقتداء والتقليد. ما لم يقصد به الرياء والسمعة.

ثم ورد تبارك وتعالى ثواب هؤلاء المنفقين ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً. فقال عَزَّ وجل ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ فهؤلاء

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (١/٣٥) برقم (٥٦) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (١٦٢٨)

المنفقون الموصوفون في هذه الآية الكريمة لهم أجرهم وثوابهم عند الله، وفي قوله تعالى ﴿ **عِندَ رَبِّهِمْ** ﴾ ما يدل على المنزلة والمكانة والشرف العظيم لهم. فلهم عند الله تعالى العطاء بالثواب الجزيل، وأيضاً ﴿ **وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ فإن لهم الأمن والأمان عند الله تعالى فيما هو قادم من أمرهم، وأيضاً ﴿ **وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ فينتفي الحزن عنهم عند الله سبحانه وتعالى على ما مضى مما فاتهم في الدنيا، لكرمه وجوده عَزَّ وجل.

لأن هناك الخاسرون يوم القيامة، كما قال تعالى في سورة مريم ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهذا يفيد تربوياً أهمية التشجيع وأهمية الإثابة، لمن اتصف بما يجب أن يقوم به، فإن ذلك يدفع ويُبْعِد عن المرء سوء الطوية، وخباثة النفس والفكر، ويدفعه للأداء بأحسن ما يكون. وكذلك يفيد هذا أهمية التربية على جمال النفقة وأطيبها، وتفقد أحوال الغير، وخاصة أهل التعفف من الفقراء، وأصحاب الحاجات.

﴿ **ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)** ﴾

بعد أن تم استجلاء ما يتعلق بالنفقة في أوجه سُبُل الله تعالى. ينتقل السياق القرآني الكريم إلى مسألة الربا، قال الله عَزَّ وجل ﴿ **ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ** ﴾ استهلت الآية الكريمة السياق والبيان في شأن الربا بتشنيعه في أبشع صورة، لما هو عليه، ولما سيحصل عليه آكله يوم القيامة، بأنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً

منكراً.(١) وكذلك حاله أيضاً في الدنيا، فليس هو عن ذلك ببعيد، فحرصه وجشعه يدفعونه إلى استعجال المرابح والمكاسب، فيقوم كما يقوم المصروع خوفاً وفزعاً من فوات المكاسب، فإن طمعه يستفز أعضاء جسمه وفكره بالعجلة المنكرة، التي تظهر على أعضائه وتصرفاته، وكأن به مس من الشيطان.

ومن الفوائد التعليمية تشبيه حال آكل الربا بحال الذي أصابه مس من الشيطان، لتقريب المعنى، وتصويره في ذهنه تصويراً بليغاً وبالغاً في التأثير، وكأنه يشاهد حاله وينظر إليه، ومن الناحية السلوكية والتربوية يستثير عند الْمُخَاطَب استحضار حالة الممسوس، واستثارة التوخي من الوقوع في تلك الحال.

وهذه الصورة البشعة تحذر المسلم من أن يكون حاله بسبب الربا، كهذه الحالة المخيفة، ويفهم منها، ما يلزم أن يكون عليه المسلم من العمل بضد ذلك، فيكون تكسبه وفق المكاسب التي أباحها الله تعالى، والابتعاد عما حرم الله عَزَّ وجل من الربا وغيره من البيوع المحرمة في عينها، أو في طرائق بيعها وشرائها.

ولشناعة الربا، صَوَّرَتْهُ الآية الكريمة بأبشع الصور المماثلة له، حتى في مطلعها، إذ وصفت التعامل الربوي بالأكل، الذي هو الاستطعام، وما يحصل به. فقال تعالى ﴿يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ والمراد يكسبون الربا ويفعلونه. وخُص الأَكل بالذكر لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنه دال على الجشع، وهو أشد الحرص.(٢) والربا هو: الزيادة في المعاملة بالنقود والمطعومات في القدر أو الأجل.(٣) فاختيار كلمة ﴿يَأْكُلُونَ ﴾ جاءت للدلالة على شناعته. فقد أعطى البيان وصفاً وتحريراً دقيقاً، ليتبين الإعجاز البياني في اختيار اللفظ الذي يصور الأمر تصويراً مناسباً له، حتى يكون أثره في النفس أكثر عمقاً، بحسب مقاصد السياق اللفظي.

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٤/١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٢٩/٣)

(٣) السيوطي، تفسير الجلالين، ص (٤٧)

ثم بين الله تعالى تعليلهم لإباحة الربا ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ فجعلوا الربا نظيراً للبيع، وليس تشبيهاً وقياساً له. إذ لو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع. ولكن ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ ليخرجوا بعلة تؤيد مقصدهم، بأن الربا مثل البيع، فَلِمَا حُرِّم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على شرع الله تعالى.[١] فأجازوه باعتراضهم على أحكام الله تعالى. مما يبين أن المنحرف عن الطريق المستقيم، يستهل انحرافه بتحليل ما هو عليه من انحراف، حتى يلتمس لنفسه المعاذير التي تُبْعِدُه عن لائمة النفس أولاً: واستغفال المغفلين بأحكام الشريعة الغراء ثانياً، وكذلك لاستهواء الاخرين لما هو عليه ثالثاً. وهذا منهج المنحرفين في كل انحراف عن جادة الإسلام، إذ يضعون ويسوغون لأنفسهم مسوغات تتناسب مع الهوى والمراد، والعياذ بالله تعالى من غلبة الهوى والشيطان.

والمسلم يستسلم لمنهج الله تعالى، ولا يعترض عليه، ولا يفكر في الاعتراض عليه، ولا يجعل للشيطان والهوى مدخلاً في ذلك. فإن الله تعالى لا يُسأل عما يفعل. ولا يُعَقِّب على حكمه أحدٌ. فيحكم اللهُ تعالى بِحُكْمِهِ تحليلاً وتحريماً ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ وإن الله تعالى لا يحرم شيئاً إلا وفيه ضرر على الإنسان، ولا يبيح شيئاً إلا فيه منفعة للإنسان.

ثم عالجت الآية الكريمة حال مَن وقع في الربا، وفتحت له باب التخلص منه، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فمن بلغه نهي الله تعالى عن الربا، فانتهى عنه حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة[٢] وسيكون أمره إلى الله تعالى في عفوه وعقابه.

ومن الفوائد تعدد دلالات ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لتستوعب أموراً متعددة، بسبب ضمير الهاء في قوله تعالى ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ ﴾ أحدها: أن الضمير عائد إلى الربا، بمعنى: وأَمْرُ الربا إلى

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٤/١)

(٢) المرجع السابق (٣٣٤/١)

الله في إمرار تحريمه أو غير ذلك. والآخر: أن يكون الضمير عائد على ﴿ مَا سَلَفَ ﴾ أي أمْرُهُ إلى الله تعالى في العفو عنه، وإسقاط التَّبِعَةَ فيه. والثالث: أن يكون الضمير عائداً على ذي الربا، بمعنى أمره إلى الله تعالى في أن يثبته على الانتهاء منه، أو يُعيده إلى المعصية في الربا.(١) وهي دلالات متعاضدة ولا تضاد بينها، مما يدل على قوة وسعة رحابة دلالة الآية في استيعابها لتعدد المراد من غير حاجة إلى تكرار التوجيه بإعادة بناء السياق مرات متكرره. وهذا من الإعجاز البياني في القرآن العظيم. ومن فوائد هذه الدلالات أن تأويل القرآن الكريم لا يقوم به إلا العلماء الراسخون في العلم، الماهرون باللغة والعالمون بالأدلة الراجحة من المرجوحة، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، فلا يتجرأ أحدٌ على تأويل كتاب الله تعالى أو على شيء منه إلا بعلم.

وأما من عاد إلى الربا بعد هذه الموعظة التي جاءته من ربه تبارك وتعالى، وسوغ لنفسه التسوية بين البيع والربا فقد توعده الله تعالى بالخلود في النار ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فمن عاد إلى الربا بعد هذه الموعظة ببيان حكمه، وتحريمه من الله تعالى، فإنه قد استوجب العقوبة بعد أن قامت عليه الحجة. وفي هذا زجر عظيم، وتخويفٌ ووعيد مهيب من التعامل بالربا. مما يُوجب الحذر والبعد عنه. والتوبة من الربا قبل الموت، وقبل لقاء الله تعالى بشنيعة الربا. فاللهم أجرنا والمسلمين منه، ومن كل ما لا يُرضيك.

ثم بين الله تعالى صنيعه بالربا ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ فإن ربكم ينقصه ويُذهب بركته سبحانه وتعالى، وإذا انتفت البركة منه، فلا قيمة حقيقية له، ولا سعادة به لصاحبه، مهما تحققت به ومنه المكاسب التي هي في أعين الناس كبيرة، لأنها ممحوقة البركة، فلا لذة ولا متعة لصاحبها فيها، وإنما هو عناء ومشقة. بينما الصدقات على النقيض من ذلك ﴿ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ فتكثر بركتها في الدنيا، ويتضاعف أجرها في الآخرة. وفي هذا مقارنة بين نقيضين، أحدهما زيادة في عين صاحبها، وهي الربا، ولكنها نقصان في حقيقتها، والنقيض الآخر، هي الصدقات، ظاهرها نقص من المال، وحقيقتها زيادة بركتها في الدنيا، ومضاعفة أجرها في الآخرة. والربا يمثله أهل الجشع،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٣٤)

والصدقات يمثلها أهل الإيمان والسخاء. فهما أمران لا يستويان في الصورة، ولا في الأثر والمردود. وفيهما اختبار للمؤمن، أمام هذين الأمرين المتناقضين والمتضادين. فالمؤمن الحقيقي يحقق أمر الصدقة في نفسه وفعله، ويبتعد عن أمر الربا وشأنه في نفسه وفعله.

والمقارنة التناقضية، تُبين التمايز، وتُثير التفكير، وتزيد عوامل الاستفادة والتعلم، وتبين السقيم العليل من الصحيح السليم، وتحقق الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، والخير من الشر، وتُوقِف العاقل على ما يجب أن يختار ويسلك.

فهذه مقارنة تبين عظيم منهجية القرآن الكريم في استحثاث العقول بالتفكير والمقارنة، ليدرك التفاضل والتمايز في أحسن وأبلغ صوره في القرآن الكريم العظيم، الذي أنزله تبارك وتعالى على خاتم المرسلين، نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ثم تنتهي الآية الكريمة بموعظة تهز القلوب ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ فإن الله ربكم ينفي محبته لكل كَفَّارٍ أثيم، وكلمة ﴿كَفَّارٍ﴾ تعني الجحود، والنكران لنعمة الله تعالى عليه. وهي من صيغ المبالغة، وكذلك في وصفه بالأثيم للزيادة في المبالغة بإثمه وفجوره. وبيان تحصيله للإثم الذي يستوجب العقوبة. فهو كفار بجحوده لشريعة الله تعالى، وبما أنعم عليه من المال، والجشع الذي أودى به إلى عدم الامتناع عن الربا.

ونفي محبة الله تعالى تستجيش قلب المؤمن، وذلك لمحبته وشوقه أن يحبه الله تعالى. مع الخوف من كل صفة متعلقة بالكَفَّارِ الأثيم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي لا يُحب كفور القلب، أثيم القول والفعل... والمرابي لا يرضى بما قسم الله تعالى له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلومٌ آثمٌ، يأكل أموال الناس بالباطل.[1] وفي هذه الاستثارة القلبية ما يدفع المؤمن للحذر من الربا، ومن كل ما يُدْخِلُ في هذا الصنف، الذي نفى الله تعالى محبته لهم.

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٨/١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني العظيم إلى مدح عباده الذين أطاعوه، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ وفي هذا بيان المفارقة لمن أطاعه عَزَّ وجل من عباده ومن لم يطعه فعصاه. فامتدح وأثنى تبارك وتعالى على عباده الذين آمنوا، وعملوا بطاعته، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة.

وبدأ البيان الكريم بالإيمان ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ لأنه ركيزة كل عبادة، وهو منطلق الإسلام والاستسلام، وهو الركيزة لاجتناب ما نهى الله تعالى عنه، ومنه الربا، ثم ثَنَّى بالذين يعملون الصالحات ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وقد أفادت دلالة ﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الشمولية والاستقصاء لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وهي مضادة لكل المفاسد التي تُغْضِبُ الله تعالى، ومنها الربا، ثم ذكر سبحانه وتعالى الصلاة والزكاة ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وخصهما بالذكر، على الرغم من دخولهما في ﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وذلك تشريفاً لهما، وتنبيهاً لهما، ولِقَدْرِهِمَا ومنزلتهما، فكانت الثالثة الصلاة ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن أبرزها الربا. ثم الرابعة ﴿ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ والزكاة إنفاق وسخاء، وهي عبادة مناوئة للربا، الذي هو جشع وإمساك. فهؤلاء ثوابهم كما قال الله تعالى ﴿ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ فهم مُثَابُون ومأجورون، وفي أمن من الله تعالى، فينتفي عنهم الخوف مما يروعهم يوم القيامة، وكذلك ينتفي عنهم التحسر على ما حصل من نقص فيما هو مطلوب منهم. وما فاتهم من الدنيا. لأن تحسر العبد يجلب له الحزن، إذ لا يستطيع أن

يُقِيلَ عثراته ويصحح مساره. وهؤلاء الموصوفون في الآية الكريمة، ينتفي عنهم ذلك، لما قاموا به من الطاعة لله رب العالمين.

وقد ورد هذا البيان الرباني بعد عرض أمور الربا والمرابي، ليقارن العاقل الكيس بين مصيرين: أحدهما: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ والثاني: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ويستفاد من ذلك أهمية أسلوب المقارنة في التأثير والتصحيح، وتعديل الاعوجاج الفكري، من خلال قاعدته الإيمانية والتعبدية. كما هو النهج فيما سبق من آيات القرآن الحكيم.

ومن مزيد الفوائد اقتران الإيمان بعمل الصالحات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. ثم عطف الصفة الثانية عليها، وهي ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي عبادة لله تعالى بطاعته. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع. فقد جمع الله عَزَّ وجل بينهما بحرف العطف. فالذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسوله وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله عَزَّ وجل به من الفرائض وغيرها من السنن والمستحبات. فإنه بذلك يتعاضد الإيمان مع عمل الصالحات، فيشتركان في الطاعة ولامتثال بها. وسَمَّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس، ومع الله تعالى،

ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله. وهذا البيان يستحث المؤمنين على لزوم الطاعة، والمسارعة إلى كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وهو فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لأهل طاعته. كما يستحث الكفار على المسابقة إلى الدخول في الإسلام، والامتثال لدين الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن مزيد الفوائد كذلك ما يتعلق بالصلاة، حيث قال تعالى ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي الصلاة الخمس المفروضة. وقد أفادت دلالة ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أداء الصلاة وفق ما شرع لكم ربكم، وورد البيان لها بدلالة ﴿وَأَقَامُواْ﴾ الذي جمع جميع ما تقوم عليه الصلاة، من الأركان والواجبات والمستحبات، بما يفيد الإقامة الخالية من الخلل. فلا يُخِلُّوا بها، بل أقاموها إقامة ذات عناية واهتمام. مما يبين أهمية الصلاة، إذ كثيراً ما يقترن الأمر بها في القرآن بالإقامة. اللهم اجعلنا من المقيمين للصلاة على الوجه الذي يرضيك عنا.

ثم تلى ذلك قوله تعالى ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وأدُّوا الزكاة المفروضة عليهم لأهلها. وهذا من رحمة الله تعالى بالمستحقين للزكاة، إذ جعل سبحانه وتعالى في أموال الأغنياء حق واجب لهم عليهم، وليس تفضلاً. مما يغرس في الغني واجب البحث عن المستحقين، ويغرس في المستحق محبة الغني، بما أسدى إليه من المال. ليتحقق بذلك التواد والترابط والتكافل بين أفراد المجتمع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ

لَكُمْۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق القرآني الكريم مرة أخرى إلى التوجيه العلاجي لشأن الربا والمرابين، وذلك بالنصح لهم مع تقديم الاختيار الأصح والأسلم، الذي يجب أن يأخذوا به. فقال الله تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فابتدأت الآية الكريمة بصيغة النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ وهو للفت الانتباه، وليستمع وينصت المُخَاطَب لما بعدها من الكلام، حتى يستشعر أهمية ما سَيُقَالُ له من الكلام، أمراً وتحذيراً، ونهياً وتوجيهاً. ثم يخاطبهم الله تعالى بجليل الصفات، وهي صفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يا من صَدَّقتم بما جاءكم من الحق.

ومَنْ يُخَاطب بجليل الصفات، يُفْتَرَض أنه يُذْعِن لمن خاطبه وناداه، فَيُصْغِي إليه باهتمام وإذعان، فكيف والْمُخَاطِبُ هو الله تعالى. الذي ناداهم ووصَفَهُم بالصفة التي تُوجب عليهم ألا يحيدوا عن مضمون خطابه لهم تبارك وتعالى، ثم يأتي التوجيه الرباني بامتثال التقوى ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ وهاتان الكلمتان العظيمتان تعني أموراً عظيمة، تعني خافوا الله، وخافوا سلطانه، وخافوا عقابه، وخافوا قدرته، وارجوا رحمته وارجوا ثوابه، وسارعوا في طاعته بترك ما نهى عنه. فهما كلمتان متضمنتان لعظيم الوعظ من الله عَزَّ في علاه. ثم عطف عليها ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ انتهوا من الآن عن كل ما بقي من الربا. لتشمل كل ما بقي من الربا، حتى ما كان موعود به من زيادة، وما كان ناوياً عليه المرابي، فلا تأخذ شيئاً مما بقي من الربا. بل توقف وانتهي عنه. فهو أمرٌ قطعي منتهي.

ثم أورد سبحانه وتعالى الشرط الذي يتضح منه مدى صدق إيمانهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فهذا شرط يؤكد حقيقة الإيمان، فالانتهاء والإقلاع عن الربا دليل على

قوة الإيمان. وبالتالي فإن عدم الامتناع دليلٌ على إصرار المرابي. وفي قوله تعالى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ما يدل على أن الإيمان مانع للمعاصي، كما قال صلى الله عليه وسلم (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[١] فإن ضعيف الإيمان لا يتوقف عن المعاصي، لغلبة الهوى والدوافع الطلبية الشهوانية للمعصية، ولا يمنع جماحها إلا صحيح الإيمان وقوته. مما يفيد أهمية الإيمان وأهمية العناية بالتربية الإيمانية، والأخذ بأسباب كل ما يقوي الإيمان. فإنه القوة المانعة من المعاصي، خاصة الكبائر.

ثم ينتقل السياق القرآني إلى بيان حال من لم يتعظ بهذه المواعظ والتوجيهات الربانية، فقال الله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فهذا تحذير شديد لمن يستمر ويتجرأ على حدود الله تعالى، من بعد ما جاء العلم من الله تعالى بحكم الربا. فهي حرب من الله تعالى، بما تتضمنه من النكال، والعذاب، ومحق البركة، فمن ذا الذي يستطيع أن يواجه حرب الله تعالى، وحرب رسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا دليل على شناعة الربا، وأنه من أبغض المحرمات التي حرمها الله تبارك وتعالى. ودلالة كلمة ﴿ بِحَرْبٍ ﴾ عامة. لتشمل جميع مفردات ومتنوعات الحرب، التي قد لا تخطر ببال الإنسان.

وأما إن حصلت التوبة، فيكون الأمر كما قال تعالى ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ وهذا يفيد أن التوبة أولُ خطوات الإقلاع عن الربا، مما يدل على أهميتها، وذلك لما تضمنته من الأسف والندم على ما حصل، مع العزيمة الصادقة على عدم العودة للذنب، والتخلص مما هو فيه من الربا، والاكتفاء برأس المال، قال تعالى ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ فالمنهجية قائمة على أن لكم أصول أموالكم، وهي رؤوس الأموال فقط. وأما زيادة

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢٠١) برقم (٢٤٧٥)

الربا فليس لكم أن تأخذوها، فلا تُظلمُون بهذا الحكم ولا تَظلِمُون غيركم ممن تعاملتم معهم ﴿ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ فهو عدلٌ بين الطرفين المتعاملين من الله عَزَّ وجل.

وفي حالة إعسار المدين تكون القاعدة في التعامل، هو قوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ ﴾ فرد اللهُ تبارك وتعالى الدائن إلى الرفق بالمدين، وذلك بانتظاره حتى يتيسر الأمر، فأرشد تبارك وتعالى إلى الرحمة بينهما، ثم أرشد إلى ما هو خير للدائن ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ فله الخيار بين انتظاره إلى يُسر، أو التصدق عليه، بالتنازل عن الدين، فهذا خير للدائن، فبالرغم من أن ظاهره نقص لرأس المال، إلا أنه عند الله تعالى خيرٌ لهذا الذي تنازل، وعندما يقول الله تعالى ﴿ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ معناه حقيقة غير قابلة لغير ذلك الخير، فهو خيرٌ بالبركة، وخيرٌ بالعوض من الله تعالى، وخيرٌ بمحبة المدين للدائن، وبدعائه له، وبتفريج كربته، فيحصل لهذا المتنازِل خيرٌ عظيم كثير، لا يعلمه إلا الله تعالى، الذي أرشد لهذا الطريق، وبين هذا التفضيل ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ فرجح له الأخذ بخيار التَّصَدُّق.

ومن الفوائد أن ربط الله تبارك وتعالى العلم بالعمل ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ فإن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بيناه لكم من موضع الفضل في الصدقة وثوابها، وما أوجب الله ربكم من الثواب لمن وضع عن غريمه المعسر من الدين فاعملوا بما علمتم. لأن العلم يستوجب العمل به وبمقتضاه، فكيف إذا كان العلم من الله رب العالمين. وبالتالي فإن هذا يبين المنهجية العلاجية من جميع جوانبها ومتعلقاتها وأساليبها، ومراميها على الدائن والمدين، فيتحقق بها خيرٌ عظيم للفرد والمجتمع. مما يبين فضائل المعالجة في شريعة الله تعالى بين عباده.

ثم ينتهي شأن الربا في هذا الموضع بموعظة عظيمة جليلة، حيث قال جَلَّ جلاله ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ فابتدأت الآية الكريمة بالتوجيه والتذكير بأمور تستثير الألباب، وتستجيش النفوس المؤمنة، وذلك

بِتَذَكُّر العودة والرجوع إلى الله تعالى يوم الحساب والجزاء، حيث يستوفي كل أحدٍ ما له وما عليه، من دون ظلم لأحد. فهو يومٌ عدلٌ فيه الحساب والجزاء. فاللهم عاملنا بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين. وهذا يفيد أهمية الموعظة بالرجوع إلى الله تعالى، وبالبعث والحساب والجزاء، والأمر بالتقوى، فإنها مواعظ جليلة المقام وعظيمة الأثر والتأثير.

وقد تكرر نفي الظلم في هذه الاية الكريمة تأكيداً وبيانا ﴿ **وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ فلا يظلمهم الله تعالى. وقبلها قوله تعالى ﴿ **لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ** ﴾ لبيان العدل وتحقيقه في الحكم، وكل هذا استحثاث للخير وفعله، واستدفاع لاستبقاء الخير من الدنيا للآخرة. وبيان عدل الله تعالى ورحمته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾

بعد أن بين الله تبارك وتعالى في آيات عديدة وعظيمة المقام والتأثير فيما يتعلق بالصدقات والإنفاق في سبيله، وبيان ما يتعلق بالتحريم والنهي المقترن بالوعيد المخيف عن التعامل بالربا، توجه الخطاب بعد ذلك بأطول آية في كتاب الله تعالى إلى مصالح العباد في التداين، وما يتعلق به من عقود ونحوه في البيع والشراء والتداين، وغيره، فقال الله عَزَّ وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾ فابتدأت الآية الكريمة بنداء المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهو نداء من الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين، ونداء الله تعالى لعباده ليس كمثل نداء الناس بينهم، بل هو نداء يستثير الانتباه والتوقف مع التأمل، والإنصات ووجوب تتبع كلام الرحمن، وفي تسميتهم ونعتهم بالإيمان مدحٌ وثناءٌ لهم، وتقرير منه عَزَّ وجل لهم بإيمانهم، وإنها لمنزلة عظيمة كريمة، تستوجب الشكر والثناء والإصغاء للنداء وللمنادي سبحانه

وتعالى بأدب واحترام، وإذا كان هذا الأسلوب من الله العلي القدير مع عباده، فإنه يفيد أهمية ذلك بين العباد أنفسهم، من لزوم حُسن المناداة، بأن تكون بأطيب الأسماء والألقاب، وكذلك الإحسان في افتتاح الكلام، وتهيئة السامع والمخاطب للمراد من الخطاب، فإنها عوامل مؤثرة في النفس بين العباد.

ثم يقول تبارك وتعالى بعد النداء لهم بالمؤمنين ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ فأرشد الله تبارك وتعالى إلى تدوين عملية التداين وتوثيقه، من حيث المقدار ووقت السداد، وكل ما يتعلق به. وقد أرشد تبارك وتعالى بصيغة التعميم، لتستوعب كل أنواع التداين ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾ فيدخل فيه الإقراض، وأثمان البضائع، والعقارات، سواء كلها أو أجزاؤها من الأثمان المتبقية، وغير ذلك. فاستوعبت معاني ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾ كل أوجه التداين، وكذلك ﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ قد استوعبت جميع ما يتعلق بالمدة، والنوع، والعدد، والكمية، والوصف، وغير ذلك مما هو معلوم. وهذا من عظيم بلاغة القرآن المجيد في استيعاب ألفاظه لجميع مراده سبحانه وتعالى. وكذلك قد وصف وسَمَّى تبارك وتعالى زمن التقاضي واستيفاء الدين بالأجل المسمى ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فلم يحدد زمن الأجل، لا من حيث قِصَرِهِ ولا طُولِهِ، ولكن استلزم تسميته ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ومن فوائد ذلك إرشاد الله تعالى عباده إلى ما يحفظ مصالحهم، وما يحول بينهم وبين تقاطعهم وتخاصمهم، بسبب عوامل النسيان، والخوف، والموت، وجميع الأسباب التي تمزق بها العلاقات بعلة التداين. فإنها نعمة عظيمة من الله تبارك وتعالى، أن أرشد عباده لمصالحهم العامة.

ثم أوضحت وبينت الآية الكريمة محاور وعناصر المكاتبة، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ فأرشد تبارك وتعالى إلى أن يتولى كتابة كِتَابِ المداينة كاتب يكتب ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ أي بالحق في كتابته وتدوينه لعقد المداينة، بأن لا يزيد ولا ينقص في المال،

ولا في الأجل. ويُستفاد من اشتراط ﴿ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾ أهمية صفة العدل، وما تتضمنه من أمانة، وكذلك أهمية اختيار الموظفين الذين يتصفون بالعدل، لما يترتب على أدائهم من حفظ حقوق الآخرين، وأن اختيار من اتصف بالعدل واجب يلزم القيام به. ولما أن الكتابة علمٌ، ففي ذلك دلالة على أهمية العلم وفضله، وفضل من اتصف به، وأنه مع ذلك مسؤولية، يلزم صاحبها أن يكون متصفاً بما يحقق أداء عمله بكفاءة واقتدار.

وكذلك من المحاور والعناصر المتعلقة بالمكاتبة، قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ فيلزم الكاتب ألا يمتنع عن الكتابة إذا طُلِبَ منه ذلك، فكما فَضَّله الله تعالى بهذه الخصيصة من العلم، فلا يبخل بها على غيره. وهذا يفيد التقرير بأن العلم من الله تعالى ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ إذ خص عطاء العلم واكتسابه به سبحانه وتعالى. وهي نعمة قد تَفَضَّلَ اللهُ بها تبارك وتعالى على العبد، وكذلك يفيد هذا ألا يمتنع من لديه خصيصة فضل على غيره بتلك الخصيصة، بل يجب أن يستجيب، فكما أنعم الله تعالى عليه بها، فيلزمه ألا يبخل بها على غيره، وكذلك من طُلِبَ منه أداء عملٍ نافعٍ للأمة، ولا يَقْدِرُ عليه غيره، أن يستجيب لذلك، كما أنعم الله تعالى عليه بهذه الخصيصة ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ فتعليم الله تعالى له نعمة، فلا يبخل بما أنعم الله تعالى به على غيره. بل أكد الله سبحانه وتعالى ذلك على الكاتب، بقوله عَزَّ وجل ﴿ فَلْيَكْتُبْ ﴾ وهو فعل أمر وتأكيد على وجوب القيام بهذه المهمة.

ثم بين الله عَزَّ وجل متعلقات دقيقة بمن يُملي الكاتبَ مضمون كتاب المداينة ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ فالذي يُملي الكاتب مضمون الكتاب، من حيث مقدار الدين، ومدة سداد الدين، هو الذي عليه الحق. وفي تعيينه محصلة كبيرة، وذلك حتى يكون ذلك إقرارٌ منه على نفسه بما كتبه الكاتب، وبما شهد عليه الشهود. ولأنه هو المشهود عليه، وهو الْمُلْزَم بمضمون الكتاب. وأيضاً هناك محصلة كبيرة أخرى، وهي حتى ينتفي التداخل بين الطرفين في تحديد مَن الذي يُمْلِي، وفي هذا تحديد مسؤولية الإملاء، مما يُفيد إدارياً أهمية تحديد مسؤولية وصلاحية الموظف، بما

يمنع تنازع السلطة، والنظر إليها أثناء التحديد من خلال المصالح المهنية، وما تحققه من فوائد وتنظيم، وألا يُنظر إليها من حيث قوة النفوذ الشخصية، فالدائن أكثر نفوذاً، ولكن لم يُعْطَ له الإملاء، لتتحقق بذلك المصلحة الأساسية، وكذلك لينتفع الدائن بما أقر به المدين، لأن مصلحته متقررة في إقرار المدين بالمديونية، كما أن في إقرار المدين إثبات لحق الدائن، ولا يتحقق انتفاع الدائن بإقراره المديونية على المدين، لإمكانية إنكاره، أو إعلاله بعلة، فلا ينتفع هو بذلك.

ثم تضمن التوجيه الرباني الأمر بالتقوى ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ وهذا أمر للمدين بأن يتق الله تعالى فيما يُملي، من مدة سداد المدين، والمقدار أو النوع أو العدد، أو أي أمرٍ له علاقة بكتابة الدين. فكان وعْظُهُ بتقوى الله تعالى خير وأشمل موعظة له ولمثله، ولكل أحد من المسلمين. ثم عطف على الموعظة النهي عن البخس ﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ فلا يُنْقِص من الحق شيئاً، وذلك حفظاً لحق الدائن من أي نقص وبخس. وهذا يفيد أهمية التقوى في المعاملة، والحذر من بخس الحقوق، والتلاعب بالمكاتبات وحقوق الناس، ويمتد سلطان فائدة هذا التوجيه الرباني الكريم إلى التنظيم والتوظيف والعمل الإداري بعمومه، وبأهمية تحقيق مصالح الأطراف، من المستفيدين والمفيدين، أو القائمين بأعمال تحقيق مصالح الناس. وكذلك أهمية الموعظة، وأثرها البليغ في التوجيه الإداري، وأهمية استحضارها للمعنيين، من أصحاب القلم والقرارات، فإنها مسؤولية عظيمة.

ثم تعالج الآية القرآنية الكريمة مجال الاحتمالات، التي يمكن أن تكون في طرفي العقد، فقال الله عَزَّ جل ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ فأوردت الآية العظيمة احتمالات ما يمكن أن يكون عليه حال المدين، الذي عليه الحق، فقد يكون ﴿ سَفِيهًا ﴾ أي مبذراً، لا يُحسن مسك المال والتصرف بضبطه، ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أي ضعيفٌ عن الإملاء، لصغر سنه أو لكبره ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ فهذه الجملة شاملة عامة لأي عائق عن الإملاء، بعد تخصيص عائقين بالذكر، لأهمية

التنصيص والبيان لهما. كما أن هذا النص الكريم وهذه الجملة الشاملة تستوعب الخرس والجهل باللغة، أو الجهل بمواضع الصواب من الخطأ. وهذه الاحترازات تُفيد كثيراً في المجال الإداري، ولا سيما عند بناء الأنظمة واللوائح، وذلك لأهمية الانتباه للاحتمالات المتوقعة، وأخذها بعين الاعتبار، حتى لا تكون ثغرة، يختلف عليها أصحاب المصالح من الأفراد والهيئات، وهذا يدل على عمق المنهج الإسلامي في تدقيق مصالح العباد، واستيعابه لجميع مصالح الناس، بالتشريع الذي استوعب دقائق لا يفطن لها المخلوق إلا بتوفيق الله تعالى، ومن الفوائد أن كفى الله تعالى عباده مؤنة التنظيم التشريعي، بأن وضع تفاصيلها، ووضع أصولها، لتستوعب حاجات العباد على مستوى الأفراد والمجموعات، وفي المهنة، وفي الأسرة، وفي قضايا البيوع، والتأجير، وغيرها من مناشط الحياة المختلفة، فالحمد لله رب العالمين.

ثم أوجد تبارك وتعالى حلولاً لهذه الاحتمالات في موضوع كتابة العقد، فإن كان في المدين أي المديون شيئ من تلك الموانع، فقد أرشد تبارك وتعالى إلى الإنابة، فقال تعالى ﴿ **فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ** ﴾ فيقوم مقامه المُتَوَلِّي لأمره من والد أو وصي أو مترجم، ليدرأ عنه ما نقص فيه، وما قد يلحقه من ضرر، وهذا يفيد عناية الشريعة بالعباد وشؤنهم، وحفظها، ودرء كل ما يمكن أن يمس الحقوق من ظلم واستغلال لأي علة من العلل، مما يبين النهي عن استغلال الغافل والسفيه والضعيف ونحوه في كل أمر من الأمور التي تُلْحِق به ضرراً. وفيه ثبوت الولاية على القاصرين. مما يلزم الولي أن يجتهد في حفظ حقوق القاصرين ولا يفرط فيها، وأنه مسؤول عنها في الدنيا والآخرة. فهو مسؤول أمام القضاء في الدنيا، وأمام الله تبارك وتعالى في الآخرة. فلقد وَجَّهَ الله تبارك وتعالى أن يُملي بالعدل ﴿ **فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ** ﴾ وهو القسط، بحيث لا يُلحق بوليه ضرراً. ولا يُلحق بالدائن ضرراً كذلك. لأن مقتضى العدل يتطلب منع الضرر في كلا الوجهين.

ثم أرشد تبارك وتعالى إلى المزيد من التوثيق، وذلك بالشهادة على عقد المكاتبة ﴿ **وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ** ﴾ وفي دلالة ﴿ **مِن رِّجَالِكُمْ** ﴾ ووصفها برجلين، لينتفي بهذا الوصف غير البالغ من المسلمين الأحرار. وكذلك يفيد قوله تعالى ﴿ **مِن**

﴿رِّجَالِكُمْ﴾ أي اختيار رجلين منكم، فلا يكونا مجهولين، بل معروفين، بحيث يمكن احضارهما للشهادة إذا دُعوا، وفي هذا ضبط ودرء لما قد يحدث من اختيار رجلين مجهولين، يصعب استدعاؤهما للشهادة. وهذا يُفيد دقة الشريعة في الضبط، مما يفيد كذلك استصحاب هذا المنهج في تدوين الأنظمة، والانتباه، والوعي للتفاصيل الدقيقة، التي يمتنع بها الخلل، والضياع للحقوق والأداء في جميع صوره. وتعتبر هذه قاعدة في تحرير الأنظمة واللوائح الداخلة في المصالح المرسلة.

ثم يتم مزيد من الضبط والاحتراز في نوع الشهود، فيقول جَلَّ جلاله ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ وفي هذا احتراز لما قد يحصل، وكذلك توسعة في الشهادة، بأنه إذا لم يأت برجلين، فليأت برجل وامرأتين، ممن تتفقون وترضون شهادتهم، وفي هذا اتاحة الفرصة للتوافق على الشهود، درأً لما يحدث في النفوس من المشاحنات، أو الشكوك في بعض الشهود، لأي علة من العلل، فيكون التراضي عليهم أساس ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ وفي هذا عدل بين طرفي الكتابة: الدائن والمديون أو المدين. فجميع الاحتمالات التي قد لا يتنبه لها الإنسان إلا حال وقوع الأمر، فقد نبه إليها سبحانه وتعالى، وضبط أمورها بدقة متناهية. وفي هذا من الفوائد العظيمة الجليلة لجانب السياسة الشرعية، بأنه يجب تراعى المصالح المحققة لمصالح الناس، والقائمة على العدل، ونفي الظلم، ووضع الاحترازات التي يمتنع بها الخطأ أو الظلم.

ثم بين تبارك وتعالى علة المرأتين مقابل الرجل الواحد ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أن تضل عن الشهادة بالنسيان لها، أو لبعض بنودها، فتقوم الأخرى بتذكيرها بما غاب عنها. ولم يجعل الله تعالى التذكير من الرجل الشاهد للمرأة، بل جعل التذكير من المرأة للمرأة، لوجود القواسم المشتركة بينهما، حيث يمتنع بين المرأتين حواجز المخاطبة وتداول الرأي والكلام، بينما يتعذر كمال ذلك من المرأة مع الرجال، فلا تمنع الشاهدة من تبادل الحديث مع الأخرى، والمناقشة التي تؤدي بالذهن إلى التذكر. وكذلك لأن الغالب في المرأة، أنها لم تتعود ممارسة ما يمارسه الرجل من المداينات والبيع والشراء، الذي يقوي لديه بنود المفاهمات في هذا

الباب، حتى تصبح لديه من بديهيات الأمور. فكان التذكير هو علة وجود المرأة الأخرى. وهذا ينفي أي تأويل ينتقص من المرأة في إيمانها أو عقلها أو غير ذلك.

ثم يبين الله تعالى ما يجب على الشهداء ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ وهذا توجيه للشهود بأنهم إذا تم استدعاؤهم للشهادة فلا يمتنعوا. قال الحسن جمعت هذه الآية أمرين: وهما ألا تأبى الشهادة إذا دُعيت لتحصيلها، ولا إذا دُعيت إلى أدائها.[١] فلا يمتنع إذا طُلب منه أن يشهد على الكتابة والمداينة، ولا يمتنع إذا طُلب منه الاستيثاق حال نشوب خلاف ونحوه.

ثم ينتقل السياق القرآني إلى محل العقد، من حيث كثرته وقلته، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ فينهى تبارك وتعالى عن السأم، وهو الملل والسامة من كتابة وتوثيق المداينة، وفي تقديم الصغير على الكبير ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ للفت الانتباه إلى أهمية التوثيق، حتى فيما يستهين به الإنسان ويستصغره، لأن المنازعة إن كانت في الكبير، فلا تمنع أيضاً أن تكون في الصغير، ولأن التهاون غالباً ما يكون في الصغير والقليل من المداينة، استخفافاً أو تبسطاً لقيمتها، ولكن بالرغم من ذلك، فقد يدخل عامل النسيان والأوهام، أو غيرها في حق ذلك الصغير، فتكون عاقبته بين الأطراف وخيمة، وفي هذا عناية القرآن الكريم ودقته، حتى فيما يُقَدَّم ويُؤَخَّر. لأنه من العالم بما خلق سبحانه وتعالى.

كما تضمن التوجيه الرباني على تأكيد الأجل ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ وذلك بضبطه بينكم اتفاقاً وكتابة. وهذا يفيد في المجال الإداري والمهني والعقاري، أهمية الضبط الكتابي للتوجيهات بين المرؤسين، وكذا بين العاملين، حتى لا يحصل الترامي بالمسؤولية بين المسؤولين عن أدائها، من خلال درجات التكليف، وتسلسل المسؤولية، وكذلك حتى تُحفظ الحقوق، وتمنع المشاحنات الاجتماعية، ويتحقق التآلف الاجتماعي الذي هو مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية في كل

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/٢٥٧)

اجتماع وتجمع بين المسلمين. وهذا يعني أهمية أن تُولي الجهات المعنية بضبط العلاقات والصلاحيات والمسؤوليات ضبطاً كتابياً، لتحقيق المصالح ومنع المفاسد.

ثم يبين تبارك وتعالى علة كتابة المداينة في المديونية الصغيرة والكبيرة ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فالقيام بكتابة المداينة الصغيرة والكبيرة أعدل عند الله تعالى، ويشهد عليه ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: أصح وأحفظ للشهادة، فليس المستفيد من توثيق المداينة المتداينين فقط، بل يمتد نفعها للشهادة، وللشهود، لأن في توثيقها حفظ للشهادة وأعدل للشهود، وينتفي الشك والريبة بالتدوين الكتابي ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ فهذا التدوين أقرب للحفظ والإثبات، وأبعد للشك والريبة، فيكون احترازاً من أن تَشُكُّوا وترتابوا في بعضكم البعض. لأن في الشكك ما يؤدي للمنازعة.

ودلالة جملة ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ تفيد قطع أدنى وأقل ما يمكن أن يحصل من الشك والارتياب، لتحصل الطمأنينة. وهذا يفيد دقة البيان القرآني في تحقيق سلامة القلوب، وحفظ العلاقات من أقل ما يؤثر في سلامتها، فاستدرك لها منع أدنى وأقل الشك. فالشريعة الغراء حريصة كل الحرص على منع السُبُل التي تؤدي إلى المنازعة، ليتأكد بذلك تأكيد الشريعة الإسلامية على تحقيق التآلف، ومنع التنازع والمسارات التي تؤدي إليه. وكذا يفيد عنايتها بحفظ أدق الحقوق. كما يُفيد هذا أن المنهج الرباني يهتم ويُولي العناية الكاملة بكل ما يحقق التآلف، ويمنع كل ما يؤدي إلى التنازع في صوره وحالاته المختلفة. وجاء أسلوب الحث عليه بترغيب المؤمن فيما يرغب فيه سبحانه وتعالى، وألا يحيد عنه ويهمله أحد ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهذا الانضباط بما بينه العزيز الحكيم أعدل عند الله تعالى، وأنقى من وقوع الظلم والتظالم.

ولما أن الأحوال قد تقتضي صعوبة تحقيق ذلك في التجارة السريعة بين الناس، فقد استثنى تبارك وتعالى ما نصت عليه الآية الحكيمة الكريمة ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي إذا كان البيع يداً بيد، فلا بأس بعدم الكتابة، لانتفاء المحذور في

تركها.[١] ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ فنفى سبحانه وتعالى الإثم في عدم كتابتها، لأن ليس فيها مداينة، بل هي مقابضة يداً بيد. ومعنى ﴿ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ أي تقبضونها يداً بيد. وهذا من الإعجاز البياني في دقته، واستيعابه لجميع أوجه التقابض. مما يبين أنه كتاب الله تعالى، والذي يعجز أن يأتي بمثله الثقلين من الإنس والجن، ولو اجتمعوا.

ثم تتناول الآية الكريمة أمر البيع والإشهاد عليه ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ فيأمر الله تعالى في باب البيع الإشهاد عليه. وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب.[٢] وهنا تأتي فائدة عن الجهود الفقهية، التي تفتقت عنها عقول العلماء، وذلك بالجمع بين النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية، والتي منها أفعال النبي صلى الله عليه وسلم، فخرجوا بهذا الحكم الفقهي، من أن الأمر ليس للوجوب بل للندب، لما في دلالة الحديث النبوي الشريف على ذلك. ولا شك أن هذا الفقه فتق العقول، وأخرجها من العمومية في التفكير إلى العمق في التدبر والتفكير والإمعان، ومن يستطلع المضامين والأحكام الفقهية لهذه الآية، ينبهر من دقة فهم وتَفَهُم اللفظة من القرآن الكريم والسنة النبوية، بل وربط الضمير في الجملة بكل الأوجه المحتملة، وتقليب الدلالات واستيعابها، ومراميها ومرادها، ليخرج المتأمل من أن هذا القرآن الكريم قد نقل علماؤه من عموم الفهم إلى دقة الاستنتاج والاستنباط.

كمثل فهمهم وتقليبهم لأوجه هذا النص من القرآن الكريم ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ فالمعنى الأول: لا يكتب الكاتب ما لم يملى عليه، ولا يزيد الشاهد في شهادته، ولا يُنقص منها. والمعنى الثاني: لا يمتنع الكاتب أن يكتب، ولا يمتنع الشاهد أن يشهد. والثالث: بأن يُدعى الشاهد إلى الشهادة، والكاتب إلى الكتابة، وهما مشغولان، فإذا اعتذرا، أخرجهما وآذاهما، بقوله: خالفتما أمر الله تعالى، ونحو هذا من القول. فيضر بهما.[٣] فهذه فائدة في كيفية تقليب أوجه الاحتمالات جميعها. بصور ودلالات معتبرة، وهذا يفيد أن النص القرآني قد يستوعب أكثر من مراد في كلمة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤٤/١)

(٢)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤٤/١)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٦١/٣ ـ ٢٦٢)

أو جملة واحدة، لبلاغته العظيمة. وكلها تحقق مراداً دقيقاً متقارباً ومتوافقاً لا متضاداً، وما أكثر ما مر ويمر من هذا في آيات القرآن العظيم. مما يدل على أن كتاب الله عَزَّ وجل يجمع أوجه متعددة، ولكن في تظافر وتعاضد، يستوفي بها البيان جميع متعلقاته التي هو بصددها.

ثم تنتهي الآية الحكيمة العظيمة بموعظة جليلة، قال تعالى ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ﴾ أي إن خالفتم ما أُمرتُم به، أو فعلتم ما نُهيتُم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم، لا تحيدون عنه، ولا تنفكون عنه.[١] والفسوق خروج عن الطاعة. وهذا بلا شك تحذير من مخالفة أمر الله تعالى ونهيه، وأنه يجب أخذه مأخذ الجد والاهتام ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره، واتركوا ما زجر عنه ونهى. ثم يقول تبارك وتعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يعلمكم مصالح أموركم. مما يفيد أن الله تعالى هو الذي عَلَّمَ عباده هذا العلم المنصوص عليه، وكذلك هو الذي يُعَلِّم سائر العلوم النافعة، وهو الذي يُعَلِّمُ عباده ما يحتاجونه في حاضرهم ومستقبلهم، بهدايتهم إليه، وتيسير وصولهم إليه كذلك، مما يستوجب الشكر له تبارك وتعالى، والتزام التقوى لما سبق من الفضل ولعلم، ولمزيد العطاء من فضل الله تبارك وتعالى وعلمه وبركاته وهدايته ورحمته. فإن التقوى وسيلة وسببٌ في حصول العلم. ثم يقول تعالى ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فهو عليم بعباده وبكل شيء، فلا تخفى عليه خافية، وهو ما انتهت الآية العظيمة ببيانه ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فإن ربكم الله سبحانه وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً. فلا يغيب عن علمه شيء أبداً، فعلمه عَزَّ وجل قد أحاط بالشيء قبل حدوثه وأثناء حدوثه وبعد حدوثه. فإن ربكم بكل ما خلق عليم، وبكل ما يدور بينكم عليم، فراقبوه وخافوه. فاستوفى علمه عَزَّ وجل الإحاطة التامة بكل شيء، فاستقصى كل حدث، وكل أمر، وكل قول، وكل فعل، وكل حركة، وكل علة، وكل سبب، وجميع ما في الضمائر، وما أخفته الصدور، وما توسوس به النفوس.

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٤٤)

وأن كل ما يخفى على المخلوقين فإنه لا يخفى على الله عَزَّ وجل. فهي دلالة قد استقصت وأحاطت كل شيء بالعلم، واستوفته بالمعرفة التامة، والقدرة الكاملة. فسبحان الله العظيم العليم.

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾

ثم انتقل التوجيه الكريم من رب العالمين إلى حالة أخرى من أحوال ما يكون عليه البائع والمشتري، فقال تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ وهذه حالة من الحالات التي يمكن أن يكون عليها المتبايعان، وهي السفر. وفي هذا من الفوائد استقصاء القرآن الكريم والتوجيهات الربانية للحالات والأوجه التي تؤكد أن هذا لا يمكن أن يكون بدقته إلا وحيٌ يُوحَى من رب العالمين، إذ استوعب وشمل التوقع بما يمكن أن يكون عليه حال المتبايعان، وما يمكن أن يتعذر عليهم فيه ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾ فهذا احتمال قد يقع، فاسْتَوْعَبَهُ القرآنُ الكريم بتوجيه رب العالمين، وسواء حصلت المبايعة بالتداين في كله أو بعضه، مع تعذر الكاتب أو الأدوات التي يلزم بها الكتابة، كالورق والقلم. فأرشد الله تبارك وتعالى عباده إلى الرهن، فقال تعالى ﴿ فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ فعوضاً عن الكتابة، يكون الرهن، بأن يُعطى صاحب الحق ما يقبضه من الرهن. وهذا تضمين وضمان لصاحب الحق، بما أعطى من المبيع للمشتري، الذي هو المتدين أو المدين. وهذا يفيد دقة التشريع في معالجة قضايا البيع، لأهميته في حياة الناس، ولإمكانية وقوعه في أحوال الإقامة والسفر، وأيضاً حالة تعذر جميع الثمن أو بعضه، وافتقاد حالة التوثيق الكتابي لأي علة من العلل، التي يمكن أن تكون. فلا تتوقف مصلحة البائع والمشتري، بل تتحقق بما يضمن حقوق صاحب الحق.

ثم يوجه الله تعالى بالاستثناء من ذلك، بقوله سبحانه وتعالى ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ وهنا وجود حالة الأمن والأمان بين الطرفين، ولِمُتَعَزِّزةُ بالثقة، فأباح لطرفي البيع والشراء

ألا يُكتب بينهما كتاب، ولا رهن يُرتهن، ووجَّه طرفي المبايعة للوفاء ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ فوجه المدين أن يؤدي الدين الذي عليه للدائن. وهنا سمى الله تعالى المشتري أي المدين أو المديون بالمؤتمن ﴿ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾ الذي استأمنه الْمُؤَمِّن، الذي هو البائع، صاحب الحق. وهو فعل لم يُذكر فاعله ليعم به كل مُؤتمن وفي كل شأن. وسَمَّى الله تبارك وتعالى الدين أمانة ﴿أَمَٰنَتَهُۥ﴾ فليس هناك أبلغ من هذه التسمية التي تستحث دلالاتها على الأداء، مقابل استئمان المؤمِّن لهذا الْمُؤتمَن، فكأنه لا يليق بالمؤتمن إلا أداء ما استأمنه عليه الْمُؤَمِّن.

ثم أمره بالتقوى ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ فليتق الله في أداء الدين. وجمع الله تعالى في أمره للمُخَاطَب بين لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ وأيضاً أنه ﴿رَبَّهُۥ﴾ والرب هو المالك، فليتق الله الذي يملكه ويملك أمره وشأنه، وليحذر من ألا يكون كما أمره رَبُّه تبارك وتعالى. فإنها دقة بيانية ووعظية غاية في التأثير. فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، وعلم القرآن العظيم، ونعمة التعلم، وكل نعمة أنعم بها، ظاهرة وباطنة.

ثم يكتمل الوعظ في هذه الآية بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ النهي عن كتمان الشاهد للشهادة، بإخفائها أو الامتناع عنها، ليكتم مضمونها، فإن من يكتمها موصوف ومحكوم عليه بما قاله تبارك وتعالى ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ قال السدي: يعني فاجرٌ قلبُه.[1] فهو موصوف بالفجور، وتخصيص القلب بذلك لأنه مُرتَكَز الأمانة، فهي نابعة منه، أو ضعيفة ومُختَفِيةٌ منه. وفي هذا دلالة على أن ضياع أمانة الشهادة وغيرها من القلب هو دليل فجوره وعدم تقواه، بينما أداء أمانة الشهادة وغيرها، دليل على تقوى القلب، الذي هو بيت الأمانة ومركزها في الإنسان.

---

(١)ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤٥/١)

ثم نوهت الموعظة إلى كمال علم الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم بكل ما تعملون عليم به، فلا يفوته شيء منه. فلا يخفى عليه عَزَّ وجل شيء من عمل ابن آدم وغيره من خلقه، مما يوجب الحذر من أن يعلم الله تعالى عن الْمُخَاطَبِ شراً وإثماً. وهذا يُفيد أهمية استشعار المرءُ لعلم الله تعالى بحاله، وما هو عليه من خير أو شر، فإن ذلك يُوجب له الطاعة، والبُعد عن المعصية، وإذا حَدَّثَتْهُ نفسه بمخالفة تذكر علم الله تعالى له.

وقول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ قاعدة ضابطة للسلوك، فإن حَدَّثَته نفسُه بمعصية، قال لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وإن عزم على التقصير، قال لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وإن هَمَّ بخير استقوى على نفسه، وتَشَجَّعَ على إتمامه بقوله ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وإن تردد في خير، تشجع بقوله لنفسه ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وإن رأى مقصراً أو متجاوزاً وعظه بقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فتكون قاعدة ضابطة ودافعة للخير، ومانعة من المعصية بإذن الله تعالى وتوفيقه.

وفي هذه العناية الربانية بقضية البيع والمداينة ما يفيد ويدل على فضل البيع والشراء، والسعي في مناكب الأرض، والتشجيع عليها، حيث عقد الله تعالى للمداينة فيها بأطول آية في كتابه القرآن العظيم. لما فيها من المنافع والمصالح المتعدية بين العباد، وانتفاع بعضهم ببعض، بل ومجال للتعارف والصداقات والصدقات التي يحبها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكذا فيها ما يدل على أهمية العمل وذم البطالة، وأن منهج الإسلام يحقق توظيف القدرات البشرية في تحقيق المصالح، ويضبطها بتنظيمه وأحكامه الدقيقة الجليلة، الدالة على ذلك، إذ اشتملت أطول آية في أطول سورة في كتاب الله تعالى على قضايا البيع والشراء والمداينة والرهن في الحضر والسفر. فالحمد لله رب العالمين.

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ
يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
(٢٨٤) ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
ٱلْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا
لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ
أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٨٦) ﴾

ينتقل السياق في هذه السورة المباركة إلى بيان أن الْمُلك لله وحده لا شريك له، عَزَّ وجل، وبيان قضايا الإيمان والمغفرة والإنعام. فيقول جَلَّ جلاله ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إثبات وبيان من الله تعالى أن له مُلْكُ السماوات والأرض وما فيها وما بينها خلقاً وملكاً وتصريفاً وعلماً وإحاطة، بل حتى ما يُبطن الإنسان وما يخفيه في قلبه، أو يتكتم به عن الناس، أو يُظهره علانية، فإنه يعلمه ويحيط به ويُحاسب عليه سبحانه وتعالى، فقال تبارك وتعالى، العليم الحكيم ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ وفي هذا إثبات كمال علم الله تعالى، وإثبات الحساب، وبالتالي إثبات اليوم الآخر، وإثبات كمال ملكه عَزَّ في علاه، وأنه الخالق عَزَّ وجل، وأنه المتصرف، وأنه العالم الذي لا يخفى عليه سِرٌّ من أسرار خلقه تبارك وتعالى. فيعلم ما يُبطن المنافق الذي يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر، ويعلم من كانت نيته سيئة في أداء عمل صالح، ويعلم من يعمل عملاً صالحاً وهو يريد به الرياء والسمعة، ومن نوى بقلبه طاعة وما استطاع أن يقوم بها، ومن نوى ألا يُؤدي طاعة، وفوتها بالأسباب، كالذي ينام وهو مبيت النية أن لا نية له في أداء الصلاة في وقتها، وبالتالي لا يخفى على الله تعالى من أَسَرَّ في

نفسه سريرة طيبة أو فاسدة. وبهذا يتأكد للمؤمن أنه عبدٌ ومُلكٌ لله تعالى، وأن ما يملكه من أشياء، وأمور، ما هي إلا مُلك تصرف، لأنه تاركها خلفه إن لم تتركه وتزول عنه، بل ويعجز عن تدبيرها كيفما يشاء، ليدفع عنها الجوائح والشرور والخسائر إلا بتدبير مالكها الحقيقي سبحانه وتعالى، الحكيم العليم، وهذا يُثبت لكل أحدٍ أنه وما يملكه وينتفع به مفتقرٌ للمالك الحقيقي سبحانه وتعالى، مما يلزم طاعته والبعد عن معصيته، وسؤاله والاستعانة به، والتوكل عليه.

ثم تضمنت الآية الكريمة أن العفو والمغفرة مُلْكٌ لله تعالى ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ فله حق المغفرة لمن يشاء من عباده، وله حق العقاب لمن يشاء من عباده، فلا مُعَقِّب لحكمه، وأنه قادر على كل شيء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ وفي هذا اثبات المغفرة من الله تعالى، وأن العبد مهما كان منه من ذنب فإن الله تعالى يغفره إذا أراد ذلك، فهو على كل شيء قدير. مما يستدعي ويستثير المؤمن نحو طلب المغفرة من الله تعالى. وألا ييأس مهما بلغت به الذنوب والمعاصي، طالما أن الله تعالى يغفر لمن يشاء.

وفي قوله تعالى ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ إثبات أن الاختيار له سبحانه وتعالى، مما يضبط سلوك العبد، لأنه لا يعلم أهو ممن شاء الله تعالى له المغفرة، أو ممن لم يغفر له ذنوبه، فيسعى حثيثاً للطاعة والاستغفار، والبعد عن المعاصي والسيئات. حتى لا يتمادى في عصيانه، ولكن يُغلب المغفرة والرحمة من الله تعالى، لما دلت عليه نصوص الشريعة الغراء، مثل ما جاء في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني.)[١] مما يستوجب على المؤمن تغليب الظن والأمل في مغفرة الله تعالى، ولا يتمادى في المعصية خوفاً من أن لا تناله مشيئة الله تعالى، وهذا مما يضبط التوازن عند المؤمن فيأمل ولا يتجرأ.

وكان لنزول هذه الآية الكريمة وقعٌ على الصحابة رضي الله تعالى عنهم، لما فيها من محاسبة الله تعالى على ما في النفس، يقول أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: لما نزلت على رسول الله صلى

(١) البخاري (٣٨٤/٤) برقم (٧٤٠٥)

الله عليه وسلم ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم جثوا على الرُّكَب. وقالوا: كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق، والصلاة والصيام والزكاة والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية، ولا نُطيقُها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا. بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما أقر بها القوم، وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله تعالى في أثرها هاتين الآيتين ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾[1] ثم انتهت الآية الكريمة ببيان قدرة الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ فقدرته لا حصر لها، فهي على كل شيء، بما يبين عظمة الله تعالى وكمال قدرته ومشيئته وعظيم سلطانه سبحانه وتعالى.

فكانت هاتين الآيتين طمأنينة، حيث قال الله تعالى فيها ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ فأثبت تبارك وتعالى مشاركة المؤمنين بما آمن وصدَّق به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا تشريف للمؤمنين في مشاركة نبيهم فيما آمن وصدَّق به. وفيه عناية من الله تبارك وتعالى بعباده المؤمنين، فأزاح عنهم غُمَّة ما كانوا يشعرون به. فقد آمنوا بكل ما أنزله الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ وهذا إثبات لإيمانهم، ولما يجب أن يؤمن به كل مسلم، وكل من أراد أن يدخل في الإسلام. ﴿ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ﴾ فهذا حال المؤمن السمع والطاعة لله تعالى

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم (١/٣٤٥ _ ٣٤٦)

ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يُنازع ولا يقدم أمراً أو نهياً لله تعالى برأي أو ذوق أو غير ذلك، بل يقول لكل شريعة الله تعالى ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ فتكون ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ قاعدة للمسلم، فإن وسوسة نفسه بشيء في أوامر الله تعالى، قال ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ وإن وسوس له وسواس من الإنس والجان، قال ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ وإن سمع ما ينافي كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، استعاذ، وقال ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ وإن تنازع أناس في شريعة الله تعالى، انتصر لله تعالى، بقوله ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ فتكون قوة يتقوى بها المؤمن على كل ما يخالف شريعة الله تعالى.

وكذلك يقول المؤمن ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فيطلب من الله تعالى المغفرة على ما حصل من ذنب وتقصير، ومعترفاً ومؤمناً بأن المصير إلى الله تعالى، وهي قوة لمن يتذكرها. فكلما استشعر التقصير من نفسه، قال ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وإن حصل ذنب تذكر، فقال ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فهي اعتراف وتصديق وقوة للمؤمن، وعلاج لِمَا قد يكون منه.

ثم يقول تبارك وتعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ فمن رحمته سبحانه وتعالى أنه لم تكن في الشريعة ما يشق على النفس، ولا بما لا تتسع له القدرة البشرية، ومن رحمته أنه رَخَّص لكل حال من أحوال العباد بما يتوافق ويتناسب مع تغير وتقلب أحوالهم، فرخص للمريض مثلاً: الإفطار في رمضان ثم القضاء، ورخص للعاجز عن الصلاة قائماً، أن يُصلي جالساً، وجعل ربع العشر للزكاة. وللساهي في الصلاة سجود السهو. فمن رحمته تبارك وتعالى لم يُكلف ولم يُلزم أحداً إلا بما تتسع له طاقته وقدرته. وهو عالم بسعة كل أحد من خلقه، فيعرف سعة وقدرة المريض على ما يمكن أن يقوم به، وكذلك صاحب المال والفقير، والخائف والآمن، فيعلم الله تعالى حال كل أحدٍ من عباده على ما يمكن أن يقوم به من أمر في طاعته، فيما افترضه أو ندب إليه، وكذلك يعلم على أي حال يمكن أن يقوم بها، فلا يخفى عليه شيء عَزَّ وجل. ثم قال سبحانه وتعالى

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ وهذا يفيد أن للإنسان ما كسب من الخير، ويُثاب عليه، وأيضاً عليه ما كسب من الإثم، ويُحاسب ويجازى عليه. فامتنع الظلم منه سبحانه وتعالى البتة. وإذا علم الإنسان بذلك استوجب عليه التحرز لنفسه من الإثم، والاجتهاد في فعل الخيرات.

ومن الفوائد أن الله تعالى لم يذكر في الكسب لفظة الخير أو الإثم ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ لأن الاكتساب إما أن يكون خيراً لصاحبه، فتكون النتيجة له. وإما أن يكون إثماً، فتكون نتيجته عليه، فلم يكن هناك داعياً لذكر الخير والإثم، بالتنصيص عليهما، وهذا من دقة وجمال البيان القرآني. إذ استغنى عَمَّا ليس له حاجة من الألفاظ.

ثم أرشد الله تعالى المؤمنين إلى الدعاء الجامع ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وهو طلب العفو عن إثم ما يقع، بسبب النسيان والخطأ، وهذا من لطفه تبارك وتعالى، لأن الإنسان لا يخلو من ارتكاب الأخطاء، والتَّعَرّض للنسيان الذي يُفَوّت عليه الطاعة، ويَقْصُرُ به عن السباق في الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى، فأرشده المولى عَزَّ وجل إلى طلب المغفرة منه جَلَّ جلاله. ثم سؤال اللهَ تعالى التخفيف من إصر التكاليف ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ فلا تحمل علينا يا ربنا ما يَثْقُلُ ويصعب علينا، كما كان على الأمم الماضية فيما فُرض عليهم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ فلا تحمل علينا من التكاليف الشاقة، والمصائب والبلاء، فلا تبتلينا بما لا قِبَلَ لنا به، ولا طاقة لنا عليه. وهذا دعاء عظيم، بأن يدفع الله تعالى به كل بلاء ومصيبة.

وفي تعليم ربنا تبارك وتعالى لعباده المؤمنين هذا الدعاء العظيم، ما يدل على رحمته، وأنه ما أراد بعباده مشقة، ولا بلاء ولا أذى، وأنه يحب الدعاء من عباده له سبحانه وتعالى، وكذلك سؤاله والتضرع إليه. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ وفي قوله ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي عن

ذنوبنا، ولا تعاقبنا عليها[١] ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ والغفر أي: الستر. والمغفرة: ستر الذنوب[٢] والمغفرة من الله تعالى أن يصون العبد من أن يمسه العذاب[٣] وهي إزالة الذنب ومحوه عن المذنب ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي: أحسن وأنعم وتفضل علينا، وكذلك لا تجعلنا بتوفيقك نقع في ذنب آخر. ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا يا ربنا وخالقنا ومدبرنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي فانصرنا على الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم. واجعل العاقبة لنا عليهم في الدنيا والآخرة[٤] وفي هذا إثبات أن الله تعالى هو العفو، الذي يعفو، وأنه هو الذي يُطلب منه العفو لا من غيره، وأنه هو الغفور، الذي يغفر فَتُطْلَب منه المغفرة، وهو الرحمن، الذي يرحم، وتُطلب منه الرحمة، وهو الذي ينصر، فيُطلب منه النصر في كل أمر.

وفي هذا من الفوائد: تعليم جوامع الدعاء، والهداية إليه، وأن من رحمة الله تعالى بعباده أن علمهم كيف يدعون بجوامع وأحسن الدعاء وأكمله، لخير الدنيا والآخرة. ومن فوائد هاتين الآيتين قوله صلى الله عليه وسلم (الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأهما في ليلة كفتاه)[٥] وقال صلى الله عليه وسلم (أُعطيت خواتيم سورة البقرة، من بيت كنز من تحت العرش، لم يُعْطَهُنَّ نبي قبلي)[٦] وقال صلى الله عليه وسلم (ولا يُقْرَآنِ في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان)[٧] فالحمد لله على هذا الإنعام العظيم من رب العالمين.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٣٠٨/١)

(٢) المرجع السابق (٣٠٨/١)

(٣) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (٣٦٢)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٥١/١)

(٥) البخاري، الجامع الصحيح (٩٣/٣) برقم (٤٠٠٨)

(٦) أحمد، المسند (٢٧٤/٣٥ – ٢٧٥) برقم (٢١٣٤٥)

(٧) الترمذي، جامع الترمذي (١٤٧/٥) برقم (٢٨٨٢)

فتم بحمد الله إتمام ما يتعلق بسورة البقرة، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم.